المملكة العربية السعودية
الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة
قسم الدراسات العليا
شعبة الدعوة

٢١٦٧٧
الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة
عمادة شؤون المكتبات - قسم الإعارة
٢٨٨
رقم التسجيل الخاص
١٤ هـ
لتاريخ

الدَّعْوَةُ إِلَى اللهِ

فِي سُورَةِ إِبْرَاهِيمَ الخَلِيلِ

إعداد الطالب:
محمد بن سيدي بن الحبيب

لنيل شهادة العالمية "الماجستير"

إشراف فضيلة الدكتور:
أبو المجد السيد نوفل

عام ١٤٠٠ - ١٤٠١ هـ

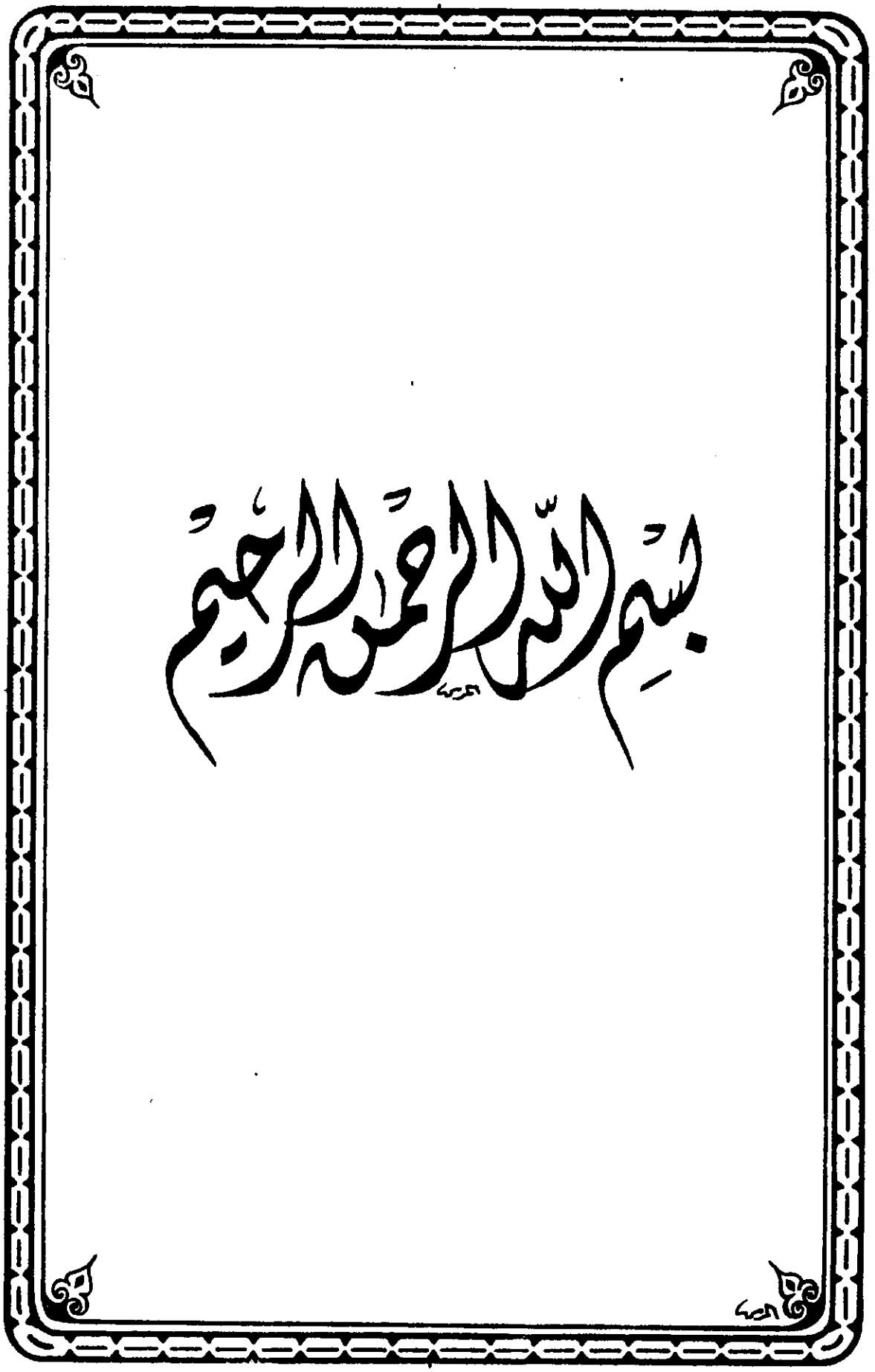
بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

«ومن أحسن قولا ممن دعا إلى
الله وعمل صالحا وقال إنني
من المسلمين

آية ٣٣ سورة فصلت

١٦٣
ر.ص

(أ)

((شكـر وتقديـر))

هذا وان أحمد الله الذى لا اله الا هو على جميع نعمه علـى التى من جملتها دراستى لعلوم الشريعة الاسلامية .

واعترافا بالفضل والاحسان أتقدم بعظيم الشكر الخالص وبالغ التقدير الكامل لفضيلة الأستاذ الشرف الدكتور / (أبو المجد السيد نوفل) على ما قدمه لى من المعونة والرعاية الشاملة اذ وفر لى من وقته الخاص براحته ما يعادل الوقت المقرر لى من قبل قسم الدراسات بالجامعة الاسلامية مع رحابه الصدر والتوجيهات القيمة والاخلاص فقد وجدت منه عناية شاملة أعانتنى على انجاز هذه الرسالة فى الوقت المناسب .

كما أتقدم بالشكر للمسئولين عن الجامعة الاسلامية عموما والمسؤليـن عن قسم الدراسات العليا خصوصا على ما هيئوه لى من مساعدات عظيمة

كما أتقدم بالشكر لجميع المشايخ وكل من ساعدنى بتوجيهات وآراء سديدة .

وأتقدم بالشكر للقائمين بشئون المكتبات على ما لقيت منهم من مساعـدة فى الحصول على المراجع دون تعب وأخص بالشكر الأخ / مصطفى عبد الجليل أمين مكتبة الدراسات العليا بالجامعة الاسلامية على ما بذله لى مـن

الجهود العظيمة كما بذله لغيرى فى الحصول على أى كتاب دون أى تعب .

والله أرجو أن يجزى عنى جميع من أعاننى وأحسن الى أحسن الجزاء ، وأن يجزى مشايخى خيرا انه على ما يشاء قدير .

(محمد بن سيدى الحبيب)

==========
=======
===

((بسم الله الرحمن الرحيم))

" المقدمـــة "

الحمد لله الذى أظهر دين الاسلام على كل دين ، وأنـــزل القرآن على خاتم الانبياء والمرسلين ، فرفع به قوما ووضع به آخريـــن فمن اتبع هداه كان من السعداء ، ومن أعرض عنه كان من الاشقيـــاء وأشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له اله الأولين والأخريـــن وأشهد أن محمدا عبده ورسوله الذى اصطفاه وجعله سيد أولاد آدم أجمعين ، أرسله ليكون رحمة للعالمين ، فبين للناس ما نزل اليهـــم أتم بيان ، وأخرجهم من ظلمات الكفر الى نور الايمان ، ورسم للعباد دستور الحياة مدى الزمان .

اللهم صل عليه وعلى آله وصحبه ومن تبعهم باحسان .

وبعد :-

فقد كان من توفيق الله لى أن هيأ لى أسباب الالتحاق بقســـم الدراسات العليا بالجامعة الاسلامية بالمدينة المنورة بشعبة الدعوة وكان من اللازم اختيار موضوع لرسالة التخصص فى الدعوة (الماجستير) فوقع اختيارى على موضوع : (الدعوة الى الله فى سورة ابراهيم الخليل) فرأيت ذلك الموضوع مناسبا لعدة أسباب

أولا :- أن القرآن كله دعوة الى الله تعالى لأن الدعوة الى امتثال أوامره دعوة الى الله تعالى .

والدعوة الى اجتناب نواهيه ، والى تحريم ما حرمه ، والى اجلال ما أحله والى اتباع ما رسمه من العقيدة والشريعة ، والى تدبر ما فيه من الوعد والوعيد . كل هذا دعوة الى الله عز وجل . فجمع أساليب القرآن من خبر وطلب لا تخلو عن دعوة الى الله .

ثانيا :- أن سورة ابراهيم التي اخترتها موضوعا لبحثي قد اشتملت على كثير من أهداف الدعوة الى الله وأساليبها ووسائلها . كما اشتملت على ذكر عدد من الرسل وأممهم وما جرى بينهم في الدعوة مثل نوح ، وهود ، وصالح ، وموسى عليهم صلوات الله وسلامه ورسل الله هم سلفنا في الدعوة اليه .

وفيها ما يفيد عموم رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، وخصوصية دعوات الانبياء السابقة على دعوة الاسلام .

ثالثا :- أنني من خريجي كلية القرآن الكريم والدراسات الاسلامية بالجامعة الاسلامية . ووجهت عند الالتحاق بالقسم الى شعبة التفسير ، وكان من قضاء الله أن الدكتور (مصطفى أبو زيد) الذي كان رئيسا لشعبة التفسير توفي قبل البدء في السنة التحضيرية

بقليل فأضطرت الجامعة الى اغلاق شعبة التفسير اغلاقا موقتا واحلتم الى شعبة الدعوة اذ هى أقرب الى التفسير ، ولقد كنت من صغرى مولعا بعلم التفسير والاطلاع على أقوال العلماء حول فهمهم لكتاب الله ، وقد سبق أن تقدمت لى دراسة لبعض كتب التفسير ، فمن هنا كان لزاما على أن أختار موضوعا يشترك فيه التفسير مع الدعوة ولم يكن دخولى فى موضوع الدعوة فى هذه السورة دخول المفسر الذى يبحث عن معانى الالفاظ واعرابها وتراكيبها والتنبيه على النكت البلاغية ، والبحث عن الاحكام الفقهية واستنباطها ... الخ

وانما كان دخولى فى هذا الموضوع دخول الداعية الذى يلتمس من القرآن مناهج وأساليب ووسائل وتوجيهات لدعوته .

وباطلاعى على الكتب المؤلفة فى الدعوة لم أجد بعض الموضوعات التى تطرقت لها فى هذه الرسالة قد عولجت العلاج الحاسم

مثل : موضوع عموم رسالة نبينا صلى الله عليه وسلم من حيث دخول الملائكة والجن ويأجوج ومأجوج فيها بيد أنى لطول الموضاعات حاولت الايجاز غير المخل ما أمكننى ذلك .

ومن أسباب اختيارى لسورة ابراهيم من بين سور القرآن كلها ، والقرآن كله كلام الله ، وكله دعوة الى الله لأنها تعرضت صراحة لعالمية دعوة الاسلام فى مطلعها وفى مختتمها .

ففى مطلعها أخبر نبيه أنه أنزل عليه القرآن ليخرج به الناس على النور من الظلمات الى النور، وفى ختامها أخبر الله أن القرآن بلاغ للناس كلهم وانذار لهم ، هذا مع ما فيها من الحث على العقيدة السليمة ، وبيان المنهج السليم الموصل الى الايمان الحق حيث بينت ضرورة النظر الى مخلوقات الله تعالى للتوصل بذلك الى الايمان بوجود الصانع

وأيضا لأنها سورة ابراهيم الخليل وهو هو ذللكم النبى الذى كان له الباع المتسع والجهد الجبار فى الدعوة الى الله حيث دعا اليه بالقول والعمل والمنطق والتجربة ، وقد استعمل معظم أساليب الدعوة ومناهجها ، من اسلوب الترغيب والترهيب والمحاجة والحوار والاستدراج وذلك أثناء مواجهته عقائد وثنية ، وصابئة ، وحكاما ظلمه ، وأجناسا مختلفة ، وشعوبا متباينة . . .

دعا الى الله متنقلا ، ومقيما ، ومهاجرا ، وفى كل حال من أحواله كان دعوة مجسمة حية متحركة .

ولقد كان فى القائه فى النار واخرا منها سليما دعوة الى الايمان بالله حيث حفظه من النار فهذا دعوة الى الايمان برب ابراهيم من أعظم الدعوات ، وفى محاجته للنمرود ، وانتصاره واظهار الحق وابطال

الباطل ، وابتلائه بالأمر بذبح ولده وبنائه قبلة المسلمين الى أن يرث الله الارض ومن عليها كل هذا أمور عملية : الهدف من ورائها امتثال أوامر الله والتوكل عليه وكل ذلك دعوة الى الله ، والله قد جعل سورة ابراهيم بلاغا للناس وانذارا لهم ووسيلة لدفعهم الى سواء السبيل . ومن هنا كانت موضوعا لرسالتى .

وكان منهجى فى هذه الرسالة كالاتى :-

أبين معنى الآية التى أذكرها أو الآيات على سبيل الاجمال ، ثم تفسيرها تفسيرا مفصلا مع عرض آراء العلماء فيها لاستنباط الدعوة منها وترجيح بعضها على بعض اذا اختلفت ودعت الحاجت ما أمكننى ذلك مرجحا بالأدلة دون تعصب أو تحيز الى طائفة معينة ثم أذكر ما فى الآية أو الآيات من الدعوة الى الله تعالى من أساليب ومناهج وأهداف .

كما أننى التزمت فى هذه الرسالة أن أكتب الآيات القرآنية وفق رسم المصحف العثمانى وأبين مواقعها من سور القرآن بالترقيم كما التزمت فى منهجى تخريج الأحاديث التى ذكرتها دليلا على مسألة أريد الاستدلال عليها بالسنة ، وربما تركت بعض الآثار التى ترد أثناء كلام -

بعض المفسرين كابن جرير والقرطبى لأنى أجعلها من جملة التفسير ، وقد حاولت أن يكون غالب ما ذكرته من الأحاديث فى الصحيحين أو ـ أحدهما ولم أستقص المواضع التى خرج فيها الشيخان الحديث بل ربما اكتفيت بموضع أو موضعين منها ، واذا كان الحديث خرجه الشيخان وغيرهما فانى أكتفى بعزوه اليهما غالبا ، وربما ذكرت رواية أحمد له . أما خطتى فى البحث فهى كالآتى :

قسمت هذه الرسالة الى مقدمة ، وتمهيد ، وأربعة أبواب ، وخاتمة وتشتمل المقدمة على سبب اختيارى لموضوع الرسالة دون غيره من المواضيع .

ويشتمل التمهيد على دور الرسل صلوات الله عليهم فى الدعوة الى الله وأنهم الأسوة الحسنة لكل داع ، وأن الرسل انما ورثوا العلم والواجب على العلماء أن يأخذوا بحظهم من هذا الميراث .

ويشتمل الباب الأول على ثلاثة فصول :

الفصل الأول بينت فيه ما يلى :

١ ـ تعريف الدعوة لغة واصطلاحا وذكرت التعريف المختار عندى

٢ ـ الأمر بالدعوة فى القرآن وحكمها ، والفرق بين دعوة الاسلام والدعوة الى الاسلام .

٣ - الرأى المختار عندى فى فرضيتها .

٤ - الدعوة فى حقه صلى الله عليه وسلم وحق غيره .

٥ - الدعوة الى الله قديمة قدم الأديان باقية الى يوم الدين

٦ - أهمية الدعوة وشدة الحاجة اليها قديما وحديثا .

٧ - أهداف الدعوة الى الله تعالى .

أما الفصل الثانى من الباب الأول فهو فى عموم دعوة الاسلام وقد قسمته الى قسمين :

الأول فى خصوص الدعوات قبل دعوة الاسلام ويشتمل على النقاط التالية :

١ - معنى العموم والخصوص

٢ - استدلال العلماء على خصوصية رسالة موسى

٣ - النصوص القرآنية الدالة على خصوصة الرسالات قبل رسالة الاسلام

٤ - تفسير الآيات من ٥ الى ٨ وذكر أقوال العلماء فى ذلك وما ترجح لدى منه

٥ - الدعوة الى الله فى تلك الآيات .

وأما القسم الثانى من الفصل الثاني فانه معقود لعموم رسالة نبينا

محمد صلى الله عليه وسلم وفيه سبعة عشر مبحثا :-

الأول فى تعريف القرآن لغة واصطلاحا

والثانى فى كون القرآن هو المعجزة العظمى لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

والثالث فى الأدلة على اعجاز القرآن

والرابع فى اثبات نص القرآن وحفظه من التغيير والتبديل

والخامس فى أن القرآن كلام الله لا دخل لمخلوق فيه

والسادس فى وجه اعجاز القرآن الكريم

والمبحث السابع فى القدر المعجز من القرآن

والثامن فى بيان تحريف العهدين وتبديلهما وتناقضهما

والمبحث التاسع فى دلالة القرآن على ثبوت رسالة محمد صلى الله عليه وسلم

والمبحث العاشر فى الكلام على عمومها بعد ثبوتها

والحادى عشر فى رسالته صلى الله عليه وسلم للجن

والمبحث الثانى عشر : هل رسالته صلى الله عليه وسلم شملت الملائكة أو لا ؟

والمبحث الثالث عشر هل دعوة الاسلام يأجوج ومأجوج أو لا ؟

والمبحث الرابع عشر : فى شهادة غير المسلمين بعموم دعـــوة الاسلام

والمبحث الخامس عشر فى تطبيق المسلمين العالمية دعوة الاسلام

والمبحث السادس عشر فى أمثلة حيوية من التشريع الاسلامـــــى

والمبحث السابع عشر فى حكم من لم تبلغه دعوة الاسلام من هذه الأمة .

وأما الفصل الثالث من الباب الأول فهو فى رد بعض الشبه التى اثيرت حول عموم دعوة الاسلام ، وقد اشتمل على مبحثين :-

الأول : فى رد شبهة أوردها المستشرق (اليسير وليم ميـــور) حول عموم دعوة الاسلام قال فيها ان فكرة عالمية رسالة محمد صلى الله عليه وسلم طارئة وأن الرسول لم يفكر فيها . . . الـخ .

والمبحث الثانى فى رد شبهة أوردها (بولس) الراهب أسقف صيدا الأنطاكى قال فيها ان نبى الله محمدا صلى الله عليه وسلم لم يرسـل الى النصارى ، وانما أرسل الى أهل الجاهلية من العرب ، وادعى أن فى القرآن ما يشهد له بذلك كما ادعى أن العقل يشهد له بدعـــوة أيضا . . . الخ كلامه .

وأما الباب الثانى فقد اشتمل على أربعة فصول :-

الأول فى منهج نوح وأسلوبه فى دعوته وبيان المعجزة التى أيده الله بها تصديقا له

والثانى فى منهج هود وأسلوبه فى دعوته وبيان المعجزة التى أيده الله بها تصديقا له

والثالث فى منهج صالح وأسلوبه وبيان المعجزة التى أيده الله بها تصديقا له

والرابع فى منهج موسى وأسلوبه فى دعوته وبيان المعجزات التى أيده الله بها تصديقا له .

وأما الباب الثالث فهو فى بيان حوار الرسل وأممهم خلال دعوتهم وقد اشتمل على ثلاثة فصول :-

الأول : فى اثبات وجود الله تعالى وفيه بيان عقيدة الاسلام — اجمالا وفيه أيضا بيان عقيدة أهل الكتابين واظهار زيفها وبطلانها

والفصل الثانى فى اثبات بشرية الرسل مهما بلغوا من الكمال

والفصل الثالث فى الربط بين رسالات السماء ومصير المكذبين

وفى أخره أيضا بيان الدعوة فى الأيات .

وأما الباب الرابع فانه معقود لدعوة ابراهيم خليل الرحمن ويشتمل على ما يلى :-

١ ـ التعريف بابراهيم

٢ ـ تفسير الآية الكريمة التى ذكر فيها ابراهيم

٣ ـ تدرجه عليه السلام فى دعوته

٤ ـ مناظرته للمرود وقوته فى المحاجه

٥ ـ ابتلاآته عليه السلام أثناء دعوته

٦ ـ هجرته عليه السلام لنجاح دعوته

٧ ـ الدعوة فى الآيات الكريمة

٨ ـ ايراد بعض الشبه التى وجهها أعداء الرسل حول ابراهيم ورد ذلك

٩ ـ تفسير بقية السورة

وأما الخاتمة فقد لخصت فيها أهم النقاط التى توصلت اليها فى هذه الرسالة .

" وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين "

(١٢)

" الباب الأول "

(الدعوة الى الله ودفع الشبهات حولها)

تمهيد

ان لنا فى رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم لأسوة عظيمة وقد أخبرنا الله جل وعلا بذلك فى كتابه العزيز حيث يقول " قد كانت لكم أسوة حسنة فى ابراهيم والذين معه اذ قالوا لقومهم انا برءاؤا منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده " (١)

وقوله تعالى (لقد كان لكم فى رسول الله اسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الأخر وذكر الله كثيرا) (٢)

ورسل الله كانوا جميعا دعاة الى الله أرسلهم الله الى خلقه مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ، وقاموا بهذه المهمة التى بعثوا من أجلها فأنقذوا الناس من ظلمات الكفر الى نور الايمان ، ومن الجهل بالله الى معرفته سبحانه وتعالى ، ومن عبادة المخلوق الى عبادة الخالق فقاموا بدورهم خير قيام ولكن الرسالة قد

---

(١) جزء من الآية ٤ من سورة الممتحنة .
(٢) آية ٢١ من سورة الأحزاب .

انقطعت ولم يبق من الانبياء الا ورثتهم وهم العلماء العاملون فوجب عليهم أن يقوموا بحقهم من هذه المهمة : الدعوة الى الله التى هى وظيفة مورثيهم وينشروا الدعوة الى الله بين أفراد العالم ومجتمعاته سلمه وكافره ، يدعون الكافر منه الى الايمان بالله ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، والمؤمن الى التمسك بدينه والمض عليه بالنواجذ مقتدين فى ذلك برسل الله صلوات الله وسلامه عليهم مستنين بسنتهم مهتدين بهداهم مبشرين من أطاع الله بالثواب منذرين من عصاه بالعقاب مخلصين فى دعوتهم لله جل وعلا فقد أمرهم أن يعبدوه مخلصين له الدين ، وأخبر تعالى أن الدعوة الى الله أحسن قول وعمل يتصف بهما الانسان وذلك فى قوله تعالى " ومن أحسن قولا ممن دعا الى الله وعمل صالحا وقال انني من المسلمين " (١)

ومن هنا لا بد أن أذكر سبب عقدى لهذا الباب ، ولماذا بدأت به ؟ فأقول بأت بهذا الباب لأنه اشتمل على أركان الدعوة الاسلامية الأربعة الداعية ، المدعو ، ما يدعى به ، وسائل الدعوة وذلك من تفسير الآيات الأول من سورة ابراهيم الخليل اذ فيها ذكر أعظم الدعاة وهو محمد صلى الله عليه وسلم ، وذكر ما يدعى به وهو القرآن ، وذكر المدعوين

---

(١) آية ٣٣ من سورة فصلت .

وهم الناس ، ويتضمن ما ذكر وسائل الدعوة لأنه صلى الله عليه وسلم لا يخرج الناس من الظلمات الى النور الا بعد أن يستعمل الوسائل اللازمة لذلك .

وقد قام بذلك فى الداخل والخارج أحسن قيام فقد قام بأساليب ووسائل شتى من أساليب الدعوة ووسائلها .

وكانت النقاط البارزة التى دار حولها الباب كما يلى :-

١- تعريف الدعوة لغة واصطلاحا

٢- حكم الدعوة الى الله

٣- أهميتها وشدة الحاجة اليها قديما وحديثا

٤- أهدافها

٥- اثبات خصوصية الدعوات قبل دعوة الاسلام

٦- عموم دعوة الاسلام وأدلة ذلك

٧- رد بعض الشبه التى دارت حول عموم دعوة الاسلام

٨- اختلاف العلماء فى شمول دعوة الاسلام للملائكة

٩- شمولها للجن وهل للجن رسل منهج أولا ؟

١٠- هل بعثت يأجوج ومأجوج أولا ؟

١١- ما ترجح عندى من الخلاف فى شمولها للملائكة .

(١٥)

" الفصل الأول "

(الدعوة الى اللـــــه)

======

تعريف الدعوة لغة واصطلاحا

التعريف المختار

الأمر بالدعوة الى الله

حكم الدعوة الى الله تعالى

دعوة الاسلام والدعوة الى الاسلام

الرأى المختار فى فرضيتها

الدعوة فى حق النبى صلى الله عليه وسلم وحق غيره

الدعوة الى الله تعالى قديمة قدم الأديان باقية الـــــى

يوم الدين .

أهمية الدعوة وشدة الحاجة اليها قديما وحديثا

أهداف الدعوة الى الله تعالى

تعريف الدعوة لغة :-

الدعوة المرة الواحدة من الدعاء واسم الفاعل منها داع

تقول دعاه يدعوه فهو داع له وقوله تعالى :

(وداعيا الى الله باذنه وسراجا منيرا) (١) معناه داعيا الى توحيد الله وما يقرب منه ، وجمع الداعي دعاة كما يجمع على (داعون) كقضاة وقاضون ، والدعاة قوم يدعون الى بيعة هدى أو ضلالة واحدهم داع ورجل داعية اذا كان يدعو الناس الى بدعة أو دين ، والهاء فيه للمبالغة ، والنبي صلى الله عليه وسلم داعي الله تعالى .....

وفي التهذيب المؤذن داعي الله ، والنبي صلى الله عليه وسلم داعي الأمة الى توحيد الله وطاعته قال جل وعلا في شأن الجن :

" قالوا يقومنا أجيبوا داعي الله " (٢) (٣) ودعوة الحق شهادة ألا اله الا الله (٤) والدعاء الى الشيء الحث على قصده ومنه قوله تعالى :

(قال رب السجن أحب الى مما يدعونني اليه) (٥)

---

(١) أية ٤٦ من سورة الأحزاب

(٢) جزء من أية ٣١ من سورة الأحقاف

(٣) طالع لسان العرب لابن منظور جـ ١٤ ص ٢٥٨ - ٢٥٩ وتهذيب اللغة لأبي منصور جـ ٣ ص ١٢٠

(٤) تاج العروس للزبيدي جـ ١٠ ص ١٢٨

(٥) جزء من أية ٣٣ من سورة يوسف .

وقوله تعالى (والله يدعوا الى دار السلام ...) [١] وقوله تعالى (ويقوم مالى أدعوكم الى النجوة وتدعوننى الى النار تدعوننى لأكفر بالله واشرك به ماليس به علم) [٢] وقوله تعالى (لا جرم أنما تدعوننى اليه ليس له دعوة فى الدنيا ولا فى الأخرة) [٣] اهـ. [٤].

ومنه يتبين أن من معانيها فى اللغة :-

الدعوة الى الله تعالى ، ودعوة الحق وهى شهادة ألا اله الا الله ، والدعوة الى هدى أو ضلالة وتطلق على الدعاء الى الشيء والحث على قصده

---

(١) جزء من أية ٢٥ من سورة يونس
(٢) أية ٤١ وجزء من أية ٤٢ من سورة غافر
(٣) جزء من أية ٤٣ من سورة غافر
(٤) المفردات للراغب ص ١٦٩ - ١٧٠ ط الحلبى .

تعريفها فى الاصطلاح :-

لم أر من القدماء من عرف الدعوة الى الله فى الاصطلاح وقد عرفها بعض دعاة العصر فقال : الدعوة الاسلامية هى : دين الله الذى بعث به الأنبياء جميعا نجدد على يد محمد صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين كاملا وافيا لصلاح الدنيا والأخرة (١) ، وعرفها أيضا فقال : الدعوة الاسلامية تبليغ رسالة النبى صلى الله عليه وسلم (٢) وعرفها آخر فقال ان الدعوة هى قيام من عنده أهلية النصح الرشيد والتوجيه السديد من المسلمين فى كل زمان ومكان بترغيب الناس فى الاسلام اعتقادا ومنهجا وتحذيرهم من غيره بطرق مخصوصة (٣) وعرفها بعض الباحثين : فقال : هى قيام العلماء والمستنيرين فى الدين بتعليم الجمهور من العامة ما يبصرهم بأمور دينهم على قدر الطاقة (٤) .

---

(١) الدعوة الى الاسلام دعوة عالمية محمد الراوى

(٢) قال وحكمها الوجوب الكفائى على الجماعة الاسلامية كلها بحيث يجب على الأمة الاسلامية مجتمعة أن تهيئ لها جماعة منها تكون عندها القدرة على الدعوة الاسلامية بالمؤهلات العلمية محمد الراوى المصدر السابق .

(٣) الدعوة الى الله خصائصها مقوماتها مناهجها للدكتور أبو المجد السيد نوفل ص ١٨ .

(٤) الدعوة الى الاسلام للدكتور أبو بكر زكرى ص ٨ ط مكتبة دار العروبة القاهرة .

وعرفها رابع فقال هى : برنامج كامل يضم فى أطوائه جميع المعارف التى يحتاج اليها الناس ليبصروا الغاية من محياهم وليستكشفوا معالم الطريق التى تجمعهم راشدين (١) وقد استنبطت من بين التعاريف المذكورة تعريفا هو : أن الدعوة الى الله هى : قيام من له أهلية بدعوة الناس جميعا فى كل زمان ومكان لاقتفاء أثر رسول الله صلى الله عليه وسلم والتأسى به قولا وعملا وسلوكا .

وهذا تعريف يجمع كافة الدعاة كل على قدر طاقته ، والمدعوين وأنهم الناس جميعا والمدعو اليه وهو الاسلام الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ، كما يبين عالمية الدعوة وانها فى كل زمان ومكان .

---

(١) مع الله ص ١٧ الأستاذ / محمد الغزالى ط دار الكتب الحديثه بمصر .

الأمر بالدعـوة :-

وقد أمر الله تعالى نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم بالدعوة الى الله عز وجل فى آيات متعددة من كتابه والأمر له صلى الله عليه وسلم أمر له ولأمته كما هو مقرر فى محله عند الأصوليين الا اذا وجدت قرينة تخرجه صلى الله عليه وسلم من الخطاب وتصرفه الى الامة ، أو تخرج الامة من الخطاب وتصرفه اليه صلى الله عليه وسلم وآيات الامر بالدعوة لم توجد قرينة تخرج الامة منها ولا قرينة تخصصها به صلى الله عليه وسلم . قال صاحب مراقى السعود فى أصول الفقه :

(وما به قد خوطب النبى .·. تعميمه فى المذهب السنى)(١)

---

(١) يعنى أن القول المشهور من مذهب مالك تعميم الخطاب الموجه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم بحيث يشمله والأمة معه أما أبو حنيفة وأحمد رحمهما الله فان الخطاب للنبى يشمل الامة عندهما بلا خلاف عقالا ؛ لأن أمر القدوة أمر لأتباعه عرفا ، أما الشافعية فقالوا انه لا يتناول الامة لاختصاص الصيغة به طالع نشر البنود على مراقى السعود جـ (١) ص ٢٢٢ — ٢٢٣ ط مغربية ، والحق مع الجمهور لا مع الشافعية لدلالة القرآن على مذهب الجمهور =

وعلى كل حال فالله جل وعلا أمر نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم ـــ بالدعوة الى الله وأمر أمته كذلك فقال تعالى (قل هذه سبيلى أدعوا الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى وسبحان الله وما أنا من المشركين)(١) وقال تعالى (لكل أمة جعلنا منسكا هم ناسكوه فلا ينازعنك فى الامر وادع الى ربك انك لعلى هدى مستقيم)(٢) وقال تعالى (وادع الى ربك ولا تكونن من المشركين)(٣) وقال تعالى (ومن أحسن قولا ممن دعا الى الله وعمل صلحا وقال اننى من المسلمين)(٤)

ـــ وذلك فى قوله تعالى (فأقم وجهك للدين حنيفا فطرت الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون ، منيبين اليه) أية ٣٠ وجزء من أية ٣١ من سورة الروم فان منيبين حال من الضمير المستتر فى فى قوله أقم المخاطب به النبى صلى الله عليه وسلم . والمعنى فأقم وجهك يانبى الله فى حال كونكم منيبين اليه فلو لم تدخل الامة فى حكم الخطاب له صلى الله عليه وسلم لقال منيبا اليه بالافراد لاجماع أهل اللسان العربى على أن الحال الحقيقية أى التى لم تكن سببية تلزم مطابقتها لصاحبها افرادا وتثنية وجمعا وتذكيرا وتأنيثا فلا يجوز أن تقول جاء زيد راكبين ولا جاءت هند ضاحكات أو ضاحكتين . طالع أضواء البيان جـ ٢ ص ٥٩ ط المدنى فدلت هذه الاية دلالة واضحة على أن الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم خطاب لامته الا اذا وجدت قرينة تخرجهم من ذلك كقوله تعالى : (خالصة لك من دون المؤمنين) جزء من أية ٥٠ من سورة الاحزاب والله تعالى أعلم.

(١) أية ١٠٨ من سورة يوسف .
(٢) أية ٦٧ من سورة الحج .
(٣) جزء من أية ٨٧ من سورة القصص .
(٤) تقدمت

وقال تعالى و(ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجدلهم بالتى هى أحسن ..)[١] وقال تعالى مخاطبا أمة محمد صلى الله عليه وسلم (ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر واولئك هم المفلحون)[٢] وقال تعالى (كنتم خير أمة اخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله)[٣]

الاية الاولى : قل هذه سبيلى أدعو الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى أى قل يا محمد هذه السبيل التى هى الدعوة الى الله بالايمان والتوحيد سبيلى ، والسبيل والطريق يذكران ويؤنثان ، ثم فسر السبيل بقوله أدعو الى الله على بصيرة أى أدعو الى دينه مع حجة واضحة غير عمياء أنا ومن اتبعنى بعطف من اتبعنى على الضمير فى أدعو فى وسوغ ذلك التوكيد بكلمة أنا والمعنى : أدعو اليها أنا ويدعو اليها من اتبعنى ، وسبحان الله أنزهه عن الشركاء وما أنا من المشركين[٤]

أما آية الحج . فمعناها وادع الناس الى ربك أى الى الايمان به وعبادته ودينه انك على دين واضح قويم[٥] وكذلك أية القصص معناها هو معنى

---

(١) جزء من أية ١٢٥ من سورة النحل
(٢) أية ١٠٤ من سورة آل عمران
(٣) جزء من أية ١١٠ من سورة آل عمران
(٤) طالع الكشاف جـ ٢ ص ٣٤٦ ط دار المعرفة للطباعة والنشر بيروت
(٥) طالع تفسيرى الخازن والنسفى هنا .

أية الحج اذ فسروها بقولهم ادع الى معرفة ربك وتوحيده ، وأما أيـة فصلت : ومن أحسن قولا ممن دعا الى الله وعمل صلحا وقال اننى مـن المسلمين . فان المعنى والله أعلم لا أحد أحسن ممن دعا عباد الله اليه وكان هو فى نفسه مهذبا عاملا بما يدعو الناس اليه ، وليس بحسـن الذين يأمرون بالمعروف ولا يأتونه وينهون عن المنكر ويأتونه ، والصحيح أن هذه الأية عامة فى كل من دعا الى خير وتشمل المؤذنين لأن المؤذن اذا قال حى على الصلاة فقد دعا الى الله عز وجل بل دعا اليه بأفضل الطاعات كما قيل ان المراد بهذه الأية المؤذنين فقد روى عن عائشة أنها قالت ، ولهم هذه الأية : ومن أحسن قولا ممن دعـا الى الله وعمل صلحا وقال اننى من المسلمين ، قالت فهو المؤذن اذا قال حى على الصلاة فقد دعا الى الله ، وهكذا قال ابن عمر وعكرمـة انها نزلت فى المؤذنين ، ولكن هذا يرده أن السورة مكية وأن الأذان شرع بالمدينة بعد الهجرة حين أمر به عبد الله بن زيد الانصارى فـى منامه فقصه على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأمره أن يلقيه على بلال فالأية فى كل من دعا الى الله وعمل صلحا وقال اننى من المسلميـن وعمومها يدخل تحته المؤذنون ولو كانت مشروعية الأذان بعد نزولها لأن العبرة بعموم الالفاظ لا بخصوص الاسباب (١) وأما أية النحـل :

(١) طالع تفسير ابن كثير عند الاية .

ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة . . . فالمعنى كما يقول امام المفسرين ابن جرير الطبرى : ادع يا محمد من أرسلك اليه ربك بالدعاء الى طاعته ، الى سبيل ربك يقول : الى شريعة ربك التى شرعها لخلقه وهو الاسلام (١) ، بالحكمة يقول بوحى الله الذى يوحيه اليك وكتابه الذى ينزله عليك . والموعظه الحسنة يقول : والعبر الجميلة التى جعلها الله حجة عليهم فى كتابه وذكرهم بها فى تنزيله كالتى عدد عليهم فى هذه السورة من حجة وذكرهم فيها ما ذكرهم من آلائه ، وجادلهم بالتى هى أحسن يقول : وخاصمهم بالخصومة التى هى أحسن من غيرها أن تصفح عما نالوا عرضك من الأذى ولا تقصر فى القيام بالواجب عليك من تبليغهم رسالة ربك انتهى بلفظه (٢)

وأما أية آل عمران الاولى " ولتكن منكم امة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون " فان معناها كما ذكر العلماء : ولتكن منكم امة منتصبة للقيام بأمر الله فى الدعوة الى الخير والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وأولئك أى وهؤلاء المتصفون بهذه الصفات هم المفلحون أى الفائزون ، وقال الضحاك هم الصحابة العلماء المجاهدون ، ومعنى الأية أنه يجب على هذه الامة أن تكون

---

(١) هكذا قال والظاهر أن المراد عنده بقوله (وهو الاسلام) السبيل المذكور لأن السبيل يذكر ويؤنث كما قدمنا .

(٢) تفسير ابن جرير جـ ١٤ ص ١٩٣ - ١٩٤ المصدر السابق .

أن تكون طائفة منها متصدية لهذا الشأن وان كان ذلك واجبا على كل مسلم بانفراده على الخصوص كما سأذكره عند بيان حكم الدعوة ان شاء الله تعالى [١] وأما أية آل عمران الثانية التي هي قوله تعالى "كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر . . .)" فان معناها أن الله تعالى يخبر عن هذه الأمة بأنها خير الأمم وذكر ما يفيد تعليل ذلك بقوله : تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر . . . . فأمة محمد صلى الله عليه وسلم هي خير الناس للناس وأنفع الناس للناس لأنها تقود الناس الى الخير والفوز الأبدي بدعوتها الى الحق وأمرها بالمعروف ونهيها عن المنكر [٢] وفي صحيح البخاري من حديث أبي هريرة كنتم خير أمة اخرجت للناس تأتون بهم في السلاسل في أعناقهم حتى يدخلوا الاسلام [٣] .

هذه نبذة من أقوال علماء التفسير في الآيات ومنها يتضح لنا ما يلي :-

١ - الأمر الصريح للنبي صلى الله عليه وسلم وأمته الى يوم القيامة بالدعوة الى الله تعالى والى توحيده والايمان به وعبادته وحده دون سواه . والى مكارم الأخلاق والعمل الصالح والقيم الفاضلة . . .

---

(١) انظر تفسير ابن كثير عند الآية .
(٢) طالع تفسير ابن كثير عند الآية
(٣) صحيح البخاري جـ ٦ ص ٤٧ كتاب التفسير .

٢ - الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر من أعظم ما تقوم عليه الدعوة الاسلامية من الأساليب وكذلك الحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتى هى أحسن .

٣ - أن لا يتصدى لهذه الدعوة الا المؤمنون بها الحريصون عليها المتفهمون لها كلا أو بعضا حتى تكون دعوتهم على هدى ، وبصيرة .

٤ - أن هذه الدعوة هى الدعوة الصحيحة الهادية حقا الى سواء السبيل لأنها دعوة الحق والداعية الى الحق والصادرة من الحق تبارك وتعالى والشاملة لكل اصلاح كامل ونظام نافع . . .

واذا تقرر وجوب الدعوة الى الله فهل ذلك على سبيل العينية على كل فرد أو على سبيل الكفاية ؟ وهل النبى صلى الله عليه وسلم مثلنا فى ذلك أو لا ؟ وهل الأمم قبلنا مثلنا فى ذلك أو لا ؟

وجواب ذلك فيما يلى :-

حكم الدعوة الى الله تعالى :-

تقدم لنا ذكر الآيات الدالة على وجوب الدعوة ، وذكرنا نبذة من كلام العلماء فى معناها ، والآن أذكر ان شاء الله حكم الدعوة وهل هى فرض عين أو فرض كفاية ؟ وهل النبى صلى الله عليه وسلم كغيره فى ذلك أو لا ؟

وهل الأمم قبلنا كانوا ملزمين بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر أو لا ؟ اختلف العلماء فى حكم الدعوة الى الله بالنسبة للأمة كلها أو لبعض أفرادها بعد اتفاقهم على وجوبها (١) فقال بعضهم انها فرض عين على كل مكلف ، وقال بعضهم انها كفاية تأثم الأمة جميعا بتركها واذا قام بها البعض سقط الاثم عن الباقين ، وهذا القول عليه الأكثر .

سبب الاختلاف .

وسبب اختلافهم فى هذه المسألة اختلافهم فى المراد بـ (من) فى قوله تعالى (ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ...) قالوا فالدعوة الى الخير تشمل مصالح العباد فى دنياهم وأخراهم وذكر الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بعدها من باب ذكر الخاص بعد العام ايذانا بفضلهما أو المراد ذكر الدعاء الى الخير مفصلا بعد الدعاء اليه مجملا فلزمت دعوة الامة لهذا الخير العظيم الذى يشمل مصالح دنياهم وأخراهم فقال البعض ان هذا التبليغ يصح من بعض أفراد المكلفين دون الجميع وقال بعضهم انه يلزم جميع أفراد المكلفين أن يكونوا دعاة الى الله ، وذلك حسب استطاعتهم ، فالذين قالوا انها فرض كفاية قالوا ان من للتبعيض ، وقالوا

---

(١) روح المعانى جـ ٣ ص ٢١ ط ادارة الطباعة المنيرية .

ان الأمرين يجب أن يكونوا علماء وليس كل الناس علماء ، والذين قالوا انها فرض عين قالوا ان (من) لبيان الجنس وأن المعنى : لتكونوا كلكم كذلك ، والقول الأول نصره القرطبي في مواضع من تفسيره ، وقد قال بعد نقله كلام العلماء في هذا ما نصه : قلت : القول الأول أصح فانه يدل على أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض على الكفاية وقد عينهم الله تعالى بقوله : (الذين ان مكنهم في الأرض أقاموا الصلوة وأتوا الزكوة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ...) [١] ، وليس كل الناس مكنوا [٢] وقال الألوسي في روح المعاني : ، و (من) هنا قيل للتبعيض ، وقيل للتبيين وهي تجريدية كما يقال : لفلان من أولاده جند ، وللامير من غلمانه عسكريرا بذلك جميع الأولاد ومنشأ الخلاف في ذلك أن العلماء اتفقوا على أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من فروض الكفاية ولم يخالف في ذلك الا النزر ... قالوا انه من فروض الأعيان والذين قالوا انه من فروض الأعيان قالوا ان الله أثبت الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لجميع الأمة بقوله : كنتم خير أمة اخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر ، ورد عليهم بأن الجهاد من فروض الكفايات بالاجماع مع ثبوته بالخطابات العامة [٣] .

---

(١) جزء من آية ٤١ من سورة الحج .
(٢) انظر القرطبي جـ ٤ ص ١٦٥ ط الثانية دار الكتب المصرية .
(٣) روح المعاني جـ ٣ ص ٢١ - ٢٢ المصدر السابق .

قلت الجمهور من العلماء على أن الدعوة الى الخير والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر من فروض الكفاية يأثم جميع المكلفين بتركها ويسقط عنهم الأثم اذا قام البعض بها ولهذا عد الأصوليون هذا النوع من فروض الكفاية قال صاحب مراقى السعود ممددا فروض الكفاية تحت عنوان (فذو الكفاية) :

فروضه القضا كنهى أ : رد السلام وجهاد الكفر :

فقوله : نهى أمر : المراد بهما : الامر بالمعروف والنهى عن المنكر كما بين ذلك فى شرحه وثبت فى السنة الصحيحة ما يدل على وجوب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر على كل مكلف ، ففى صحيح مسلم فى باب كون النهى عن المنكر من الايمان وأن الايمان يزيد وينقص وأن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر واجبان من حديث أبى بكر ابن أبى شيبة قال : (أول من بدأ بالخطبة يوم العيد قبل الصلاة مروان فقام اليه رجل فقال : الصلاة قبل الخطبة فقال : قد ترك ما هنالك فقال أبو سعيد أما هذا فقد قضى ما عليه سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فان لم يستطع فبلسانه فان لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الايمان) وفيه أيضا من حديث عبد الله بن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم

قال (ما من نبى بعثه الله فى أمة قبلى الا كان له من أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسنته ويقتدون بأمره ثم انها تخلف [١] من بعدهم خلوف يقولون مالا يفعلون ، ويفعلون ما لا يؤمرون فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن ، وليس وراء ذلك من الايمان حبة خردل [٢] ، وحكى ابن عبد البر اجماع المسلمين على وجوب تغيير المنكر على كل من قدر عليه وأنه اذا لم يلحقه بتغييره الا اللوم الذى لا يتعدى الى الأذى فان ذلك لا يمنعه من تغييره وزعم ابن العربى أن من رجا زوال المنكر وخاف على نفسه من تغييره الضرب أو القتل جاز له عند أكثر العلماء الاقتحام عند هذا الغرور ، وان لم يرج زواله فأى فائده عنده ؟

قال : والذى عندى أن النية اذا خلصت فليقتحم كيفما كان ولا يبالى [٣] فقد هذا التصريح من النبى صلى الله عليه وسلم بالأمر بصيغته الصريحة التى هى الفعل المضارع المجزوم بلام الأمر (فليغيره) مرتبا ذلك على ما فى وسع المكلف ، واخباره أن ترك ذلك ما وراءه شئ من الايمان وتعبيره بمن الدالة على العموم الشامل لجميع أفراد المكلفين ، كل هذا يدل على لزوم الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لزوما عينيا بالاضافة

---

(١) تخلف : أى تحدث والضمير فى انها ضمير الشأن والقصة انظر تعليق محمد فواد عبد الباقى على صحيح مسلم .

(٢) صحيح مسلم جـ ١ ص ١٧٠ المصدر السابق

(٣) بواسطة نقل القرطبى جـ ٤ ص ٤٨ المصدر السابق .

الى ما ذكره ابن عبد البر من الاجماع على أن تغيير المنكر واجب على كل من قدر عليه ، ومع هذا فان مذهب الجمهور مخالف لهذا ولفظ الأية على أن (من) فيه للتبعيض يؤيد مذهب الجمهور ، كما يؤيده الفرق الذى جعله علماء الأصول بين فرض العين وفرض الكفاية وهو أن فرض الكفاية يتميز عن فرض العين بانه لا تتكرر مصلحته اذا فعل ، فمثلا يقولون : ان انقاذ الغريق واجب كفاية فاذا غرق غريق ووجد من ينقذه من البحر فمن فى البحر بعد انقاذه لا يحصل مصلحة بخلاف فرض العين فان المصلحة تتكرر من فعله دائما ، قال صاحب مراقى السعود مفرقا بينهما :

مزه (١) من العين بأن قد حظلا
تكرير مصلحته ان فعلا :

وعلى هذا فيتعذر كون النهى عن منكر بعينه فرض عين لأن ذلك المنكر اذا غيره أحد وتغير بالفعل لم يبق هناك شىء مطالب به ذلك المغير مرة اخرى ولا شىء مطالب به غيره ، وعلى هذا فلا بد من تلمس جمع بين القولين لأن اعمال الدليلين أولى من الغاء أحدهما ، والجمع واجب بين الادلة متى أمكن .

---

(١) الضمير فى قوله : منزه يرجع الى فرض الكفاية المتقدم الذكر فى النظم .

الجمع بين القولين :-

والذى يظهر لى فى الجمع بين هذين القولين أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر اللذين هما من أعظم أسس الدعوة الى الله تعالى - ولا سيما فى زمننا هذا - ينقسمان الى قسمين قسم خاص وقسم عام ـــ فالقسم الخاص هو الذى يعنيه القائلون بوجوبهما وجوبا عينيا وبيان هذا القسم أن كل انسان راع فى رعيته ومسئول عنها مثل الرجل فى بيته مع أولاده وزوجاته وجيرانه وزملائه فى التعليم والعمل والسفر فيجب على كل مكلف أن يأمر أهله وجيرته وزملاءه بالخير وينهاهم عن الشر امتثالا لقوله تعالى - (يأيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة عليها ملئكة غلاظ شداد)(١) وتطبيقا للأحاديث الكثيرة التى ورد فيها التوكيد على الأمة بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر اذ كل فرد لم يتصف بهاتين الصفتين لم توجد فيه صفة الايمان التى وصف الله بها المؤمنين فى قوله :

(والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ...)(٢) بل اتصف بصفات المنافقين التى وصفهم الله بها فى قوله : (المنفقون والمنفقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ...)(٣) .

---

(١) جزء من آية ٦ من سورة التحريم
(٢) جزء من آية ٧١ من سورة التوبة
(٣) جزء من آية ٦٧ من سورة التوبة .

ودخل فى الذم الذى ذم الله به بنى اسرائيل فى قوله : (كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون) [١] وفى قوله فيهم (لولا ينهاهم الربانيون والأحبار عن قولهم الأثم وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يصنعون) [٢] ولا ريب أن الغالب من عامة المسلمين لا يجهلون الشهادة ولا الصلاة ولا الصيام ولا معنى الاسلام جملة وذلك كاف فى القيام بالدعوة على هذا النحو وهو يشمل العالم والمثقف ، والعامل ، والصانع ، والمؤلف ومن دونهم ثقافة زعلماء .

ومن هنا تكون الدعوة الى الله فرض عين ويؤيد ذلك ظاهر قوله تعالى : (كنتم خير أمة أخرجت للناس . . .)

فاذا حملنا هذه الأحاديث التى فيها التوكيد بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر على خصوص أفراد فى خصوص جماعات وأوقات وأماكن كما ذكرنا ، وأوجبنا عليهم الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ايجابا عينيا فى هذه الأوقات وهذه الأماكن وهذه المجتمعات الخاصة بكل فرد ، وجعلنا (من) فى الآية معناها التبغيض كان المعنى أنه لابد لمن يلى أمر المسلمين أن يخصص جماعة من علماء

---

(١) آية ٧٩ من سورة المائدة .

(٢) آية ٦٣ من سورة المائدة .

الأمة يعرفون ما يأمرون به ويأتونه ، ويعرفون ما ينهون عنـــــــه ولا يأتونه ، وأن يجعل فى كل قطر من الأقطار جماعة بهذا الشـــكل يدعون الى دين الله وتوحيده وعبادته ، يأمرون بالمعروف وينهـــون عن المنكر ، ويعرفون الحلال والحرام ، ويتخصصون فى رسم الســـبل التى تعيد للأمة قوتها ومجدها ، وللاسلام مكانته فى قيادة النـــاس الى الخير .

واذا قامت هذه الطائفة بالدعوة الى الله كان من سواهم مـــن الأمة غير آثم بتركه القيام بهذه المهمة لأنها قام بها من هو أهل لهـــا وان كان ذلك الغير مطالبا بالدعوة فى حق أهله وجيرانه كما تقدم ، وان لم يفعل ذلك من يقوم بأمر المسلمين أثم وأثمت الأمة بسكوتهـــم عنـــــــه .

اذا فعلنا ما ذكر فنكون قد جمعنا بين الأقاويل والجمـــــع واجب اذا أمكن . اهـ .

الدعوة فى حقه صلى الله عليه وسلم :

نص العلماء على أن النبى صلى الله عليه وسلم ليس كغيره فى وجوب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وقالوا ان ذلك فرض عين عليه ، وليس كالأمة فى جريان الخلاف فى ذلك ، هل هو فرض عين أو فرض كفاية ؟ ، وقالوا انه لا يمنعه من ذلك خوف لأنه صلى الله عليه وسلم لا يقر على باطل ولا يخشى الا الله سبحانه وتعالى ، ولأنه المشرع وأفعاله وتقريراته كلها تشريع لأمته فلا يمكن أن يقر على باطل لم يغيره .

قال خليل بن اسحاق المالكى فى مختصره فى باب عقده لخصائصه صلى الله عليه وسلم : " وتغيير المنكر " يعنى تغيير المنكر مما يختص به هو دون الأمة ، لأن الأمة اذا خافت من المأمور أو المنهى ربما سقط عنها الأمر ، أما هو فانه لا يخشى الا الله جل وعلا ، وقد عصمه من الناس بقوله : ((... والله يعصمك من الناس ...))(١) .

وقال شارح المختصر المذكور الحطاب : قال القرطبى : يجب عليه صلى الله عليه وسلم اذا رأى منكرا أنكره وأظهره ، لأن اقراره لغيره على ذلك يدل على جوازه وذكره صاحب البيان . اهـ .

---

(١) جزء من آية ٦٧ من سورة المائدة .

ثم قال : فيكون وجه الخصوصية أنه [1] كان عليه صلى الله عليه وسلم فرض عين ولا يشترط فيه ما يشترط فى حق غيره من أمته على نفسه وظنه تأثير ذلك والله أعلم .

نعم قيده الغزالى فى الاحياء بما لم يعلم أو يظن أن فاعله يزيد فيه عنادا ، وقال الشيخ جلال الدين الأسيوطى [2] فى ـــ انموذج اللبيب فى خصائص الحبيب .

---

(١) الضمير فى أنه راجع الى تغيير المنكر .

(٢) هكذا ضبطوه بضم اللام وسكون السين نسبة الى أسيوط بلدة بصر من الريف الأعلى بالصعيد ومنهم من يسقط الألف فيقول سيوط والمشهور بهذه النسبة أبو على الحسن بن على بن الخضر بن عبد الله الأسيوطى ومنهم من يقول : ابن السيوطى ، توفى فى جمادى الأخيرة سنة اثنتين وسبعين وثلاثمائة . انظر اللباب فى تهذيب الانساب لعز الدين بن الأثير الجزرى ـــ جـ ١ ص ٦١ ط دار صادر بيروت .

لما عد من الواجبات تغيير المنكر قال :

ووجه الخصوصية فيه من وجوه :

١ - أنه فى حقه من فرائض الأعيان ، وفى حق غيره من فرائض الكفايات ، ذكره الجرجانى فى الشافى .

٢ - أنه يجب عليه اظهار الانكار ، ولا يجب الاظهار على غيره ، ذكره صاحب الذخائر .

٣ - أنه لا يسقط عنه للخوف ، فان الله وعده بالعصمة بخلاف غيره ذكره فى الروضة .

٤ - ولا اذا كان المرتكب يزيده الانكار اغراء لئلا يتوهم اباحته بخلاف سائر الأمة ، ذكره السمعانى فى القواطع ، وهذا الأخير مخالف لما قاله الغزالى - انتهى كلامه (١) .

قلت : كلام السمعانى الذى نبه الحطاب على أنه مخالف لكلام الغزالى الظاهر أن الحق مع السمعانى لأن النبى صلى الله عليه وسلم شرع وأصحابه يبالغون فى الاقتداء به واقتفاء أثره ومراقبة أفعاله وأقواله فاذا سكت على منكر ربما ظن الحاضرون أن ذلك المنكر مباح ، وهو فى الحقيقة غير مباح ، بل هو منكر ، فالذى يتناسب مع عظمته عليه السلام أنه لا يسعه [أى مانع هنا] تغيير المنكر ، لأنه الأسوة ، وهو صلى الله عليه وسلم

---

(١) طالع مواهب الجليل شرح مختصر خليل للحطاب جـ ٣ ص ٣٩٦ - ٣٩٧ - ط أولى - السعادة .

لا يقر على باطل يتوهم من اقراره عليه أنه مباح ، وهو يعلم أنه حرام والله تعالى أعلم .

ويؤيد ما قلته ما ذكره علماء الأصول من أن النبى صلى الله عليه وسلم اذا رأى منكرا وسكت عنه فهم من ذلك السكوت جواز ذلك الفعل الجواز الشامل للوجوب والندب والاباحة ، فتنقلب أحكام الشرع ويصير المنكر حسنا ، قال صاحب مراقى السعود فى كتاب السنة مشيرا الى هذه المسألة :

فالصمت للنبى عن فعل علم . . به جواز الفعل منه قد فهم

وقال شارحه ومؤلفه : يعنى اذا ثبتت العصمة للأنبياء عليهم الصلاة والسلام علم أن سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم لا يقر أحدا مميزا ولو غير مكلف على باطل من فعل أو قول أو اعتقاد ، لأن الباطل قبيح شرعا وان صدر من غير المكلف ، ولا يجوز تمكين غير المكلف منه ، وان لم يأثم به ، ولأنه يوهم من جهل ذلك الفعل جوازه ، بل لا يبعد أن المكروه وخلاف الأولى كذلك . . . وانما كان صلى الله عليه وسلم لا يقر على باطل كغيره من الأنبياء لا يقرون على باطل لوجوب تغيير المنكر عليهم مطلقا ، ويسقط عن غيرهم اذا خاف على نفسه ، واذا كان الأمر كذلك فاذا فعل أحد فعلا وعلم به النبى صلى الله عليه وسلم برؤية أو غيرها علم منه جواز ذلك الفعل فى حق الفاعل وغيره ، لأن الأصل استواء

الناس فى الأحكام حتى تثبت الخصوصية ... والجواز المدلول عليه بالسكوت يحتمل الاباحة والندب والوجوب ، وحمله بعضهم على الاباحة فقط (١).

---

(١) طالع نشر البنود شرح مراقى السعود جـ ٢ ص ١٢١ - ١٢٢ المصدر السابق .

الدعوة الى الله قديمة قدم الأديان ، باقية الى يوم الدين :

والظاهر من نصوص الكتاب والسنة أن الأمم قبلنا كانوا ملزمين بتغيير المنكر كالزامنا بذلك ، وقد قدمنا حديث مسلم الدال على ذلك من رواية عبد الله بن مسعود حيث قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما من نبي بعثه الله في أمة قبلي الا كان له من أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسنته ويقتدون بأمره ، ثم انها تخلف من بعد خلوف يقولون ما لا يفعلون ، ويفعلون ما لا يؤمرون ، فمن جاهدهم × ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤ من ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن بيده فهو مؤمن ، وليس وراء ذلك من الايمان حبة خردل " .

وفي القرآن الكريم ما يدل على ذلك ، وذلك في قوله جل وعلا من سورة المائدة منكرا على بني اسرائيل عدم تغييرهم للمنكر وسكوت ربانييهم وأحبارهم عليه وذاما لهم على ذلك ((لعن الذين كفروا من بني اسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون (١))) ((كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه ، لبئس ما كانوا يفعلون)) .

وقال تعالى في هذا المعنى أيضا : ((لولا ينهاهم الربانيون والأحبار عن قولهم الاثم وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يصنعون (٢))) .

---

(١) آية ٧٨ من سورة المائدة ، وتقدم تخريج الآية التي بعدها .

(٢) آية ٦٣ من سورة المائدة .

وقال تعالى فى شأن بنى اسرائيل أيضا ((ان الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس فبشرهم بعذاب أليم[١])) .

وقد دلت هذه الآية على أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر كانا واجبين على الأمم المتقدمة ، وهما فائدة الرسالة وخلافة النبوة .

ويروى القرطبى فى تفسيره أن الحسن قال :

قال النبى صلى الله عليه وسلم : " من أمر بالمعروف أو نهى عن المنكر فهو خليفة الله فى أرضه وخليفة رسوله وخليفة كتابه "[٢] .

وأقول[٣] : ان هذه الآيات التى ذكرنا ، والآثار ، وأقوال العلماء ، كل هذا يدل على أن الأمم المتقدمة علينا كانت يجب عليها الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، كما يجب علينا .

---

(١) آية ٢١ من سورة آل عمران .

(٢) القرطبى جـ ٤ ص ٤٧ المصدر السابق .

(٣) وقد قال قبل هذا الكلام : كانت الأنبياء صلوات الله عليهم تجيء الى بنى اسرائيل بغير كتاب فيقتلونهم ، فيقوم قوم ممن اتبعهم فيأمرون بالقسط أى بالعدل فيقتلون ، وقد روى عن ابن مسعود قال : قال النبى صلى الله عليه وسلم : " بئس القوم ، قوم يقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس ، بئس القوم ، قوم يمشى المؤمن بينهم بالتقية " . وروى أبو عبيدة ابن الجراح أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : " قتلت بنو اسرائيل ثلاثة وأربعين نبيا من أول النهار فى ساعة واحدة ، فقام مائة رجل واثنا عشر رجلا من عباد بنى اسرائيل فأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر فقتلوا جميعا فى آخر النهار من ذلك اليوم ، وهم الذين ذكرهم الله فى هذه الآية . اهـ .

واذا رجعنا الى القرآن الكريم وجدنا نوحا ، وابراهيم ، وهودا وصالحا ، وموسى ، وعيسى ، وغيرهم من الأنبياء والمرسلين صلوات الله عليهم أجمعين كانوا يقومون بالدعوة الى الله تعالى بين أقوامهم ويخرجونهم من الظلمات الى النور ، ويهدونهم الى سواء السبيل ، فالدعوة الى الله تعالى أمر قديم قدم الأديان ، ولولا الدعوة لما بلغت رسالة ، ولا عبد الله فى الأرض على النحو الصحيح .

كما أن الدعوة الى الله باقية بقاء الانسان ، والى يوم القيامة...

أهمية الدعوة وشدة الحاجة اليها قديما وحديثا :

والدعوة الى الله سبحانه وتعالى من الأهمية بمكانة لا تدرك ، وكيف لا ؟ وهى وظيفة النبيين والمرسلين وعباد الله الصالحين ، كما قدمنا ، فهى من الأمور التى لا غنى للبشرية عنها قديما وحديثا ، فدعوة الرسل عليهم الصلاة والتسليم تنقذ الناس من ظلمات الكفر الى نور الايمان ، ومن عبادة المخلوق الى عبادة الخالق ، ودعوة غير الرسل من علماء الأمة تبين للعباد معالم الدين ومزاياه ، وتوضح لهم ثمرة الايمان بالله التى هى سعادة الدارين ، وتدعوهم الى التمسك بعقائده وتنهاهم عما ينكره الشرع وتأمرهم بمعروفه على ضوء ما جاءت به الرسل من عند الله ، فدور الدعاة غير الرسل لا يقل أهمية عن دور الرسل ، ولم يزل الناس قديما وحديثا محتاجين الى الدعوة ولا سيما فى عصرنا هذا الذى شاع فيه الالحاد وانتشر فى أقطار المعمورة ، وعم بلاد المسلمين بحيث صار فيها المنكر معروفا ، والمعروف منكرا ، وذاع القول بانكار الخالق سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا ، وفشا القول بخلق الطبيعة ، فالحاجة الى الدعوة الآن لا تقل أهمية عن الحاجة اليها زمن بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم ، فالناس قبل بعثة نبينا صلى الله عليه وسلم كانوا فاقدى الأخلاق ، فى غاية السذاجة والانحلال والاباحية ، تعمهم الفوضى ، عيشهم السلب والنهب ، يعبدون الأحجار والأشجار والكواكب وغير ذلك ، يصنعون آلهة بأيديهم ويعبدونها ، ثم

بعد مدة يتركونها ويصنعون غيرها ، ويعبدون ذلك الغير برهة أخرى من الزمن ، وهكذا .

وكان من عادات العرب أن الرجل يتزوج بزوجة أبيه اذا مات ، ويرثها ارث المال ، وكانت المرأة يكون لها عشرة رجال يتوافدون اليها للزنا والعياذ بالله ، فاذا حملت لحقت حملها بمن تختاره منهم ، فقد ذكر العلماء أن سبب نزول قوله تعالى ((ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء الا ما قد سلف . . .))(١) أنه لما توفى أبو قيس بن الأسلت خطب ابنه امرأته فاستأذنت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ذلك ، فقال : " ارجعى الى بيتك " - فنزلت الآية(٢) .

وقد اتخذت بنوا حنيفة صنما من حلوى فعبدوه دهرا طويلا ، ثم أدركتهم مجاعة ، فأكلوه - وفيهم يقول الشاعر :

أكلت بنوا حنيفة ربهـا . . زمن التقحم(٣) والمجاعة

لم يحذروا من ربهم . . سوء العواقب والتباعة

---

(١) جزء من آية ٢٢ من سورة النساء .

(٢) وقد تزوج أبو قيس هذا المذكور زوجة أبيه أم عبيد الله كانت تحت أبيه الأسلت ، وتزوج الأسود بن خلف زوجة أبيه ابنة أبى طلحة العبدرية ، وتزوج عمرو بن أمية زوجة أبيه فولدت له أولادا ، وهذا كان كثيرا شائعا فى العرب .
انظر : أضواء البيان فى ايضاح القرآن بالقرآن جـ ١ ص ٢٧٧ - ط المدنى .

(٣) أى زمن الشدة والقحط - القاموس المحيط - مجد الدين محمد ابن يعقوب الفيروزآبادى - مادة (قحم) .

وقال فيهم آخر :

أكلت ربها حنيفة من جو . . ع قديم بها ومن اعواز

وقد كانت العرب قبل الاسلام طوائف متنازعة ، وقبائل متباغضة ،وذوى ديانات مختلفة متنافرة متعادية ، وكانوا نحلا متحاسدة . . . الى غير ذلك من مساوئهم ، وكذلك اليهود والنصارى كانوا فى غاية التنافر والتحاسد والتباغض والاختلاف فى الأديان ، كما حكى الله عنهم ذلك فى كتابه فى قوله ((وقالت اليهود ليست النصرى على شىء ، وقالت النصرى ليست اليهود على شىء . . . (١))) ، وقال فى شأن ديانتهم : ((وقالت اليهود عزير ابن الله ، وقالت النصرى المسيح ابن الله ... (٢)))

هذا ولم تكن الحالة السياسية بأقل اضطرابا فى ذلك العهد من الحالة الدينة والاجتماعية ، فقد أدى اختلاف القبائل الى تفككهم وذهاب وحدتهم ، فكانت أطراف الجزيرة العربية لقمة سائغة للمغيرين الأجانب ، فقوى نفوذ الأكاسرة فى الحيرة وما حولها ، وظهر سلطان الروم فى الشام ، ودخل الأحباش والفرس بلاد اليمن ، وكانوا يتقوون بأنصارهم من العرب على أعدائهم ، فكان العربى يعادى أخاه العربى ويقاتله ويريق دمه لا لسبب سوى الانتصار لسادته الأجانب ، هذا ولم تكن البلاد الأخرى بأقل شأنا من بلاد العرب ، فقد كانت تسودها الفوضى والاضطرابات دينيا وخلقيا واجتماعيا .

---

(١) جزء من آية ١١٣ من سورة البقرة .
(٢) جزء من آية ٣٠ من سورة التوبة .

فالامبراطورية الرومانية كانت في القرن السابع الميلادى متفككة الأوصال قسمت سنة ٣٩٥ م الى امبراطوريتين : شرقية ـ عاصمتها القسطنطينية ، وغربية ـ عاصمتها رومية ، وقد ضعفتا بسبب تنازع الأحزاب السياسية والفرق الدينية واختلاف ولاة الأمر .

ولم تكن الامبراطورية الفارسية بأقل حظا من جارتها قبيل البعثة في الفساد ، فقد كانت في حروب دائرة داخلية وخارجية ، وكانت تنافس الامبراطورية الرومانية عبدة المسيح ، وينهبون أموالهم ويأسرون رجالهم ويحملونهم الى بلادهم ، وأحيانا تدور الدائرة على الفرس فيغلبهم الروم ويقتلون منهم ويأسرون ويخربون ديارهم (١) .

ويصف بعض الباحثين العالم قبل الاسلام فيقول :

كان العالم قبل هذا النبي مملوءا بخيوم الاضطرابات والفتن والقلاقل ، ففي انجلترا كان (الأنجلو) ينازعون السكونيين ، وفي فرنسا كان أولاد (كلوفيس) متخاصمين متحاربين .

أما في ايطاليا فكان اسم الرومان وهو ذلك الاسم الشامخ قد فقد هيبته القديمة ، وكانت روما هي رأس ذلك التمثال الكبير المتهشم تترنح وتضطرب كلما ألمت بها طائفة من ذكريات عظمتها الراحلة .

---

(١) الاسلام ـ ظهوره وانتشاره ـ حامد عبد القادر ص ٧٢ ـ ٨٤ بتصرف ـ ط مكتبة نهضة مصر .

أما فى افريقيا فكان اليونانيون والرومانيون أنفسهم وهم أخلاط من عساكر وتجار وحكام دائبين على امتصاص دم مصر ساعين فى جعلها كالجثة الهامدة لا حس فيها ولا حركة .

وخلاصة القول : كان العالم مضطربا الى حد كبير ، وكان اعتماد الناس على وسائل الشر والبطش أكثر من اعتمادهم على وسائل الخير والاخاء ...

أما الوثنيون فكانوا يمثلون السواد الأعظم من أهل البلاد ، وكان لكل قبيلة منهم آلهة خاصة بهم ، وكانت لهم آلهة من الملائكة والجن والكواكب ، كانوا يعتقدون أن الملائكة بنات الله فيتخذونهم شفعاء لهم عند الله ويعبدونهم ويتوسلون بهم عنده ، وكان منهم من يعبد الكواكب فكنعان كانت تدين للقمر ، وكانت حمير تعبد الشمس ، وكان بنو لخم يسجدون للمشترى ... وهكذا ، وكان العرب مغرمين بشرب الخمر ولعب الميسر ، وكان من عادتهم أن يتزوج الرجل بقدر ما تسمح به أحواله المعيشية والمالية .. وكانت الأرملة تعد من ضمن ميراث زوجها ومن هنا نشأت تلك الارتباطات الزوجية بين أولاد الزوج ونساء الأب ، الأمر الذى حرمه الاسلام وعده زواجا ممقوتا ، وكانت المرأة عندهم متاعا يقتنى وسلعة تباع وتشترى ، ولا يهم الرجل ما يصيب الأسرة من تفكك وانحلال وانهيار ، وكان الزوج اذا بشر بالأنثى

توارى عن أهله حياء وخجلا (١) .

وقد جاء الاسلام الحنيف فأصلح العالم فى عقيدته ، وفى سياسته وفى اجتماعه ، وفى أخلاقه ، ووفر له الأمن ودله على سبل الخير ونصر المظلوم ، ووقف فى وجه الظلمة المعتدين ، ونشر ألوية الحق والعدل ، وجمل من العرب الممزقين الآثمين اللاهين الضعفاء المنبوذين أمة قوية الجانب ذات ارادة صلبة وعزيمة قوية ، وذات بنيان متين أسس على التقوى والتوحيد والعدل والعمل الصالح ... فانطلقت بالاسلام شرقا وغربا تجاهد فى سبيل الله وتنشر الحق وتغلق هام الباطل أنى وجدته فقضت على الوثنية العربية وعلى المجوسية الفارسية ، وعلى الطغيان الصليبى الرومانى ، وأعادت الى الناس الأمن وحققت فيهم العدل وأخرجتهم من الظلمات الى النور ، وما ذلك الا بفضل الدعوة الاسلامية واخلاص الدعاة فى سبيل الله تعالى ، هذه الدعوة التى أعادت للانسان كرامته رجلا كان أو امرأة ، ودفعته الى العمل النافع ، فانطلق على هدى ، يقيم المدنيات ويشيد الحضارات على أمتن الأسس وأفضلها .

هذه الدعوة التى حققت المجتمع الفاضل المتعاون على الخير والبر والمتحاب على التقوى والفلاح ، والذى جعل مقياس الانسان فيه

---

(١) نبى الاسلام ـ عز الدين فراج ص ٥ ـ ٧

بالتقوى والعمل الصالح ((... ان أكرمكم عند الله أتقاكم ...))[1]

والذى جعلت فيه المرأة ذات شأن خطير فكانت وظيفتها تربية لبنات الأمة والسهر على تنشئتها التنشئة الصالحة ، وأسست النظم السياسية التى تحقق الأمن والعدل والحرية ، والنظم الاقتصادية التى تحقق للناس التعاون على البر والتقوى لا على الربا والعدوان ، والنظم الاجتماعية التى أقيمت على الالتزام بالحقوق والواجبات التى فرضها الاسلام بين الآباء والأبناء والأقارب والجيران ، وبهذا صارت للاسلام أمته العظيمة التى نشرت العلم والعمل فى كل مكان .

واذا قارنا بين أحوال العالم قبل دعوة الاسلام وبين أحواله الآن فى عالمنا الذى نعيش فيه وجدنا تقاربا كبيرا بين حالنا وحالهم .

فما لا يكتمها أو تكتم فانه .. أخو ما غذته أمه بلبانها[2]

فكل ما ذكر عن العالم قبل الدعوة الاسلامية من الاضطرابات والانحلال والتقليد الأعمى والتباغض والتحاسد والاختلاف فى النزعات الدينية

---

(١) جزء من آية ١٣ من سورة الحجرات .

(٢) قائله أبو الأسود الدؤلى يخاطب مولى له يشرب الخمر يندبه الى تركها ويخبره أن النبيذ يقوم مقامها فان لم يكن خمرا فانه أخوها .
انظر : شرح العينى للشواهد مع الأشمونى جـ ١ ص ٧٧ ـ ٧٨ ط أولى ـ دار احياء الكتب العربية ـ عيسى البابى الحلبى وشركاه .

وفساد الأخلاق الاجتماعية ، وغير ذلك مما تقدم ذكره اذا قارنا بينهما وجدنا كل ما فى ذلك موجودا فى عالمنا اليوم مما يؤكد الدعوة الى الله تعالى ويبين شدة حاجة الناس اليها ، لأن العالم اليوم ينقسم الى أربعة أقسام : شيوعيين ملحدين ، وأهل كتاب ، ووثنيين ، ومسلمين — فالأقسام الثلاثة الأول بغض النظر عن الوثنى والشيوعى والكتابى الجميع كفار محتاجون الى من يدعوهم الى الله عز وجل لينقذهم من الظلمات الى النور ، فأهل الكتاب محتاجون الى من يفهمهم أنهم ملزمون باتباع شريعة محمد صلى الله عليه وسلم ، وأن تمسكهم بشرائع بنى اسرائيل لا ينفعهم ويفهمهم بأسلوب حكيم أن من كفر بنبى واحد من أنبياء الله فقد كفر بجميع الرسل ، ويوضح لهم أن هذه الكتب التى بأيديهم يعتمدون عليها ويقدسونها ليست من عند الله ، وانما هى من صنع البشر ، لأن الكتب التى أنزلها الله على أنبيائهم ضاعت على أسلافهم وأضاعوا ما بقى منها بأيديهم ، وحرفوه وبدلوا فيه واشتروا به ثمنا قليلا — كما سيأتى ان شاء الله تعالى — والحاصل أنهم محتاجون الى من يدعوهم الى الدخول فى دين الاسلام بالحكمة والموعظة الحسنة بحيث تدعوهم دعاة مهرة حذقون يعرفون ما يدعون اليه ، وكيف يدعون يبينون لهم أولا محاسن الاسلام وسماحته ومساواته للناس فى الحقوق وما فيه من الحرية الحقيقية والمساواة الكاملة وما فيه

من اللين والتيسير ورفع الآصار .. الى غير ذلك من محاسنه التى لا تحصى فاذا عقلوا سماحة الاسلام ورأوا دعاة عاملين بما يدعون اليه يأتون ما يأمرون به ويتركون ما ينهون عنه هان عليهم عند ذلك الدخول فى الاسلام اذا دعوا اليه ، لأن الخلق مجبول بالطبيعة على العبادة والناس لا يتركون شيئا كانوا يعبدونه الا اذا عوضوا شيئا يفضلونه عليه وأما الشيوعيون الملحدون فانهم فى أشد الحاجة الى من يدعوهم الى الاسلام ويبين لهم بطلان ما هم عليه برفق وسهولة ويقيم لهم الأدلة النقلية بعد العقلية على وجود الله تعالى ، وأن هذا العالم ما خلق عبثا ولا باطلا وأنه لا بد له من موجد ولا يمكن وجوده صدفة ولا يمكن أن توجده الطبيعة لأن الطبيعة مخلوقة ، والمخلوق لا يوجد المخلوق ، كما يحتاجون الى من يقيم لهم الأدلة على احياء الأجساد بعد موتها ، ويبين لهم ذلك بالأدلة العقلية بعد النقلية أيضا ويوضح لهم أن القادر على البدء قادر على الاعادة من باب أولى ويخبرهم أن كل انسان كائنا من كان لا بد أن يلقى جزاء عمله بعد موته ان خيرا فخير ، وان شرا فشر .

أما الوثنيون فيحتاجون كذلك الى الدعوة الى الله ولا بد لهم من دعاة علماء يبينون لهم حقائق الوثنية ، وأن الله جل وعلا هو الذى يستحق أن يعبد وحده ، وأن الأحجار والأشجار والبقر والكواكب

لا تضر ولا تنفع ، فان من بيده الضر والنفع ـ وهو الله تبارك وتعالى ـ هو الذى يستحق العبادة وحده .

وأما المسلمون فانهم أشد حاجة الى الدعوة فى نظرى من الأقسام السابقة ، وذلك أن الكثير من المسلمين انحرف عن طريق الاسلام والتخلق بأخلاقه والتعلم بتعاليمه والتأدب بآدابه الا من رحم الله فالغالبية من المسلمين جهلاء بالاسلام لا يعرفون منه الا اسمه ، ولا يفهمون منه الا بعض أشكاله وصوره ، فهم بين عبدة أضرحة ، وعبدة أشخاص موزعين بين طوائف شتى ، وطرائق قددٍ ، وبين عبدة أصنام آدمية ينحنون لها ويركعون ، وبين أتباع ومقلدين لمشايخ وعلماء لا يتبعون ما صح فى الدين ولا ما ثبت عن سيد المرسلين صلوات الله وسلامه عليه ـ فهذا حالهم : جهل وضلالة ، وضعف وتأخر ... أما مثقفوهم فاذا علموا شيئا فعن غير الاسلام ، واذا اتبعوا شيئا فهو ما يأتى به أعداء الاسلام من المستعمرين .

والكثير منهم اجتاحته الشيوعية الماركسية وصار يحسب على الاسلام والمسلمين وهو بعيد من ذلك بعد الشمس من اللمس .

وكثير اجتاحته الحضارة الغربية وصار يهزأ ويسخر من المسلمين المتمسكين بالدين الحنيف ويعدهم رجعيين متأخرين متزمتين .

هكذا حال الكثير من المسلمين ، وهناك البقية المتمسكة بدينها الحنيف وبمبادئه القيمة وأخلاقه السامية ، بيد أنه يخاف عليها وهى

محاطة بهذه الأجواء الداكنة فتحتاج هي وغيرها احتياجا ملحا الى الدعوة الى الله ليرجع الجميع الى دينهم الحنيف ويفهموا حقائقه ويعلموا أنه دين الحق ولا دين سواه ((ان الدين عند الله الاسلام ...))(١)

ان المسلمين اليوم في حاجة الى من يبصرهم بأمر أعدائهم وتآمراتهم ضدهم ...

اذا علموا هذا كله تبينت لهم حقائق أعدائهم شرقيين كانوا أو غربيين ، ومدى عداوتهم للاسلام والمسلمين ، وعلموا أن الحضارة الغربية مادية بحتة تقوم على جمع المال من الربا والغش والدعارة وغير ذلك من الوسائل المذمومة وهي بعيدة كل البعد عن القيم الرفيعة والروحية الخالصة ، وعلموا أن الشيوعية تقوم على الالحاد وانكار الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد ، فعندئذ يقفون على كيدها وخداعها للاسلام .

وقد ظهر من هذا العرض السريع لأحوال العالم الآن وأحواله قبل الدعوة الاسلامية ، وفي أولها حاجة الناس اليوم الى الدعوة أن لا تقل عن حاجتها اليها حين قام نبينا محمد صلى الله عليه وسلم والرعيل الأول من هذه الأمة بعده .

---

(١) جزء من آية ١٩ من سورة آل عمران .

دفع شبهة :

يقول بعض المعاصرين انه لا جدوى من الدعوة الى الله اليوم بعد أن عم الفساد وامتلأت الحياة بالزور والآثام ، وختم على قلوب الناس وأبصارهم فما عادوا يعرفون الحق ، ولا تؤثر فيهم المظة ولا تستقبل قلوبهم النصيحة ، فطبائعهم هى طبائعهم ، وغرائزهم هى غرائزهم ، ولا ينفع فيهم وعظ ولا تجدى فيهم دعوة .

ولا ريب أن هذه وجهة نظر خاطئة تنظر الى الانسان نظرة تشاؤم ولا تقوم على أسس صحيحة اذ أنه لو ترك الانسان على ما هو عليه من الشر والفساد لعم هذا الفساد والشر حتى يتحول العالم الى غابات محترقة .

فالتوهين من أمر الدعوة هو سبيل الفساد والافساد ، وسبيل هلاك الانسان والمجتمعات ، وهو مخالف للدين الحنيف الذى أمر بالدعوة حتى قيام الساعة ومخالف للواقع والتاريخ ، فلن يخلو العالم من احتياجه الى الدعوتين : دعوة الاسلام ، والدعوة الى الاسلام .

الفرق بين الجملتين :

ولا شك أن هناك فرقا كبيرا بين الجملتين (دعوة الاسلام) و (الدعوة الى الاسلام) ، فالأولى هى مبادىء الاسلام ومحتوياته

من العقيدة والشريعة والعبادات والمعاملات والنظم ... الـخ وهذه هي دعوة الأنبياء عليهم صلوات الله وسلامه يأتون النـاس بالشرائع ويعلمونهم العقيدة ومبادئ الدين ويبينون لهم الحـلال والحـرام .

أما الدعوة الى الاسلام فهي الدعوة الى هذه المبادئ والعقائد والنظم والشرائع التي أسسها الاسلام على ألسنة الدعاة من الرسل .

فالأولى شرح وبيان وتفصيل للاسلام نفسه ، والثانية دعـوة الناس الى هذه المبادئ .

ولا ريب أن كل داعية الى الاسلام يتعرض تلقائيا لبيان الاسـلام وشرحه ، واذا فبين الجملتين تشابك وارتباط وثيقان ، وعليه فيجـب على المسلمين أن ينهضوا خفافا وثقالا ويقيموا دعاة من خيار هذه الأمـة علماء أتقياء نصحاء يدعون هذا العالم كله الى دين الله .

يدعون أهل الكتاب للاهتداء بالقرآن الكريم الذي أمرتهم كتب أنبيائهـم أن يتبعوه .

ويدعون الوثنيين الى الدخول في الاسلام ويبينون لهم حقائق الجمادات وأنها لا تنفع ولا تضر .

ويدعون الشيوعيين الملحدين الى التخلي عما هم عليه من الالحـاد ولا ييئسوا من دعوة الجميع ولا يسأموا ، ويدعون المسلمين المنحرفـين

الى الرجوع الى دينهم والانابة اليه والتوبة مما سلف منهم من الذنوب ويدعون المسلمين المتمسكين بدينهم الحنيف الى المض عليه بالنواجذ حتى يأتى نصر الله .

ولا شك أن أحوال الناس تختلف بعد الدعوات الاصلاحية عما كانت عليه قبلها ، كما أنه لايشك أحد فى ضعف العرب وشيوع المنكرات فيهم وعبادتهم الأوثان قبل الاسلام وأنهم قد تحولوا بالدعوة الى الله عما كانوا عليه ، وصاروا أمة قوية تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله .

وفى العالم المعاصر كذلك نقرأ ونسمع كثيرا مما هو واقع فعلا عن أناس كثيرين تحولوا من دياناتهم التى كانوا عليها الى ديانات أخرى وانسلخوا من مذاهبهم التى نشأوا عليها الى مذاهب أخرى ، فهناك دول يزيد عدد أهلها على مئات الملايين انتقلت من المسيحية الى الشيوعية فى أول هذا القرن كما حدث لروسيا المسيحية التى غزاها الالحاد الشيوعى ...

ان عالمنا المعاصر تجتاحه المادية المقفة ويملأ جوانبه الانحطاط الخلقى ويسوده التفاؤل البغيض والحروب المدمرة ، فهل يترك على حاله دون تغيير ؟ (١) .

---

(١) الدعوة الى الله ـ للدكتور أبو المجد السيد نوفل ـ ص ٢٣ ـ ٢٥

ومن نظر الى حال العرب قبل الاسلام كما ذكرنا عنهم ، ونظر الى حالهم بعد دعوة الاسلام ، وبعد أن هداهم الله برسالة محمد صلى الله عليه وسلم ودعوته لهم رأى تباينا كبيرا ، فقد اجتمعوا على الاسلام وألف الله بين قلوبهم فأصبحوا بنعمته اخوانا ، كما نبههم تعالى على تلك النعمة فى قوله ((... واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته اخوانا ، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها ...(١))) .

أهداف الدعوة :

ان أهداف الدعوة الى الله تعالى يمكن حصرها فى هدف واحد وذلك الهدف هو الايمان بالله جل وعلا وتوحيده لأنه ما من نبى من الأنبياء أرسله الله داعيا اليه الا أمر قومه أولا بالايمان بالله وتوحيده قال جل وعلا ((وما أرسلنا من قبلك من رسول الا نوحى اليه أنه لا اله الا أنا فاعبدون(٢))) ، وقد كان للدعوة أهداف أخرى ، الا أن جميعها تابع لهذا الهدف الأساسى الذى بدونه لا تمكن دعوة الى الاسلام .

ويدخل فى ذلك الايمان بالرسل والملائكة والكتب المنزلة من عند الله والايمان بالقدر خيره وشره وبالبعث يوم الجزاء ، اذ كل من

---

(١) جزء من آية ١٠٣ من سورة آل عمران .
(٢) آية ٢٥ من سورة الأنبياء .

آمن بالله حق الايمان وعبده حق عبادته لزمه الايمان برسله كلهم وبملائكته لأنه لا تمكن معرفة الايمان الا عن طريق الرسل ، ورسل الله جعل الله بينهم وبينه واسطة تأتيهم تلك الواسطة بالكتب من عند الله وهي الملائكة الكرام فالكتب التي تنزل من السماء تنزل بواسطة جبريل عليه السلام ، فمن آمن بالله ورسله وكتبه لزمه الايمان بالملائكة والا لم يكن مؤمنا قال تعالى : (آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملئكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله . . .) (١) .

وكذلك يلزم من الايمان برسل الله الايمان بالقدر خيره وشره وبالبعث يوم الجزاء لأن الرسل أخبرت بذلك ، فقد ثبت في صحيح مسلم في حديث جبريل الطويل عن عمر بن الخطاب " . . . قال فأخبرني عن الايمان قال أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره قال صدقت . . " (٢) .

وسورة ابراهيم هذه التي نحن بصدد تفسيرها ، وبيان الدعوة الى الله فيها بينت ذلك كله كما ستقف عليه ان شاء الله في مواضعه منها .

ومن أهم أهداف الدعوة الى الله حث المسلمين على العمل الصالح والعمل الصالح قرين الايمان في القرآن الكريم فالغالب في القرآن .

---

(١) جزء من آية ٢٨٥ من سورة البقرة

(٢) صحيح مسلم جـ ١ ص٣٧ - طـ دار الفكر بيروت

أنه كلما ذكر الايمان أردفه بالعمل الصالح ، لأن الايمان دون العمل لا ينفع ، اذ الايمان : قول واعتقاد وعمل ، قال تعالى ((ان الذين آمنوا وعملوا الصلحت كانت لهم جنات الفردوس نزلا (١))) ، وقال تعالى ((والعصر ان الانسان لفى خسر الا الذين آمنوا وعملوا الصلحت وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر (٢))) ، وقال تعالى ((ان الذين آمنوا وعملوا الصلحت أولئك هم خير البرية (٣))) ، وقال تعالى ((... ومن عمل صلحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب (٤))) ، الى غير ذلك من الآيات الكثيرة .

ولقد كان هذا هو الهدف الثانى من أهداف الدعوة فى عهديها : المكى والمدنى ، وكان هذا هو عمل الرسول صلى الله عليه وسلم فى مكة المكرمة وفى المدينة المنورة ، حتى لحق بالرفيق الأعلى ، فكان يدعو أولا الى الايمان بالله وبتوحيده ، ثم يدعو بعد ذلك الى العمل الصالح .

والمراد بالعمل الصالح كل ما ينفع الانسان فى دينه وفى نفسه وأهله وفى مجتمعه ... وكل ما يقوى المسلمين ويحقق قوتهم من البناء العلمى والاجتماعى والسياسى والاقتصادى والخلق ... على الأسس

---

(١) آية ١٠٧ من سورة الكهف .
(٢) سورة العصر بكاملها .
(٣) آية ٧ من سورة البينة .
(٤) جزء من آية ٤٠ من سورة غافر .

التى جاء بها الاسلام .

ان العمل الصالح فى الاسلام هو الذى يجعل قوة المسلمين فوق كل قوة ، ورايتهم تعلو كل راية ، ولا يتحكم فيهم أحد ((كنتم خير أمة أخرجت للناس . . .)) ، ولا شك أن الخيرية هنا تشمل الخيرية فى القوتين : الروحية والمادية .

فهدف الدعوة أن يتحول الناس من ضلالة الى هدى ، ومن ضعف الى قوة ، ولن يتحولوا اليها الا بالعمل الصالح المنبثق من هدى الاسلام وعقيدته السمحاء ، وقد أخذت سورة ابراهيم بحظ وافر من هذا الهدف فقد دعت الى العمل الصالح ، والى مكارم الأخلاق كما فى قوله تعالى ((قل لعبادى الذين آمنوا يقيموا الصلوة وينفقوا مما رزقناهم سرا وعلنية من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلل))(١) .

ومن أهداف الدعوة الى الله تنبيه المسلمين الى أعمال أعدائهم والى الخطر المحدق بهم ، وتبصيرهم بطريق الوحدة واخراجهم مما هم فيه من التمزق والتفرق والحزبية ، قال تعالى ((واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا . . .))(٢) ، وقال تعالى ((وأطيعوا الله ورسوله ولا تنزعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا ان الله مع الصبرين))(٣) .

---

(١) آية ٣١ من سورة ابراهيم .

(٢) جزء من آية ١٠٣ من سورة آل عمران .

(٣) جزء من آية ٤٦ من سورة الأنفال .

والعمل على ابراز شخصية المسلم واستقلاله عن غيره واعتزازه بدينه لا بغرب ولا بشرق .

واصلاح أمر المسلمين خاصة والعالم عامة بنشر الوعى الدينى بين المسلمين ، والدعوة الى اظهار مساوى الجهل بالاسلام والآثار التى ترتبت على اهماله واهمال شريعته .

أما بالنسبة الى غير المسلمين فبالتركيز على مهاجمة المادية التى تقوم عليها الحضارة الأوربية و بيان ضلالتها وزيفها . . .

وعلى مهاجمة الشيوعية الملحدة ، وبيان ما يلاقيه العالم اليوم من آثار الحقد الصليبى ، والعدوان الصهيونى ، والشيوعية الهدامة . . . من حروب ساخنة ، وأزمات اقتصادية واجتماعية وسياسية فى كل مكان .

أهداف الدعوة فى سورة ابراهيم :

وقد بدئت سورة ابراهيم بدعوة كافة الناس الى الايمان بالله تعالى وتوحيده وذلك بقوله تعالى ((الركتب أنزلناه اليك لتخرج الناس من الظلمات الى النور . . .)) ، فاخراج العباد من ظلمات الكفر الى نور الايمان وهو توحيد الله تعالى بعينه .

وهذا هو الهدف الأساسى من أهداف الدعوة الى الله .

وفى الآية الثانية منها أقيم الدليل على وحدانيته تعالى . حيث أخبر تعالى أن له ملك السموات والأرض وما بينهما ، فالذى يملك السموات

والأرضين ويتصرف فيهما ، هو الذى يستحق العبادة وحده .

كما تناولت السورة الكريمة الايمان بالرسل عليهم الصلاة والسلام فقد ذكر فيها عدد من الرسل (كمحمد) صلى الله عليه وسلم حيث خوطب فى أولها ، و (موسى) و (نوح) و (هود) و (صالح) ثم (ابراهيم) عليه السلام .

وكان الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم فيها باخباره بأن الله أنزل اليه كتابا ، والايمان بهذا الكتاب الذى هو القرآن يستلزم الايمان بالكتب السماوية ، لأنه أخبر بها وأبدى حقائقها ، ثم بعد ذلك تناولت السورة اثبات وجود الله تعالى ودعم ذلك بالدليل فى قوله جل وعلا ((قالت رسلهم أفى الله شك فاطر السموات والأرض ... (١)))

فقد تضمنت الآية أن وجود الله لا يحتمل الشك لظهور الأدلة عليه .

ومن أعظم الأدلة عليه كونه فاطر السموات والأرض أى مبدعهما وموجدهما من العدم ، وقد أفردت تفسير هذه الآية بفصل مستقل أول فصول الباب الثالث من هذه الرسالة ، بينت فيه الأدلة على وجود الله تعالى من القرآن الكريم ، وذكرت فيه عقيدة السلف ، وبينت أقسام التوحيد الثلاثة : توحيد الألوهية ، وتوحيد الربوبية ، وتوحيد الأسماء والصفات ، وعقيدة المسلمين اجمالا وأركان الايمان الستة ، واعتقاد

---

(١) جزء من آية ١٠ من سورة ابراهيم .

المسلمين فى الرسل والكتب السماوية ، واليوم الآخر ، والقدر خيره وشره ، ومعتقد أهل الكتاب فى الألوهية والنبوات .

وقد تناولت السورة أيضا البعث من القبور ، وذلك فى قوله : ((يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات وبرزوا لله الواحد القهار)) لأن المراد بذلك اليوم يوم القيامة .

والسؤال فى القبر ، وذلك فى قوله تعالى ((يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحيوة الدنيا وفى الآخرة)) .

ومن أهداف الدعوة فى السورة : العمل الصالح والأخلاق الفاضلة ، وذلك فى قوله تعالى ((قل لعبادى الذين آمنوا يقيموا الصلوة وينفقوا مما رزقنهم سرا وعلنية ...)) كما تقدم .

والتباعد من الشرك بالله وذلك فى قولى تعالى ((واذ قال ابراهيم رب اجعل هذا البلد آمنا واجنبنى وبنى أن نعبد الأصنام)) الى غير ذلك مما تناولته سورة ابراهيم من أهداف الدعوة الى الله مما سيقف عليه القارئ لهذه الرسالة ان شاء الله فى حينه .

وينشأ الآن سؤال :

هل هذه الدعوة عالمية ؟ فيحق لها أن توجه الى الناس كافة ؟

وجواب ذلك فى الفصل التالى .

الفصل الثاني

في عموم الدعوة الاسلامية

وقد قسمته الى قسمين :

الأول : خصوص الدعوات قبل دعوة الاسلام وأدلة ذلك .

الثاني : عموم دعوة الاسلام وأدلة ذلك من الكتاب والسنة والاجماع .

وهذا الفصل ينطلق من أول هذه السورة الكريمة - سورة ابراهيم الخليل عليه السلام - والتي آن الأوان للبدء في تفسيرها ، وذلك لأن هذه السورة افتتحت بما يدل على عموم رسالة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، وذلك في قوله ((الركتب أنزلناه اليك لتخرج الناس من الظلمات الى النور ...)) ، والآية الخامسة منها دلت على خصوصية رسالة موسى عليه السلام ، وذلك في قوله ((ولقد أرسلنا موسى بآياتنا أن أخرج قومك من الظلمات الى النور ...)) .

فأول آية في السورة دلت على عموم الرسالة الاسلامية لأن القرآن وهو الكتاب المذكور فيها أنزل ليخرج به الرسول صلى الله عليه وسلم الناس جميعا من الظلمات الى النور ، والآية الخامسة منها دلت على خصوص رسالات الأنبياء السابقين ، ولنبدأ أولا بالخصوص قبل العموم تمشيا مع الترتيب الزمني للرسالات ، وقد اشتمل هذا القسم الأول

على النقاط التالية :

١ - معنى العموم والخصوص .

٢ - استدلال العلماء على خصوصية رسالة موسى .

٣ - النصوص القرآنية الدالة على خصوص الرسالات قبل رسالة محمد صلى الله عليه وسلم .

٤ - تفسير الآيات من ٥ الى ٨ وذكر أقوال العلماء فى ذلك .

٥ - الدعوة الى الله فى هذه الآيات .

معنى العموم والخصوص :

العموم فى اللغة الشمول : يقال عم المطر الأرض اذا شملها من جميع النواحى ، وعم الخصب جميع البلاد ، ويقال عمهم الأمر يعمهم عموما شملهم ، ويقال عمهم بالعطية اذا شملهم عطاؤه .

والعامة خلاف الخاصة (١) .

والخصوص فى اللغة الافراد ، يقال : خصه بالشىء يخصه خصا وخصوصا وخصوصية و خصوصية ، والفتح أفصح ، وخصيصى وخصصه واختصه أفرده دون غيره ، ويقال : اختص فلان بالأمر وتخصص له اذا انفرد (٢) .

---

(١) انظر : لسان العرب جـ ١٥ ص ٣٢١ ط تصوير على طبعة بولاق المؤسسة المصرية العامة للتأليف والانباء والنشر .

(٢) لسان العرب جـ ٨ ص ٢٩٠ المصدر السابق .

قوله تعالى ((ولقد أرسلنا موسى بآياتنا أن أخرج قومك من الظلمات الى النور وذكرهم بأيام الله ان فى ذلك لآيات لكل صبار شكور)) ان المصدر الأول للايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله هو القرآن الكريم الذى أنزله الله على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم مصدقا لما بين يديه من الكتب ومهيمنا عليها ، وقد أخبرنا جل وعلا فى هذا الكتاب أنه مصدق للكتب التى أنزلها على رسله قبل نبينا صلى الله عليه وسلم ومهيمن عليها أى مؤتمن عليها وأمين وشاهد وحاكم ، قال تعالى : ((وأنزلنا اليك الكتب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتب ومهيمنا عليه ...)) (١) (٢) .

ولقد دلت هذه الآية الكريمة على خصوص رسالة موسى عليه السلام ، كما دلت آيات أخر على خصوص رسالات باقى الأنبياء غير محمد صلى الله عليه وسلم ، وذلك أن الله أخبر فيها أنه أرسل نبيه موسى بآيات من عنده ، وأمره باخراج قومه خاصة ، ولم يأمره باخراج غيرهم من الظلمات الى النور ، فكان الأمر لموسى باخراج قومه خاصة .

---

(١) جزء من آية ٤٨ من سورة المائدة .

(٢) والكتاب اسم جنس يشمل جميع الكتب المتقدمة المنزلة من عند الله فهذا الكتاب الذى هو القرآن عم على جميع الكتب ، كما أن من أنزل عليه عمت رسالته جميع الخلق ، والعموم بعد الخصوص أمر طبيعى جرت به العادة ، فالاسلام أولا بدأ فى مكة المكرمة ، ثم فى المدينة المنورة ، ثم انتشر فى جزيرة العرب ، ثم عم البلاد ، والمطر يبدأ رشا ، ثم طلا ، ثم وبلا ثم يعم البلد ، وهكذا الرسالات التى سبقت رسالة محمد صلى الله عليه وسلم كانت

ومعنى أن أخرج : أى أخرج لأن أرسلنا فيه .

معنى القول : فتكون أن بمعنى أى التفسيرية ، وقيل إنها مصدرية ، فتكون أن أخرج بمعنى باخراج ، واختلف فى المراد بالآيات هنا فقيل : انها الحجج والأدلة القاطعة على صدق موسى فيما أخبر به عن ربه من الرسالة ، روى هذا القول ابن جرير عن مجاهد ، وقيل : ان المراد بالآيات : الآيات التسع المذكورة فى قوله ((ولقد آتينا موسى تسع آيت بينت . . . (١))) ، وفى قوله تعالى ((. . . فى تسع آيت الى فرعون وقومه انهم كانوا قوما فسقين (٢))) - رواه أيضا ابن جرير عن مجاهد واقتصر عليه ابن كثير .

قلت : الظاهر أنه لا منافاة بين القولين لأن الحجج والبراهين الدالة على صدق موسى هى نفس الآيات التسع التى أيده الله بها ، فهى براهين قطعية وحجج واضحة على صدقه .

وسأذكر ان شاء الله الآيات التسع التى أيد الله بها موسى فى الباب الثانى من هذه الرسالة .

= خاصة بالأقاليم التى يبعث فيها ذلك الرسول لا تتجاوز رسالته الاقليم الذى بعث فيه بخلاف رسالة خاتم الأنبياء فقد عمت جميع الأزمنة والأمكنة - كما سترى ان شاء الله فى القسم الثانى من هذا الباب ، وضمنت للبشرية جميع متطلباتها فى الحياتين بحيث لا تحتاج الى رسالة أخرى .

---

(١) جزء من آية ١٠١ من سورة الاسراء .
(٢) جزء من آية ١٢ من سورة النمل .

استدلال العلماء على خصوصية رسالة موسى من القرآن :

وقد استدل العلماء على خصوص رسالة موسى عليه السلام بهذه الآية وبغيرها من الآيات ، قال أبو حيان فى تفسيره لهذه الآيـــة : وفى قوله ((قومك)) خصوص لرسالته الى قومه بخلاف ((لتخرج الناس))[1] كما اختلف فى المراد بقوله ((قومك)) فى الآية ، فقال بعضهـــم : ان المراد بهم بنوا اسرائيل ، وهذا هو ظاهر كلام ابن جريـــــر وابن كثير والزمخشرى فانظرهم ، وكذلك الألوسى فى روح المعانـــى فانه قال : والمراد من قومه عليه السلام كما هو الظاهر بنوا اسرائيـــل ومن اخراجهم اخراجهم بعد مهلك فرعون من ظلمات الكفر والجهالات التى كانوا فيها ، وأدت بهم الى أن يقولوا يا موسى اجعل لنا الهـا كما لهم آلهة[2] .

واستظهره أيضا أبو حيان حيث قال : والظاهر أن قومه هـــم بنوا اسرائيل ، وقيل : القبط ، فان كانوا القبط فالظلمات هنا الكفر والنور الايمان ، وان كانوا بنى اسرائيل وقلنا انهم كلهم كانوا مؤمنيـــن فالظلمات ذل العبودية والنور العزة بالدين وظهور أمر الله وان كانوا أشياعا متفرقين فى الدين قوم مع القبط فى عبادة فرعون ، وقوم عـــلى

---

(١) البحر المحيط جـ ٥ ص ٤٠٤ ط دار الفكر .

(٢) روح المعانى جـ ١٣ ص ٦٨ ط ادارة الطباعة المنيرية بمصر .

غير شيء فالظلمات الكفر ، والنور الايمان ، قيل : وكان مبعوثا الى القبط وبني اسرائيل وقيل الى القبط بالاعتراف بوحدانية الله والايمان بموسى وانه نبي والى بني اسرائيل بالتكليف وبفروع شريعته اذ كانوا مؤمنين " (١) .

انتهى كلامه (٢)

---

١) البحر المحيط جـ ٥ المصدر السابق نفسه

٢) قلت : كثر التعبير في القرآن الكريم عن بني اسرائيل بلفظة القوم مضافة الى موسى مما يؤيد أن المراد من قوله : ان اخرج قومك بنواسرائيل ، قال تعالى (واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلا جسدا له خوار ..) - جزء من آية ١٥٨ من سورة الاعراف - ومعلوم ان المراد بالقوم هنا بنوا اسرائيل لأن هذا بعد اغراق فرعون ونجاة بني اسرائيل وذهاب موسى لميقات ربه لمناجاته ، وقال تعالى (واختار موسى قومه سبعين رجلا لميقاتنا) جزء من آية ١٥٥ من سوره الاعراف - والمراد بالقوم هنا بنوا اسرائيل بلا شك ، وقال تعالى (ولما رجع موسى الى قومه غضبان أسفا) جزء من آية ١٥٠ من سورة الاعراف - وذلك في رجوعه من مناجاة ربه وكل ذلك بعد عبور بني اسرائيل للبحر واغراق فرعون وقومه وورد ت آيات أخر تدل على ان القوم المراد اخراجهم من الظلمات الى النور فرعون وقومه فقد اخبر الله في غير ما آية انه ارسل موسى الى فرعون وقومه فقال (انا ارسلنا اليكم رسولا شهدا عليكم كما ارسلنا الى فرعون رسولا فعصى فرعون الرسول) - آيه ١٥ وجزء من آية ١٦ من سورة المزمل - وقال تعالى (ولقد فتنا قبلهم قوم فرعون وجاءهم رسول كريم ان ادوا الى عباد الله اني لكم رسول امين آيتي ١٧ - ١٨ من سورة الدخان - والقرآن كثر فيه التعبير عن الكفر بالظلمات ، وعن الايمان بالنور ، وعليه فيكون القول بان القوم المذكورين بنوا اسرائيل خاصة مخالف للغالب في القرآن اذا قلنا انهم كانوا

مؤمنين ، فاذا رأيت

. . . . . .

هذا فاعلم أن الله صرح بأنه أرسل موسى عليه السلام الى قوم فرعون ، كما قال ((واذ نادى ربك موسى أن ائت القوم الظالمين قوم فرعون ألا يتقون)) - آية ١٠ - ١١ من سورة الشعراء - وصرح بأنه أرسله الى فرعون فقال ((اذهب الى فرعون انه طغى)) - آية ١٧ من سورة النازعات - ومن المعلوم أن بنى اسرائيل فى ذلك الوقت الذى بعث فيه موسى الى فرعون تحت سيطرة فرعون وتحت حكمه ، وقد أخرج الله بعضا من قوم فرعون من ظلمات الكفر الى نور الايمان مثل : آسية بنت مزاحم زوج فرعون التى قالت ((رب ابن لى عندك بيتا فى الجنة ونجنى من فرعون وعمله ونجنى من القوم الظالمين)) - جزء من آية ١١ من سورة التحريم - وكمؤمن آل فرعون الذى ذكر الله فى سورة غافر فى قوله ((وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم ايمانه أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله)) - جزء من آية ٢٨ من سورة غافر ، وكذلك خازن فرعون وامرأته أى امرأة الخازن والسحرة وقد ذكر المفسرون أن هؤلاء المذكورين هم الذرية التى أخبر الله أنها آمنت لموسى وذلك فى قوله ((فما آمن لموسى الا ذرية من قومه على خوف من فرعون ...)) - جزء من آية ٨٣ من سورة يونس - وكونها من بنى اسرائيل يعنى أن بنى اسرائيل آمنوا كلهم أو جلهم .

وعلى هذا يتعين حمل الآية عندى على أن المراد بالقوم قوم موسى الذين بعث فيهم بما يشمل القبط وبنى اسرائيل ، لأن موسى تربى فى أحضان فرعون حتى خرج من مصر الى أرض مدين ولا مانع من اطلاق قومه عليهم وان لم يكن منهم نسبا .

وهذا القول قدمت عن أبى حيان أنه حكاه بصيغة التمريض

وقد دلت آيات أخر على خصوصية رسالة موسى عليه السلام كقوله تعالى ((ثم بعثنا من بعدهم موسى بآياتنا الى فرعون وملائه فظلموا بها فانظر كيف كان عاقبة المفسدين))[1] .

وقوله تعالى ((ولقد أرسلنا موسى بآياتنا الى فرعون وملائه فقال انى رسول رب العالمين)) .. الى غير ذلك من الآيات التى تدل على خصوصية رسالة موسى عليه السلام ، وأنها لا تتجاوز الزمان والمكان الذى بعث فيهما ، وكذلك غيره من الأنبياء عليهم صلوات الله وسلامه غير نبينا صلى الله عليه وسلم .

(قيل) والأظهر عندى أنه هو الصحيح و يتعين حمل الآية عليه ، ويؤيد ذلك ما ذكره ابن كثير فى تفسيره عند قوله تعالى ((ولقد أرسلنا موسى بآياتنا الى فرعون وملائه فقال انى رسول رب العالمين)) - آية ٤٦ من سورة الزخرف - قال : يقول تعالى مخبرا عن عبده ورسوله موسى عليه الصلاة والسلام أنه ابتعثه الى فرعون وملائه من الأمراء والوزراء والقادة والأتباع والرعايا من القبط وبنى اسرائيل يدعوهم الى عبادة الله وحده لا شريك له ، وينهاهم عن عبادة ما سواه . اهـ . ابن كثير جـ ٤ ص ١٢٩ ط دار احياء الكتب العربية .

---

[1] آية ١٠٣ من سورة الأعراف .

الأدلة من السنة على خصوص الدعوات قبل دعوة الاسلام :

لقد كان كل نبى يبعث الى قومه خاصة ، وبعث محمد صلى الله عليه وسلم لكافة الخلق الأحمر والأسود ، كما ثبت عنه صلى الله عليه وسلم فى الصحيحين أنه قال : " أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلى ، كان كل نبى يبعث الى قومه خاصة و بعثت الى كل أحمر وأسود ، وأحلت لى الغنائم ولم تحل لأحد قبلى ، وجعلت لى الأرض طيبة طهورا ومسجدا ، فأيما رجل أدركته الصلاة صلى حيث كان ، ونصرت بالرعب بين يدى مسيرة شهر ، وأعطيت الشفاعة "(١) .

هذا لفظ مسلم .

---

(١) مسلم جـ ١ ص ٣٧٠ - ٣٧١ - تعليق محمد فؤاد عبد الباقى ط دار الفكر - بيروت .
والبخارى فى كتاب التيمم جـ ١ ص ٩١ .

نصوص القرآن تدل على خصوصية الرسالات قبل رسالة الاسلام

قدمنا قريبا بعضا من الآيات الدالة على خصوص دعوة موسى عليه السلام ، واليك بعض النصوص الدالة على خصوص دعوة عيسى عليه السلام ، قال تعالى : ((ويعلمه الكتب والحكمة والتوراة والانجيل ورسولا الى بنى اسرائيل))(١) ، أى ويجعله رسولا الى بنى اسرائيل ، أو يكلمهم فى حال كونه رسولا الى بنى اسرائيل ، وقال تعالى ((واذ قال عيسى ابن مريم يبنى اسرائيل انى رسول الله اليكم مصدقا لما بين يدى من التوراة))(٢) ، فقد حكى القرآن الكريم عن عيسى أنه رسول الى بنى اسرائيل ولم يرد أنه أرسل الى غيرهم ، ولا يرد على هذا أن الرسول صلى الله عليه وسلم أمر بانذار عشيرته الأقربين مع عموم رسالته كما يأتى ، فان النصوص الكثيرة دلت على عموم رسالته من الكتاب والسنة كما سيأتى ان شاء الله .

فعيسى عليه السلام قال لبنى اسرائيل : انى رسول الله اليكم أى أنا مرسل اليكم أنتم وحدكم يا بنى اسرائيل دون من سواكم فى حال كونى مصدقا لما بين يدى من كتاب موسى الذى جاءكم به وهو التوراة ، ولم يقل

---

(١) آية ٤٨ ، وجزء من آية ٤٩ من سورة آل عمران .
(٢) جزء من آية ٦ من سورة الصف .

انى رسول الله اليكم والى غيركم كما قال محمد صلى الله عليه وسلم .

وقال تعالى فى شأن خصوصية دعوة نوح عليه السلام ((انا أرسلنا نوحا الى قومه أن أنذر قومك من قبل أن يأتيهم عذاب أليم (١))) وقال فيه أيضا ((ولقد أرسلنا نوحا الى قومه فلبث فيهم ألف سنة الا خمسين عاما ... (٢))) ، وقال تعالى فى شأن خصوصية دعوة هود عليه السلام ((والى عاد أخاهم هودا قال يقوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره أفلا تتقون (٣))) ، وقال تعالى فى شأن دعوة شعيب ((والى مدين أخاهم شعيبا قال يقوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره (٤)))، وقال فى شأن صالح ((والى ثمود أخاهم صلحا (٥))) ، الى غير ذلك من الآيات وذكر القرآن الكريم كيفية دعوة ابراهيم وأنه دعا أباه وقومه فقط فصرح لقومه بأنه رسول اليهم ، كما قال تعالى ((واتل عليهم نبأ ابراهيم اذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون (٦))) ، وقال فى شأنه ((وان من شيعته لابراهيم اذ جاء ربه بقلب سليم اذ قال لأبيه وقومه ماذا تعبدون (٧))) الى غير ذلك من الآيات الدالة على خصوص الدعوات السابقة لدعوة محمد صلى الله عليه وسلم ، فان كل هذه النصوص التى ذكرنا تدل

---

(١) آية ١ من سورة نوح .
(٢) جزء من آية ١٤ من سورة العنكبوت .
(٣) آية ٦٥ من سورة الأعراف .
(٤) جزء من آية ٨٤ من سورة هود .
(٥) جزء من آية ٦١ من سورة هود .
(٦) آيتى ٦٩ - ٧٠ من سورة الشعراء .
(٧) آيتى ٨٣ - ٨٥ من سورة الصافات .

على رسالة أصحابها لأقوامهم ولم يرد نص فى شرعنا يدل على أنهم أرسلوا الى غير أقوامهم ، بل ثبت فى شرعنا التصريح بأن الأنبياء كانوا يبعثون الى أقوامهم خاصة كما قدمنا ذلك من حديث الصحيحين وكذلك لم يرد أن أحدا من الرسل ادعى أن دعوته عامة ، بل ورد عنهم خلاف ذلك قولا وتطبيقا ، فنبى الله نوح لما أرسل الى قومه بادرهم بالانذار قائلا : يقوم انى لكم نذير مبين ، ولم يقل : يقوم انى نذير لجميع الخلق كما قال صلى الله عليه وسلم ((يأيها الناس انى رسول الله اليكم جميعا (١))) .

(فان قيل) قال الله فى حق محمد صلى الله عليه وسلم ((ان هو الا نذير لكم بين يدى عذاب شديد (٢))) ، فالجواب : أن هذا مثل قوله ((وأنذر عشيرتك الأقربين (٣))) ، وقد قدمنا أنه لا دليل فيه على خصوصية دعوة الاسلام لكثرة الآيات الصريحة بعمومها وشمولها لجميع أجناس المخلوقات ، بخلاف دعوة غيره .

ولما أرسل صالح نادى فى قومه فقط : يقوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره ، وكذلك جميع الرسل كانت دعوتهم هكذا يقوم ، يقومنا والدعوة العامة دعوة الاسلام تنادى الجميع : يأيها الناس ... يأيها الناس .

---

(١) جزء من آية ١٥٨ من سورة الأعراف .
(٢) جزء من آية ٤٦ من سورة سبأ .
(٣) آية ٢١٤ من سورة الشعراء .

أما الرسل الذين ذكرهم الله فى سورة يس فى قوله ((واضرب لهم مثلا أصحب القرية اذ جاءها المرسلون اذ أرسلنا اليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث فقالوا انا اليكم مرسلون (١))) ، فالصحيح أنهم رسل من الله تعالى لأهل تلك القرية ، وقد أوضح ذلك ابن كثير فى تفسيره ، وابن تيمية فى كتابه الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح .

وظاهر القرآن يدل على أنهم رسل من الله لا من قبل المسيح عليه السلام ، فقوله تعالى ((أرسلنا)) ((عززنا)) بضمير العظمة ظاهر فى أن الارسال الى هذه القرية واقع من الله تعالى ، وما يقوله كثير من المفسرين من أنهم رسل من قبل عيسى الى أهل أنطاكية وأنهم لما كانوا من قبل عيسى صح التعبير عنهم بضمير العظمة من الله ، مع أن هؤلاء الرسل لو سلمنا بأنهم من قبل عيسى ودعوا أهل أنطاكية ، فان ذلك لا يخرج دعوة عيسى عن كونها خاصة لقرب أنطاكية من بيت المقدس وقد ذكر ابن كثير عند تفسير هذه الآية أن أنطاكية هى أول قرية آمنت بالمسيح عليه السلام ، وعزا ذلك لسعيد بن بطريق وغيره من مؤرخى أهل الكتاب والمسلمين ، كما قرر أن الرسل من الله لا من قبل عيسى عليه السلام ، ورد قول القائل بأنها أنطاكية المعروفة من وجوه عديدة فانظره (٢) .

---

(١) آيتى ١٣ - ١٤ من سورة يس .

(٢) جـ ٣ ص ٥٦٩ ط عيسى البابى الحلبى وشركاه .

وقال ابن تيمية : والرسل المذكورون فى سورة يس هم ثلاثة وكان فى القرية رجل آمن بهم ، وهذه وان كانت أنطاكية فكان هذا الارسال قبل المسيح ، والمسيح عليه السلام ذهب الى أنطاكية اثنان من أصحابه بعد رفعه الى السماء ولم يعززوا بثالث ولا كان حبيب النجار موجودا اذ ذاك ، وآمن أهل أنطاكية بالمسيح عليه السلام وهى أول مدينة آمنت به كما قد بسط فى غير هذا الموضع . اهـ (١) .

وانما ذكرت هذا لئلا يقول قائل ان دعوة عيسى عمت حتى ذهب رسله الى أنطاكية يدعون ، فبينت أن أنطاكية وان بلغتها دعوة عيسى لا يخرجها ذلك عن كونها خاصة مع ما رأيت من أقوال العلماء أنها غير أنطاكية المعروفة وأن الرسل من الله لا من قبل عيسى والله أعلم .

فان قيل قد قررتم أن دعوة الأنبياء غير نبينا صلى الله عليه وسلم خاصة ونوح عليه السلام من جملتهم كما ذكرتم ، واذا كانت دعوته خاصة فلم عم الهلاك جميع الأرض ؟ وأغرق من فيها الطوفان ؟ والله جل وعلا يقول ((وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا)) (٢) ، ويقول ((واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا)) (٣) .

---

(١) انظر : الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح جـ ٣ ص ٢٠٩ ط مطابع المجد التجارية .

(٢) جزء من آية ١٥ من سورة الاسراء .

(٣) آية ١٦ من سورة الاسراء .

على أن المعنى : أمرنا مترفيها بالطاعة على ألسنة الرسل فكذبوهم فحق عليهم القول فدمرناهم تدميرا ، وفى الآية غير هذا من التفاسير ،فالذى يقتضيه خصوص الرسالة أن الهلاك يقتصر على قوم نوح الذين أرسل اليهم وكذبوه دون من سواهم ولم يعم جميع الأرض .

وقد ذكر ابن حلولو القيروانى جوابا على هذا الاشكال فقال ان عموم الدعوة وخصوصها انما هو بحسب الشرائع والأمر بقتال من أرسل اليهم دون غيرهم ، وأما الدعوة الى التوحيد فعامة من الكل الى الكل والخلق مأمورون بذلك عند دعوتهم ومعجزتهم اليهم فمن خالف استوجب العقاب ، قال : وأشار الى هذا ابن عطية ، ويشهد له أن من الايمان الذى كلف به جميع الخلق الايمان بجميع رسل الله وبما أتوابه عن الله .(١)

وقد تكلم على هذا الاشكال أيضا الحافظ ابن حجر فى فتح البارى ، قال عند شرحه لحديث : "أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلى ..." الحديث ما نصه :

ولا يعترض بأن نوحا عليه السلام كان مبعوثا الى أهل الأرض بعد الوفان لأنه لم يبق الا من كان مؤمنا معه ، وقد كان مرسلا اليهم لأن هذا العموم لم يكن فى أصل بعثته وانما اتفق بالحادث الذى وقع وهو

---

(١) طالع شرح ابن حلولو لجمع الجوامع جـ ٣ ص ٢٩٤ .

انحصار الخلق فى الموجودين بعد هلاك سائر الناس ، وأما نبينا فعموم رسالته من أصل البعثة فثبت اختصاصه بذلك .

وأما قول أهل الموقف لنوح كما صح فى حديث الشفاعة : "أنت أول رسول الى أهل الأرض" - الحديث كما سيأتى - فليس المراد به عموم بعثته بل اثبات أولية ارساله ، وعلى تقدير أن يكون مرادا فهو مخصوص بتنصيصه سبحانه وتعالى فى عدة آيات على أن ارساله كان الى قومه ولم يذكر أنه أرسل الى غيرهم ، واستدل بعضهم لعموم بعثته بكونه دعا على جميع من فى الأرض فأهلكوا بالغرق الا أهل السفينة ، ولو لم يكن مبعوثا اليهم لما أهلكوا لقوله تعالى ((وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا)) ، وقد ثبت أنه أول الرسل .

وأجيب بجواز أن يكون غيره أرسل اليهم فى أثناء مدة نوح وعلم نوح أنهم لم يؤمنوا فدعا على من لم يؤمن من قومه ومن غيرهم فأجيب قال : وهذا جواب حسن لكن لم ينقل أنه نبى فى زمن نوح غيره ، ويحتمل أن يكون معنى الخصوصية لنبينا صلى الله عليه وسلم فى ذلك بقاء شريعته الى يوم القيامة ، ونوح وغيره بصدد أن يبعث نبى فى زمانه أو بعده فينسخ بعض شريعته ، ويحتمل أن يكون دعاؤه قومه الى التوحيد بلغ بقية الناس فتمادوا على الشرك فاستحقوا العقاب ، والى هذا نحا ابن عطية فى تفسير سورة هود قال : وغير ممكن أن تكون نبوته لم تبلغ القريب والبعيد لطول مدته ، ووجهه ابن دقيق العيد بأن

توحيد الله تعالى يجوز أن يكون عاما فى حق بعض الأنبيـــاء وان كان التزام فروع الشريعة ليس عاما لأن منهم من يقاتل غير قومه عـــلى الشرك ، ولو لم يكن التوحيد لازما لهم لم يقاتلهم ، ويحتمل أنه لم يكن فى الأرض عند ارسال نوح الا قوم نوح (١) ، فبعثته خاصة لكونها الـــى قومه فقط وهى عامة فى الصورة لعدم وجود غيرهم ، لكن لو اتفـــق وجود غيرهم لم يكن مبعوثا اليهم (٢) .

قلت : وهذا الاحتمال الأخير أظهر عندى لأننا لم يثبت لنا بنقـــل صحيح أن الأرض فى ذلك الزمن كان معمورا منها غير بلاد قوم نـــوح واذا ثبت بنقل صحيح أن غير ذلك المكان كان معمورا من النـــاس فحينئذ يرد الاشكال وترد الاحتمالات المذكورة التى ذكرها ابن حجـر واذا ورد الاشكال فجوابه أن نصوص القرآن والسنة مصرحة بأن عمـــوم الرسالة مما خص به نبينا محمد صلى الله عليه وسلم يكون للاحتمالات التى ذكرها ابن حجر فائدة فى الجواب ، فاما أن تكون هى الجواب ، واما أن يكون هناك جواب غيرها لم نطلع عليه لأننا نقطع بأنه ما من نـــبى الا وبعث فى قومه خاصة ، ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم بعث الـى الأحمر والأسود ، لأن نبينا أخبرنا بذلك فى خبر صحيح صريح فوجب علينا الايمان به ، والله تعالى أعلم .

---

(١) قال عبد العزيز بن عبد الله بن باز فى تعليقه على فتح البارى : هذا الاحتمال الأخير أظهر مما قبله لقول الله تعالى ((وأوحـى الى نوح أنه لن يؤمن من قومك الا من قد آمن)) جزء من آية ٣٦ من سورة هود ، وقوله تعالى ((وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكفرين ديارا)) آية ٢٦ من سورة نوح . اهـ .

(٢) طالع فتح البارى جـ ١ ص ٤٣٦ - ٤٣٧ ط السلفية .

الأدلة على خصوص رسالة موسى وعيسى من العهدين القديم والجديد :

والمراد من وراء هذا العنوان افحام غير المسلم يهوديا أو نصرانيا ، وهو فقط من باب وشهد شاهد من أهلها ، والا فان الاستدلال على ذلك من الكتاب والسنة كاف لدى كل مسلم ، ومنه يعلم القصد من هذا الاستدلال .

أولا : العهد القديم :

في التوراة التنصيص على عدم دخول شعوب أخرى في الديانة اليهودية ، وهذا نصها " لا يدخل عموني ولا موآبي في جماعة الرب حتى الجيل العاشر ، لا يدخل منهم أحد في جماعة الرب الى الأبد "(١) .

ثانيا : العهد الجديد :

في الأناجيل ما يثبت اقليمية دعوة عيسى عليه السلام ، ففي انجيل متى ما نصه : " ثم خرج يسوع (عيسى) وانصرف الى نواحي صور وصيدا واذا امرأة كنعانية خارجة من تلك التخوم صرخت اليه قائلة : ارحمني يا سيد يابن داود ابنتي مجنونة جدا فلم يجبها بكلمة فتقدم تلاميذه وطلبوا اليه قائلين : اصرفها لأنها تصيح وراءنا فأجاب وقال : لم أرسل الا الى خراف بني اسرائيل الضالة "(٢) .

---

(١) سفر التثنية الاصحاح ٢٣ فقرة ٣ .
(٢) انجيل متى الاصحاح ١٥ فقرة ٢٣ فما بعدها .

فهذان النصان الثابتان فى التوراة والانجيل أو العهد بين القديم والجديد يؤكدان خصوصية رسالة موسى ورسالة عيسى عليهما السلام .

فعيسى أخبرأنه لم يرسل الا الى بنى اسرائيل ، والمسيحيون اليوم يخططون المخططات لادخال جميع الشعوب من مسلمين ووثنيين وغيرهم فى الدين المسيحى وهم يثبتون فى مصادرهم المعتمدة ، بل المقدسة عندهم أن الرسول الذى يزعمون أنهم على شريعته ما أرسل الا لبنى اسرائيل دون من سواهم ، بل الرسول الذى يزعمون أنه الرب يخبرهم أنه أرسل لبنى اسرائيل فقط ، فيا عجبا من هذه التناقضات..

ويقول أحد الباحثين مفرقا بين الدعوات السابقة ودعوة الاسلام فى شمولها وخصوص غيرها من الدعوات . . . ويسير طينا بعد هذا الوصف المجمل للاسلام أن نرى فرقا بين دعوته والدعوات التى سبقته .

ان الرسالات السابقة كانت محلية موقوتة محدودة الزمان والمكان جهد أصحابها - دون عمد - أو انتقاص - انقاذ قبيلة من الناس من جهالات أو ضلالات فشت فيهم وكادت تودى بهم .

فهم صلوات الله عليهم أطباء حاولوا أن يشفوا أقوامهم من علل غلاظ ، وأقلهم استجيب له ، وكثرتهم جحد حقها ، ونكر فضلها ، وهلكت أممهم صريعة بأدواء الكفر والعناد .

كذلك كان شأن (هود) فى عاد ، و (صالح) فى ثمـــــود و (شعيب) فى مدين ، و (لوط) فى قرى المؤتفكة .

أما الرسالتان الكبيرتان اللتان نهض بهما موسى وعيســـــى فسرعان ما تسرب التحريف اليهما ، وغلب الدخن الكثير على أصولهمـــا وفروعهمـــا .

هذا هو حصاد الماضى كله عندما نتأمل فى مصاير النبـــــوات الأولى والدعوات السابقة .

أما الرسالة العظمى التى اطلع بها خاتم النبيين ، خاتـــــم الدعاة وسيد الهداة ، فان القادر الأعلى زودها بما حفظ عليهـــــا صلاحيتها المطلقة وأبقاها الى يوم الناس هذا ، والى أن ينفخ فـــى الصور ، جماع الأسْنفية التى يتخلص بها العالم من سقامه ، وينبـــــوع الرحمة التى يستريح بها من آلامه وان جحد الجاحدون ... (١)

قوله تعالى ((وذكرهم بأيام الله ان فى ذلك لآيات لكل صبـــار شكور)) - يأمر تعالى نبيه موسى عليه السلام أن يذكر قومه بأيام اللـه واختلف فى المراد بأيام الله فى هذه الآية ، فقيل : نعم الله عليهـــم وقيل : وقائعه ونقماته من أعدائه السابقين على قوم موسى ، وذلـك أن هذا اللفظ يطلق عند العرب على الوقائع التى سلفت ، فكان الله يأمـــر

---

(١) مع الله للأستاذ محمد الغزالى ص ٩٣-٩٤ .

موسى أن يخوف قومه بما وقع من الهلاك لقوم عاد وصالح وغيرهم من الأمم السابقة التى أهلكها الله - أى : حذرهم يا موسى وقائع الله ونقماته فى الأمم الماضية ، والعرب تقول فلان عالم بأيام العرب أى وقائعها وحروبها وملاحمها ، روى هذا القول عن ابن عباس ومقاتل وابن زيد . قال الشاعر :

وأيامنا مشهورة فى عدونا

أى وقائعنا ، وعن ابن عباس أيضا أن المراد بالأيام النعم التى أنعم الله عليهم بها (١) .

وعليه فيكون المعنى : ذكرهم بنعم الله التى سلفت فى الأيام الماضية عليهم ، وقال ابن جرير : يقول عز وجل: وعظهم بما سلف من نعمى عليهم فى الأيام التى خلت فاجتزئ بذكر الأيام من ذكر النعم التى عناها لأنها أيام كانت معلومة عندهم أنعم الله عليهم فيها نعما جليلة ، أنقذهم فيها من آل فرعون بعدما كانوا فيما كانوا من العذاب المهين وغرق عدوهم فرعون وقومه وأورثهم أرضهم وديارهم وأموالهم .

وكان بعض أهل العربية يقول : معناه خوفهم بما نزل بعاد وثمود وأشباههم من العذاب (٢) .

---

(١) البحر المحيط جـ ٥ ص ٤٠٦ ط دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع .

(٢) تفسير ابن جرير جـ ١٣ ص ١٢٢ ط دار المعرفة للطباعة والنشر - بيروت .

قلت : ذكر ابن جرير وأبو حيان والقرطبي وغيرهم في تفسير الأيام بالنعم أن المراد بها ما أنعم الله به على بني اسرائيل من انزال المن والسلوى واغراق فرعون ونجاتهم من عذابه ، الى غير ذلك من نعم الله على بني اسرائيل ، وهذا لا يتمشى الا مع القول بأن المراد بالقوم في قوله تعالى ((أن أخرج قومك)) بنوا اسرائيل خاصة لأن القوم المأمور باخراجهم من الظلمات الى النور : هم المأمور بتذكيرهم بأيام الله وقد قدمت أنه لا مانع من اطلاق قوم موسى على فرعون وملائه وأقمت الأدلة على ذلك ، واذا كان المراد بالقوم فرعون وملأه كما هو محتمل فيكون ما ذكروه غير مناسب ، واذا كان المراد بالقوم فرعون وقومه وبنو اسرائيل كما هو محتمل فانهم يكونون قد تركوا نصيب فرعون وقومه من النعم وتركوا ترهيبه من وقائع الله بمن كفر برسله كعاد وثمود وغيرهم .

وقد أنعم الله على فرعون بنعم كثيرة يحتاج التذكير بها ، منها : طول عمره ، وصحة بدنه ، وكثرة خدمه ، وسعة ملكه ، ونفوذ سلطانه ، الى غير ذلك ، وعليه فلا مانع أن يكون التذكير بأيام الله على القول بأن المراد بها نعم الله يدخل فيه فرعون وقومه وبنو اسرائيل ، وان كان قوله تعالى في الآية التي بعدها ((واذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم اذ أنجيكم من آل فرعون ...)) الآية . فيه ما يوحي بأن هذا امتثال من موسى لأمر ربه في قوله ((وذكرهم بأيام الله)) الا أن اخراج فرعون وقومه من الارادة بالتذكير بالنعم والتخويف بالنقم بعيد

عندى والله تعالى أعلم .

وقوله ((ان فى ذلك لآيت لكل صبار شكور)) أى ان فى ذلك التذكير والتنبيه دلائل لمن كان صابرا شكورا ، لأن الحال اما أن يكون حال محنة وبلية ، أو حال منحة وعطية ، فان كان الأول كان المؤمن صابرا ، وان كان الثانى كان شاكرا ، وهذا تنبيه على أن المؤمن يجب ألا يخلو زمانه عن أحد هذين الأمرين ، فان جرى الوقت على ما يلائم بالشكر وان جرى بما لا يلائم كان مشغولا بالصبر طبعه كان مشغولا . ، وخص أهل الصبر والشكر بالذكر لأنهم هم المنتفعون بتلك الآيات ، فكأنها ليست آيات الا لهم ، أو لأن الانتفاع بهذا النوع من التذكير لا يمكن حصوله الا لمن كان صابرا شاكرا .(١)

قوله تعالى ((واذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم اذ أنجيكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب ويذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم)) .

الظرف (اذ) متعلق بمحذوف تقديره اذكر يا محمد وقت قول موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم اذ أنجاكم من آل فرعون - أى اذكروا انعامه عليكم وقت انجائه لكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب : أى يعذبونكم - يقال : سامه ظلما أى أولاه ظلما ، وسوء العذاب : مصدر ساء يسوء ، والمراد : العذاب السيء من استعبادهم واستعمالهم

---

(١) انظر : تفسير الفخر الرازى جـ ١٩ ص ٨٤ ط المطبعة البهية المصرية الأولى .

فى الأعمال الشاقة .

ثم قال : ((ويذبحون أبناءكم)) بالواو العاطفة يذبحون على يسومون ، وان كان التذبيح من جنس سوء العذاب : اخراجا له عن مرتبة العذاب المعتاد حتى كأنه جنس آخر لما فيه من الشدة .

((ويستحيون نساءكم)) أى يتركونهن حيات لا هانتهن واذلالهن ((وفى ذلكم)) المذكور من أفعالهم بكم ((بلاء من ربكم عظيم)) أى ابتلاء لكم .(١)

قال الزمخشرى عند تفسير هذه الآية : فان قلت : فى سورة البقرة يذبحون ، وفى الأعراف يقتلون ، وها هنا ((ويذبحون)) مع الواو فما الفرق ؟ .

قلت : الفرق أن التذبيح حيث طرح الواو جعل تفسيرا للعذاب وبيانا له ، وحيث أثبت جعل التذبيح لأنه أوفى على جنس العذاب ، وزاد عليه زيادة ظاهرة كأنه جنس آخر .(٢)

ولم يتكلم على النكتة فى التعبير بيقتلون فى سورة الأعراف لا هو ولا الرازى حيث نقل كلامه ، وقد تعرض للكلام عليها أبو حيان فقال : وحيث لم يؤت بالواو جعل الفعل تفسيرا لقوله يسومونكم ، وحيث أتى بها دل على المغايرة وأن سوم سوء العذاب كان بالتذبيح وبغيره ،

---

(١) طالع فتح القدير جـ ٣ ص ٩٦ ط شركة مكتبة ومطبعة مصطفى الحلبى وأولاده بمصر .

(٢) طالع الكشاف جـ ٢ ص ٣٦٨ .

وحيث جاء يقتلون جاء باللفظ المحتمل للتذبيح ولغيره من أنـــواع القتـــل (١).

قوله تعالى ((واذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتـــم ان عذابى شديد)) -

قيل : ان هذا الكلام من قول موسى لقومه ، وهو معطوف علـى قوله ((اذ أنجيكم)) أى : اذكروا نعمة الله عليكم فى هذين الوقتين فان هذا التأذن نعمة أيضا .

وقيل : هو من قول الله سبحانه ، وعليه فالمعنى : واذكـــر يا محمد اذ تأذن ربكم ، واللام فى لئن شكرتم موطئة لقسم ، وقولـــه ((لأزيدنكم)) ساد مسد جواب الشرط والقسم ، وكذلك اللام فـــى لئن كفرتم موطئة أيضا لقسم ، وقوله ((ان عذابى لشديد)) ساد مسد الجوابين أيضا ، والمعنى : والله لئن شكرتم انعامى عليكم بما ذكـــر لأزيدنكم نعمة الى نعمة تفضلا منى ، وقيل لأزيدنكم فى الطاعـــة ، وقيل : لأزيدنكم من الثواب .

ولئن كفرتم نعمتى وجحدتموها فان عذابى شديد ولابـــد أن يصيبكم منه نصيب (٢).

---

(١) البحر المحيط جـ ٥ ص ٤٠٦ - ٤٠٧ ط الثانية - دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع .

(٢) انظر : فتح القدير جـ ٣ ص ٩٦ المصدر السابق .

ومعنى ((تأذن)) أذن ، ولابد فى تفعل من زيادة معنى ويحتمل أن تكون ((تأذن)) أجريت مجرى قال لأنه ضرب من القول[١].

وقد ذكر ابن جرير اختلاف العلماء : هل المراد بالزيادة الزيادة من النعم ، وذكر فى ذلك آثارا كثيرة عن السلف ، أو المراد الزيادة من الطاعة ، ورجح القول الأول ، ورد القول الآخر ، وقال : انه لا وجه له لأن الطاعة لم يجر لها ذكر حتى يزاد منها ، ثم قال : الا أن يراد لئن شكرتم فأطعتمونى بالشكر لأزيدنكم من أسباب الشكر ما يعينكم عليه ، فيكون ذلك وجها[٢].

قوله تعالى ((وقال موسى ان تكفروا أنتم ومن فى الأرض جميعا فان الله لغنى حميد)) - هذا حكاية من الله تعالى لما قال موسى لقومه لما أمرهم بذكر نعم الله عليهم وشكرها حيث قال لهم : ان تكفروا أيها القوم فتجحدوا نعم الله التى أنعم بها عليكم ويفعل مثل فعلكم من فى الأرض جميعا فان الله لغنى عنكم وعنهم من جميع خلقه لا حاجة به الى شكركم اياه على نعمه - حميد ذو حمد الى خلقه بما أنعم عليهم[٣].

قلت : يدل لهذا التفسير ما ثبت فى الصحيح من حديث أبى ذر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه أنه قال " . . . يا عبادى

---

(١) انظر : الكشاف جـ ٢ ص ٣٦٨ المصدر السابق .
(٢) تفسير ابن جرير جـ ١٣ ص ١٢٤ - ١٢٥ ط دار المعرفة للطباعة والنشر - بيروت .
(٣) انظر الطبرى أيضا فى المصدر السابق نفسه .

لو أن أولكم وآخركم وانسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك فى ملكى شيئا ، يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وانسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد ما نقص ذلك من ملكى شيئا ، يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وانسكم وجنكم قاموا فى صعيد واحد فسألونى فأعطيت كل انسان مسألته ما نقص ذلك مما عندى الا كما ينقص المخيط اذا أدخل البحر (١) ، يا عبادى انما هى أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم اياها فمن وجد خيرا فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن الا نفسه (٢) .

وقال الزمخشرى : وقال موسى : ان تكفروا أنتم يا بنى اسرائيل والناس كلكم فانما ضررتم أنفسكم وحرمتموها الخير الذى لا بد لكم منه وأنتم اليه محاويج ، والله غنى عن شكركم حميد مستوجب للحمد بكثرة أياديه وأنعمه وان لم يحمده الحامدون (٣) .

---

(١) هذا ضرب مثل مبالغة ومعناه أن ما عنده لا ينقص شيئا ، لأن ما عند الله لا يدخله النقص ، ومبالغ فى ضرب المثل لأن البحر من أعظم المرئيات ، والابرة من أصغر الموجودات ، فدل هذا على أن المراد عدم النقص أصلا وانما هو تقريب الى الأفهام . انظر : شرح النووى لمسلم جـ ١٦ ص ١٣٣ ط دار الفكر بيروت - لبنان .

(٢) صحيح مسلم جـ ٤ ص ١٩٩٥ المصدر السابق .

(٣) الكشاف جـ ٢ ص ٣٦٨ المصدر السابق .

الدعوة فى هذه الآيات :

واذا أمعنا النظر فى هذه الآيات السابقة وجدنا الدعوة الى الله تعالى فيها على هذا النحو :

بينت خصائص الدعوة فهى أوضحت :

١ - خصوصية الدعوات غير دعوة الاسلام ، وذلك فى قوله ((ولقد أرسلنا موسى بآياتنا أن أخرج قومك من الظلمات الى النور...))

وفى قوله ((واذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم اذ أنجيكم من آل فرعون ...)) .

ثانيا : بينت الآيات بعض أهداف الدعوة :

١ - اخراج الناس من الظلمات الى النور وذلك فى قوله تعالى ((... أن أخرج قومك من الظلمات الى النور ...)) .

٢ - انجاؤهم من الشرور والآثام والعذاب ، وذلك فى قوله تعالى ((... اذ أنجيكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب ...))

٣ - شكر الله وطاعته يستوجبان الزيادة من النعم ، وذلك فى قوله ((واذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ...)) .

٤ - معصيته تعالى تستوجب عذابه ، وذلك فى قوله ((... ولئن كفرتم ان عذابى لشديد)) .

ثالثا : بينت الآيات بعض أساليب الدعوة وذلك فيما يلى :

١ - أسلوب الترغيب ، وذلك فى الاخراج من الظلمات الى النـــور وفى قوله ((... لئن شكرتم لأزيدنكم)) .

٢ - أسلوب الترهيب وذلك فى قوله ((... ولئن كفرتم ان عذابـــى لشديد)) .

٣ - أسلوب التذكير ، وذلك فى قوله ((... وذكرهم بأيام الله ...))

٤ - أسلوب القصة ، وذلك فى قوله ((ولقد أرسلنا موسى بآياتنـــا أن أخرج قومك من الظلمات الى النور ...)) . اهـ .

القسم الثانى

عموم دعوة الاسلام

وفيه عدة مباحث :

وقبل بيان هذا العموم لابد لنا من القاء بعض الأضواء على تفسير هذه الآيات :

((بسم الله الرحمن الرحيم)) : تركنا الكلام على البسملة لكثرة من تكلم عليها من العلماء ، ولوجود الكلام عليها فى أى كتاب من كتب التفسير وغيرها ، فمن أراد الوقوف على ذلك فليراجع تفسير الفخر الرازى وابن كثير .

((الر كتب أنزلناه اليك لتخرج الناس من الظلمات الى النور باذن ربهم الى صراط العزيز الحميد ، الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض وويل للكفرين من عذاب شديد ، الذين يستحبون الحيوة الدنيا على الآخرة ويصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا ، أولئك فى ضلل بعيد))

المعنى الاجمالى للآيات :

يخبر الله تبارك وتعالى نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم بأنه أنزل عليه هذا الكتاب الذى هو القرآن الكريم ، وبين تعالى علة انزاله لهذا الكتاب فأخبر أنه أنزله لتخرج به يا محمد الناس من بنى البشر وغيرهم من ظلمات الكفر الى نور الايمان ، ومن ظلمات الجهل بالله

الى نور العلم به ، وأفاد آخر الآية أن الإخراج المذكور وان أسند اليك يا نبى الله لا يؤثر الا بتيسير من الله جل وعلا لخلقه الى الهداية فاذا يسر تعالى لخلقه الهداية اهتدوا الى صراط العزيز الحميد الذى له ملك السموات والأرض وما بينهما من جميع المخلوقات ، وأفاد آخر الآية الثانية التهديد الشديد لمن لم يقبل دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم من المشركين الذين آثروا الحياة الدنيا على الآخرة وصدوا الناس عن طريق الله المستقيم بعد أن صدوا عنه ، ولم يأخذوه ، وكانوا يبغونه عوجا ، وأوضح آخر الآية الثالثة أن هؤلاء الموصوفين بهذه الصفات فى ضلال بعيد أى ذى بعد عن الحق .

هذا معنى الآيات مجملا ومختصرا ، وسوف أتكلم عليها تفصيلا جملة بعد جملة ان شاء الله ، وقد تبين لنا من عرض هذه الآيات ما يلى :

١ - أن هذا الكتاب المذكور هو القرآن الكريم .

٢ - أن هذا الكتاب معجز عجز جميع الخلق عن معارضته .

٣ - اثبات رسالة محمد صلى الله عليه وسلم بالأدلة القطعية .

٤ - عمومها وشمولها لمصالح العباد فى كل زمان ومكان بما فى ذلك شمولها للملائكة والجن ويأجوج ومأجوج .

٥ - اشتملت هذه الآيات الثلاث على أعظم أهداف الدعوة الى الله وأسمها وهو انقاذ الناس من الكفر الى الايمان كما اشتملت على

عظمة الخالق سبحانه وتعالى وأنه المتصرف فى الكون وحده .

٦ - فى الآية الثانية أسلوب من أساليب الدعوة الى الله وهو أسلوب الترهيب ، الى غير ذلك مما اشتملت عليه هذه الآيات الثلاث .

قوله تعالى ((ألسر)) اختلف العلماء فى الحروف المقطعة فى أوائل السور اختلافا كثيرا ، أذكر لك ثلاثة من أقوالهم فى المراد بها ظهرت لى قوتها ، ثم أذكر الأظهر عندى من هذه الثلاثة .

١ - قال بعض العلماء : انها مما استأثر الله تعالى بعلمه ، ويروى هذا القول عن الخلفاء الأربعة الراشدين وابن مسعود وغيرهم .

٢ - قيل انها أسماء للسور افتتحت بها ، روى هذا القول عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ومجاهد وقتادة ، وحكى الزمخشرى عليه اطباق الأكثر من العلماء ، ويؤيده حديث الصحيحين عن أبى هريرة وابن عباس أنه صلى الله عليه وسلم كان يقرأ فى صلاة الصبح يوم الجمعة ألم السجدة وهل أتى على الانسان (١) .

كما يدل له قول الشاعر :

يذكرنى حم (٢) والرمح شاجر . . فهلا تلاحم قبل التقدم

---

(١) أخرجه البخارى فى كتاب الجمعة فى باب ما يقرأ فى صلاة الفجر يوم الجمعة . ومسلم فى كتاب الجمعة فى باب ما يقرأ فى يوم الجمعة .

(٢) قوله حم واعرابه لها اعراب ما لا ينصرف فيه دلالة على أنها اسم للسورة ومنعت من الصرف للعلمية والتأنيث اللفظى .

٣ - وهذا هو أرجح الأقوال فى نظرى وهو أن هذه الحروف ذكرت مقطعة فى أوائل هذه السور بيانا لاعجاز القرآن ، وأن الخلق عاجزون عن معارضته مع أنه مركب من هذه الحروف المقطعة التى يتخاطبون بها ، وحكى هذا القول عن المبرد وقطرب والفراء ونصره الزمخشرى فى كشافه ، وقال ابن كثير انه مذهب ابن تيمية والمزى .

ووجه ظهور هذا القول عندنا على القولين السابقين وغيرهما أن القرآن بطريق الاستقراء كلما افتتحت منه سورة بهذه الحروف المقطعة يذكر بعد هذه الحروف دائما الانتصار للقرآن وبيان اعجازه بأنه الحق الذى لا شك فيه ولا ريب ، قال فى سورة البقرة ((الم)) ثم قال بعدها ((ذلك الكتاب لا ريب فيه ...)) .

وقال فى سورة آل عمران ((الم)) وأتبعها بقوله ((الله لا اله الا هو الحى القيوم نزل عليك الكتاب بالحق ...)) .

وقال فى مطلع سورة هود ((الر)) وأتبعها بقوله ((كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ...)) .

وقال فى سورة فصلت ((حم)) وأتبعها بقوله ((تنزيل من الرحمن الرحيم كتاب فصلت آياته ...)) الى غير ذلك مما يطول ذكره .

فهذا الاستقراء التام للقرآن الكريم وأنه كلما ذكر سورة مفتتحة

بهذه الحروف المقطعة أتبع ذلك بما يدل على أن القرآن حق ، وأنه من عند الله ، وأنه لا ريب فيه ولا شك ، وهذا هو الاعجاز بعينه لأنه اذا ثبت أنه من عند الله استحالت معارضة الخلق له ، وفى هذا التنبيه الواضح للمخاطبين على عجزهم عن معارضته بمثله مع أنه مركب من هذه الحروف التى هى لغتهم التى يتخاطبون بها ليلا ونهارا (١) .

وقوله تعالى ((كتب أنزلناه اليك لتخرج الناس من الظلمات الى النور باذن ربهم الى صراط العزيز الحميد))

هذا أول هدف من أهداف الدعوة الى الله تعالى فى سورة ابراهيم خليل الرحمن ، وهو الهدف الأساسى اذ كل هدف سواه تابع له : وهو الايمان بالله تعالى وتوحيده - وقد تقدم الكلام عليه فى القسم الذى قبل هذا بما يغنى عن اعادة الكلام عليه .

والمعنى : هذا كتاب عظيم أنزله الله اليك يا محمد لتخرج به الناس من ظلمات الكفر الى نور الايمان ، واسناد الاخراج اليه عليه السلام تشريف له من حيث المشاركة فى تحصيل الهداية بانزاله تعالى القرآن ، وباخراجه عليه السلام اذ هو الداعى والمنذر ، وان كانت الهداية فى الحقيقة لله تعالى ، والناس عام اذ هو مبعوث الى الخلق كلهم ، والظلمات والنور مستعاران للكفر والايمان .

---

(١) انظر : أضواء البيان جـ ٣ ص ٣ - ٤ ط المدنى .

ولما ذكر تعالى علة الانزال التى هى اخراج الناس من الظلمات الى النور أخبر أن ذلك الاخراج لا يحصل الا بتسهيل مالكهم ومالقهم المتصرف فيهم ، فقال ((باذن ربهم)) أى بتسهيله .

ولما كان قوله ((الى النور)) فيه نوع من الابهام ، أوضح ذلك بقوله ((الى صراط)) .

ولما تقدم شيئان أحدهما اسناد انزال هذا الكتاب اليه تعالى والثانى اخراج الناس من الظلمات الى النور باذن ربهم ، ناسب ذكر صفة العزة المتضمنة للقدرة والغلبة ، وذلك من حيث انزال الكتاب وصفة الحمد المتضمنة استحقاقه الحمد من حيث الاخراج من الظلمات الى النور ، اذ الهداية الى الايمان نعمة عظمى يجب على العبد شكرها ، وتقدمت صفة العزيز لتقدم ما دل عليها ، ثم صفة الحميد لثبوت ما دل عليها[1] .

وهذا الكتاب المذكور فى هذه الآية هو القرآن بلا شك ، واذا فلابد من الكلام على القرآن من عدة نواح ، بحيث يشمل ذلك تعريفه لغة واصطلاحا ، وأنه هو المعجزة العظمى التى قامت عليها الدعوة الاسلامية واثبات كونه من عند الله ، وبيان كونه معجزا ، والقدر المعجز منه ، وبيان حفظه من التغيير والتبديل .

---

(١) انظر : البحر المحيط لأبى حيان جـ ٥ ص ٤٠٣ ط الثانية دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع .

وذلك لأن القرآن الكريم هو أساس الدعوة الى الله تعالى وأساس نجاح الداعية ، والدعوة الى الله تعالى لا تنطلق الا منه ابتداء ولا تستدل الا به أولا ، ولا تستند الا عليه على وجه اليقين والقطع ولا تنجح وتؤتى ثمارها الا اذا حفلت بآيه ، وتوجهت بتوجيهاته وكذلك الداعية لا يؤثر فى مستمعيه ولا فيمن يدعوهم الا به ، لهذا كله كان لزاما على أن أتكلم عليه من عدة نواح .

كذلك دلت الآية الأولى من الآيات على عموم الدعوة الاسلامية فلا بد من بيان ذلك فى هذا القسم ان شاء الله حسب الامكان .

المبحث الأول

في تعريف القرآن

القرآن لغة : مصدر قرأ زيدت فيه الألف والنون كما زيدتا في الغفران والرجحان ، وهذا المصدر بمعنى اسم المفعول ، فمعنى القرآن : المقروء أي المتلو أو المظهر المبرز ، ومن الأخير قولهم : ما قرأت الناقة سلا : أي ما أبرزت وأظهرت جنينا من بطنها (١) .

وقيل : انه مصدر قرأ بمعنى جمع ، تقول العرب : قرأت الماء في الحوض أي جمعته فيه ، فهو على هذا مصدر بمعنى اسم الفاعل فالقرآن بمعنى قارئ أي جامع لثمرات الكتب السماوية التي أنزلت قبله مع زيادته عليها ، وعلى كلا المعنيين فهو مهموز ، والهمزة فيه أصلية ، ووزنه فعلان ، وذهب الشافعي الى أنه غير مهموز وأن النون فيه أصلية ولم يؤخذ من قرأ ، ولكنه اسم لكتاب الله مثل التوراة والانجيل وقال قوم : انه مشتق من قرنت الشيء بالشيء اذا ضممت أحدهما الى الآخر . وقال الفراء : انه مشتق من القرائن لأن الآيات منه يصدق بعضها بعضا فهي قرائن ، وعلى هذين القولين فهو غير مهموز أيضا . لكن يقول الزجاج : ان هذا سهو والصحيح أن ترك الهمز فيه من باب التخفيف ونقل حركة الهمز الى الساكن قبله .

---

(١) طالع الاتقان جـ ١ ص ٥١ وشرح الشيخ محمد الأمين الشنقيطي لمراقي السعود ـ مخطوط ص ٤٢ .

وقال قوم : انه وصف على فعلان مشتق من القرء بمعنى الجمع وليس بمصدر .(١)

وعلى قول من قال انه غير مهموز فوزنه على ذلك فعال .(٢)

ثم ان القرآن نقل فى عرف الشارع من المصدر وجعل علما على هذا المقروء المتعبد بتلاوته من اطلاق المصدر وارادة اسم المفعول .

ومما يدل على أنه مصدر ، وروده بمعنى القراءة فى قوله تعالى : ((لا تحرك به لسانك لتعجل به ان علينا جمعه وقرآنه فاذا قرأنه فاتبع قرآنه))(٣) ، فقرآنه فى الآيتين ١ ، ٢ بمعنى قراءته .(٤)

---

(١) انظر : الاتقان جـ ١ ص ٥١ .

(٢) والصحيح مذهب الجمهور وأنه مهموز والهمزة فيه أصلية ، والنون والألف زائدتان ، أما الشافعى رحمه الله فانه يقرأ القرآن بحرف ابن كثير وعبد الله بن كثير يقرأ لفظة القرآن فى جميع مواضعها بنقل حركة الهمزة الى الراء قبلها ، فيقرأ قران ، فلعل ذلك هو السر فى قوله : ان النون أصلية ، ولكن الصحيح أن ذلك تخفيف للهمزة لا غير ، كقوله سلهم وأشباه ذلك مما خفف القراء فيه الهمزة بنقل حركتها الى الساكن قبلها .
طالع : كتاب الكشف عن وجوه القراآت السبع وعللها وحججها لأبى محمد مكى بن أبى طالب القيسى المتوفى سنة ٤٣٧ هـ - تحقيق الدكتور محيى الدين رمضان جـ ١ ص ١١٠ ط مجمع اللغة العربية بدمشق .

(٣) الآيات ١٦ - ١٧ - ١٨ من سورة القيامة .

(٤) مباحث فى علوم القرآن للشيخ عبد الفتاح القاضى ص ٣ - ٤ .

أما القرآن فى الاصطلاح فهو : كلام الله تعالى ، المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم ، المعجز بلفظه ومعناه ، المتحدى بأقصر سورة منه ، المتعبد بتلاوته ، المنقول الينا بطريق التواتر .

محترزات التعريف :

قولنا : كلام الله خرج به كلام غير الله ، ودخل فيه جميع كلام الله كالتوراة والانجيل قبل تحريفهما ، وغيرهما من سائر الكتب السماوية ، وخرج الجميع بقولنا : المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم ، وقولنا : المعجز بلفظه ومعناه المتحدى بأقصر سورة منه خرج به الأحاديث القدسية على القول بأن ألفاظها منزلة من عند الله وأما على رأى من يرى أن معانيها من عند الله ، وألفاظها من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد خرجت بالقيد الأول .

وقولنا : المتعبد بتلاوته قيد ثالث خرجت به الآيات التى نسخت تلاوتها ، وقولنا : المنقول الينا بطريق التواتر خرجت به القراآت التى نقلت الينا عن طريق الآحاد[1] .

هكذا عرفوا القرآن فى الاصطلاح[2] .

---

(١) طالع : مباحث فى علوم القرآن للشيخ عبد الفتاح القاضى ص ٣ - ٤ .

(٢) والقرآن هو الكتاب بلا شك ، ومن ادعى أنه غيره كما ذكر ابن قدامة فى روضة الناظر ص ٣٣ عن قوم فهو غلط ، قال : وقال

. . . . . .

قوم : الكتاب غير القرآن ، قال : وهو باطل ، واستدل على بطلانه بالقرآن ، قال : قال الله تعالى ((واذ صرفنا اليك نفرا من الجن يستمعون القرآن ، فلما حضروه قالوا أنصتوا ، فلما قضى ولوا الى قومهم منذرين ، قالوا يقومنا انا سمعنا كتبا أنزل من بعد موسى مصدقا لما بين يديه ...)) آية ٢٩ وجزء من آية ٣٠ من سورة الأحقاف ، وقالوا ((... انا سمعنا قرآنا عجبا ...)) جزء من آية ١ من سورة الجن .

ويظهر أن المراد عند القائلين بتغاير الكتاب والقرآن : تغاير المفهوم لا تغاير المصدوق ، فانما يصدق عليه القرآن هو ما يصدق عليه الكتاب ، وهذا هو القرآن العظيم وان كان التغاير حاصلا في مفهومهما فان مفهوم الكتاب هو اتصافه بأنه مكتوب ، ومفهوم القرآن هو اتصافه بأنه مقروء ، فهو شيء واحد موصوف بصفتين مختلفتين ، ومن هنا يظهر أن القرآن والكتاب شيء واحد باعتبار المصدوق ، وان تغايرا باعتبار المفهوم .

طالع : مذكرة الشيخ محمد الأمين للشنقيطي في أصول الفقه ص ٥٥ .

المبحث الثاني : القرآن هو المعجزة العظمى :

المعجزة هي : الأمر الخارق الذي عجز المتحدون عن الاتيان بمثله .

أو هي الأمر الخارق للعادة المقرون بالتحدي السالم عن المعارضة (١)

ولقد قامت رسالة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم على معجزة القرآن ونهضت به نهوضا قطعيا ، وان كان قد أيد بمعجزات كثيرة فاقت الحصر الا أن المعجزة الخالدة العامة الى يوم القيامة هي القرآن الكريم وذلك لأنه أقام الله به الحجة على خلقه ، ولا تقام عليهم الحجة به الا اذا كان دالا على صدق رسالة من أنزل عليه .

قال القاضي أبو بكر الباقلاني .

فاما الذي يبين ما ذكرناه من أن الله تعالى حين ابتعثه جعل معجزته القرآن وهي أمر نهوته عليه سور كثيرة وآيات نذكر بعضها وننبه بالمذكور على غيره فمن ذلك قوله تعالى (ألر كتب أنزلناه اليك لتخرج الناس من الظلمات الى النور باذن ربهم الى صراط العزيز الحميد)

---

(١) الاتقان في علوم القرآن للسيوطي جـ ٢ ص ١١٦ ط المكتبة الحلبي وشركاؤه بمصر .

فأخبر أنه أنزله ليقع الاهتداء به ولا يكون كذلك الا وهو حجة ، ولا تكون الحجة ان لم تكن معجزة ، وقال عز وجل :

(وان احد من المشركين استجارك فاجره حتى يسمع كلام الله)(١)

فلولا أن سماعه اياه حجة عليه لم يوقف أمره على سماعه ، ولا يكون حجة الا وهو معجزة وقال تعالى : (وانه لتنزيل رب العلمين ، نزل به الروح الأمين ، على قلبك لتكون من المنذرين ، بلسان عربى مبين)(٢)

فاخبر ان علة انزاله الانذارية ولا يصح به الانذار الا اذا كان حجة ولا يكون حجة الا اذا كان معجزة . . . الخ (٣)

المبحث الثالث فى الأدلة على اعجاز القرآن :

ان اعجاز القرآن من الأمور التى لا تكاد تجد مخالفا يخالف فيها فقد ثبت اعجاز ثبوتا قطعيا بنصوص القرآن ، وان كان علماء الأمة سلفا وخلفا اختلفوا فى وجه الاعجاز منه وفى القدر الذى يقع به الاعجاز . كان كل نبى يبعث فى زمن اشتهر فى ذلك الزمن علم تخصصت فيه جماعات من الناس بلغوا الغاية القصوى فى معرفته ، كالسحر زمن بعثه موسى عليه السلام ، فقد اشتهر أهل مصر فى ذلك الزمان بالسحر بلغوا فيه القمة ، ولذلك فان سحرة فرعون لما رأوا المعجزة علموا أنها

---

(١) جزء من آية ٦ من سورة التوبة .
(٢) الآيات ١٩٢ - ١٩٥ من سورة الشعراء .
(٣) اعجاز القرآن للباقلانى بهامش الاتقان جـ ١ ص ٨ - ١١ المصدر السابق .

ليست من نوع تخصصهم لخبرتهم بالسحر فآمنوا فى الحين ، فكانت معجزة موسى من هذا النوع ، وفى زمن عيسى عليه السلام اشتهر الناس بالطب وبلغوا فيه الحد الأقصى فجاءت معجزة عيسى من ذلك القبيل يبرئ الأكمه والأبرص ويحى الموتى باذن الله .

وهناك رأى آخر فى وجه معجزات عيسى عليه السلام ، وهو أن اليهود كانوا فى ذلك الزمان فرقا ، فرقة منهم مادية بحته لا تؤمن بما وراء المادة فبعث الله نبيه عيسى يأخذ من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيكون طيرا باذن الله ليعلموا أن هناك شيئا غير المادة . وطائفة منهم تنكر البعث فكان بعض معجزات عيسى احياء الموتى باذن الله وكانت منهم طائفة تقول بتأثير الاسباب ، أى المسببات أى بلزوم المعلول عند وجود العلة فيقولون ان العالم يلزم وجوده من وجود الله لا عن قدرة ولا ارادة فجاء بعض معجزات عيسى يرد ذلك المعتقد وهو ابراؤه الأكمه والأبرص بدون وجود سبب ، هكذا قيل فى توجيه معجزات عيسى عليه السلام .(١)

وكانت بعثة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم بين قوم اشتهروا بالفصاحة والبلاغة فقد بعث بين فصحاء قريش ، وكانت العرب تتحاكم فى الفصاحة

---

(١) طالع محاضرات فى النصرانية للاستاذ : الشيخ / محمد أبوزهرة ص ٢٢ ط المدنى الثالثة .

بين أيدى قريش اذ كانوا يجتمعون فى أسواقهم ، كعكاظ ، والمجاز ويلقون الخطب والقصائد ويتفاخرون بالفصاحة ويتحاكمون لدى الحكماء هناك لهذا كانت قريش أنصح العرب لأن العرب يفدون اليها جميعا فتأخذ من جميع لغاتهم الأفصح منها .

لهذا كانت معجزته صلى الله عليه وسلم العظمى فى القرآن المشتمل على جميع أنواع الفصاحة والبلاغة .

وقد تحدوا بجميع القرآن فعجزوا عن الاتيان بمثله وذلك فى قوله تعالى (أم يقولون تقوله بل لا يؤمنون ، فليأتوا بحديث مثله ان كانوا صادقين) (١) فعجزوا عن ذلك وهم مجتمعون بمكة ، وتحداهم فيها أيضا بالاتيان بعشر سور مثله فعجزوا ، وذلك فى قوله تعالى :

" أم يقولون افتريه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين " (٢) ثم تحداهم بسورة واحدة من مثله وذلك فى قوله جل وعلا (أم يقولون افتريه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين) (٣) كل هذه التحديات وقعت بمكة وفصحاء العرب موجودون ، ثم وقع التحدى بالمدينة أيضا بسورة واحدة وذلك فى قوله تعالى : " وان كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله ان كنتم صادقين " (٤)

---

(١) آية ٣٣ - ٣٤ من سورة الطور
(٢) آية ١٣ من سورة هود .
(٣) آية ٣٨ من سورة يونس .
(٤) آية ٢٣ من سورة البقرة .

ومع هذا فانهم عجزوا عن الاتيان بمثله وعن الاتيان بعشر سور وعن الاتيان بسورة واحدة من مثله كما أخبرنا تعالى بذلك فى قوله :

(قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا) (١) وقال بعد التحدى بسورة واحدة " فان لم تفعلوا ولن تفعلوا . . . " (٢)

فقد ثبت عجزهم عن معارضة القرآن ولجئوا الى التضحية بالنفس فحاربوه صلى الله عليه وسلم ، ولو لم يكونوا عاجزين عن معارضة القرآن لما تركوا الأخف وعمدوا الى الأصعب ، فموت الرجال وسبى النساء أصعب من معارضة القرآن بكلام يتفق معه فى الحروف ، ولكنهم عجزوا عن ذلك انهم تحدوا بذلك وطال التحدى به ، ولما عجزوا لجئوا الى الحرب — فاستهيجت دماؤهم وأموالهم وسبيت ذراريهم ، فلو كانوا يقدرون على الاتيان بمثله لفعلوا وتوصلوا الى تخليص أنفسهم وأهليهم وأموالهم بأمر معهود عندهم ومألوف من خطبائهم وسطائهم ، لا سيما القرآن مع هذا فند ألهتهم ، وسفه آراءهم ، وأبطل ديانتهم وضلل آباءهم ومن المعلوم أنهم لو عارضوه بما تحداهم اليه لكان فيه توهين لأمره

---

(١) آية ٨٨ من سورة الاسراء .
(٢) جزء من أية ٢٤ من سورة البقرة .

وتكذيب لقوله ، وتفريق لجمعه ، وكان من صدق به يرجع على أعقابه ويعود في مذهب أصحابه فلما لم يفعلوا ذلك مع طول المدة ، وكان أمره يتزايد وأمرهم يضمحل وعجزهم يتزايد علم أنهم عاجزون عن معارضته وأنه معجز . (١)

المبحث الرابع : في اثبات نص القرآن وحفظه من التغيير والتبديل

ان هذا القرآن المحفوظ في الصدور المتلو بالألسن المكتوب في المصاحف هو القرآن الذي نزل به جبريل عليه السلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم وتلاه على أصحابه وحفظوه عنه وكتبوه في حياته وجمعه خليفتاه من بعده أبو بكر وعثمان رضي الله عنهما ، لم يدخله تحريف ولا تغيير ولا تبديل لا يستطيع أحد أن يغير فيه كلمة واحدة ولا أن يغير حرفا مكان حرف ، ولا يستطيع أحد أن يقدم فيه ولا يؤخر (واذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدله قل ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي ان أتبع الا ما يوحى الي اني اخاف ان عصيت ربي عذاب يوم عظيم) (٢) قال الباقلاني . . .

والطريق الى معرفة ذلك : النقل المتواتر الذي يقع عنده العلم

---

(١) ملخصاه من اعجاز القرآن للباقلاني من أول الكتاب الى ص ٣٠ المصدر السابق .

(٢) آية ١٥ من سورة يونس .

الضرورى به وذلك أنه قام به فى الموقف وكتب به الى البلاد وتحطه اليها عنه من تابعه وأورده على غير من لم يتابعه حتى ظهر فيهم الظهور الذى لا يشتبه على أحد . . . حتى انتشر فى بلاد العرب كلها ، وتعدى الى الملوك ، كملك الروم والقبط والحبشة وغيرهم من ملوك الأطراف .

ولما وقع ذلك مضادا الأديان أهل ذلك العصر ومخالفا لوجوه اعتقاداتهم المختلفة فى الكفر وقف جميع أهل الخلاف على جملته ، ووقف جميع أهل دينه الذين أكرمهم الله بالايمان به على جملته وتفاصيله وتظاهر بينهم حتى حفظه الرجال وتنقلت به الرحال ، وتعلمه الكبير والصغير اذ كان عمدة دينهم وعلما عليه والمفروض تلاوته فى صلاتهم ، والواجب استعماله فى أحكامهم ، ثم تناقله خلف عن سلف ، ثم مثلهم فى كثرتهم وتوفر دواعيهم على نقله حتى انتهى الينا ما وصفناه من حالة فلن يتشكك أحد ولا يجوز أن يتشكك مع وجود هذه الأسباب فى أنه أتى بهذا القرآن من عند الله . (١)

وانما ساق القاضى أبو بكر هذا الكلام ليبين أن نص القرآن ثبت بطريق تفيد العلم الضرورى ، لأنه لا يثبت الا عن طريق التواتر الذى يفيد

---

(١) اعجاز القرآن للباقلانى جـ ١ ص ١٩ - ٢١ المصدر السابق

العلم اليقين وهذا مصداق قوله عز وجل : (انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحفظون) [١] فالله جل وعلا أخبر أنه هو الذى نزل هذا القرآن على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم وأنه حفظه من التغيير والتبديل ، والزيادة والنقص ، وحفظه من الشيطان بخلاف غيره من الكتب المتقدمة فانه تعالى لم يتكفل بحفظها بل قال : ان الربانيين والأحبار استحفظوها ، وذلك فى قوله : (والربنيون والأحبار بما استحفظوا من كتب الله . . .) [٢] ولذلك وقع فيها الاختلاف ، وحفظه اياه دليل على أنه من عنده تعالى ، اذ لو كان من قول البشر لتطرق اليه ما تطرق لكلام البشر [٣] وقال تعالى : (وانه لكتب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد) [٤] فهاتان الأيتان تكفيان فى الدلالة على حفظ القرآن الكريم من تغيير أهل السوء وتبديلهم وكيدهم فقد أخبرنا بحفظه من كل ناحية يتطرق اليها من التبديل والتغيير والتحريف .

---

(١) آية ٩ من سورة الحجر .
(٢) جزء من آية ٤٤ من سورة المائدة .
(٣) طالع البحر المحيط جـ ٥ ص ٤٦ المصدر السابق .
(٤) جزء من آية ٤١ ، وآية ٤٢ من سورة فصلت .

المبحث الخامس : القرآن من عند الله .

تقدم فيما مضى أن القرآن معجزة ، وأنه هو المعجزة العظمى التى قامت عليها الدعوة الاسلامية ، وتقدم أنه وصل الينا عن طريق التواتر ، وأثبتنا أنه محفوظ من التغيير ، والتبديل ، والآن سوف أبين لك أنه كلام الله لا دخل لمخلوق فيه بأى نوع لم تتطرق اليه أفكار المخلوقين بتغيير ولا تبديل كما قدمنا ، فالقرآن أنزله الله على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم بواسطة جبريل عليه السلام فهو من عند الله حقا ، ومن قال انه من كلام البشر وأنه دونه رسول الله صلى الله عليه وسلم من شدة ذكائه وفصاحته فقد أعظم القرية على الله تعالى وسوف يصليه سقر .

الآيات الدالة على أن القرآن من عند الله .

قال تعالى : (حم تنزيل من الرحمن الرحيم كتب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون) (١) وقال تعالى : (وانه لتنزيل رب العلمين ، نزل به الروح الأمين ، على قلبك لتكون من المنذرين ..) (٢)

---

(١) آية ١ - ٢ - ٣ من سورة فصلت .

(٢) آية ١٩٢ - ١٩٣ - ١٩٤ من سورة الشعراء .و

وقال تعالى : (وانه لكتب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد) (٢) وقال تعالى : (أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتب يتلى عليهم ...) (٢) وقال تعالى : (وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون ، ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون ، تنزيل من رب العلمين .) (٣) الى غير ذلك من الآيات الكثيرة التى دلت على أن القرآن من عند الله تنزيل العزيز الرحيم .

المبحث السادس فى وجه الاعجاز فى القرآن الكريم :

لما قامت الأدلة على اعجاز القرآن وكونه من عند الله لزم الاهتمام بمعرفة وجه الاعجاز والقدر المعجز منه ، وقد اختلف العلماء فى ذلك اختلافا كثيرا ، وسبب ذلك أن القرآن لا يتكلم فى مسألة من مقاصد الشرع الا ظهر فى تلك المسألة نوع من اعجاز ما فى تأليفه ، واما فى اخباره بالمغيبات المستقبلة ، واما فى اخباره بقصص الأمم الماضية واما فى أحكامه الى غير ذلك ، فلهذا اختلف رأى العلماء فى وجه الاعجاز فيه بعد اجماعهم على أنه معجز .

---

(١) تقدمت
(٢) جزء من آية ٥١ من سورة العنكبوت .
(٣) آية ٤١ - ٤٢ - ٤٣ من سورة الحاقة .

١ ـ قال بعضهم ان وجه الاعجاز فيه هو : ما تضمنه من الأخبار عن قصص الأولين وسائر المتقدمين فقد حكاها حكاية من شاهد هـــا وحضرها كقصة صالح وناقته وقصة موسى ومناجاته ، وكقصة يوسف مع أهل مصر ، وقصة ابراهيم مع النمرود ، وبنائه البيت ، وهمه بذبح ولده ، وقصة عيسى وأمه الى غير ذلك .

٢ ـ وقال قوم ان وجه الاعجاز فيه ما أخبر به عن الغيوب ـــ المستقبلة ولم يكن ذلك من شأن العرب فوقعت كما هى كقوله تعالى : (ألم غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون فـــى بضع سنين) (١) وكقوله تعالى : (لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام ان شاء الله آمنين محلقين رؤسكم ومقصرين لا تخافون) (٢) الى غير ذلك من الآيات الدالة على اخباره بالمغيبات المستقبلة (٣) .

٣ ـ قيل ان وجه الاعجاز هو : ما فيه من النظم والتأليف ، والترصيف وأنه خارج عن جميع وجوه النظم المعتاد فى كلام العرب ، ومباين لأساليب خطابتهم ، فله أسلوب يختص به ، ويتميز فى تصرفـــه

---

(١) آية ١ ـ ٢ ـ ٣ وجزء من آية ٤ من سورة الروم .
(٢) جزء من آية ٢٧ من سورة الفتح .
(٣) انظر الاتقان جـ ٢ ص ١١٨ المصدر السابق .

عن أساليب الكلام الممتا ... ولهذا لم تمكنهم معارضته ولا سبيل الى معرفة اعجاز القرآن من أصناف البديع التى أودعوها فى الشعر لأنه ليس مما يخرق العادة . (١)

٤ - وقال الامام فخر الدين الرازى ان وجه اعجاز القرآن هو: الفصاحة وغرابة الأسلوب والسلامة من جميع العيوب .

٥ - وقال ابن عطية : الصحيح الذى عليه الجمهور والحذاق فى وجه اعجازه أنه بنظمه وصحة معانيه ، وتوالى فصاحة ألفاظه (٢)

٦ - وقال النظام ان اعجاز القرآن بالصرفة أى أن الله صرف العرب عن معارضته وسلب عقولهم وكان مقدورا لهم لكن عاقهم أمر خارجى فصار كسائر المعجزات ، وله قول آخر فى وجه الاعجاز وهو أنه يرى أن اعجازه انما كان من حيث الاخبار عن الأمور الماضية والأتية (٣) .

وقد رد السيوطى القول بالصرفة كما رده غيره ، قال : وهذا قول فاسد بدليل ..... الخ .

فانظره ان شئت .

---

(١) طالع اعجاز القرآن للباقلانى جـ ١ ص ٥١ المصدر السابق .
(٢) طالع الاتقان جـ ٢ ص ١١٩ المصدر السابق .
(٣) انظر اعجاز القرآن للرافعى ص ١٤٤ ط دار الكتاب العربى بيروت .

٧ ـ قال القاضى عياض ان وجوه الاعجاز تنحصر فى أربعة .

أولها حسن تأليفة والتئام كلمة ، وفصاحته ووجوه ايجازه وبلاغته الخارقة عادة العرب ، وذلك أنهم كانوا أرباب هذا الشأن وفرسان الكـــلام قد خصوا من البلاغة والحكم ما لم يخص به غيرهم من الأمم . . .

الوجه الثانى : أن من أوجه اعجازه صورة نظمه العجيب والأسلوب ـ الغريب المخالف لأساليب كلام العرب ومناهج نظمها ونثرها الذى جاء عليه ، ووقفت مقاطع أياته وانتهت فواصل كلماته اليه ولم يوجد قبلـــه ولا بعده نظير له ، ولا استطاع أحد مماثلة شئ منه ، بل حارت فيـــه عقولهم وتدلهت (١) دونه أحلامهم ، ولم يهتدوا الى مثله فى جنس كلامهم من نظم أو نثر ، أو سجع أو رجز ، أو شعر .

الوجه الثالث : هو ما انطوى عليه من الأخبار بالمغيبات ، ومالم يكن ومالم يقع فوجد كما ورد على الوجه الذى أخبر كقوله تعالى : و (لتدخلن المسجد الحرام) وقوله : (وهم من بعد غلبهم سيغلبون) وقولـه (. . . ليظهره على الدين كله . . . (٢)) وقوله : (وعد الله الذين أمنوا منكم وعملوا الصلحت ليستخلفنهم فى الأرض . . .) (٣) وقولـه (اذا جاء نصر الله والفتح) (٤) فكان جميع هذا كما قال . . . .

---

(١) أى ذهبت القاموس مادة (دله) .
(٢) جزء من آية ٩ من سورة الصف .
(٣) جزء من آية ٥٥ من سورة النور .
(٤) آية ١ من سورة النصـــر .

الوجه الرابع ما أخبر به من أخبار القرون السالفة ، والأمم البائـــــدة والشرائع الدائرة مما كان لا يعلم منه القصة الواحدة الا الفذ مـــن أحبار أهل الكتاب الذى قطع عمره فى تعلم ذلك ، فيورده النبى صلى الله عليه وسلم على وجهه ويأتى به على نصه . . . وقد علم أنه أمـــى لا يقرأ ولا يكتب ، ولا اشتغل بدراسة ولم يتغيب عنهم ولا جهل أحـد منهم حاله . . . (١) ثم قال بعد كلامه هذا ان هذه الوجـــوه بيغة لا نزاع فيها ولا مرية ، وفيه أوجه أخرى عدد منها كثيرا .

منها أنه آية باقية لا يعدم ما بقيت الدنيا مع تكفل الله بحفظه ، ومنها أن قارئة لا يمله ، وسامعه لا يمجه ، بل الاكباب على تلاوته يزيد محلاوة وترديده يوجب له محبة . . . الخ .

٨ - وقال الجاحظ ان وجه الاعجاز فى القرآن : كونه فى الدرجة العليا من البلاغة التى لم يعهد مثلها (٢) وقد حكى العلماء أوجها كثيرة غير ما ذكرت يطول ذكرها والذى أختاره من جميع ما وقفت عليه من أوجه الاعجاز ما ذكره الزركشى فى البرهان فانه قال بعد أن ذكر الكثير من الأقوال فى وجه الاعجاز : ان أهل التحقيق على أن الاعجـــاز

---

(١) انظر الشفا للقاضى عياض جـ ١ ص ٢١٢ - ٢٢٣ مختصرا منه
(٢) اعجاز القرآن للرافعى ص ١٤٦ المصدر السابق .

وقع بجميع ماسبق من الأقوال لا بكل واحد منها على انفراده ، فانه جمع ذلك كله ، فلا معنى لنسبته الى واحد منها بمفرده مع اشتماله على الجميع ، بل وغير ذلك مالم يسبق .. الخ كلامه (١) لأن هذا هو الذى يناسب شأن القرآن ، لأنه ضم جميع ماذكر ، فما من قول قيل الا ووجه الاعجاز فيه ظاهر الا القول بالصرفة فانه ليس بظاهر عندى كما تقدم عن السيوطى رده ، وهذا لا ينافى أن بعضه يحصل به الاعجاز لأن القرآن سور كثيرة اختلفت فيها الأساليب وأنواع القصص ، ووردت فيها أخبار القرون السالفة ، وفيها أخبار المغيبات المستقبلة وفيها ذكر الوعد والوعيد ، وذكر التشريع والعقائد ، فكل طريقة سلكها القرآن ظهر اعجازه فيها ، ولا يقال على هذا ان الاعجاز وقع بمجموعه بل يقال انه وقع بجميعه .

---

(١) البرهان فى علوم القرآن بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشى جـ ٢ ص ١٠٦ ط الثانية دار المعرفة للطباعة والنشر بيروت لبنان

المبحث السابع
فى القدر المعجز من القـــرآن

تقدم لك فيما مضى اثبات اعجاز القرآن ، وذكر اختلاف العلمـاء فى أوجه الاعجاز وبيان المختار من ذلك ، والآن سأذكر لك الخلاف فى القدر المعجز من القرآن .

قال بعض العلماء

ان الاعجاز وقع بمجموعه ، وقد قدمت أن هذا القول غير صحيح لأن التحدى وقع بسورة واحدة منه ، وهذا القول لبعض المعتزلة ،

وقال آخرون ان الاعجاز يقع بسورة طويلة منه أو قصيرة ،

وقال آخرون : يقع بسورة أو قدرها من الكلام ،

وقال قوم ان الاعجاز يقع بقليل القرآن وكثيره ،

وقالت طائفة انه لا يقع بأية واحدة ،

قال السيوطى فى الاتقان : تنبيهات

الأول : اختلف فى القدر المعجز من القرآن فذهب بعض المعتزلة الى أنه متعلق بجميع القرآن ، والايات السابقة ترده (١) ، وقال القاضى يتعلق الاعجاز بسورة طويلة كانت أوقصيرة تشبثا بظاهر قوله (بسورة) ، وقال فى موضع آخر يتعلق بسورة أوقدرها من الكلام يتبين فيه تفاضل قوى البلاغة قال : فاذا كانت أية بقدر حروف سورة ، وان كانت كسورة الكوثر فذلك معجز قال : ولم يقم دليل علـى

---

(١) يشير بذلك الى ماقدمه في قصة اسلام جبير بن مطعم لما سمع النبى صلى الله عليه وسلم يقرأ فى المغرب بالطور فلما بلغ قولة تعالى : (أم خلقوا من غير شىء أم هم الخلقون . . .) الى قوله المصيطرون . آيات ٣٥ - ٣٦ - ٣٧ من سورة الطور .

عجزهم عن المعارضة فى أقل من هذا القدر - وهذا القول هوالذى ذكرته فى الحد حيث قلت المعجز بأقصر سورة منه - لانه أقرب الاقوال عندى فى الحد

وقال قوم : لا يحصل الاعجاز بآية ،بل يشترط الآيات الكثيرة ،

وقال آخرون : يتعلق بقليل القرآن وكثيره لقوله : (فليأتوا بحديث مثله)

قال القاضى : ولا دلالة فى الآية لان الحديث التام لا تتحصل حكايته فى أقل من كلمات سورة قصيرة اهـ (١)

---

١) انظر الاتقان جـ ٢ ص ١٢٣ المصدر السابق .

المبحث الثامن

فى تحريف العهدين وتبديلهما وتناقضهما

لما أثبتنا حفظ القرآن الكريم من التغيير والتبديل والضياع والتحريف بالأدلة القاطعة : وكان القرآن الكريم هو المصدر الأول لهذه الشريعة الاسلامية التى نسخت جميع الشرائع المتقدمة عليها كان لزاما علينا أن نثبت أن التوراة والانجيل اللذين هما مصدرا التشريع عند اليهود والنصارى كما يزعمون محرفان ومغيران ومبدل فيهما ، وذلك بنصوص كتابنا الذى أثبتنا أنه حق من عند الله ومحفوظ من كل تغيير وتبديل ،

ونصوص التوراة والانجيل . بما فيهما من التناقضات والاختلافات وغير ذلك مما لا يدع مجالا للشك فى أن هذا التناقض والتخالف من وضع البشر لا من وضع خالق البشر .

النصوص القرآنية تدل على تحريف مصادر دين أهل الكتاب

ان الله تبارك وتعالى أخبرنا فى غير ما آية من كتابه عن تحريفهم وتبديلهم وتغييرهم لكتابهم الذى أنزل على موسى عليه السلام ، قال الله تعالى :

(من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه ..) (١) وقال تعالى :

(.. ومن الذين هادوا سمعون للكذب لقوم آخرين لم يأتوك يحرفون الكلم من بعد مواضعه يقولون ان أوتيتم هذا فخذوه وان لم تؤتوه فاحذروا ..) (٢)

وقال تعالى فى شأنهم (فويل للذين يكتبون الكتب بأيديهم ثم يقولون

---

١) جزء من آية ٤٦ من سورة النساء

٢) جزء من آية ٤١ من سورة المائدة

هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون) (١) . ذكر العلماء عند تفسير هذه الآية أنها نزلت في ناس من اليهود كانوا يكتبون كتبا يبيعونها للناس ويقولون لهم انها من عند الله (٢) وقال تعالى : (ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم نبذ فريق من الذين أوتوا الكتب كتب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون) (٣) والمراد بالكتاب الذى نبذوه التوراة أى طرح طائفة من اليهود الكتاب الذى كان بأيديهم وهو التوراة وراء ظهورهم أى تركوا العمل بمافيها لما فيها من البشارة ببعثة محمد صلى الله عليه وسلم كانهم لا يعلمون مافيها ، فاليهود لما جاءهم الرسول صلى الله عليه وسلم بالقرآن مصدقا لما بين أيديهم من التوراة عارضوه وخاصموه فاتفقت التوارة والقرآن فنبذوا التوراة وأخذوا بكتاب آصف وسحر هاروت وماروت فلم يوافق ذلك القرآن فذلك قوله (كأنهم لا يعلمون) وقال قتادة معنى قوله لا يعلمون : انهم كانوا يعلمون ولكنهم نبذوا وجحدوا علمهم وكتموه به (٤) .

أما الآية : (ومن الذين هادوا سمعون للكذب ...) فقال بعض العلماء انها نزلت في قوم من اليهود قتلوا قتيلا وقالوا تعالوا نتحاكم الى محمد فان حكم بالدية فاقبلوا ، وان حكم بالقصاص فلا تسمعوا منه ،

---

١) أية ٧٩ من سورة البقرة

٢) انظر تفسير ابن كثير عند الأية

٣) آية ١٠١ من سورة البقرة

٤) طالع تفسير ابن كثير عند تفسير الآية

والصحيح أنها نزلت فى اليهود بين اللذين زنيا وكانوا أعنى اليهود قد بدلوا وحرفوا كتاب الله الذى بين أيديهم من رجم المحصن فحرفوه واصطلحوا فيما بينهم على جلد مائة والتحميم والاركاب على حمار مقلوبين وقد روى البخارى ومسلم أنهم قالوا بعد مجىء الرسول صلى الله عليه وسلم الى المدينة تعالوا نتحاكم الى هذا الرجل فان حكم بالجلد والتحميم فخذوا عنه واجعلوه حجة بينكم وبين الله ، ويكون نبى من أنبياء الله قد حكم بينكم بذلك ، وان حكم بالرجم فلا تتبعوه ، وجاءوه فقال لهم : ماتجدون فى التوراة فى شأن الرجم قالوا نفضحهم ويجلدون ، وكان هذا بعد اسلام عبد الله بن سلام فقال أى عبد الله : كذبتم ان فيها الرجم فأتوا بالتوراة فنشروها فوضع أحدهم يده على آية الرجم فقرأ ما قبلها وما بعدها فقال له عبد الله بن سلام أرفع يدك فرفع يده ، فاذا آية الرجم فقالوا صدق يامحمد فيها آية الرجم فأمر بهما صلى الله عليه وسلم فرجما (١) وقال تعالى : (افتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلم الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون) (٢)

قال ابن كثير ان محمد بن اسحاق روى عن بعض أهل العلم أن هذه الآية حكاية عن قوم من اليهود سألوا موسى أن يسمعهم كلام الله

---

١) أخرج الحديث البخارى فى كتاب الحدود فى باب أحكام أهل الذمة واحصانهم اذا زنوا ورفعوا الى الامام . ومسلم فى كتاب الحدود فى باب رجم اليهود وأهل الذمة فى الزنا جـ ٣ ص ١٣٢٦ ط أحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبى وشركاؤه تعليق محمد فؤاد عبد الباقى .

٢) آية ٧٥ من سورة البقرة .

حين يكلمه فطلب موسى ذلك من الله فأمره أن يأمرهم أن يتطهروا ويطهروا ثيابهم ويصوموا ففعلوا وخرجوا معه الى الطور فلما غشيهم الغمام أمرهم موسى أن يسجدوا فوقعوا سجدا وكلمه ربه فسمعوا كلامه يأمرهم وينهاهم حتى عقلوا منه ماسمعوا ، ثم انصرف بهم الى بنى اسرائيل فلما جاء وهم حرف فريق منهم ما أمرهم به ، وقالوا حين قال موسى لبنى اسرائيل : ان الله قد أمركم بكذا ، قال ذلك الفريق الذين ذكرهم الله ، انما قال كذا وكذا خلافا لما قال الله عزوجل لهم ، قال وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه . قال : هى التوراة حرفوها (١) والآيات بمثل هذا كثيرة شاهدة بأن اليهود حرفوا كتابهم ، وجعلوا فيه مايوافق هواهم وتركوا منه مالا يوافق ،

ونحن معاشر المسلمين نعتقد أن الله تبارك وتعالى أنزل على موسى كتابا ونؤمن بهذا الكتاب كما نؤمن بغيره من الكتب السماوية التى أنزلها الله على رسله كانجيل عيسى ، وصحف ابراهيم ، وزبور داود ، وغير ذلك .

فكما نؤمن : بجميع الرسل لا نفرق بين أحد منهم ، نؤمن بجميع الكتب السماوية لا نفرق بينها ، قال تعالى : (آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملئكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله) (٢) ولكننا نقطع بأن هذه التوراة الموجودة

---

١) طالع تفسير ابن كثير عند هذه الآية

٢) جزء من آية ٢٨٥ من سورة البقره

والا نا جيل فيهما تحريف كثير وتغيير وتبديل كما أثبتنا ذلك بالا دلة القرآنية .

وقد ثبت في السنة أن أهل الكتاب حرفوا في كتبهم وبدلوا وغيروا ففي صحيح البخاري عن ابن عباس قال : (يامعشر المسلمين كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء وكتاب الله الذي أنزله على نبيه أحدث أخبار الله تقرؤونه محضا لم يشب ، وقد حدثكم الله تعالى أن أهل الكتاب قد بدلوا كتاب الله وغيروه وكتبوا بايديهم الكتاب وقالوا هو من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا ، أفلا ينهاكم ماجاءكم من العلم عن مساءلتهم ولا والله مارأينا منهم أحدا قط سألكم عن الذي أنزل عليكم (١)

التناقضات في العهدين

بعد ماتبين لك أن القرآن من عند الله وأنه محفوظ من التغيير ومن التناقضات ،لابد أن ابين لك أن في هذين الكتابين : التوراة والا نجيل الموجودين حاليا مايثبت أنهما محرفان اذ فيهما مالا يصح أن ينسب للمخلوق فكيف بالخالق .

١- التوراة فيها مالا يصح أن ينسب لموسى ففيها مانصه : (فمات موسى عبد الرب في أرض موءاب حسب قول الرب ، ودفنه في الجواء في أرض موءاب مقابل بيت فغور ، ولم يعرف انسان

---

(١) صحيح البخاري : كتاب التوحيد ،باب قول الله تعالى : كل يوم هو في شأن ، وفي كتاب الاعتصام في باب قول النبي صلى الله عليه وسلم ، لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء .

قبره الى هذا اليوم (١)

وهل يعقل أن يقول موسى عن نفسه أنه مات فى موضع كذا ؟ ولم يعرف أحد موضع قبره .

٢- وفيها أيضا على لسان موسى عليه السلام مانصه :

(وهؤلاء هم الملوك الذين ملكوا فى أرض أدوم قبل ما ملك ملك لبنى اسرائيل) (٢) وهذا الكلام يدل على أنه انما قيل بعد موسى بزمن لأن ملوك بنى اسرائيل بدؤا من بعد موسى بزمن طويل .

٣- ورد فى أسفار العهد القديم مايلى : (مفتقد أثم الآباء فى الأبناء ، وفى أبناء الأبناء حتى الجيل الثالث أو الرابع (٣) وفيها أيضا : أفتقد ذنوب الاباء فى الأبناء وفى الجيل الثالث والرابع من الذين يغضبوننى) (٤)

ويوجد فى سفر حزقيال ماينافض هذا ففيه : (النفس التى تخطىء هى تموت الابن لا يحمل من أثم الأب ، والأب لا يحمل من أثم الابن ، بر البار عليه يكون وشر الشرير عليه يكون (٥) فانظر الى هذا التناقض الذى لا يمكن الجمع بينه بحال من الأحوال مما لا يدع مجالا للشك أن هذا الكتاب الذى أنزله الله على موسى لعبت به أيدى العابثين الجاهلين فكتبوا فيه أشياء ماأنزل الله بها من سلطان .

---

١) سفر التثنيه الاصحاح ٣٤ فقرة ٥ - ٧
٢) سفر التكوين : الاصحاح ٣٦ فقره ٣١
٣) سفرالخروج الاصحاح : ٣٤ فقرة ٧
٤) سفر التثنية الاصحاح ٥ فقرة ٩
٥) سفر حزقيال الاصحاح ١٨ فقره ٢٠

ثانيا العهد الجديد

مما يجب الايمان به أن الله أنزل على نبيه عيسى عليه الصلاة والسلام انجيلا كما أخبرنا الله بذلك فى الكتاب العزيز فى آيات كثيرة منه نحو قوله تعالى : وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم مصدقا لما بين يديه من التوريه وآتينه الانجيل ...) (١)

وقال تعالى : (ثم قفينا على اثرهم برسلنا وقفينا بعيسى ابن مريم وآتينه الانجيل ...) (٢) الى غير ذلك من الآيات ،

وتشهد بذلك الاناجيل نفسها التى فى أيدى النصارى اليوم فانها تثبت أن الله أنزل على عيسى انجيلا ،فالمسلمون والمسيحيون مجمعون على وجود انجيل فى زمن عيسى عليه السلام وهو المصدر الحقيقى للمسيحية ولكن أين ذلك الانجيل ؟

ان ذلك الانجيل مفقود ، والاناجيل الموجودة بأيدى المسيحيين لا تنسب الى عيسى وانما تنسب الى أصحابها فيقال : انجيل متى ، انجيل مرقس ، انجيل يوحنا ، انجيل برنابا ، وفى انجيل مرقس ما يثبت انجيل عيسى عليه السلام ففيه مايلى :-

(وبعد ما أسلم يوحنا جاء (يسوع) الى الجليل يكرز (٣) ببشارة الملكوت ويقول : قد كمل الزمان واقترب ملكوت الله فتوبوا وآمنوا بالانجيل (٤)

وفى رسالة بولس الى أهل رومية : (أولا : أشكر الهى يسوع

---

١) جزء من آية ٤٦ من سورة المائدة
٢) جزء من آية ٢٧ من سورة الحديد
٣) يبشر
٤) انجيل مرقس الاصحاح الاول فقرة ١٥

من جهة جميعكم ان ايمانكم ينادى به فى كل العالم فان الله الذى أعبده بروحى فى انجيل ابنه شاهد لى ، كيف بلا انقطاع اذكركم دائما متضرعا فى صلواتى (١)

فهذه النصوص أثبتت أن لعيسى انجيلا .

ولكى تكون المسيحية صحيحة لابد أن يكون هذا المصدر المجمع على نزوله موجودا الآن فاذا سألنا أين هذا المصدر؟ فلا نجد جوابا ، وبناء عليه يثبت ضياع الانجيل الحقيقى ، وتكون المسيحية بلا سند مما يؤدى الى رفضها كديانة سماوية .

(٢) واليك التناقض فى نصوص هذه الأناجيل .

١- ورد فى انجيل يوحنا ان المسيح ابن الله ، وورد فيه انه غير الله ، وورد فيه أنه هو الله ، (فى البدء كان الكلمة ، والكلمة كان عند الله ، وكان الكلمة الله ...) (٣)

٢- وفى انجيل مرقس مايفيد أن المسيح ابن الله (٤) وفيه أيضا ما يفيد أنه ابن انسان (فقام رئيس الكهنة فى الوسط وسأل يسوع قائلا أما تجيب بشىء ، ماذا يشهد به هؤلاء عليك ، أما هو فكان ساكتا ولم يجب بشىء فسأله رئيس الكهنة أيضا وقال

١- رسالة بولس الى أهل رومية الاصحاح الأول فقرة ٨
٢- الدعوة الى الله الدكتور أبو المجد السيد نوفل ص ١٥٩
٣- انجيل يوحنا الاصحاح الاول : فقرة ١
٤- انجيل مرقس الاصحاح الاول فقرة (١)

له أنت المسيح أبن المبارك ؟ فقال له يسوع أنا هو وسوف تبصرون ابن الانسان جالسا عن يمين القوة وآتيا في سحاب السماء (١)

٣- وفي انجيل لوقا مايدل على أن المسيح نبي ((فأخذ الجميع خوف ومجدوا الله قائلين قد خرج فينا نبي عظيم)) (٢)

وغير هذا كثير مما يدل على أن هذه الاناجيل من صنع البشر لا من كلام الله تعالى ولا صلة لها بالوحي بتاتا .

زد على ذلك أن أصحاب هذه الاناجيل والرسائل غير معروفين على الحقيقة وكذلك أناجيلهم لا يعرف لتأليفها زمن معين ، فيوحنا ، وهو صاحب الانجيل المسمى به مختلف في شخصيته ، والكثير من كتاب المسيحية يؤكدون أن هذا الانجيل ليس من كتابة يوحنا الحواري ، وانما هو ليوحنا آخر ،

وفي دائرة المعارف الابريطانية مايلي :

أما انجيل يوحنا فانه لا مرية ولا شك كتاب مزور أراد صاحبه به مضادة اثنين من الحواريين بعضهما لبعض وهما : القديسان يوحنا ومتى ... وزمن تأليف هذه الاناجيل غير محقق ، وما جاء في ذلك من روايات انما هي لا سند لها كما يقول أحد العلماء المحققين من أهل الكتاب (٣)

فظهر مما ذكرت أن الديانتين : المسيحية واليهودية لا يوجد لهما مصدر حقيقي مقطوع به وأن الموجود من مصادرهما انما

---

١) انجيل مرقص الاصحاح ١٤ فقرة ٦٠ - ٦٣

٢) انجيل لوقا الاصحاح ٧ فقرة ١٦

٣) انظر الدعوة الى الله الدكتور أبو المجد السيد نوفل ص ١٦١ - ١٦٢

هو أفكار بشرية لا تستند هذه الافكار الى وحى سماوى ، ويظهر بذلك زيفهما وبطلانهما .

يقول رحمة الله بن خليل الرحمن الهندى فى كتابه اظهار الحق مانصه :

واذا كان الامر كذلك فلا نعتقد بمجرد اسناد كتاب من الكتب الى نبى أو حوارى أنه الهامى ، أو واجب التسليم ، وكذلك لا نعتقد بمجرد ادعائهم بل نحتاج الى دليل ، ولذلك طلبنا مرارا من علمائهم الفحول : السند المتصل فما قدروا عليه ، واعتذر بعض القسيسين فى محفل المناظرة التى كانت بينى وبينهم فقال : ان سبب فقدان السند عندنا وقوع المصائب والفتن على المسيحيين الى مدة ثلاثمائة وثلاث عشرة سنة ، وتفحصنا فى كتب الاسناد لهم فما رأينا فيهما شيئا غير الظن والتخمين ، يقولون بالظن ويتمسكون ببعض القرائن (١)

---

١) اظهار الحق لرحمة الله بن خليل الرحمن الهندى جـ ١ ص ٣٣ ط العلمية سنة ١٣١٥ هـ

وقبل أن أتكلم على عموم رسالة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم لابد من اثبات الرسالة أولا بالادلة القاطعة من الكتاب والسنة فاذا أثبتناها تكلمنا بعد ذلك على عمومها .

ان اثبات رسالة نبينا صلى الله عليه وسلم أمر معلوم عند المسلمين وغيرهم ولم ينكرها الا المعاندون الجاحدون الذين يعلمون ثبوتها ويجحدونها مستيقنة بذلك أنفسهم سواء فى ذلك اليهود والنصارى وغير ذلك .

وقد صرح القرآن الكريم باثباتها فى آيات كثيرة كما صرحت بذلك السنة النبوية ، وشواهد ذلك من المعجزات واضحة .

المبحث التاسع فى دلالة القرآن والسنة والاجماع على رسالته صلى الله عليه وسلم

قال تعالى : (تلك آيت الله نتلوها عليك بالحق وانك لمن المرسلين) (١)

وقال تعالى (وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا ماكنت تدرى ماالكتب ولا الايمن ولكن جعلنه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا وانك لتهدى الى صراط نستقيم) (٢)

وقال تعالى : (وما كنت ثاويا فى أهل مدين تتلوا عليهم آيتنا ولكنا كنا مرسلين) (٣)

وقال تعالى : (يس والقرآن الحكيم انك لمن المرسلين علىصراط مستقيم) (٤)

---

١) آية ٢٥٢ من سورة البقرة

٢) آية ٥٢ من سورة الشورى

٣) جزء من آية ٤٥ من سورة القصص

٤) آية ١ - ٢ - ٣ من سورة يس

وقال تعالى (والله يعلم انك لرسوله ...) (١) فقد تضمنت هذه الآيات اثبات رسالة نبينا صلى الله عليه وسلم وذلك حيث قص علينا أخبار الامم الماضية كقصة شعيب مع أهل مدين ، وغيرها من قصص الامم الماضية ولم يكن حاضرا ، ولا تلقى ذلك عن أحد لانه لا يقرأ ولا يكتب فدل هذا الاخبار الصحيح الموافق للواقع على أنه من عند الله ، كما قص علينا قصة مريم عليها السلام وذلك فى قوله تعالى : (ذلك من أنباء الغيب نوحيه اليك وماكنت لديهم اذ يلقون أقلمهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم اذ يختصمون) (٢) فهو صلى الله عليه وسلم لم يكن حاضرا للقرعة بين زكريا عليه السلام وبين بنى اسرائيل أيهم يكفل مريم ولم يكن حاضرا حين اختصموا ولكن ذلك الذى أخبر به من شأنهم وحى من الله ، والآيات بمثل هذا أكثر من .

ثبوتها بالسنة :

ثبت فى الصحيح عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

(فضلت على الانبياء بست اعطيت جوامع الكلم ، ونصرت بالرعب وأحلت لى الغنائم وجعلت لى الارض طهورا ومسجدا ، وأرسلت الى الخلق كافة وختم بى النبيون) (٣) وقال صلى الله عليه وسلم (أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلى كان كل نبى يبعث الى قومه خاصة وبعثت الى كل أحمر وأسود وأحلت لى الغنائم ولم تحل لأحد قبلى وجعلت لى الارض طيبة طهورا ومسجدا فأيما رجل ادركته الصلاة

---

١) جزء من آية (١) من سورة المنافقون

٢) آية ٤٤ من سورة آل عمران

٣) صحيح مسلم جـ ١ ص ٣٧١ كتاب المساجد ومواضع الصلاة دار احياء الكتب العربية تعليق محمد فؤاد عبد الباقى . وخرجه الترمذى جـ ٣ ص ٥٦ وقال حسن صحيح ط السلفية .

صلى حيث كان ونصرت بالرعب بين يدى مسيرة شهر وأعطيت الشفاعة) (١) وفى مسند الامام أحمد عن أبى أمامة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (فضلت بأربع جعلت الارض لامتى مسجدا وطهورا وأرسلت الى الناس كافة ، ونصرت بالرعب من مسيرة شهر يسير بين يدى ، وأحلت لى الغنائم) (٢)

فهذا النصوص وان دلت على عموم الرسالة فانها دلت كذلك على ثبوتها بالاولى فمحل الشاهد منها عندنا الآن قوله صلى الله عليه وسلم : أرسلت ، أرسلت ، وستأتى هذه الاحاديث ان شاء الله فى أدلة عموم الرسالة ،

فرسالته صلى الله عليه وسلم ثبتت من طريق القرآن ، وثبتت من طريق السنة الصحيحة وأجمع المسلمون عليها لم يخالف فى ذلك مسلم واحد ، ومن خالف فيه من المسلمين فقد كفر وخرج عن نطاق الاسلام ،

---

١) رواه البخارى فى صحيحه جـ ١ ص ٩١ كتاب التيمم ومسلم فى المصدر السابق نفسه

٢) المسند للامام أحمد جـ ٥ ص ٢٥٦ ط المكتبة الاسلامية .

المبحث العاشر

فى الكلام على عمومها بعد ثبوتها

أما عموم رسالة محمد صلى الله عليه وسلم فانه ثابت بالكتاب والسنة واجماع المسلمين كما سترى ان شاء الله ، ولا يرد على عمومها اختلاف العلماء ، فيها هل شملت الملائكة أولا ؟ فقد أتفقوا بلا شك على شمولها لنبى البشر حتى يرث الله الارض ومن عليها وهذا لم يثبت لغيرها من الرسالات ، وسيتضح لك ان شاء الله مافى ذلك كله وماهو الحق عندنا فى ذلك ، كما سترى الرد على بعض الشبه التى أوردها أهل الكتاب على عدم شمولها لهم وأنها خاصة بالعرب الذين بعث فيهم ونزل عليه كتابه بلسانهم ، وأن فكرة عالميتها طرأت بعد وفاته صلى الله عليه وسلم .

القرآن يثبت عموم دعوة الاسلام :

ان الآيات الدالة على عموم رسالة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم كثيرة جدا ومعظم هذه الآيات من السور المكية ، وذلك مما يبطل القول بأن عالميتها فكرة طارئة ، وسوف أذكر بعضا من هذه الآيات معظمه من السور المكية ، وأترك آيات كثيرة دلت على العموم تنبيها بما ذكر على مالم يذكر ، وسوف أتكلم على هذه الآيات بعض الكلام وأبين محل الدلالة على العموم منها دون اطالة ان شاء الله .

قال تعالى فى شأن القرآن من سورة الأنعام وهى مكية (.. قل لا أسئلكم عليه أجرا ان هو الا ذكرى للعلمين) (١) فمعنى الآية أن

---

(١) جزء من آية ٩٠ من سورة الانعام

النبى صلى الله عليه وسلم لا يطلب أجرا يأخذه على القرآن ، أو على تبليغه الدعوة لأمته ، وما القرآن الا تذكير للعالمين عامة (١) فلا يختص به قوم دون آخرين ، قال الالوسى واستدل بالآية على عموم بعثته صلى الله عليه وسلم (٢)

وقال أبو حيان (ان هو الا ذكرى للعلمين) ان القرآن الا ذكرى موعظة للعالمين (٣) .

وقال تعالى فى سورة الانعام أيضا (... وأوحى الى هذا القرآن لانذركم به ومن بلغ ..) (٤) والمعنى : وأوحى الى هذا القرآن لأنذركم به أى وأبشركم أيها المخاطبون فحذف المعطوف لدلالة المعنى عليه و (من) فى موضع نصب عطفا على مفعول أنذر وفاعل أنذر ضمير يعود على القرآن أى ومن بلغه هو أى القرآن ، والعائد على من الموصولة محذوف وهو المفعول لبلغ ، وتقدير الكلام : أوحى الى بهذا القرآن لأنذركم به وأبشركم أيها المخاطبون ، وأنذر به من بلغه القرآن ، قال مقاتل من بلغه من العرب والعجم ، وقيل من الثقلين ، وقيل من بلغه الى يوم القيامة ، (٥) وعن سعيد بن جبير : من بلغه القرآن فكانما رأى محمدا صلى الله عليه وسلم (٦) وفى الحديث من بلغه القرآن فأنا نذيره (٧) وروى ابن جرير هنا ايضا عن محمد بن كعب فى

---

١) سيأتى الكلام على معنى العالمين

٢) روح المعانى جـ ٧ ص ٢١٨

٣) البحر المحيط جـ ٤ ص ٦ ١٧ المصدر السابق

٤) جزء من آية ١٩ من سورة الانعام

٥) طالع البحر المحيط عند الآية

٦) روى هذا الاثر ابن جرير عند تفسير هذه الآية

٧) رواه ابن جرير أيضا فى المصدر نفسه

قوله : لأنذركم به ومن بلغ قال : من بلغه القرآن فقد أبلغه محمد صلى الله عليه وسلم .

وقال ابن جرير أيضا : حدثنا وكيع قال حدثنا حميد بن عبد الرحمن عن حسن بن صالح قال : سألت ليثا هل بقي أحد لم تبلغه الدعوة قال : كان مجاهد يقول : حينما يأتي القرآن فهو داع وهو نذير ، ثم قرأ لأنذركم به ومن بلغ ، ثم قال مانصه : فمعنى الكلام لأنذركم بالقرآن أيها المشركون ، وأنذر من بلغه القرآن من الناس كلهم ، وروى عن قتادة أنه قال في قوله لأنذركم به ومن بلغ ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : بلغوا عن الله فمن بلغه آية من كتاب الله فقد بلغه أمر الله (١) وقال تعالى : (قل يأيها الناس ان رسول الله اليكم جميعا ...) (٢) وهذه الآية مكية أيضا لأنها من سورة الاعراف .

ومعنى الكلام : قل ياأحمد للناس كلهم اني رسول الله اليكم جميعا لا الى بعضكم دون بعض كما كان من قبلي من الرسل مرسلا الى بعض الناس دون بعض ، فمن كان منهم أرسل كذلك فان رسالتي ليست الى بعضكم دون بعض ولكنها الى جميعكم (٣) وسيأتي زيادة الكلام ان شاء الله على هذه الآية في الرد على الشبه الواردة حول عموم الرسالة فقوله في الآية الاولى : (العالمين) لفظ عام يشمل جميع العالم كما سيأتي ، وقوله في الآية الثانية (ومن بلغ) يدل على العموم لأن (من) من صيغ العموم كما هو معلوم عند كل أحد .

وقال تعالى : (قل يأيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم فمن اهتدى فانما يهتدي لنفسه ومن ضل فانما يضل عليها وما أنا عليكم بوكيل) (٤)

---

١) تفسير ابن جرير جـ ٧ ص ١٠٣ - ١٠٤

٢) جزء من آية ١٥٨ من سورة الاعراف

٣) تفسير ابن جرير جـ ٩ ص ٥٩ المصدر السابق

٤) آية ١٠٨ من سورة يونس

فالله جل وعلا أمر نبيه محمد اصلى الله عليه وسلم أن يقول للنـــاس والناس لفظ عام يعم جميعهم ـ قد جاءكم الحق من ربكم أى القرآن فمن اهتدى بهديه فنفع هداه اليه ، ومن أعرض عنه وضل فوبال اعراضه عنـــه راجع اليه ، ومحل الشاهد لفظه الناس فانها اسم جمع معروف بأل وذلك من صيغ العموم كما هو مقرر فى كتب أصول الفقه ، كما أن دلالة العموم فى آية الاعراف المتقدمة فى قوله : (جميعا) لأن جميع من صيغ العموم قال صاحب سراقى السعود معددا صيغ العموم فى مبحث العام :

∴ صيغة كل أو الجميع ∴ وقد تلا الذى التى الفروع ∴

∴ أين وحيثما ومن أى وما ∴ شرطا ووصلا وسوء الا أنهما ∴

∴ وما معرفا بأل قد وجدا ∴

فذكر من صيغ العموم (جميع) و (من) و (المعروف بأل) كل هذا يدل على العموم .

وقال تعالى : (وما تسئلهم عليه من اجر ان هو الا ذكر للعلمين)(١)

فالله جل وعلا يقول لنبيه : لا تسأل من بلغتهم القرآن أجرا عليه ، وأتى بالنهى بصيغة النفى لأن ذلك أبلغ ، ثم أخبره أن القرآن ماهو الا ذكر للعالمين وموعظة لهم عامة (٢)

وقال الألوسى : ماهو الا تذكير وعظة من الله تعالى للعالمين كافة (٣) ومحل الشاهد لفظه (العالمين) وقد قدمنا قريبا أنها من صيغ العموم ، وقال تعالى فى مطلع سورة ابراهيم وهى مكية أيضا

---

١) آية ١٠٤ من سورة يوسف عليه السلام

٢) البحر المحيط جـ ٥ ص ٣٥١ المصدر السابق

٣) روح المعانى جـ ١٣ ص ٥٩

كسورة يوسف (الركتب أنزلته اليك لتخرج الناس من الظلمات الى النور .) فالناس لفظ عام يشمل جميع الناس فى كل زمان ومكان ،

قال الالوسى : والمراد من الناس جميعهم أى أنزلناه اليك لتخرجهم كافة بما فى تضاعيفه من البينات الواضحه المفصحة عن كونه من عند الله .. الخ كلامه (١)

وقال تعالى فى سورة ابراهيم أيضا : (هذا بلغ للناس ولينذروا به) (٢) والناس لفظ عام ، والمعنى أن هذا القرآن بلاغ للناس أبلغ الله به اليهم الحجة ، وأعذر اليهم بما أنزل فيه من مواعظه وعبره ، ولينذروا به عقاب الله ويحذروا به نقماته (٣) وقال تعالى : (وما أرسلناك الا رحمة للعلمين) (٤) أخبر تعالى فى هذه الآية أنه أرسل نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم رحمة للعالمين كلهم فمن قبل هذه الرحمة سعد فى الدنيا والآخرة ، ومن ردها وجحدها خسر دنياه وأخراه (٥)

وقال تعالى فى مطلع سورة الفرقان وهى مكية (تبرك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعلمين نذيرا) (٦) والمعنى أنه تعالى نزل الفرقان أى القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم ليكون به نذيرا للعالمين ، ولفظة العالمين تشمل كل ماسوى الله تعالى على الصحيح الذى اختاره القرطبى وغيره من المفسرين عند قوله تعالى :

(الحمد لله رب العلمين .) (٧) فالله جل وعلا خص محمدا صلى الله عليه وسلم بهذا القرآن الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ،

---

١) روح المعانى جـ ١٣ ص ١٦٢ المصدر السابق
٢) جزء من آية ٥٢ من سورة ابراهيم
٣) انظر ابن جرير جـ ١٣ ص ١٦١ المصدر السابق
٤) آية ١٠٧ من سورة الانبياء
٥) تفسير ابن كثير جـ ٣ ص ٢٠١ ط الحلبى وشركاؤه
٦) آية ١ من سورة الفرقان
٧) آية ١ من سورة الفاتحه

وانما هو تنزيل من حكيم حميد ليحضه بالرسالة الى من يستظل بالخضراء ويستقل على الغبراء ، (١) وقال الشوكاني : ليكون للعالمين نذيرا فان النذارة هي الغرض المقصود من الانزال ، والمراد محمد صلى الله عليه وسلم أو الفرقان ، والمراد بالعالمين هنا الانس والجن لانه صلى الله عليه وسلم مرسل اليهما ولم يكن غيره من الانبياء مرسلا الى الثقلين (٢) وقال أبو حيان مانصه : وللعالمين عام للانس والجن ممن عاصره ، أوجاء بعده ، وهذا معلوم من الحديث المتواتر وظواهر الآيات ، وقرأ ابن الزبير للعالمين للجن والانس ، وهذا تفسير للعالمين ، (٣) وقال تعالى : (وما هو الا ذكر للعالمين) (٤) وهذه مكية أيضا ، وقد أخبر الله فيها أن القرآن ذكر للعالمين وبيان لهم وأدلة وتنبيه لهم على مافي عقولهم من أدلة التوحيد ، وقد قدمنا أن العالمين كل ماسوى الله . (٥) فتصريح الله جل وعلا بأن هذا القرآن ذكر للعالمين جميعا دليل قاطع على عموم الدعوة الاسلامية ورد على من زعم أنها خاصة بأناس دون آخرين ، أو بمكان دون آخر أو بزمان دون آخر ، وقال تعالى (وما أرسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيرا ولكن أكثر الناس لا يعلمون) (٦)

---

١) انظر ابن كثير جـ ٣ ص ٣٠٨ المصدر السابق

٢) فتح القدير جـ ٤ ص ٦٠ ط مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر

٣) البحر المحيط جـ ٦ ص ٤٨ المصدر السابق

٤) آية ٥٢ من سورة القلم

٥) انظر الفخر الرازي جـ ٣ ص ١٠١ ط أولى

٦) آية ٢٨ من سورة سبأ .

قال الفخر الرازى فى تفسيره : (وما أرسلنك الا كافة : فيه وجهان :
أحدهما : كافة أى ارسالة كافة أى عامة لجميع الناس تمنعهم من الخروج
عن الانقياد لها ، والثانى : كافة أى أرسالناك كافة تكف الناس أنت
من الكفر ، والهاء للمبالغة على هذا الوجه ، بشيرا أى تحشهم بالوعد
ونذيرا تزجرهم بالوعيد ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ذلك ولكن لغفلتهم (١)
هكذا قال الفخرالرازى (٢)

---

١) تفسير الفخرالرازى جـ ٢٥ ص ٢٥٨ المصدر السابق .
٢) قلت كافة أسم فاعل من كف وهى : اما أن تكون حالا من الكاف فى
أرسالناك ويكون المعنى ، وما أرسلناك الا جامعا للناس فى الابلاغ
والهاء للمبالغة كما فى علامة ورواية ، واما أن تكون حالا من الناس
وتقدم الحال على صاحبها المجرور موضع خلاف بين النحاة ،
والصحيح جوازه ، وما ذكره الزمخشرى من أنها لا يصح أن تكون
حالا من المجرور المتأخر عنها رده أبو حيان وقال : ان جواز
ذلك هو الصحيح ، وقال به بعض متقدمى النحاة نحو أبى على
وابن كيسان وابن برهان ، وبعض متأخريهم كابن مالك ، كما
رد قول الرازى جعلها صفة لمصدر محذوف تبعا للزمخشرى حيث
قال كل منهما : الا ارسالة كافة فانظر البحر المحيط جـ ٧
ص ٢٨١ المصدر السابق . وعلى كل حال سواء على قول الزجاج
ان كافة بمعنى جامعا والتاء للمبالغة ، أو على قول الزمخشرى
والرازى بأنها صفة لمصدر محذوف تقديره ارسالة ، أو كانت
حالا من الكاف ، أو من المجرور (للناس) .
فكل هذا يفيد عموم الرسالة وذلك المقصود عندنا . مع أن قول
الزمخشرى الذى رده أبو حيان لاشك أنه قول جمهور النحاة .
ولكنهم محجوجون بكثرة السماع عن العرب ، فقد ورد عن العرب
مجىء الحال متقدمة على صاحبها المجرور كما سترى قريبا ان شاء الله
وقد ذكر ابن مالك فى خلاصة هذه المسألة وقال انها جائزة لورودها
عن العرب قال فى باب الحال :

وسبق حال مابحرف جر قد ∴ أبواولا أمنعه فقد ورد ∴

فترى ابن مالك يقول : انه لا يمنع هذه الصورة لورودها عن العرب ، وقال الاشمونى فى شرحه

لهذا البيت : ولا أمنعه أى بل أجيزه وفاقا لابن على ، وابن كيسان وابن برهان لأن المجرور بالحرف مفعول به فى المعنى فلا يمتنع تقديم حاله عليه كما لا يمتنع تقديم حال المفعول به ، وأيضا فقد ورد السماع به : من ذلك قوله تعالى : وما أرسلناك الا كافة للناس)

وقول الشاعر :

: تسليت طرا عنكم بعد بينكم .. بذكراكم حتى كأنكم عندى ..

ومحل الشاهد قوله : (طرا) حيث وقع حالا من قوله : عنكم ،

وقول كثير عزة :

: لئن كان برد الماء هيمان صاديا .. الى حبيبا انها لحبيب ..

ومحل الشاهد قوله هيمان صاديا حيث وقعا حالين من الضمير المجرور فى قوله : الى

وقول الآخر :

: غافلا تعرض المنية للمر .. ء فيدعى ولات حين اباء :

ومحل الشاهد قوله : غلافا حيث وقع حالا من قوله للمرء .

وقول الآخر :

: فان تك أذواد أصبن ونسوة .. فلن يذهبوا فرغا بقتل حبال (١) :

ومحل الشاهد قوله فرغا حيث وقع حالا من الجار والمجرور بعده .

---

(١) أى حبال اسم ولد طليحة بن خويلد البيت

وقول الآخر :

مشغوفة بك قد شغفت وانما ∴ حسم الفراق فما اليك سبيل

ومحل الشاهد قوله مشغوفة حيث وقع حالا من قوله بك .

وقول الآخر :

اذا المرء أعيته المروءة ناشئا ∴ فمطلبها كهلا عليه عسير

ومحل الشاهد قوله : كهلا حيث وقع حالا من قوله : عليه .

لكنه قال بعد هذا كله : والحق أن جواز ذلك مخصوص فانظره ج ٢ ص ١٧٧- ١٧٨ ط دار احياء الكتب العربية .

وأنى لاعجب كل العجب من النحاة حيث يبنون تارة قاعدة على بيت واحد سمعوه عن العرب ، وربما كانوا لا يعرفون قائله ، وتارة يستفيض لهم السماع عن العرب ويقعدون قواعدهم على خلافه ، ويعدونه من الشاذ !! فهم على هذا يؤمنون ببعض كلام العرب دون بعض .

واذا تقرر ما ذكر من كون كافة حالا من قوله : للناس ثبت العموم فتكون بمعنى قوله : يأيها الناس انى رسول الله اليكم جميعا .

وقال تعالى : (ان هو الا ذكر وقرآن مبين لينذر من كان حيـــا ويحق القول على الكفرين) (١) قرىء تنذر وعليه يكون الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم ، وقرىء لينذر وعليه يكون المراد : القرآن ، قال الفخر الرازى : ويحتمل وجهين أحدهما أن يكون المراد من كان حيا فى علم الله فينذره به فيؤمن ، وهذا دليل على العموم .

الثانى : أن يكون المراد لينذر به من كان حيا فى نفس الأمر أى من أمن فينذره بما على المعاصى من العقاب ، وبما على الطاعة من الثواب (٢) وقال أبو السعود : لينذر أى القرآن أو الرسول من كان حيا أى عاقلا متأملا فان الغافل بمنزلة الميت ، أو مؤمنا فى علم الله تعالى ، فان الحياة الابدية بالايمان ، وهذا هو كلام الكشاف (٣) . وعلى كل سواء كان الانذار من رسول الله صلى الله عليه وسلم أو بالقرآن فالمقصود عندنا صيغة العموم (من) ومعلوم أن الرسول صلى الله عليه وسلم لا ينذر الا بالقرآن ونحوه ، لأن الله يقول له :

(قل انما أنذركم بالوحى) (٤) .

وقال تعالى : (هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره

---

١) جزء من آية ٦٩ وآية ٧٠ من سورة يس

٢) تفسير الفخر الرازى جـ ٢٦ ص ١٠٦ المصدر السابق

٣) تفسير أبى السعود جـ ٤ ص ٥١٨ ط مكتبة الرياض الحديثة تحقيق عبد القادر أحمد عطا .

٤) جزء من آية ٤٥ من سورة الانبياء .

على الدين كله ولو كره المشركون (١) يخبر تعالى فى هذه الآية أنه أرسل محمدا صلى الله عليه وسلم بالهدى الذى هو التوحيد ، أو القرآن ، أو بيان الفرائض ، ودين الحق الذى هو الاسلام كما قال تعالى : (.. ان الدين عند الله الاسلام ...) (٢) ليظهره أى الرسول ، أو الدين على الأديان كلها أى ليعليه على جميع الأديان ، وقد ظهر دين الله على جميع الأديان ، فظهر على دين اليهود والنصارى وأبطلهما وبين معايب اليهود ، وأخرجهم المسلمون من الجزيرة ، وظهر على دين النصارى فقد ظهر المسلمون عليهم فى بلاد الشام والمغرب ، وظهروا على المجوس ، وقهروا عباد الأصنام وسائر الأديان ،

قال الشافعى رحمه الله : قد أظهر الله رسوله صلى الله عليه وسلم على الأديان بأن أبان لكل من سمعه أنه الحق ، وما خالفه من الأديان باطل (٣) وهذا مما يدل على عموم رسالة محمد صلى الله عليه وسلم بلا شك ، لأن ظهور دينه على جميع الأديان ، وبيان أنه الدين الذى لا يقبل الله دينا غيره دليل واضح على عموم رسالته صلى الله عليه وسلم ونسخها لجميع الشرائع التى قبلها ونظير هذه الآية قوله تعالى (هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون) (٤) قيل أن معنى الآية : هو الذى أرسل رسوله

---

١) آية ٣٣ من سورة التوبة

٢) جزء من آية ١٩ من سورة آل عمران

٣) البحر المحيط جـ ٥ ص ٣٣ المصدر السابق

٤) آية ٩ من سورة الصف

محمدا صلى الله عليه وسلم بالهدى أى القرآن ودين الحق ليظهره على الدين كله أى بالحجة والبراهين ، وقد أظهره على شرائع الدين حتى لا يخفى عليه شيء منها روى هذا القول عن ابن عباس (١) وقيل ان الضمير فى ليظهره راجع الى الدين ، ومعنى ليظهره ليعليه على سائر الأديان فالدين الاسلامى يعلو على جميع الأديان بحيث لا يبقى أهل دين الا دخلوا فيه ، وذلك عند نزول عيسى عليه السلام (٢) وهذا التفسير يدل على العموم .

وقال تعالى : (يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة) (٣) فقوله تعالى : يأيها الناس خطاب لجميع بنى آدم ، كقوله :

(يبنى آدم) (٤) قال الخازن :

يأيها الناس خطاب للكافة فهو كقوله : (يبنى آدم) (٥) وهـــذا دليل على عموم الرسالة حيث خاطب النبى صلى الله عليه وسلم كافة الناس بالأمر بستقوى الله تعالى بأمر من الله عز وجل . قال أبوحيان والظاهر فى الناس العموم لأن الالف واللام فيه تفيده وللأمر بالتقوى وللعلة اذ ليسا مخصوصين بل هما عامان (٦) وقال الالوسى فى تفسيره لهذه الآية : يأيها الناس خطاب يعم المكلفين من لدن نزل الى يوم

---

١) انظر القرطبى جـ ٨ ص ١٢١ المصدر السابق

٢) طالع تفسير الخازن والبغوى معا جـ ٣ ص ٤٨ - ٤٩ ط الحلبى وأولاده بمصر

٣) جزء من آية ١ من سورة النساء

٤) جزء من آية ٣١ من سورة الاعراف

٥) تفسير الخازن جـ ١ ص ٤٧٢ المصدر السابق

٦) البحر المحيط جـ ٣ ص ١٥٣ المصدر السابق

القيامة على ما مر تحقيقه (١) قلت : ويقال هذا القول وهو أن يأيها الناس خطاب يعم المكلفين من لدن نزل الى يوم القيامة في سائر النداءات يأيها الناس يأيها الناس في كتاب الله ، ويؤيده ما قاله أبو السعود في تفسير مطلع سورة الحج : يأيها الناس أتقوا ربكم ... فانه قال : يأيها الناس خطاب يعم حكمه المكلفين عند النزول ومن سينتظم في سلكهم بعد من الموجودين القاصرين عن رتبة التكليف والحادثين بعد ذلك الى يوم القيامة (٢) فترى أبا السعود والآلوسي صرحا بأن لفظه الناس عامة تشمل الموجودين المكلفين ، والموجودين القاصرين عن التكليف في ذلك الوقت ، كما تشمل كل من وجد الى يوم القيامة ، وهذا يثبت العموم .

وبهذا يرد قول من قال : ان المراد بالناس في القرآن المكي : أهل مكة ، والمراد بها في القرآن المدني : سائر الناس لأن هذه التفرقة لا دليل عليها ، فالقرآن خاطب الخلق وناداه في سوره المكية والمدنية بما يقتضي العموم ويؤيد هذا مطلع السورتين المتقدمتين : سورة النساء وسورة الحج لأنهما مدنيتان على خلاف في سورة الحج وكل منهما مطلعها يأيها الناس .

ويرد احتمال العموم المراد به الخصوص لأن الآيات الكثيرة المصرحة بصيغ العموم التي لا تحتمل غير الشمول لجميع المكلفين تمنع من ارادة الخصوص بصيغة العموم نحو : (يأيها الناس أني رسول الله اليكم جميعا ...) فالاتيان بلفظ جميعا ينفي ارادة الخصوص ، لأن المعنى

---

(١) روح المعاني جـ ٤ ص ١٨٨ ظ احياء التراث العربي
(٢) أنظر أبا السعود جـ ٤ ص ٢ المصدر السابق

يأيها الناس انى رسول الله اليكم فى حال كونكم جميعا لم يخرج منكم أحد عن رسالتى اليه فجميعا حال من الضمير (اليكم) (١) وهذا النوع من التوكيد ينفى عدم ارادة الشمول . وقال تعالى : (ان هو الا ذكر للعلمين) (٢) قال القرطبى : ان هو الا ذكر يعنى القرآن للعالمين من الجن والانس ، وقال : أبو السعود : للعالمين أى الثقلين كافة (٣) وقال تعالى : (واذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال : أقررتم وأخذتم على ذلك إصرى قالوا أقررنا قال فأشهدوا وأنا معكم من الشهدين) (٤) قال ابن كثير : قال ابن عباس وعلى بن أبى طالب رضى الله عنهما : ما بعث الله نبيا من الأنبياء الا أخذ عليه الميثاق لئن بعث الله محمدا وهو حى ليؤمنن به ولينصرنه ، وأمره أن يأخذ الميثاق على أمته لئن بعث محمد وهم أحياء ليؤمنن به ولينصرنه ، وروى عبد الرزاق عن معمر عن ابن طاوس عن أبيه مثل قول على وابن عباس (٥)

محل الدلالة على العموم

ومحل الدلالة على العموم فى الآية من وجوه :

١- أن الله تعالى لما أخذ الميثاق على الأنبياء مع أنهم أنبياء أن يؤمن كل واحد منهم بمحمد صلى الله عليه وسلم أن ادركه وينصره ، مهما

---

١) ويصح أن تكون صيغة توكيد حذف منها الضمير استغناء بنية الاضافة كما هو مذهب الفراء والزمخشرى أنظر الاشمونى عند قول ابن مالك : وكلا اذكر فى الشمول وكلا ... كلتا جميعا جميعا بالضمير موصلا ...

٢) آية ٨٧ من سورة ص ٣) أبو السعود جـ ٤ ص ٥٩٣ المصدر السابق

٤) آية ٨١ من سورة آل عمران

٥) طالع ابن كثير عند تفسير الآية جـ ١ ص ٣٧٧ - ٣٧٨ طـ دار أحياء الكتب .

بلغ من النبوة والفضل لا يغنيه ذلك عن الايمان به فمن باب أولى أتباع أولئك الانبياء اذا بعث رسول الله وهم موجودون ، كرسالة محمد صلى الله عليه وسلم بين أظهر اليهود والنصارى .

٢- أن عبد الله بن عباس وعلى بن أبى طالب فسرا هذه الآية بأن الله أخذ الميثاق على كل نبى ، لئن بعث محمد وهو حى ليؤمنن ولينصرنه ، وأمره أن يأخذ الميثاق على أمته بذلك ، فاما أن يكونا سمعا تفسيرها من النبى صلى الله عليه وسلم ، أو يكون فهما أنه هو المراد بالآية ، وهما من أعلم الناس بمعانى كتاب الله ،

٣- ماذكره الشوكانى عن الكسائى أنه قال : يجوز أن يكون المعنى (واذ أخذ الله ميثاق النبيين) بمعنى : واذ أخذ الله ميثاق الذين مع النبيين ، ويؤيده قراءة ابن مسعود (١) وعليه فتكون الآية عامة فى أمم الانبياء السابقين .

السنة تثبت عموم رسالة محمد صلى الله عليه وسلم

قد تقدمت الاحاديث التى تدل على عموم رسالته صلى الله عليه وسلم : من ذلك ما ثبت فى صحيح مسلم والترمذى من قوله صلى الله عليه وسلم (فضلت على الانبياء بست : اعطيت جوامع الكلم ، ونصرت بالرعب وأحلت لى الغنائم ، وجعلت لى الارض طهورا ومسجدا ، وأرسلت الى الخلق كافة ، وختم بى النبيون)

وحديث الصحيحين (اعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلى : كان كل نبى يبعث الى قومه خاصة ، وبعثت الى كل أحمر وأسود ، وأحلت

(١) فتح القدير جـ ١ ص ٣٥٦ ط دار احياء الكتب العربية

لى الغنائم ، ولم تحل لأحد قبلى ، وجعلت لى الارض طيبة طهورا ومسجدا ، فأيما رجل أدركته الصلاة صلى حيث كان ، ونصرت بالرعب بين يدى مسيرة شهر ، وأعطيت الشفاعة)

وقد تقدم تخريج الحديثين فى اثبات الرسالة (١) .

وفى مسند الامام أحمد عن أبى أمامة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : فضلت بأربع جعلت الارض لامتى مسجدا وطهورا ، وأرسلت الى الناس كافة ونصرت بالرعب من مسيرة شهر يسير بين يدى وأحلت لى الغنائم .

وقد تقدم أيضا ، وأخرج البخارى فى تاريخه ، والبزار والبيهقى ، وأبو نعيم عن ابن عباس قال :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلى من الانبياء : جعلت لى الارض مسجدا وطهورا ، ولم يكن أحد من الانبياء يصلى حتى يبلغ محرابه ، ونصرت بالرعب مسيرة شهر يكون بين يدى الى المشركين فيقذف الله الرعب فى قلوبهم ، وكان النبى يبعث الى خاصة قومه ، وبعثت أنا الى الجن والانس ، وكانت الانبياء يعزلون الخمس فتجىء النار فتأكله ، وأمرت أنا أن اقسمه بين فقراء أمتى ، لم يبق نبى الا اعطى سؤله ، وأخرت أنا دعوتى شفاعة لامتى (٢) ذكر السيوطى هذه الاثار تحت عنوان :

---

(١) قال النووى : قوله صلى الله عليه وسلم : وبعثت الى كل أحمر وأسود وفى الرواية الاخرى : الى الناس كافة : قيل المراد بالاحمر الابيض من العجم وغيرهم ، وبالاسود العرب لغلبة السمرة فيهم ، وغيرهم من السودان ، وقيل المراد بالاسود : السودان ، وبالاحمر من عداهم من العرب وغيرهم ، وقيل : الاحمر الانس والاسود الجن ، والجميع صحيح فقد بعث الى جميعهم جـ ٥ ص ٥ المصدر السابق

(٢) أنظر الخصائص الكبرى للسيوطى جـ ٢ ص ١٣٤ طـ دار الكتب الحديثة = الدكتور محمد خليل هراس .

(باب) اختصاصه صلى الله عليه وسلم بعموم الدعوة للناس كافة وبأنه أكثر الانبياء تابعا ، وبارساله الى الجن بالاجماع ، والسى الملائكة فى قول ، وبايتائه الكتاب وهو أمى لا يقـــرأ .

وقال السيوطى أيضا : وأخرج ابن سعد عن الحسن قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (أنا رسول من أدركت حيا ومن يولد بعدى) (١)

وقال الدكتور محمد خليل هراس فى تعليقه على هذا الاثر مانصه : وهذا أمر معلوم من الدين بالضرورة أن رسالته باقية الى يوم القيامة .

الاجماع على عموم رسالته صلى الله عليه وسلم

الاجماع لغة معناه الاتفاق ، يقال أجمعوا على كذا : أى اتفقوا عليه . (٢)

معناه فى الاصطلاح

هو : الاتفاق من مجتهدى أمة محمد صلى الله عليه وسلم بعد وفاته فى أى عصر من العصور على أى أمر كان .

شـرح التعريـف

الاجماع لا يصح الا بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم لانه فى حياته هو المشرع وهو المرجع للامة عندما تختلف فى أمر ، والمراد بالامة فى الحد أمة الاجابة لا أمة الدعوة لان غير المسلم لا يعتبر فى الاجماع بلغ مابلغ من العلم والدهاء ، فلا يعتبر فيه الا علمـــاء المسلمين المجتهدين خاصة دون العامة من المسلمين ودون العلماء

---

١) الخصائص الكبرى للسيوطى جـ ٢ ص ٣٦ المصدر السابق

٢) القاموس مادة جمع .

من غير المسلمين ، قال القرافي في حد الاجماع : وهو اتفاق أهل الحل والعقد من هذه الأمة في أمر من الأمور ، ثم قال : ونعني بالاتفاق الاشتراك اما في القول ،أو الفعل أو الاعتقاد ، وبأهل الحل والعقد المجتهدين في الأحكام الشرعية ، وبأمر من الأمور : الشرعيات والعقليات ، والعرفيات اهـ (١) وقد نوزع في انعقاد الاجماع في العقليات فخالفه فيه امام الحرمين ، والقاضي عبد الوهاب ، والقاضي أبو بكر الباقلاني على تفصيل يقف عليه من طالع كتبهم ، وليس هذا محل بسطه . وقد أنعقد الاجماع على أنه صلى الله عليه وسلم أرسل رسالة عامة الى الناس جميعا لم يخالف في ذلك أحد من المسلمين لا من عامتهم ولا من مجتهديهم ، ومستند هذا الاجماع الآيات القرآنية التي قدمنا ، والأحاديث الصحيحة الصريحة ، وقد عقد السيوطي في خصائصه الكبرى فصلا لهذه المسألة فقال :

فصل : الاجماع على أنه صلى الله عليه وسلم مبعوث الى جميع الانس والجن ،وأما بعثته للملائكة فاختلف فيها ، والذي رجحه السبكي البلقيني ، ويستدل له بما أخرجه عبد الرزاق عن عكرمة قال : (صفوف أهل الأرض على صفوف أهل السماء . فاذا وافق آمين في الأرض آمين في السماء غفر للعبد (٢) فالمسلمون مجمعون على رسالته الى الثقلين : الانس والجن . ومختلفون في ارساله الى الملائكة ، وقد رأيت حكاية السيوطي الاجماع على رسالته الى الجن ، وذكره الخلاف في الملائكة وسأبين ذلك ان شاء الله وأذكر منه ماترجح عندي

---

١) شرح تنقيح الفصول للقرافي ص ٣٢٢ ط دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع القاهره

٢) طالع الخصائص الكبرى للسيوطي جـ ٢ جـ ١٣٧ المصدر السابق

المبحث الحادى عشر
فى رسالته صلى الله عليه وسلم الى الجن

ان رسالة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم الى الجن ثابته بالكتاب والسنة والاجماع . وقد أطبق جل المفسرين على أن المراد بالعالمين فى قوله تعالى : (تبرك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا) الانس والجن . قال الشوكانى : والمراد بالعالمين هنا الانس والجن لانه مرسل اليهما ولم يكن غيره من الانبياء مرسلا الى الثقلين ، وتقدم هذا الكلام ، وقال أبو حيان : وللعالمين عام للانس والجن ممن عاصره أو جاء بعده ، وهذا معلوم من الحديث المتواتر ، وظواهر الآيات ، وقرأ ابن الزبير للعالمين : للجن والانس ، وهذا تفسير للعالمين ، وتقدم هذا الكلام ، وكذلك القرطبى قال هذا عند قوله تعالى (ان هو الا ذكر للعلمين) وابن كثير وغيرهم .

وقد حكى السيوطى الاجماع على ارساله للجن كما تقدم

وقال النووى فى شرح مسلم : قوله صلى الله عليه وسلم : وبعثت الى كل أحمر وأسود ، وفى الرواية الاخرى الى الناس كافة : قيل المراد بالاحمر البيض من العجم وغيرهم ، وبالاسود العرب لغلبة السمرة فيهم وغيرهم من السودان . . وقيل الاحمر الانس والاسود الجن والجميع صحيح فقد بعث الى جميعهم (٢)

وقال الطحاوى : (وهو المبعوث الى عامة الجن وكافة الورى بالحق والهدى وبالنور والضياء)

---

١) الخصائص الكبرى للسيوطى جـ٢ ص ٣٦ المصدر السابق

٢) شرح النووى لمسلم جـ ٥ ص ٥ المصدر السابق .

وقال شارح الطحاوية : ان آيات الاحقاف ، وآيات الجن الاتيه دلت على رسالته الى الجن ، وحكى عن مقاتل أن الله لم يرسل رسولا الى الانس والجن قبل محمد صلى الله عليه وسلم . (١)

القرآن يثبت شمول رسالة الاسلام للجن

قال تعالى : (قل اوحى الى أنه استمع نفر من الجن فقالوا انا سمعنا قرأنا عجبا يهدى الى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا) (٢)

وقال تعالى : (واذ صرفنا اليك نفرا من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضى ولو الى قومهم منذرين ، قالوا يقومنا انا سمعنا كتبا انزل من بعد موسى مصدقا لما بين يديه يهدى الى الحق والى طريق مستقيم ، يقومنا أجيبوا داعى الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم) (٣)

ولست أريد أن أذكر جميع الروايات التى أوردها المحدثون ، والمفسرون عند تفسير هذه الآيات ، وانما أريد أن اثبت منها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أرسله الله الى الجن ، وقرأ عليهم القرآن ، وأنهم أمنوا به ، وذهبوا يدعون أقوامهم الى الايمان بالله ورسوله صلى الله عليه وسلم . وينذرونهم ان لم يؤمنوا بالعذاب ويبشرونهم ان آمنوا بالثواب ، سواء كان ذلك فى سفره صلى الله عليه وسلم الى الطائف يدعو أهله الى الله أو خرج اليهم من مكة قاصدا دعوتهم ، وسواء تكررت القصة أو لم تتكرر ، كان عدد الوافدين اليه منهم سبعة ، أو أثنا عشر ألفا ،

---

١) شرح الطحاوية ص ١٧٦ - ١٧٧

٢) آية ١ - ٢ من سورة الجن

٣) آية ٢٩ - ٣٠ - ٣١ من سورة الاحقاف

أو خمسة عشر ، أو غير ذلك ،

فالمقصود اثبات اجتماعه بهم ، وسماعهم القرآن ، وايمانهم به ، وسواء كان لم يرهم بعينه كما قال ابن عباس ، أو رآهم وقرأ عليهم كما هو الصحيح لامكان الجمع بين الروايات كما سأبينه ان شاء الله ، لأن الجمع بين النصوص واجب اذا أمكن اذ اعمال الوليلين أولى من الغاء أحدهما واعمال الآخر ، وسواء كان عبد الله بن مسعود حاضرا أولا كما قيل بكل من ذلك .

قال الفخر الرازى فى تفسيره : اعلم أن قوله تعالى : (قل) أمر منه تعالى لرسوله أن يظهر لأصحابه ما أوحى الله فى واقعة الجن وفيه فوائد .

احداها : أن يعرفوا بذلك أنه عليه السلام كما بعث الى الانس قد بعث الى الجن ،

وثانيها : أن يعلم قريش أن الجن مع تمردهم لما سمعوا القرآن عرفوا إعجازه فآمنوا بالرسول .

وثالثها : أن يعلم القوم أن الجن مكلفون كالانس ... اهـ (١)

قلت : أن القرآن صرح بأن الجن سمع نفر منهم كتاب الله وآمنوا به ، وولوا الى قومهم منذرين لهم دعاة مخوفين ، فالقرآن بلغهم بلا شك ،

اما النفر الذين سمعوه من رسول الله صلى الله عليه وسلم فامرهم واضح ، وأما أقوامهم فان النفر الذين سمعوه من رسول الله صلى الله عليه وسلم قد بلغوه لهم ، والله جل وعلا يقول :

---

١) تفسير الفخر الرازى جـ ٨ ص ٣١٨ ط قديمه بهامشها تفسير أبى السعود .

(... وأوحى الى هذا القرآن لانذركم به ومن بلغ ...) ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

(ليبلغ الشاهد منكم الغائب فلعل الغائب أن يكون أوعى من السامع (١)

وقال ابن كثير فى قوله تعالى : (يقومنا أجيبوا داعى الله ...) فيه دلالة على أنه تعالى أرسل محمدا صلوات الله عليه الى الثقلين : الانس والجن ، حيث دعاهم الى الله وقرأ عليهم السورة التى فيها خطاب الفريقين وتكليفهم ، ووعدهم ووعيدهم ، وهى : سورة الرحمن (٢)

وبهذا تثبت رسالة محمد صلى الله عليه وسلم الى الجن ، وقد قدمنا قول ابن كثير أنه صلى الله عليه وسلم خص بهذه الرسالة لكل من يستقل على الغبراء ويستظل بالخضراء ، وقول مقاتل ، لم يبعث الله نبيا الى الجن والانس قبل محمد صلى الله عليه وسلم ،

السنة تدل على ارساله صلى الله عليه وسلم الى الجن

ثبت فى صحيح البخارى ومسلم من حديث ابن عباس رضى الله عنهما قال :

(انطلق النبى صلى الله عليه وسلم فى طائفة من أصحابه عامدين الى سوق عكاظ ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء وأرسلت عليهم الشهب فرجعت الشياطين الى قومهم فقالوا مالكم ؟ فقالوا حيل بيننا وبين خبر السماء وأرسلت علينا الشهب قالوا : ما حال بينكم وبين خبر السماء الا شىء حدث فاضربوا مشارق الارض ومغاربها فانظروا ما هذا الذى حال بينكم وبين خبر السماء فانصرف اولئك الذين توجهوا نحو

---

(١) المسند جـ ٥ ص ٤١ ط المكتب الاسلامى بيروت .
ورواه البخارى فى كتاب الاضاحى ص جـ ٧ ص ١٣٠ المصدر السابق

(٢) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ١٧٠ ط دار احياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبى وشركاؤه

تهامة الى النبى صلى الله عليه وسلم وهو بنخلة عامدين الى سوق عكاظ، وهو يصلى بأصحابه صلاة الفجر ،فلما سمعوا القرآن استمعوا له فقالوا : هذا الذى حال بينكم وبين خبرا لسماء فهنالك حين رجعوا الى قومهم وقالوا ياقومنا انا سمعنا قرآنا عجبا يهدى الى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا ، فأنزل الله على نبيه صلى الله عليه وسلم : قل أوحى الى وانما أوحى اليه قول الجن) هذا لفظ البخارى ،

وهذه رحديث مسلم : عن ابن عباس : ما قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم على الجن وما رآهم ، وهذه الكلمات قريبة فى المعنى من لفظ البخارى (وانما أوحى اليه قول الجن) وباقى حديث مسلم يوافق البخارى (١)

وروى مسلم فى صحيحه قال : (حدثنا محمد بن المثنى ، حدثنا عبد الاعلى عن داود عن عامر قال : سألت علقمة هل كان أبن مسعود شهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة الجن ، قال علقمة أنا سألت ابن مسعود فقلت هل شهد أحد منكم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة الجن قال : لا ولكننا كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات ليلة ففقدناه فالتمسناه فى الاودية والشعاب فقلنا : استطير (٢) أو أغتيل قال فبتنا بشر ليلة بات بها قوم ،فلما أصبحنا اذا هو جاء من قبل حراء قال فقلنا يارسول الله فقدناك فطلبناك فلم نجدك فبتنا بشر ليلة

---

١) صحيح البخارى جـ١ ص ١٩٥-١٩٦ ط دار احياء الكتب العربية ، وصحيح مسلم جـ ١ ص ٣٣١ - ٣٣٢ فى باب الجهر بالقرآن فى الصبح والقراءة على الجن ط عيسى البابى الحلبى وشركاؤه .كما رواه أحمد فى المسند جـ ١ ص ٢٥٢

٢- استطير أى طارت به الجن ،ومعنى اغتيل قتل خفية . مصحح صحيح مسلم محمد فؤاد عبد الباقى

بات بها قوم فقال : أتانى داعى الجن فذهبت معه فقرأت عليهم القرآن ، قال فانطلق بنا فأرانا آثارهم ، وآثار نيرانهم ، وسألوه الزاد فقال : لكم كل عظم ذكر اسم الله عليه يقع فى أيديكم أوفر ما يكون لحما ، وكل بعرة علف لدوابكم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فلا تستنجوا بهما فانهما طعام اخوانكم) (١) وروى أيضا من حديث علقمة أن عبد الله بن مسعود قال : (لم أكن ليلة الجن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وودت أنى كنت معه (٢)

وروى البخارى ومسلم أيضا من حديث معمر بن عبد الرحمن بن عبد الله ابن مسعود قال : أى معن سمعت أبى يعنى عبد الرحمن ، قال سألت مسروقا من أذن النبى صلى الله عليه وسلم بالجن ليلة استمعوا القرآن قال : حدثنى أبوك يعنى عبد الله أنه آذنته بهم شجرة (٣) فهذه الاحاديث الصحيحة أثبتت رسالته صلى الله عليه وسلم الى الجن حيث جاءة داعيهم وذهب معه ، وقرأ عليهم القرآن ، وآمنوا به .

قلت : لم يبق مجال للشك فى شمول رسالته صلى الله عليه وسلم للجن بعد ماثبت عنه صلى الله عليه وسلم ، وعن أصحابه من بلوغهم القرآن وايمانهم به .

قال ابن كثير عند تفسير آيات الاحقاف بعد أن ساق الطرق التى تدل على أنه ذهب الى الجن ردعاهم وقرأ عليهم مانصه : فهذه الطرق كلها تدل على أنه صلى الله عليه وسلم ذهب الى الجن قصدا فتلا عليهم القرآن ودعاهم الى الله عز وجل كما رواه عبد الله بن مسعود رضى الله عنه .

الجمع بين الروايات

أما ما ظاهره التعارض بين أحاديث عبد الله بن عباس التى ثبت فيها

---

(١) صحيح مسلم جـ ١ ص ٣٣٢ المصدر السابق
(٢) مسلم جـ ١ ص ٣٣٣ المصدر السابق
(٣) البخارى جـ ٥ ص ٥٨ ومسلم جـ ١ ص ٣٣٣ المصدر السابق

أنه صلى الله عليه وسلم ما رأى الجن ولا قرأ عليهم ، وبين أحاديث عبد الله بن مسعود التي ثبت فيها أنه أتاه داعي الجن وذهب معه ، وقرأ عليهم القرآن ،

فقد جمع الحافظ البيهقي بين الروايات فقال مانصه :

وهذا الذي حكاه عبد الله بن عباس انما هو في أول ماسمعت الجن قراءة النبي صلى الله عليه وسلم ، وعلمت بحاله ، وفي ذلك الوقت لم يقرأ عليهم ولم يرهم كما حكاه ، ثم أتاه داعي الجن مرة أخرى فذهب معه وقرأ عليهم القرآن كما حكاه عبد الله بن مسعود ، ورأى آثارهم ، وآثار نيرانهم والله أعلم أنتهى منه (١) وبهذا يجمع بين الأدلة ويزول التعارض والجمع بين الأدلة واجب اذا أمكن ،

وأما التعارض الذي وقع بين أحاديث عبد الله بن مسعود حيث ثبت في الصحيح عنه كما قدمنا أنه سئل هل صحب أحد منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة الجن فقال : ماصحبه منا أحد ، ولكنا فقدناه . . الخ الحديث ، وورد ت أحاديث في السنن والبيهقي ، والمسند ، ورواها ابن جرير في تفسيره تدل على ان عبد الله بن مسعود كان مع النبي صلى الله عليه وسلم تلك الليلة ، وورد ت بهذا أحاديث كثيرة ، وقد حاول البيهقي الجمع بين هذه الروايات فقال :

والأحاديث الصحاح تدل على أن عبد الله بن مسعود لم يكن مع النبي صلى الله عليه وسلم ليلة الجن ، وانما كان معه حين انطلق به وغيره ليريهم آثار الجن ، وآثار نيرانهم ، وقد روى من وجه آخر أنه كان معه ليلتئذ ، ثم ساق سنده الى عبد الله بن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه وهو بمكة من أحب منكم أن يحضر الليلة أمر الجن فليفعل فلم يحضر منهم أحد غيري . . . الحديث . ثم قال بعد

---

١) دلائل النبوة للبيهقي جـ ٢ ص ١٢ - ١٣ ط المكتبة السلفية

انتهاء الحديث ، قلت : يحتمل قوله : فى الحديث الصحيح ما صحبه منا أحد : أراد به فى حال ذهابه لقراءة القرآن عليهم (يعنى كأنهم كانوا معه ولكن عند ما خرج عنهم ليلتقى بالجن لم يذهب معه أحد ـ) الا ان ماروى فى هذا الحديث من اعلامه أصحابه بخروجه اليهم يخالف ماروى فى الحديث الصحيح من فقدانهم اياه حتى قيل : اغتيل ، استطير ، الا أن يكون المراد بمن فقده غير الذى علم بخروجه والله أعلم (١) هكذا حاول البيهقى الجمع بين الروايات .

قلت اذا أمكن الجمع بين هذه الروايات فيها ونعمت كما حاول البيهقى والشوكانى والا فان صرنا الى الترجيح ترجحت أحاديث عدم حضوره فانها لا تقاومها الروايات الاخرى لأنها فى الصحيح ، والمعروف عند أهل الحديث أن من المرجحات أن يكون الحديث فى الصحيحين ، أو فى أحدهما لأن وجود الحديث فيهما أو فى أحدهما قرينة على صحته ، وقد فطن البيهقى لهذا حيث قال : والأحاديث الصحاح تدل على أن عبد الله بن مسعود لم يكن مع النبى صلى الله عليه وسلم ليلة الجن ـ وانما كان معه حين انطلق به وبغيره ليريهم آثار الجن وآثار نيرانهم ثم قال بعد ذلك فى محاولته الجمع : قلت : يحتمل قوله : فى الحديث الصحيح : ما صحبه منا أحد الخ كلامه ، فكل ما مر بعد بيت مسلم الذى ينفى الحضور حكم عليه بالصحة ، ولم يتعرض لغيره فمن تأمل كلام البيهقى علم ماقلته والله أعلم .

وقال الشوكانى : والجمع بين الروايات بالحمل على قصتين وقعتا منه صلى الله عليه وسلم احداهما حضرها ابن مسعود ، ولم يحضر الأخرى

---

(١) دلالة النبوة للحافظ البيهقى جـ ٢ ص ١٤ المصدر السابق

وقد ورت أحاديث كثيرة أن الجن بعد هذا وفدت على رسول الله صلى الله عليه وسلم مرة بعد مرة وأخذوا عنه الشرائع (١)

هل أرسل الله من الجن رسلا ؟

لما دار الحديث بنا حول شمول رسالة الاسلام للجن لابد أن نتطرق الى الجن من ناحية أخرى وهى : هل أرسل الله اليهم رسلا قبل رسالة الاسلام من جنسهم أولا ؟ وهل مؤمنوهم بهذه الرسالة الخاتمة للرسالات يدخلون الجنة ، أم أنهم يجارون من النار ؟ أختلف العلماء هل أرسل الله الى الجن رسلا منهم قبل رسالة نبينا صلى الله عليه وسلم فقيل لا ، وقيل نعم ، وممن نصر القول الأول ابن كثير فى تفسيره حيث قال عند تفسير آية الأحقاف المتقدمة (واذ صرفنا اليك نفرا من الجن ....) ، واستدل بهذه الآية على أنه فى الجن نذر وليس فيهم رسل ، ولا شك أن الجن لم يبعث الله تعالى منهم رسولا لقوله تعالى : (وما أرسلنا قبلك الا رجالا نوحى اليهم من أهل القرى) (٢)

وقال تعالى

(وما أرسلنا قبلك من المرسلين الا انهم ليأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق) (٣)

وقال : عن ابراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام ،

(وجعلنا فى ذريته النبوة والكتب) (٤)

---

١) فتح القدير جـ ٥ ص ٢٨ ط الحلبى وأولاده بمصر

٢) جزء من آية ١٠٩ من سورة يوسف

٣) جزء من آية ٢٠ ص سورة الفرقان

٤) جزء من آية ٢٧ من سورة العنكبوت

فكل نبى بعثه الله بعد ابراهيم فمن ذريته ، فأما قوله تعالى فى الأنعام ،

(يمعشر الجن والانس ألم يأتكم رسل منكم ..) (١) فالمراد من مجموع الجنسين فيصدق على أحدهما ، وهو الانس كقوله تعالى :

(يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان)(٢) أى أحدهما هكذا ذكر ابن كثير عند تفسير هذه الآية (واذ صرفنا اليك نفرا من الجن .. الى قوله منذرين)

وذكر هذا الكلام الشوكانى بالحرف فى فتح القدير عند تفسير الآية فلعله نقله منه .

وأقول : ان هذا القول فيه عندى نظر ، فالقطع بأن الله تعالى لم يرسل الى الجن رسلا منهم يخالف ظواهر نصوص القرآن الكريم ، والعدول عن ظواهر القرآن لا يجوز الا بعد وجود دليل يجب الرجوع اليه ، وما استدل به أهل هذا القول من الأدلة غيرنا فحص فى نظرى .

أما النصوص التى ظاهرها أن الله أرسل من الجن رسلا الى أقوامهم فمنها قوله تعالى : (وان من أمة الا خلا فيها نذير) (٣) وقول ابن كثير هنا أى وما من أمة خلت من بنى آدم الا وقد بعث الله تعالى اليهم النذر وأزاح عنهم العلل غير متجه لأن لفظة (أمة) هنا نكرة فى سياق النفى لأن (ان) بمعنى ما النافية ، والنكرة فى سياق النفى تعم بلا شك كما هو معلوم ، وهذا العموم تدخل فيه الأمم

---

١) جزء من آية ١٣٠ من سورة الأنعام

٢) آية ٢٢ من سورة الرحمن

٣) جزء من آية ٢٤ من سورة فاطر

من الجن ، ولا تخرج الا بمخصص يقصر هذا العام على بعض أفراده دون بعض ، وقد ذكر ابن كثير نفسه عن قتادة أن الجن أمة .

قال عند تفسير قوله تعالى : (وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه الا أمم أمثالكم ...) (١)

قال هنا : وقال قتادة : الطير أمة ، والانس أمة ، والجن أمة ، وعليه فان الجن أمة ، والله يقول : (وان من أمة الا خلا فيها نذير وقال تعالى :

(انما أنت منذر ولكل قوم هاد) (٢) وقال تعالى :

(ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطغوت) (٣) فالله جل وعلا صرح بأنه بعث فى كل أمة رسولا ، وقد ثبت أن الجن أمة وعليه فيكون الله قد بعث فيهم رسلا ،

أما الاستدلال بقوله تعالى : (وما أرسلنا قبلك الا رجالا نوحى اليهم من أهل القرى) فليس عندى دليل فى هذا : لأن الجن معلوم أنهم فيهم الذكور والاناث يتناسلون ويتناكحون وقد حجبهم الله عنا فقال : (... انه يريكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم ..) (٤) . فما دمنا لم نر الجن لا مانع أن تكون لهم قرى يرسل الله منها رجالا الى أقوامهم كما أرسل الى الانس رجالا من قراهم الى أقوامهم ،

---

١) جزء من آية ٣٨ من سورة الأنعام

٢) جزء من آية ٧ من سورة الرعد

٣) جزء من آية ٣٦ من سورة النحل

٤) جزء من آية ٢٧ من سورة الاعراف

وكذلك الاستدلال بقوله تعالى : (وما أرسلنا قبلك من المرسلين الا انهم ليأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق ...) (١) فليس فى هذا دليل لأن الجن يأكلون الطعام بلا شك كما تقدم فى الأحاديث الصحيحة أنهم لما التقوا برسول الله صلى الله عليه وسلم وآمنوا بالقرآن طلبوا الزاد فأعطاهم كل عظم ذكر اسم الله عليه ، وأخبرهم أنه يكون أوفر ماكان أولا وهذا دليل على أنهم يأكلون الطعام ، واذا كانوا أمما وكانت لهم قرى فما المانع أن تكون لهم أسواق تمشى فيها رجالهم ؟ ومن تتبع قضايا الجن وما يحكى عنهم علم أن لهم قرى وأسواقا ، وأن فيهم المسلم والكافر ، وفيهم الصالحون والفسقة مثل الانس ، ولسنا بحاجة الى تتبع أخبار الجن .

وأما الاستدلال بقوله تعالى .. (.. وجعلنا فى ذريته النبوة والكتب ..) يعنى ابراهيم عليه السلام فليس فيه دليل أيضا ، وذلك أن الله أخبر أنه حصر أنبياء بنى اسرائيل من لدن اسحاق عليه السلام فى ذريته كما جعل محمد اصلى الله عليه وسلم من ذرية اسماعيل ، ولكن هذا لا يقتضى عدم ارسال رسل الى الجن لأن الجن ليسوا من جنس البشر ، وانما هم أمة مستقلة فحصر الرسالة من بعد ابراهيم فى ذريته انما هو بعد وجود ابراهيم ، والجن كانوا موجودين قبل ابراهيم بلا نزاع ، وظاهر السياق يدل على أن المحصور انما هو رسالة البشر لا رسالة غيره لأن السياق فى الانسان فى الجن فتكون هذه الآية فى السياق مثل الآية التى ذكر الله فيها أن ذرية نوح هم الباقية

---

(١) جزء من آية ٢٠ من سورة الفرقان

على وجه الأرض بعد الطوفان وذلك فى قوله تعالى :

(ولقد نادينا نوح فلنعم المجيبون ونجيناه وأهله من الكرب العظيم وجعلنا ذريته هم الباقين) (١) فالآية هنالم تتعرض للجن بذكر مع أنها حصرت الباقين عن الهلاك فى ذرية نوح ، والجن فى ذلك الوقت موجودون ، ولا تجمعهم مع نوح صلة نسب ومع هذا فانهم من الباقين فى ذلك الزمن الى الآن ، كذلك قصة ابراهيم أخبر الله أنه آمن به ابن أخيه لوط ، وهاجر الى ربه نحو بلاد الشام ، وأن الله وهب له اسحاق ويعقوب ، وأنه جعل النبوة فى ذرية اسحاق واسماعيل من أولاده ، ولم تتعرض لغير جنس البشر ، قال تعالى (فآمن له لوط وقال أنى مهاجر الى ربى انه هو العزيز الحكيم ، ووهبنا له اسحاق ويعقوب وجعلنا فى ذريته النبوة والكتب ...) (٢)

وأما القول بأن آية الأنعام التى تقدمت : (يمعشر الجن والانس الم يأتكم رسل منكم ...) الآية لا تدل على ارسال رسل من الجن الى قومهم فان ذلك محل نظر أيضا لأن الله جل وعلا خاطب الانس والجن مناديا لهم ، ومسائلا لهم سؤال تقريع وانكار هل أتتهم رسل منهم تتلو عليهم آياته وتنذرهم لقاء يومهم القيامة ، وشهدوا على أنفسهم أنها أتتهم ، وأنهم اغتروا بالحياة الدنيا وكفروا .

قال الزمخشرى : واختلف فى أن الجن هل بعث اليهم رسول من جنسهم لأنهم به أنس وله آلف ، وقال آخرون : الرسل من الانس خاصة الى آخر كلام ابن كثير والشوكانى (٣) وكذلك الاستشهاد بآية

---

١) آية ٧٥ - ٧٦ - ٧٧ من سورة الصافات

٢) آية ٢٦ وجزء من آية ٢٧ من سورة العنكبوت

٣) الكشاف جـ ٢ ص ٥١ المصدر السابق

الرحمن (يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان) حيث قالوا ان المراد الجنس الصادق بأحدهما ، وهو الملح دون العذب ، وأن العذب لا يخرج منه اللؤلؤ والمرجان ، فان هذا الاستدلال لا يصح لانه مخالف لظاهر القرآن ان لم يكن مخالفا لنصه الصريح ،والمراد عندى بالنص : النص الذى لا يحتمل الا معنى واحدا ، وقد رد الشيخ محمد الامين فى أضواء البيان هذا الاستدلال وقال : انه مخالف لصريح القرآن حيث قال مانصه :

واعلم أنما ذكره الحافظ ابن كثير وغيره من أجلاء العلماء فى تفسير هذه الآية من أن قوله (يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان) يراد به البحر الملح خاصة دون العذب غلط لا يجوز القول به لانه مخالف مخالفة صريحة لكلام الله تعالى لان الله ذكر البحرين الملح والعذب بقوله : وما يستوى البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج ..) ثم صرح باستخراج اللؤلؤ والمرجان منهما جميعا بقوله (.. ومن كل تأكلون لحما طريا وتستخرجون حلية تلبسونها ...) (١) والحلية هى : اللؤلؤ والمرجان ، فقصره على الملح مناقض للآية صريحا كما ترى انتهى كلامه (٢)

فظهر مما ذكرنا أن ما استدل به القائلون بعدم وجود رسل من الجن الى قومهم قبل بعثة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم لا ينهض منه دليل واحد كما رأيت ،وظهر أن عمومات النصوص تدل على أنهم أرسلت اليهم رسل من جنسهم وقامت عليهم بهم الحجة فى زمنهم ، وأن رسول الله

---

١) جزء من آية ١٢ من سورة فاطر

٢) أضواء البيان جـ ٢ ص ١٨٨ ط المدنى

صلى الله عليه وسلم أرسل اليهم وقامت عليهم الحجة برسالته كغيرهم من سائر الخلق . والله أعلم ، ويؤيد ماقلت : مافى ابن جرير الطبرى عند تفسير آية الانعام : (يامعشر الجن والانس . . . .) الآية قال : واختلف أهل التاويل فى الجن هل أرسل منهم اليهم ام لا ؟ فقال بعضهم قد ارسل اليهم رسل كما أرسل الى الانس منهم رسل ، ثم ساق بسنده الى الضحاك أنه سئل عن الجن هل كان فيهم نبى قبل أن يبعث محمد صلى الله عليه وسلم ؟ فقال :

ألم تسمع قول الله (يامعشر الجن والانس . . .) الى قوله . بلى ، وقال آخرون لم يرسل اليهم رسول منهم ، وانما ارسل من الانس ، ومن الجن النذر ، ثم ذكر أن ابن عباس فسر آية الانعام هذه بأن رسل الجن المذكورين فيها انما هم رسل من طرف الانس الى قومهم من الجن ، وأما رسل الانس فرسل من الله فيكون معنى الآية يامعشر الجن والانس ألم يأتكم رسل منكم ، أما رسل الجن فرسل رسل الله من بنى آدم ، وهم الذين سمعوا القرآن منه صلى الله عليه وسلم ، ورجعوا الى قومهم منذرين ، وأما رسل الانس فرسل من الله . ثم قال : وأما الذين قالوا بقول الضحاك فانهم قالوا ان الله أخبر أن من الجن رسلا أرسلوا اليهم كما أخبر أن من الانس رسلا ارسلوا اليهم ، ولو جاز أن يكون خبره عن رسل الجن بمعنى أنهم رسل الانس ، جاز أن يكون خبره عن رسل الانس بمعنى أنهم رسل الجن ، قالوا وفى فساد هذا المعنى مايدل على أن الخبرين جميعا بمعنى الخبر عنهم أنهم رسل من الله لان ذلك هو المعروف فى الخطاب دون غيره اهـ (١)

---

١) تفسير ابن جرير جـ ٨ ص ٢٧ - ٢٨ المصدر السابق .

هل موءمنوا الجن يدخلون الجنة أولا ؟

اختلف العلماء في موءمني الجن هل يدخلون الجنة أولا يدخلونها ؟ فقال بعضهم : انهم يدخلون الجنة كموءمني الانس لا فرق بين موءمنهم وموءمن الانس ،

وقال آخرون انهم لا يدخلون الجنة ، وانما يجيرهم الله من العذاب بالنار وقد روى هذا عن ابن عباس رضي الله عنهما .

حجة من قال بأنهم لا يدخلون الجنة :

احتج قائلوا هذا القول بما حكى الله عنهم في كتابه لما أفواقومهم منذرين ، من قولهم (... يقومنا أجيبوا داعي الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم) قالوا ان هذا المقام مقام تهجم ومبالغة ،فلوكان لهم جزاء على الايمان غيره لذكروه ،

قال ابن كثير هنا : قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي قال : حدثت عن جرير عن ليث عن مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : لا يدخل موءمنوا الجن الجنة لانهم من ذرية ابليس ،ولا تدخل ذرية ابليس الجنة ، ثم قال أي أبن كثير ، والحق أن موءمنيهم كموءمني الانس كما هو مذهب جماعة من السلف ،

وقال الشوكاني : وفي هذه الآية دليل على أن حكم الجن حكم الانس في الثواب والعقاب والتعبد بالاوامر والنواهي . وقال الحسن ليس لموءمني الجن ثواب غير نجاتهم من النار وبه قال أبو حنيفة ، والاول أولى وبه قال مالك والشافعي وابن أبي ليلى ،وعلى القول الثاني فقال القائلون به بأنهم بعد نجاتهم من النار يقال لهم كونوا

ترابا كما يقال للبهائم والثانى أرجح (١)

حجة من قال أنهم يدخلون الجنة

أحتج أهل هذا القول بأدلة قوية منها ما هو منقول ،ومنها ماهو معقول .

الأدلة النقلية أولا :

قالوا ان الله تبارك وتعالى وعد المؤمنين بدخول الجنة فى آيات كثيرة من كتابه ، ولن يخلف الله وعده ،قال تعالى :

(وعد الله المؤمنين والمؤمنت جنت تجرى من تحتها الأنهر خلدين فيها ومسكن طيبة فى جنت عدن ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم) (٢) وقال تعالى :

(إن الذين آمنوا وعملوا الصلحت أولئك هم خير البرية جزاؤهم عند ربهم جنت عدن تجرى من تحتها الأنهر خلدين فيها أبدا رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشى ربه) (٣)

وقال تعالى : (ان الذين آمنوا وعملوا الصلحت كانت لهم جنت الفردوس نزلا خلدين فيها لا يبغون عنها حولا) (٤) وقال تعالى :

(ولمن خاف مقام ربه جنتن) (٥)

---

١) فتح القدير جـ ٥ ص ٢٦ المصدر السابق

٢) آية ٧٢ من سورة التوبة

٣) آيتى ٧ - ٨ من سورة البينة

٤) آية ١٠٧ - ١٠٨ من سورة الكهف

٥) آية ٤٦ من سورة الرحمن

قال ابن كثير رحمه الله عند تفسيرة آية الرحمن هذه مانصه : وهذه الآية عامة فى الانس والجن فهى من أدل دليل على أن الجن يدخلون الجنة اذا آمنوا واتقوا ، ولهذا امتن الله على الثقلين بهذا الجزاء فقال : (ولمن خاف مقام ربه جنتن ، فبأى آلاء ربكما تكذبان) .

احتجاجهم بالمعقول .

ثانيا قالوا ان الله تعالى اذا كان يجازى كافرهم بالنار بعدله فلأن يجازى مؤمنهم بالجنة بفضله بطريق الأولى والأخرى ، وقالوا انه ليس فى الآخره الا الجنة أو النار فمن أجير من النار دخل الجنة لامحاله .

قال ابن كثير : ولم يرد معنا نص صريح ولا ظاهر من الشارع ان مؤمنى الجن لا يدخلون الجنة وأن اجيروا من النار ، ولو صح فقلنا به والله أعلم وهذا القول هو الصحيح ان شاء الله .

وهو الذى تؤيده ظواهر النصوص وهو الذى عليه الجمهور والله أعلم .

وقد ذكر القرطبى عن أبى حنيفة أن جزاءهم فى الآخرة انما هو اجارتهم من العذاب ، وأنهم يقال لهم : كونوا ترابا كالبهائم ، وحكى عن مالك والشافعى وابن أبى ليلى والضحاك أنهم يدخلون الجنة ، ثم قال : قال القشيرى : والصحيح ان هذا مما لم يقطع فيه بشىء والعلم عند الله . (١)

قلت : ماذكره القرطبى والشوكانى عن أبى حنيفة من القول بعدم دخول مؤمنى الجن الجنة : ظاهر كلام أبى حيان فى البحر المحيط أنه رجع عنه فانه قال عند تفسير آية الأحقاف هذه : وظواهر القرآن تدل على الثواب ، وكذا قال ابن عباس : لهم ثواب وعليهم عقاب يلتقون

---

١) تفسير القرطبى جـ ١٦ ص ٢١٧ - ٢١٨ المصدر السابق

فى الجنة ، ويزد حمون على أبوابها ، وقيل لا ثواب لهم الا النجاة من النار واليه كان يذهب أبو حنيفة (١)

فقوله : واليه كان يذهب أبو حنيفة يدل على أنه رجع عن هذا القول الى القول الصحيح فى رأى ، وذلك لأن الله أخبر فى كتابه أن الخلق يوم القيامة فريقان فريق منهم يذهب الى الجنة وفريق يذهب الى السعير ، وليس هناك فريق ثالث قال تعالى :

(... وتنذر يوم الجمع لا ريب فيه فريق فى الجنة وفريق فى السعير) (٢)

افكار الفلاسفة وجود الجن والملائكة :

ان الجن مع ماتواتر من الآيات القرآنية بذكرهم ، والأحاديث الصحيحة الواردة فى شأنهم وأنهم يأكلون الطعام كما تقدم فى اجتماعهم معه صلى الله عليه وسلم وابرائه آثارهم وآثار نيرانهم لأصحابه ، مع هذا كله لم يزل فى الوجود من ينكر وجودهم ، ولكن أكثر هؤلاء المنكرين هم الفلاسفة وربما نبا بعض علماء المسلمين الى ما يؤيد مذهبهم .

قال الفخر الرازى فى تفسيره :

اختلف الناس قديما وحديثا فى ثبوت الجن ونفيه ، فالنقل الظاهر عن أكثر الفلاسفة انكاره ، وذلك لأن أبا على بن سينا قال فى رسالته فى حدود الأشياء : الجن حيوان هوائى متشكل بأشكال مختلفة ، ثم قال : وهذا شرح للاسم فقوله : وهذا شرح للاسم يدل على أن هذا الحد شرح للمراد من هذا اللفظ ، وليس بيان لماهية ... وجود فى الخارج

---

١) البحر المحيط جـ ٨ ص ٦٨ المصدر السابق

٢) جزء من آية ٧ من سورة الشورى

وأما جمهور أرباب الملل والمصدقين للأنبياء فقد اعترفوا بموجود الجن ، واعترف به جمع عظيم من قدماء الفلاسفة وأصحاب الروحانيات ويسمونها بالأرواح السلفية (١)

وقد تكلم الأستاذ : الشيخ محمد عبده على قضية الملائكة والشياطين حيث قال .... والواجب على المسلم فى مثل الآية : يعنى قوله تعالى : (واذا قلنا للملئكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس أبى) (٢) الايمان بمضمونها مع التفويض أو الحمل على انها حكاية تمثيل ، ثم الاعتبار بالنظر فى الحكم التى سبقت لها القصة الى أن قال : فكل أمر كلى قائم بنظام مخصوص تمت به الحكمة الالهية فى ايجاده فانما قوامه بروح الهى سمى فى لسان الشرع ملكا ، ومن لم يبال فى التسمية بالتوقيف يسمى هذه المعانى : القوى الطبيعية اذا كان لا يعرف من عالم الامكان الا ماهو طبيعة ، أو قوة يظهر أثرها فى الطبيعة ، والأمر الثابت الذى لا نزاع فيه : هو أن فى باطن الخلقة أسرا هو مناطها ، وبه قوامها ونظامها لا يمكن لعاقل أن ينكره ، وان أنكر غير المؤمن بالوحى تسميته ملكا ، وزعم أنه لا دليل على وجود الملائكة أو أنكر بعض المؤمنين بالوحى تسميته قوة طبيعية ، أوناموسا طبيعيا لأن هذه الاسماء لم ترد فى الشرع ، فالحقيقة واحدة .....الخ فاذا صح الجرى على هذا التفسير فلا يستبعد أن تكون الاشارة فى الآية الى أن الله تعالى خلق الأرض ودبرها بما شاء من القوى الروحانية التى بها قوامها ونظامها ، وجعل كل صنف من القوى مخصوصا بنوع من أنواع المخلوقات لا يتعداه ، ولا يتعدى ماحد له

---

١) تفسير الفخر الرازى عند قوله تعالى : قل أوحى الى أنه استمع نفر من الجن .

٢) جزء من آية ٣٢ من سورة البقرة

من الأثر الذى خصص بـــه .

خلق بعد ذلك الانسان وأعطاه قوة يكون بها مستعدا للتصرف بجميع هذه القوى وتسخيرها فى عمارة الأرض ، وعبر عن تسخير هذه القوى بالسجود الذى يفيد معنى الخضوع والتسخير ... (١) نقل هذا الكلام الشيخ رشيد رضا وعزاه للشيخ محمد عبده .

فتراه عبر عن الملائكة والشياطين بالقوى الطبيعية ، وتارة بالقـــوى الروحانية ، وتارة قال : ان الآية تحمل على أنها حكاية تمثيل .

والظاهر أن هذا التعبير الذى كثر على لسانه ، وأيده الشيخ رشيد رضا لم يكثر من علماء المسلمين ، ولهذا ذكر هو نفسه أن معاصريـــه من العلماء أنكروا عليه هذا القول ، ورد عليهم هنا فى صفحة ٢٧٠ من هذا الكتاب بما ليس فيه اقناع فى نظرى ، وأيد تلميذه الشيخ رشيد رضا كلامة الأول كما أيد رده على منتقديه ،

وأقـــول : انى لفى كفة المنتقدين لهذا التعبير الذى يوهم عدم وجود الملائكة والجن وان كنت لا أسوء الظن بالشيخين ألبتة ، ولكنى لا أرى هذا التعبير الا موءيدا لمذهب الفلاسفة ، وان كانا لا يقصدان ذلك .

وانما قلت هذا الكلام لما ثبت فى السنة الصحيحة أن النبى صلى الله عليه وسلم رأى جبريل بعينه على صورته التى خلقه الله عليهـــا ، وكما تقدم فى شأن الجن من لقياهم للنبى صلى الله عليه وسلـــم وايمانهم بالقرآن ، فلا عبرة بعد هذا بقول من قال انهم غـــــير

---

١) تفسير المنار جـ ١ ص ٢٦٧ - ٣٦٩ ط الرابعة

موجودين ، أو أنهم مجرد قوى طبيعية أو قوى روحانية تارة توسوس بالشر فتكون شياطين ، وتارة تزين الخير فتسمى ملائكة .

وقد ثبت في صحيح البخاري عن مسروق قال : (قلت لعائشة رضي الله عنها : يا أمتاه هل رأى محمد صلى الله عليه وسلم ربه ؟ فقالت : لقد قف شعري مما قلت أين أنت من ثلاث من حدثكهن فقد كذب : من حدثك أن محمدا صلى الله عليه وسلم رأى ربه فقد كذب ، ثم قرأت (لا تدركه الأبصر وهو يدرك الأبصر وهو اللطيف الخبير) (١)
(وما كان لبشر أن يكلمه الله الا وحيا أو من وراء حجاب ..) (٢)
ومن حدثك أنه يعلم ما في غد فقد كذب ، ثم قرأت (... وما تدرس نفس ماذا تكسب غدا ..) (٣) ومن حدثك أنه كتم فقد كذب ثم قرأت (يا أيها الرسول بلغ ما انزل اليك من ربك ...) الآية (٤) ولكن رأى جبريل عليه السلام في صورته مرتين) (٥)

فهذا الحديث يدل على أن جبريل له صورة محسوسة خلقه الله عليها وليس مجرد قوى طبيعية ، أو قوى روحانية وليس شيئا محدودا .

وروى أحمد في مسنده عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

---

١) آية ١٠٣ من سورة الأنعام
٢) جزء من آية ٥١ من سورة الشورى
٣) جزء من آية ٣٤ من سورة لقمان
٤) جزء من آية ٦٧ من سورة المائدة
٥) أخرجه البخاري في كتاب التفسير في سورة : النجم اذا هوى .

(رأيت جبريل وله ست مائة جناح ينتشر من ريشه التهاويل (١) من الدر والياقوت (٢)

قال ابن كثير وهذا اسناده جيد قوى . ورويت عن ابن مسعود أحاديث عدة فى هذا المعنى كلها أسانيدها جيدة أوحسنة كما قال ابن كثير عند قوله تعالى : (ولقد رآه نزلة آخر) (٣)

---

١) الاشياء المختلفة الالوان

٢) المسند جـ ١ ص ٤٦٠ المصدر السابق

٣) آية ١٣ من سورة النجم

المبحث الثانى عشر

هل رسالته عليه السلام تشمل الملايكة أولا ؟

أختلف العلماء فى هذه المسألة فقال بعضهم : ان الملائكة لا تدخل فى عموم رسالته صلى الله عليه وسلم وانها مقصورة على الانس والجن .

وقال بعضهم انها تشمل الملايكة كما تشمل الانس والجن . وسوف أذكر لك من أقوال الفريقين ما يناسب ذكره فى هذه الرسالة .

حجة من قال بدخولهم

ان القائلين بدخول الملائكة فى عموم رسالة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم تمسكوا بظواهر نصوص من الكتاب والسنة دلت على شمول الرسالة للملائكة .

قالوا ان الله جل وعلا قال فى محكم كتابه .

(وما أرسلناك الا رحمة للعلمين) قالوا ان عبارات المفسرين تفيد أن معنى العالمين فى قوله تعالى : (الحمد لله رب العالمين) (١) كل ماخلق الله جل وعلا ، والملائكة من جملة ما خلق الله فيكون صلى الله عليه وسلم أرسل رحمة لهم كغيرهم ،

وقال تعالى : (تبرك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعلمين نذيرا)

وقال تعالى : فذكر بالقرآن من يخاف وعيد) قالوا والملايكة هم أخوف خلق الله من وعيده ، وأمثال هذه النصوص كثيرة فى القرآن .

السنـــــة

كما تمسكوا أيضا بظاهر حديث مسلم الثابت فى صحيحه عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

---

١) آية ١ من سورة الفاتحة .

(فضلت على الأنبياء بست : أعطيت جوامع الكلم ، ونصرت بالرعب وأحلت لى الغنائم ، وجعلت لى الارض طهورا ومسجدا ، وأرسلت الى الخلق كافة ، وختم بى النبيون) (١) قالوا فالرسول صلى الله عليه وسلم صرح بأنه أرسل الى الخلق كافة ، والملائكة من جملة الخلق . الى غير ذلك مما استدلوا به .

أقوال العلمـــاء

قال ابن السبكى فى خاتمة كتابه (جمع الجوامع) مانصه : (وخص محمد صلى الله عليه وسلم بأنه خاتم النبيين المبعوث الى الخلق أجمعين) قال ابن حلولو القيروانى : وقول المصنف الى الخلق أجمعين يتناول الجن والملائكة أما دخول الجن فمجمع عليه ، وظواهر الشرع قاطعة بذلك ، وأما الملائكة فذكروا لى الدين فى دخولهم خلافا ، وحكى المحلى عن الفخر الاجماع على أنه عليه السلام لم يكن رسولا اليهم (٢) .

وقد ذكر السيوطى فى كتابه الحاوى أدلة أيد بها ارساله الى الملائكة بعد أن رجح فى كتابيه : التقريب فى شرح الحديث ، وشرح الكوكب الساطع فى الاصول أنه غير مرسل اليهم ، والقاعدة المعروفة فى علم الاصول أن المجتهد اذا روى عنه قولان متعاقبان أى أحدهما بعد الآخر يقدم قوله الاخير على الاول ويكون بمثابة الناسخ له .

قال صاحب مراقى السعود مشيرا الى هذه المسألة .

: وقول من عنه روى قولان .. موخرا ذ يتعاقبان ..

فقوله : موخر خبر عن قوله : قول . أى يعتمد قوله الاخير ويلغى الاول

---

(١) مسلم جـ ١ ص ٣٧١ المصدر السابق

٢) الضياء اللامع شرح جمع الجوامع جـ ٣ ص ٢٩٤

وقال أى السيوطى ان الادلة التى استدل بها ، ورجح بها كون النبى صلى الله عليه وسلم مرسلا الى الملائكة بعضها يدل على ذلك بطريق العموم ، وبعضها يدل عليه بطريق الخصوص ، ومن الادلة على ذلك بطريق العموم قوله تعالى :

(تبرك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعلمين نذيرا) قال : والعالمون شامل للملايكة كما هو شامل للانس والجن ، وقد أجمع المفسرون على أن قوله تعالى : (الحمد لله رب العالمين) شامل لهؤلاء الثلاثة فكذلك هذا ، والاصل ابقاء اللفظ على عمومه حتى يدل الدليل على اخراج شىء منه ، ولم يدل هنا دليل على اخراج الملائكة ، ولا سبيل الى وجوده لا من القرآن ولا من السنة ، وقد تورع من أدعى الاجماع على أن المراد بالعالمين الانس والجن فقيل له أين المخصص .

وكذلك قوله تعالى : (وما أرسلناك الا رحمة للعلمين) شامل للملائكة أيضا ، وأورد حديثا ذكره القاضى عياض فى الشفا بأن النبى صلى الله عليه وسلم قال لجبريل هل أصابك من هذه الرحمة شىء قال نعم كنت أخشى العاقبة فآمنت لثناء الله على فى القرآن بقوله : (ذى قوة عند ذى العرش مكين) (١) ولكنه أعترف بأن هذا الحديث لا سند له .

وأما ما يدل على ارساله الى الملائكة بطريق الخصوص فقد قال انه أستنبط لذلك ادلة عدها واحدا واحدا ، وقال انه لم يسبق اليها ،

---

١) آية ٢٠ من سورة التكوير .

وقال ان من أقواها دلالة على الموضوع قوله تعالى :

١- (وقالوا اتخذ الرحمن ولدا سبحانه بل عباد مكرمون ، لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون ، يعلم مابين أيديهم وماخلفهم ولا يشفعون الا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون .) (١) ثم قال :

(ومن يقل منهم انى اله من دونه فذلك نجزيه جهنم) (٢) وذكر عن ابن أبى حاتم وابن المنذر أن المراد بقوله : (ومن يقل منهم) الملائكة ، وذكر أن ابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه والبيهقى فى دلائل النبوة أخرجوا عن ابن عباس أنه قال : ان الله قال لأهل السماء : (ومن يقل منهم أنى اله من دونه فذلك نجزيه جهنم) فهذه الآية انذار للملائكة على لسان محمد صلى الله عليه وسلم فى القرآن الذى أنزل عليه ، وقد قال تعالى : (وأوحى الى هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ . . .) فثبت بذلك ارساله اليهم لأن القرآن بلغهم .

٢- الدليل الثانى هو : ما أخرجه عبد الرزاق فى مصنفه عن عكرمة قال : (صفوف أهل الأرض على صفوف أهل السماء فاذا وافق آمين فى الأرض آمين فى السماء غفرللعبد ، وهذا يدل على أن الملائكة فى السماء تصلى بصلاة أهل الأرض ،

ويدل لهذا : الحديث الذى أخرجه الائمة الستة ومالك والشافعى : (اذا أمن الامام فأمنوا فانه من وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه) . (٣)

---

١) الآيات ٢٥ - ٢٦ - ٢٧ من سورة الأنبياء

٢) جزء من آية ٢٨ من سورة الأنبيـــــاء

٣) أخرجه البخارى فى كتاب الأذان فى باب جهر الامام بالتأمين ومسلم فى كتاب الصلاة جـ ١ ص ٣٠٧ المصدر السابق

٣- ومن جملة ماذكره من الأدلة وهو دليله الخامس حسب ترتيبه .

ما أخرجه سعيد بن منصور وابن أبي شيبة والبيهقي في سننه عن سلمان موقوفا ، والبيهقي من وجه آخر عن سلمان مرفوعا :

(اذا كان الرجل في ارض فاقام الصلاة صلى خلفه ملكان ، فإذا أذن وأقام الصلاة صلى خلفه من الملائكة مالا يرى طرفاه يركعون بركوعه ويسجدون بسجوده ويؤمنون على دعائه .) (١) الى غير ذلك مما ذكره من الأدلة التي لا تنهض في نظري وجملتها ستة .

أدلة المانعين

القائلون بعدم دخول الملائكة في رسالة نبينا صلى الله عليه وسلم خلق كثير منهم :

الفخر الرازي ، والبيهقي ، وأبو السعود ، والنسفي ، وغيرهم .

وقد استدل الفخر الرازي على ذلك بما حكاه من الاجماع حيث قال . . .

ثم قالوا هذا الآية تدل على أحكام :

الأول : أن العالم كل ما سوى الله تعالى ويتناول جميع المكلفين من الجن والانس والملائكة ، لكنا أجمعنا أنه عليه السلام لم يكن مرسلا الى الملائكة فوجب أن يكون رسولا الى الجن والانس ويبطل بهذا قول من قال انه مرسل الى المحض دون المحض .

الثاني : أن لفظ العالمين يتناول جميع المخلوقات فدلت الآية على أنه رسول للخلق الى يوم القيامة فوجب أن يكون خاتم الأنبياء والرسل اهـ (٢)

---

١) انظر الحاوي للسيوطي جـ ٢ ص ١٤١-١٤٣ ط دار الكتاب العلمية

٢) انظر تفسير الفخر الرازي عند مطلع سورة الفرقان .

قلت : قوله : فدلت الآية على أنه رسول للخلق الى يوم القيامة يناقض قوله بعدم شمول الرسالة للملائكة . كذلك أبو السعود فى تفسيره كلامه يفيد أنه انما أرسل الى الجن والانس فقط دون الملائكة فانظره (١)

ومن قال بأنه غير مرسل الى الملائكة أيضا البيهقى قال فى آخر كلام له طويل فى شأن اعجاز القرآن وأنه غير مخلوق ... وانما وقع التحدى عليه الجن والانس دون الملائكة ، وفى ذلك ما أبان أن نظم القرآن ليس من عند جبريل ، ولكنه من عند اللطيف الخبير ، وهذا معنى كلام الحليمى رحمه الله (٢) وكذلك قال بهذا القول : الامام على أبن أحمد الواحدى المتوفى سنة ٤٦٨ هـ فى تفسيره المسمى : الوجيز فى تفسير القرآن العزيز ، والنسفى ، وغيرواحد كالبيضاوى وخلق كثير لا يحصى منهم القرطبى والنيسابورى وابن كثير والشوكانى . والمحلى فى شرحه لجمع الجوامع ، قال عند قول صاحب جمع الجوامع (وخص محمد صلى الله عليه وسلم بأنه خاتم النبيين ، المبعوث الى الخلق أجمعين) كما قال تعالى : (ولكن رسول الله وخاتم النبيين) المبعوث الى الخلق أجمعين كما فى حديث مسلم . (أرسلت الى الخلق كافة) وفسر بالانس والجن كما فسر بهما (ومن بلغ) فى قوله : (وأوحى الى هذا القرآن لانذركم به ومن بلغ) أى بلغه القرآن ، و (العلمين) فى قوله : (ليكون للعلمين نذيرا) وصرح البيهقى والحليمى أنه لم يرسل الى الملائكة (٣)

وقال البنانى فى حاشيته على المحلى : قوله : (لم يرسل الى الملائكة)

---

١) تفسير أبى السعود فى مطلع سورة الفرقان

٢) شعب الايمان للبيهقى الباب الرابع الجزء الأول : صـ١٢ ط أولى هندية .

٣) انظر شرح المحلى لجمع الجوامع مع حاشية البنانى جـ ٢ صـ ١٥ ـ ٤١٦

الصحيح أنه لم يرسل اليهم رسالة تكليف ، بل رسالة تشريف .

وذكر السيوطى أن المرافى فى نكته على ابن الصلاح قال : لن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يرسل الى الملائكة . والذى رأيته فى النكت لم يكن فيه التصريح بعدم ارساله اليهم ولكنه يفهم منه فقد قال فى آخر كلام طويل فى حد الصحابى : وأما الأنبياء الذين رأوه فى السماوات ليلة الاسراء الذين ماتوا منهم كابراهيم ويوسف وموسى وهارون ويحيى : لا شك أنهم لا يطلق عليهم أسم الصحابة . . . الى أن قال : وأما رؤية عيسى له فى السماء فقد يقال : السماء ليست محلا للتكليف ولا لثبوت الأحكام الجارية على المكلفين انتهى محل الغرض من كلامه (٢)

هذا وقد رأيت أقوال المانعين لدخول الملائكة فى عموم رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ورأيت أنهم لم يأتوا بأدلة مقنعة الا ما حكاه الرازى من الاجماع ، وقد تنوزع فى ذلك الاجماع ، كما رأيت .

قلت ان من أصرح الأدلة على دخول الملائكة فى عموم رسالة نبينا صلى الله عليه وسلم حديث مسلم الذى تقدم وفيه . . . وأرسلت الى الخلق كافة .

وقوله تعالى : (تبرك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعلمين نذيرا)

فاذا وجد مخصص يخرج الملائكة من هذا العموم وجب العمل به ، وألا فان العمومات من الوحى يجب التمسك بها حتى يرد مخصص ، والصحيح عند أكثر الأصوليين أنه لا يجب البحث عن المخصص ولا يتوقف

---

١) طالع حاشية البنانى على المحلى عند النص المتقدم والصفحة

٢) انظر التقييد والايضاح شرح مقدمة ابن الصلاح للعراقى ص٢٩٥-٢٩٦

العمل بالعام على البحث عن مخصص له .

والحاصل أننا ذكرنا لك اختلاف العلماء في ارسال النبي صلى الله عليه وسلم الى الملائكة وعدم ارساله اليهم ، ولا شك أن القائلين بتناول الرسالة للملائكة لديهم أدلة قوية من عمومات الكتاب والسنة تفيد ضمن العموم منها شمول الرسالة النبوية للملائكة كما تفيد دخول الانس والجن وغير ذلك ، وقد تقدم من النصوص مايكفي كمطلع سورة الفرقان ، وحديث مسلم الذي تقدم غير مرة ، وكقوله تعالى : (لينذر من كان حيا) وقوله : (فذكر بالقرآن من يخاف وعيد) كما تقدم ذلك كله ، والملائكة من أشد خلق الله خوفا منه ، وعليه فيكونون ذكروا بالقرآن لأن الله أمر نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم أن يذكر بالقرآن كل من يخاف الوعيد ، والملائكة يخافون الوعيد بلا شك ، والتذكير يشمل الانذار والتبشير كما قال تعالى : (فانما يسرناه بلسانك لتبشر به المتقين وتنذر به قوما لدا) (١) والله جل وعلا شهد لنبيه أنه بلغ حيث قال له : (فتول عنهم فما أنت بملوم) (٢)

الراجح عندي

والذي ترجح عندي في هذه المسألة أن صيغ العموم من نصوص القرآن والسنة شملت الملايكة ، وأنهم خرجوا من هذا العموم بمخصص منفصل ، والسؤال المطروح الآن هو : ماهو المخصص الذي خرجت به الملائكة بعد ما أثبت أنهم داخلون في العموم ؟ والجواب أن المخصص هنا

---

(١) آية ٩٧ من سورة مريم

(٢) آية ٥٤ من سورة الذاريات

الذى أخرج الملائكة من هذا العموم هو : (العقل) لأن العقل نص الأصوليون على أنه من المخصصات المنفصلة . قال ابن السبكى فى جمع الجوامع : (يجوز التخصيص بالحس والعقل خلافا لشذوذ ، ومنع الشافعى تسميته تخصيصا وهو لفظى) ومثل شراحه للتخصيص بالعقل بخروج ذات الله تعالى وصفاته من عموم قوله تعالى : (الله خلق كل شىء) (١) قالوا لأن التأثير لا يكون الا فى الممكنات ، والله تعالى واجب الوجود (٢)

وقال المحلى عند شرحه للنص المذكور آنفا (والعقل) كما فى قوله تعالى : (الله خلق كل شىء . .) فاننا ندرك بالعقل ضرورة أنه تعالى ليس خالقا لنفسه ، خلافا لشذوذ من الناس فى منعهم التخصيص بالعقل قائلين انما نفى العقل حكم العام عنه لم يتناوله العام لأنه لا تصح ارادته ، ومنع الشافعى رحمه الله تسميته تخصيصا نظر الى أن ما تخصص بالعقل لا تصح ارادته بالحكم وهو : أى الخلاف لفظى أى عائد الى اللفظ والتسمية للاتفاق على الرجوع الى العقل فيما نفى عنه حكم العام ، وهل يسمى نفيه لذلك تخصيصا ؟ فعندنا نعم وعندهم لا (٣)

وقال فى مراقى السعود معرفا المخصص المنفصل :

: وسمّ مستقله منفصلا . . للحسّ والعقل نماه الفضلا :

وقال شارحه : وعقلى كما فى قوله تعالى : (الله خلق كل شىء) فليس

---

١) جزء من آية ٦٢ من سورة الزمر

٢) طالع الضياء اللامع على جمع الجوامع جـ ٢ ص ٣٩٠ ـ ٤ ط حجريه مغربية

٣) شرح المحلى لجمع الجوامع جـ ٢ ص ٢٥ المصدر السابق

خالقا لنفسه لاستحالته عقلا ، فالتخصيص بالعقل هو : أن يكون العقل مانعا من ثبوت الحكم لذلك المخصوص أى المخرج من العام اهـ محل الغرض من كلامه (١)

وبيان كون العقل خرج الملائكة أن الملائكة منذ خلقهم الله تعالى قبل رسالة محمد صلى الله عليه وسلم . وقبل نبوة آدم ، بل وقبل خلقه ، وهم عباد مكرمون لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون مايؤمرون فهم كانوا قبل وجود أى نبى من الأنبياء عليهم صلوات الله وسلامه على هداية من ربهم يمتثلون أوامره ، ويجتنبون نواهيه لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون يسبحون الليل والنهار لا يفترون .

فنصوص الوحى دلت على أنهم مكلفون لثبوت الأحاديث بصلاتهم وتسوية صفوفهم ، وورود الآيات القرآنية بذكرهم وتسبيحهم ، وامتثالهم الأوامر واجتنابهم النواهى . ولكننا لا ندرى هل هذه التكاليف تلقوها من الله بلا واسطة رسول ، أو بواسطة رسل من الملائكة أرسلهم الله اليهم ، فلهذا خرجوا من عموم رسالته صلى الله عليه وسلم اذ لم يحتاجوا الى شىء من قبل وجود الرسالات وأثناء الرسالات وبعدها والله تعالى أعلم اهـ .

---

١) نشر البنود شرح مراقى السعود جـ ٢ ص ٣٩ - ٤٠
المصدر السابق

المبحث الثالث عشر

في شمول دعوة الاسلام بأجوج ومأجوج (١)

لما تطرقنا في هذا البحث الى شمول الرسالة النبوية للملائكة والجن لابد وأن نتطرق لشمولها ليأجوج ومأجوج لانهما أمتان عظيمتان من ذرية آدم عليه السلام موجودتان زمن دعوة الاسلام وقبلها وموجودتان الآن ، كما صرحت بذلك الآيات القرآنية والاحاديث النبوية .

الادلة على أنهم من ذرية آدم

ثبت في الصحيحين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال :

(يقول الله عز وجل يوم القيامة يآدم فيقول لبيك ربنا وسعديك فينادى بصوت ان الله يأمرك أن تخرج من ذريتك بعثا الى النار قال يارب وما بعث النار ؟ قال من كل ألف - أراه - قال تسع مائة وتسعة وتسعين فحينئذ تضع الحامل حملها ويشيب الوليد وترى الناس سكارى وماهم بسكارى ولكن عذاب الله شديد فشق ذلك على الناس حتى تغيرت وجوههم ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : من يأجوج ومأجوج تسع مائة وتسعة وتسعين ومنكم واحد ، ثم انتم فى الناس كالشعرة السوداء فى جنب الثور الابيض ، أو كالشعرة البيضاء فى جنب الثور الاسود ، وأنى لارجو ان تكونوا ربع أهل الجنة فكبرنا ثم قال : شطر أهل الجنة فكبرنا قال أبو أسامه عن الاعمش ترى الناس سكارى وماهم بسكارى قال : من كل ألف تسع مائة وتسعة وتسعين ، وقال جرير

---

(١) وأختلف فى اشتقاقهما فقيل من أجيج النار ، وهو التهابها ، وقيل من الأجة بالتشديد وهى : الاختلاط ، وقيل من الاج وهو سرعة العدو ووزنهما يفعول ومفعول على قراءة عاصم وعلى قراءة غيره أيضا ان كانت الالف مبدلة من الهمزة للتخفيف وجميع ماذكر مناسب لحالهم فتح البارى جـ ١٣ ص ١٠٦ ط السلفية .

وعيسى بن يونس وأبو معاوية " سكرى وماهم بسكرى " (١) ففى هذا الحديث التصريح بأن يأجوج وماجوج من ذرية آدم ، وقال بعض العلماء : هؤلاء أى يأجوج ومأجوج من نسل يافث أبى الترك وقال : انما سمى هؤلاء تركا لأنهم تركوا من وراء السد من هذه الجهة والا فهم أقرباء أولئك ولكن كان فى اولئك بغى وفساد وجراءة ، (٢)

الادلة على وجودهم الآن

ثبت فى صحيح مسلم فى الحديث الطويل فى قصة الدجال وصفته فبينما هم كذلك اذ اوحى الله عز وجل الى عيسى ابن مريم عليه السلام : انى قد أخرجت عبادا من عبادى لا يدان لك بقتالهم فحرز (٤) عبادى الى الطور فيبعث الله عز وجل يأجوج وماجوج كما قال تعالى : (وهم من كل حدب ينسلون) (٥)

فيرغب عيسى وأصحابه الى الله عز وجل فيرسل عليهم نغفا (٦) فى رقابهم فيصبحون فرسى كموت نفس واحدة فيهبط عيسى وأصحابه

---

١) أخرجه البخارى فى كتاب التفسير فى باب . وترى الناس سكارى وهذا لفظه هنا وأخرجه فى مواضع أخرى ، وأخرجه مسلم فى آخر كتاب الايمان جـ ١ ص ٢٠١ المصدر السابق . والترمذى جـ ٥ ص ٦ فى كتاب التفسير مع اختلاف فى اللفظ

٢) ابن كثير عند تفسير آية الكهف هذه

٣) طالع ابن كثير جـ ٣ ص ١٠٤ المصدر السابق

٤) أى ضمهم واجعله لهم حرزا يقال أحرز الشىء اذ لحفظه وصانه عن الأخذ .

٥) جزء من آية ٩٨ من سورة الأنبياء

٦) النغف : دود يكون فى أنوف الابل والغنم وأحدته نغفة القاموس مادة نغف

الى الله عز وجل فيرسل الله عليهم طيرا كأعناق البخت فتحملهم فتطرحهم حيث شاء الله ...) (١)

وروى الامام أحمد أيضا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

(انكم تقولون لا عدو لكم وانكم لا تزالون تقاتلون حتى ياتى ياجوج ومأجوج عراض الوجوه صغار العيون صهب الشعاف (٢) من كل حدب ينسلون كأن وجوههم المجان المطرقة (٣) وقد روى فى هذا المعنى أحاديث كثيرة .

وقال النووى فى شرح مسلم : ان بعض الناس يقول : ان يأجوج ومأجوج من / منهى خرج من آدم فاختلط بالتراب فخلقوا منه ، وعليه تكون صلتهم بالبشر من جهة أدم لا من جهة حواء (٤) وقال ابن كثير ان هذا القول غريب جدا ولا دليل عليه من عقل ولا من نقل (٥) وقال القرطبى وفى هذا نظر لأن الانبياء لا يحتلمون ، وانما هم من ولد يافث ،

الدليل على وجودهم زمن النبى صلى الله عليه وسلم

أما الدليل على وجودهم زمن الرسالة النبوية : ماثبت فى الصحيحين

---

١) رواه مسلم جـ ٤ ص ٢٢٥٣ المصدر السابق

٢) أى شعورهم صهب القاموس جـ ٣ ص ١٦٤ طـ دار التعاون بمكة

٣) المسند جـ ٥ ص ٢٧١ المصدر السابق

٤) شرح النووى لمسلم جـ ٣ ص ٩٨

٥) تفسير ابن كثير جـ ٣ ص ١٠٣ - ١٠٤ المصدر السابق

من حديث الزهرى عن زينب بنت جحش أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

(لا اله الا الله ويل للعرب من شر قد اقترب فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه وحلق بأصبعيه الابهام والتى تليها ، فقالت زينب بنت جحش يارسول الله أنهلك وفينا الصالحون ، قال نعم اذا كثر الخبث (١) وانما أثبتنا وجود يأجوج ومأجوج قديما وحديثا لما يتشدق به أعداء الاسلام واليوم من إنكارهم ، وقولهم ان الارض لم يبق منها شيء الا اكتشف أنهم ليسوا موجودين ، وأنهم ربما كانو السوفيت ، أوالصين فإن هذا كله محاربة للاسلام وتشكيك فيه ورد لآيات القرآن والاحاديث النبوية ، قال تعالى : فى قصة ذى القرنين :

(حتى اذا بلغ بين السدين وجد من دونهما قوما لا يكادون يفقهون قولا قالوا يذا القرنين ان يأجوج ومأجوج مفسدون فى الارض فهل نجعل لك خرجا على أن تجعل بيننا وبينهم (٢) فهذا القرآن الكريم يخبر عن وجود يأجوج ومأجوج فى زمن ذى القرنين (٣) قبل عشرات المئات من السنين ، والسنة تخبر بوجودهم فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم ووجودهم فى آخر الزمان فلا سبيل لانكارهم ، ولا للقول بأنهم ممن هو ظاهر على الارض الآن . بل هم مستورون فى علم الله دونهم سد

---

١) أخرجه مسلم جـ ٤ ص ٢٢٠٨ فى كتاب الفتن واشتراط الساعة . المصدر السابق . والبخارى فى كتاب بدء الخلق فى باب قول الله تعالى ويسألونك عن ذى القرنين .

٢) آية ٩٣ - ٩٤ من سورة الكهف

٣) ذو القرنين هو : الاسكندر المتقدم ، وليس الاسكندر المتأخر اليونانى . لان اليونانى قريب من زمن عيسى عليه السلام ، والاول فى زمن ابراهيم وبين ابراهيم وعيسى أكثر من ألفى سنة ، وقد لقب الاسكندر المتأخر بذى القرنين تشبيها بالمتقدم لسعة مملكته لما ملك الروم والفرس فلقب ذا القرنين لذلك ، والذى قص الله خبره فى القرآن هو المتقدم

والفرق بينهما من وجوه (١) ماروى عن ابن عباس وغيره من كبار التابعين أن ذا القرنين التقى بابراهيم فى المسجد الحرام ٢) ماذكره الفخر الرازى فى تفسيره أن ذا القرنين المذكور فى القرآن كان نبيا ، وكان الاسكندر ، الاخير كافرا ، وكان معلمه (أرسطاطاليس وهو كافر بلا شك) ٣) ذو القرنين من العرب وينعهد لذلك كثرة ورود ه فى أشعارهم ، والعرب من ولد سام بن نوح ، واليونان من ولد يافث بن نوح ، وشبهة من قال انه هو حديث ضعيف فيه ابن لهيعه : أن النبى صلى الله عليه وسلم سئل عن ذى القرنين فقال : كان من الروم فأعطى ملكا فصار الى مصر وبنى الاسكندرية ، فلما فرغ أتاه ملك فخرج به فقال : انظر ماتحتك . . . وقد جعل لك فى الارض سلطانا فعلم الجاهل وثبت العالم ، واختلف فى نبوة ذى القرنين وظاهر القرآن يدل على ذلك ، وروى عن عبد الله ابن عمرو بن العاص ، وقيل انه عبد صالح ، طالع فتح البارى جـ٦ ص٢ ٣٨-٣٨٣ ط السلفية .

وقال ابن كثير فى البداية والنهاية : والصحيح أنه كان ملكا من الملوك العادلين ، وقيل كان نبيا ، وقيل كان رسولا ، وأغرب من قال : كان ملكا من الملائكة كما حكى عن عمر بن الخطاب ، وروى ابن عساكر عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (لا أدرى أتبع كان لعينا أم لا ؟ ولا أدرى الحدود كفارات لاهلها أم لا ؟ ولا أدرى ذو القرنين كان نبيا أم لا) . . .

واختلفوا فى سبب تسميته ذا القرنين فقيل : انه كان فى رأسه شبه القرنين من نحاس وقال بعض أهل الكتاب لانه ملك الروم وفارس ، وقيل : لانه بلغ قرنى الشمس شرقا وغربا وملك مابينهما من الارض ، وروى عن على بن أبى طالب أنه سئل عنه فقال : كان عبدا ناصح الله فناصحه ، دعا قومه الى الله فضربوه على قرنه فمات فأحياه الله فدعا قومه الى الله فضربوه على قرنه الآخر فمات فسمى ذا القرنين . . . طالع البداية والنهاية لابن كثير جـ ٢ ص١٠٣-١٠٤ ط الثانية بمكتبة المعارف . بيروت ،

جعله الله حجابا عليهم الى أن يأتى الوقت المحدد لظهورهم آخر الزمان بعد نزول عيسى عليه السلام والعلم عند الله .

ومما ذكرنا فى شأن يأجوج ومأجوج يتضح أنهم كفار وأنهم غير معذورين لاخباره صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح أنهم معذبون فى النار وهو لا ينطق عن الهوى وانما يوحى اليه وحى ، وقد أخبر قومه أن الله جل وعلا يوم القيامه يجعل تسعة وتسعين من بعث أهل النار من يأجوج ومأجوج فهذا نص فى أنهم غير معذورين ،

وقال الأبى فى شرحه لصحيح مسلم : انه لم يوجد نص يدل على كفرهم غير هذا كما سيأتى له . ان شاء الله ،

قلت : وفى هذا النص كفاية لأن الحديث اذا ثبت عن النبى صلى الله عليه وسلم عن طريق النقلة الاثبات العدول يكفى فى اثبات الاحكام الا اذا ثبت نسخه ، أو وجد ماهو أرجح منه عند التعارض ، وعند انفراده يكفى فى ثبوت الاحكام واقامة الحجة .

هل الدعوة الاسلامية بلغت يأجوج ومأجوج أولا ؟

لم تزل هذه القضية موضع تساؤلات وهى : هل النبى صلى الله عليه وسلم بلغ يأجوج ومأجوج الدعوة ، أو أرسل اليهم رسلا يبلغونهم رسالة الاسلام ؟ وهم قامت عليهم الحجة حتى عذبوا ؟ والله جل وعلا يقول :

(... وماكنا معذبين حتى نبعث رسولا) وغيرها من الآيات .

وقد تكلم الأبى فى شرحه لمسلم الذى قال فى مقدمته انه ضمنه ملخص أربعة شروح لمسلم وزاد عليها وهى : شرح الامام المازرى ،

وشرح القرطبى ، وشرح القاضى عياض ، وشرح الامام النووى ، قال :

قلت : يأجوج ومأجوج أمة عظيمة فى الكثرة والبطش فالكثرة لقوله تعالى :

(... وهم من كل حدب ينسلون) (١) ولحديث : ... يمر أولهم

بحيرة طبرية فيشربونها ، ويمر آخرهم فيقول كان بهذه مرة ...) (٢)

والبطش لحديث ... يوحى الله الى عيسى انه قد خرج عباد لى لا يدان

لأحد بقتالهم . (٣) ثم قال : والاكثر على أنهم من ولد يافث بن نوح

وقال مقاتل هم أمة من الترك ... الى أن قال : والحديث صريح فى

كفرهم ، ولم يرد نص غيره ، والقرآن انما أخبر أنهم مفسدون فى الارض

والفساد أعم من الكفر ، ثم قال :

واذا كان الحديث نصا فى كفرهم ، فالكفر انما يكون بعد اقامة الحجة

وبلوغ الدعوة لقوله تعالى : (... وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا)

وللقطع بهذا الاصل يجب النظر فى وجه كفرهم ، وقد ذكر أن حالاتهم

لا تجاوز أربعا :

الاولى : حالتهم قبل سد ذى القرنين عليهم ،

ويحتمل أن يكون كفرهم اذ ذاك لتكذيب رسل ارسلت اليهم ـ

الثانيه : بعد السد عليهم وقبل مجىء الاسلام ولم يرد نص صريح أن

الله أرسل اليهم رسلا منهم ، ولا أنهم بلغتهم دعوة رسول لتعذر

وصولها اليهم ، فهم بعد السد كحالهم قبله ولم يرد ما يدل على ايمانهم

الا حديث رواه الترمذى : أنهم يخرقون السد كل يوم حتى اذا كادوا

---

١) جزء من آية ٩٦ من سورة الانبياء

٢) بعض ألفاظ مسلم فى حديث الصحيحين الذى تقدم قريبا

٣) بعض ألفاظ الحديث المتقدم أيضا

يخرقون قال الذى عليهم ، ارجعوا فستخرقونه غدا ولم يقل ان شاء الله فيرجعون اليه فى الغد فيجدونه كما كان أولا ، حتى اذا بلغ الكتاب أجله ، وأراد الله أن يبعثهم على الناس قال الذى عليهم ، أرجعوا فستخرقونه غدا ان شاء الله فيرجعون فيجدونه على هيئته حين تركوه فيخرقونه ويخرجون على الناس (١) ، فنقول ان شاء الله دليل على الايمان ، لكن انما بقوله الذى عليهم ، ولعله ملك أو غير ملك منهم ، أو يكون ممن أدرك التوحيد ببصيرته كقس بن ساعدة وأشاله .

الثالثة : من حالاتهم : حالتهم بعد مجىء الاسلام ، والظاهر أنها كحالتهم التى قبلها ، وما ورد من طريق وهب بن منبه أن النبى صلى الله عليه وسلم انطلق به اليهم ليلة الاسراء وبلغهم ولم يجيبوه فهم فى النار مع المشركين من أولاد آدم وابليس ، لا يصح لانه لا سند له ، وانما هو من القاصيص ، مع أن تبليغهم فى تلك الليلة التى أسرى به فيها ليطلع على ملكوت السماوات والارض ، وليجتمع عليه الانبياء ، ويتلقى فرض الصلاة ، ويرى الجنة والبيت المعمور ، فلم يشتغل تلك الليلة بارساله الى أمة ، واذا لم تبلغهم الدعوة فتبين أن كفرهم قبل مجىء الاسلام ، وقلنا هذا لنص الحديث على كفرهم ، والا فالقياس يقتضى أنهم ممن لم تبلغهم الدعوة ، ومن لم تبلغه الدعوة معذور .

الرابعة : هى بعد خروجهم آخر الزمان ومن عيسى عليه السلام حاكما بشريعة نبينا صلى الله عليه وسلم فقد ورد أنهم يقولون اذا خرجوا : قتلنا من فى الارض فهلم نقتل من فى السماء فيرمون بسهامهم فترجع اليهم مخضبة من الدم فتنة لهم كما فعل ثمرود ، وهذا كفر صريح انتهى ملخصا منه (٢)

---

١) الترمذى : جـ٤ ص ٣٧٥ ط السلفية

٢) لنظر الابى شرح مسلم جـ ١ ص ٣٨٥ - ٣٨٧ ط دار الكتب العلمية بيروت

قلت : الظاهر والله أعلم أنهم كانوا كفارا قبل بعثة النبى صلى الله عليه وسلم ، وأنهم يزدادون كفرا عندما يخرجون فى زمن عيسى عليه السلام حاكما بشريعة محمد صلى الله عليه وسلم حيث لم يتبعوه ، ويفسدوا فى الأرض ، ويموتوا بسبب دعاء عيسى عليهم لأن اعراضهم عن اتباع عيسى حاكما بشريعة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم اعراض عن شريعة محمد صلى الله عليه وسلم ،

وأما قول الأبى السابق : ولم يرد نص صريح أن الله أرسل اليهم رسلا منهم بعد جعل السد عليهم فانى لا أسلم بهذا القول لأنه ورد مايخالفه كما سأبينه ان شاء الله .

اعلم أولا : أن أول كلام الأبى الذى نقلنا فيه مانصه : قلت : يأجوج ومأجوج أمة عظيمة فى الكثرة والبطش ، فقد اعترف بأنهم أمة وقد تقدم اثبات كونهم من ذرية آدم ، والله جل وعلا يقول : (وان من أمة الا خلا فيها نذير) وقد قدمنا قول ابن كثير أن المعنى : وما من أمة من الأمم خلت من بنى آدم الا وقد بعث الله اليهم النذير وأزاح عنهم العلل ، وقال تعالى : (ولكل أمة رسول ..) (١) وقال تعالى : (ويوم نبعث فى كل أمة شهيدا عليهم من أنفسهم ..) (٢) وقال تعالى :

(وسيق الذين كفروا الى جهنم زمرا حتى اذا جاءوها فتحت أبوابها وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم ..) (٣) وتقدمت آيات بهذا المعنى فى الكلام على الجن كقوله تعالى :

---

١) جزء من آية ٤٧ من سورة يونس

٢) جزء من آية ٨٩ من سورة النحل

٣) جزء من آية ٧١ من سورة الزمر

(ولقد بعثنا فى كل امة رسولا ان اعبدوا الله واجتنبوا الطغوت) ،
ولا مانع يمنع أن يكون رئيسهم الذى عليهم حين ينقبون النقب ويقول فى
نهاية الأمر ان شاء الله ممن هدى الله وباقيهم ممن حققت عليها الضلالة
وعلى هذا فلا مانع أن يكونوا أنذروا على ألسنة رسل منهم وتكون
هذه الرسل ممن لم يقصصه الله على نبيه صلى الله عليه وسلم كما قال
تعالى :

(ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك) (١)
فالله جل وعلا ذكر لنا فى كتابه العزيز خمسة وعشرين من الرسل ، وقد
ورد فى السنة أن عددهم أكثر من ذلك بكثير كما سيأتى فالحكم على
يأجوج ومأجوج والجن بأنهم لم ترسل اليهم رسل منهم من الصعب
فى نظرى والله أعلم .

هذا مع أن الابى جزم قبل هذا فى شرحه حديث مسلم :

(والذى نفس محمد بيده لا يسمع بى أحد من هذه الأمة يهودى
ولا نصرانى ثم يموت ولم يؤمن بالذى أرسلت به الا كان من أصحاب النار) (٢)
وسيأتى هذا الحديث ان شاء الله .

جزم بأن دعوة محمد صلى الله عليه وسلم بلغتهم ، ونص كلامه :
قال عياض : فيه أن من لم تبلغه دعوة الاسلام وأمر النبى صلى الله عليه
وسلم معذور لأن طريق الايمان به مشاهدة معجزته لمن حضرها ،
وصحة نقلها لمن لم يشاهدها ، بخلاف الايمان بالله تعالى الذى طريقه

---

١) جزء من آية ١٦٤ من سورة المائدة
٢) صحيح مسلم جـ ١ ص ١٣٤ المصدر السابق

النظر . . . ثم قال بعد انتهاء كلام عياض

قلت : صدر كلامه يقتضى أن شرط الايمان به بلوغ الدعوة ، وتعليله يقتضى أنه بلوغ المعجزة ، والاول ظاهر الحديث ، ولكن فسر بعضهم الحديث فقال :

أى لا يسمع وتتبين له معجزة ، وكان الشيخ يعنى (ابن عرفة) كما ذكر فى مقدمته يقول : انما الشرط بلوغ الدعوة لا بلوغ المعجزة ، ولا يبعد أن يكون بأطراف العمران ، أو بعض الجزائر المنقطعة من لم تبلغهم الدعوة وحكمهم أن لا حرج كما ذكر ، وهو أمر مجمع عليه لقوله تعالى : (. . . وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) ولهذا الحديث ولهذا الاصل نقطع أن يأجوج ومأجوج بلغتهم الدعوة لما صح فى حديث بعث أهل النار الاتى انهم يعذبون ، وقيل : انه صلى الله عليه وسلم أنذرهم ليلة الاسراء انتهى كلامه بلفظه (١) فتراه هناك صرح بأن دعوة الاسلام بلغتهم قطعا ، وذلك هو وجه كفرهم ، وهنا لم يصرح بوجه كفرهم ولكنه جزم به .

قلت : الذى يظهر فى هذه المسألة أن رسالة نبينا صلى الله عليه وسلم تشمل يأجوج ومأجوج بلا شك لانهم من الخلق وهو صلى الله عليه وسلم أخبر أنه ارسل الى الخلق ، ومن العالم ، والقرآن صرح الله جل وعلا بأنه أنزله ليكون للعالمين نذيرا ، ومن بنى آدم ، والاجماع منعقد على أنه صلى الله عليه وسلم مرسل الى الثقلين : الانس والجن .

---

١) الابى على مسلم جـ ١ ص ٢٦٢ المصدر السابق

ولكن بقى : كيف بلغتهم الدعوة وقامت عليهم الحجة حتى عذبوا ؟ ولم أجد مايشفى الغليل فى ذلك الا ماتقدم من كلام الابى وقطعه بأن الدعوة بلغتهم : والظاهر لى أنها لم تبلغهم فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم لتعذرذلك ولانهم اذ ذاك فى حكم المعدوم لان الله حجبهم عن الناس ولم يرد لنا نص من الشارع يثبت لنا أن الله أطلع نبيه عليهم وبلغهم رسالة ربه مع توفر الدواعى الى نقل ذلك لو وقع ، ولكنه لم ينقل ولم يصح الا أن يكون خروجهم فى زمن عيسى عليه السلام حاكما بشريعة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم واعراضهم عن الايمان به وفسادهم فى الارض ، وقولهم قتلنا من فى الارض فهلم نقتل من فى السماء كما تقدم فلعل أن تكون الدعوة اذ ذاك بلغتهم لانهم لم يوجدوا الا فى ذلك الحين ، أما قبله فان وجودهم كان كالعدم والله تعالى أعلم .

المبحث الرابع عشر
في شهادة غير المسلمين بعموم دعوة الاسلام

أثبت المستشرق (سيرتوماس ارنولد) أن رسالة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم عامة ، وأنها لم تكن مقصورة على بلاد العرب ، بل انها للعالم بأجمعه وقال : انه اذا لم يكن في الوجود الا اله واحد تعين أن يكون الدين الذى يدعى اليه الناس واحد ،

بقول المذكور تحت عنوان (الاسلام دين عالمى) .

(وفى القرآن آيات كثيرة توجه الانظار الى منشأ هذا الشعور القومى ، وتحث أهل بلاد العرب على ادراك مامنحوه من فضل بنزول الوحى الالهى بلغتهم ، وعلى لسان واحد منهم ، ثم ذكر الآيات الدالة على أن القرآن نزل بلسان عربى مثل قوله تعالى :

(انا جعلناه قرأنا عربيا لعلكم تعقلون) (١) وقوله تعالى :

(وكذلك أوحينا اليك قرأنا عربيا لتنذر أم القرى ومن حولها .) (٢) وقوله تعالى :

(قرأنا عربيا غير ذى عوج لعلهم يتقون) (٣) ... وقد عدد آيات كثيرة ... الى أن قال : ولم تكن رسالة الاسلام مقصورة على بلاد العرب بل ان للعالم أجمع نصيبا فيها ، ولما لم يكن هناك غير اله واحد كذلك لا يكون هناك غير دين واحد يدعى اليه الناس

---

١) آية ٣ من سورة الزخرف

٢) جزء من آية ٧ من سورة الشورى

٣) آية ٢٨ من سورة الزمر

كافة ، ولكن تكون هذه الدعوة عامة وتحدث أثرها المنشود فى جميع الناس ، وفى جميع الشعوب نراها تتخذ صورة عملية فى الكتب الى قيل ان محمدا (صلى الله عليه وسلم بعث بها فى السنة السادسة من الهجرة ٦٢٨ م الى عظماء ملوك ذلك العصر (١)

---

١) يشير بهذا الى الكتب التى كتبها رسول الله صلى الله عليه وسلم الى عظماء البلدان فقد كتب ستة كتب فى يوم واحد : كتب الى النجاشى ملك الحبشة كتابا مع عمرو بن امية الضمرى

- وليس بالنجاشى الذى صلى عليه رسول الله عليه وسلم بالمدينة بعد موته . كما رجح ذلك ابن القيم فى كتابه زاد المعاد معتمدا على ما فى صحيح مسلم من حديث قتادة عن أنس قال :

(كتب رسول الله صلى الله عليه وسلم : الى كسرى ، والى قيصر ، والى النجاشى ، وليس بالنجاشى الذى صلى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم) الحديث فى مسلم فى كتاب الجهاد جـ٣ ص ١٣٩٧ المصدر السابق ، ثم قال أى ابن القيم وقال أبو محمد بن حزم أن هذا النجاشى الذى بعث اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم عمرو أبن أمية الضمرى لم يسلم ، وقال ان القول بأنه هو الذى صلى عليه الرسول صلى الله عليه وسلم : قول ابن سعد وغيره ، وأن الظاهر قول ابن حزم ، وبعث دحية الكلبى الى قيصر ملك الروم وهم بالاسلام وكاد ولم يفعل ، وبعث عبد الله بن حزافة السهمى الى كسرى ، وبعث حاطب بن أبى بلتعة الى المقوقس ملك الاسكندرية عظيم القبط وأهدى الى النبى صلى الله عليه وسلم هدايا من جملتها مارية سريته المعروفة وبغلته الشهباء دلدل ، وبعث شجاع ابن وهب الاسدى الى الحارث بن أبى شمر الغسانى ملك البلقاء ، قاله ابن اسحاق والواقدى ، وقيل انما توجه لجبلة بن الايهم ، وقيل

وفى هذه السنة أرسل الرسول الى هرقل قيصر الروم - والى كسرى فارس ، والى حاكم اليمن والى حاكم مصر ، والى النجاشى ، وقد (١) قيل ان الكتاب الذى ارسله الى هرقل كان كما يلى ،

(بسم الله الرحمن الرحيم من محمد بن عبد الله ورسوله الى هرقل قيصر الروم .

السلام على من اتبع الهدى ، أما بعد أسلم تسلم وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين وان تتولى فان اثم الاكارين عليك يأهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون)

وتدل هذه الكتب دلالة أكثر وضوحا وأشد صراحة على ماتردد ذكره

توجه لهما معا ، وبعث سليط بن عمرو الى هوذة ابن على الحنفى باليمامة ، وقيل بعثه الى هوذة والى ثمامة بن أثال الحنفى فأسلم ثمامة ولم يسلم هوذة ، فهؤلاء الستة هم الذين بعثهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فى يوم واحد ، وبعث غيرذلك من الرسل انظر زاد المعاد فى هدى خير العباد لابن القيم جـ ١ ص ٤٥ - ٤٦ ط مصطفى البابى الحلبى وأولاده بمصر .

ولعل هذه القصة هى التى سيشير لها الكاتب قريبا وهى أن الرسول قال لأصحابه وافونى بأجمعكم .. الخ القصة الآتية ، وذكر البلاذرى فى كتابه أنساب الأشراف جـ ١ ص ٥٣١ أن هذه الكتب فى سنة سبع وان ذلك أثبت من قول من قال انها فى سنة ست

(١) عبر بصيغة التمريض (قيل) مع ان صورة الكتاب فى أعلى درجات الصحة لأنها فى البخارى ومسلم وغيرهما فقد رواها البخارى فى كتاب بدء الوحى أول صفحاته ، ومسلم فى كتاب الجهاد فى باب كتاب النبى صلى الله عليه وسلم الى هرقل يدعوه الى الاسلام . وسيأتى ان شاء الله .

فى القرآن من مطالبة الناس جميعا بقبول الاسلام كما قال الله تعالى :
(ان هو الا ذكر للعلمين) وقال تعالى : (تبرك الذى نزل الفرقان
على عبده ليكون للعلمين نذيرا) وذكر عددا من الآيات التى تقدم
ذكرها .. الى أن قال : وانما يعبر به النبى (صلى الله عليه وسلم)
فى تلك الآيات من مطالبة البشرية كلها بارتضاء الاسلام دينا ليزداد
وضوحا فى قول محمد (صلى الله عليه وسلم) منبئا أن بلالا أول ثمار
الحبشة وأن صهيبا أول ثمارة الروم (١) وهكذا صرح الرسول
(صلى الله عليه وسلم) بكل وضوح وجلاء أن الاسلام ليس مقصورا على
الجنس العربى قبل أن يدور بخلد العرب أى شىء يتعلق بحياة الفتح
والغزو بزمن طويل ، ثم ذكر ما يؤيد كلامه فى عموم رسالة نبينا صلى
الله عليه وسلم بارساله بعوثه الى كل الشعوب للدعوة الى الاسلام
فذكر أنه قال لأصحابه يوما : وافونى بأجمعكم بالغداة ، وكان اذا
صلى الفجر جلس فى مصلاه يسبح ويدعو ثم التفت اليهم فبعث بعوثا
وقال لهم : انصحوا الله فى عباده ، فانه من استرعى شيئا من أمور الناس
ثم لم ينصح لهم حرم الله عليه الجنة ، انطلقوا ولا تصنعوا كما صنعت
رسل عيسى ابن مريم فانهم أتوا القريب وتركوا البعيد ... ويؤيد
دعوى عموم الرسالة والحق فى المطالبة بأن يستجيب لها جميع الناس
أن الاسلام كان الدين السماوى الذى اختاره الله للجنس البشرى
كافة ، ثم أوحى به اليهم من جديد على لسان محمد (صلى الله عليه وسلم)
خاتم النبيين كما أوحى به من قبل على لسان غيره من الرسل ، ثم بدأ

---

١) الدعوة الى الاسلام كتاب سيرتوماس ترجمة د حسن ابراهيم . عبد المجيد
عابدين . اسماعيل النحراوى ص ٥٠

بذكر الآيات الدالة على وحدة الدين الاسلامى ، وتوحيد دعوة الرسل ، وأن الناس كانوا امة واحدة فأختلفوا بعد ذلك ، وأن مايدعو اليه هذا الرسول هو عين ماكان يدعو اليه من قبله من الرسل وأن نبينا صلى الله عليه وسلم لم يكن بدعا من الرسل ، وأنه أمر باتباع ملة ابراهيم الخليل (١) هذا ما شهد به المستشرق (سيرتوماس) شهد بعموم رسالة نبينا صلى الله عليه وسلم وأقام عليها الادلة النقلية والعقلية ، وشهد شاهد من أهلها .

تطبيق العموم بالغزو بعد ارسال الرسل

ان نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم لما أرسله الله الى الخلق كافة بدأ فى تبليغ هذه الرسالة للناس فبدأ يدعو قريشا مدة طويلة من الزمن ثم هاجر الى المدينة ودعا أهلها ومن حولهم من الناس ، ثم أرسل الرسل والكتب الى ملوك وعظماء البلاد خارج الجزيرة العربية كما تقدم ،

ولم يكتف بهذا أيضا بل أرسل جيشا من أصحابه الى الشام للجهاد فى سبيل الله ووقعت غزوة مؤتة المشهورة بين المسلمين والروم والعرب المتنصرة ،

ثم خرج هو بنفسه بعد ذلك فى غزوة تبوك يريد ابلاغ الدعوة واعلاء كلمة الله تعالى قاصدا الروم حتى بلغ تبوك . وسأذكر لك نبذة موجزة عن هاتين الغزوتين ان شاء الله يتضح لك من خلال الكلام عليهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم عمل فى حياته بمقتضى عموم دعوته ، وأنه لم يقتصر على العرب ولا على بلاد العرب ، وأن القول بذلك كذب وضلال .

---

(١) أنظر الدعوة الى الاسلام سيرتوماس ص ٥٠ - ٥١ المصدر السابق

((غزوة موتة))

بعث صلى الله عليه وسلم سنة ثمان من الهجرة فى جمادى الأولى جيشا من أصحابه الى الشام لدعوة الروم الى الاسلام وقتالهم ان لم يؤمنوا وأمر على الجيش زيد بن حارثه وقال لهم ان أصيب زيد فجعفر ابن أبى طالب أميركم ، فان قتل فعبد الله بن رواحة أميركم ، (١) وروى البخارى عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نعى زيدا وجعفرا وابن رواحة للناس قبل أن يأتيهم خبر فقال : (أخذ الراية زيد فأصيب ، ثم أخذها جعفر فأصيب ، ثم أخذها ابن رواحة فأصيب وعيناه تذرفان حتى أخذ الراية سيف من سيوف الله حتى فتح الله عليهم) (٢) ومضى الجيش ونزل بأرض الروم فبلغهم أن هرقل قد نزل (مآب من أرض البلقاء فى مائة ألف من الروم وانضم اليه من لخم ، وجزام ، والقين ، وبهراء ، وبلي . مائة ألف هكذا ذكر ابن اسحاق ، وقيل ان الروم مائتا ألف ، وغيرهم خمسون ألفا ، وأقل ماقيل ان الروم مائة ألف والعرب المنتصرة خمسون الفا حكاه السهيلى ، . . . ثم دنت الروم ، وانحاز المسلمون الى قرية موتة ، فالتقى الجمعان فأخذ زيد الراية فقاتل حتى قتل ، ثم أخذها جعفر فقاتل حتى قتل ، ثم أخذها عبد الله بن رواحة فقاتل حتى قتل ، ثم أخذها خالد بن الوليد فقاتل حتى نصر الله المسلمين على يديه كما يقتضيه قوله صلى الله عليه وسلم فى رواية البخارى : (حتى أخذ الراية سيف من سيوف الله حتى فتح الله عليهم ، وهى رواية الواقدى ، وموسى بن عقبة ، خلافا لظاهر

---

١) رواه البخارى فى كتاب المغازى فى باب غزوة موتة

٢) رواه البخارى أيضا فى كتاب المغازى فى غزوة موتة

روايات ابن اسحاق فانها انما تدل على ان خالدا انحاز بالمسلمين حتى تخلصوا من الروم وهرب النصارى فقط ورجح الحافظ البيهقى رواية الواقدى وموسى بن عقبة انتهى ملخصا من السيرة النبوية للحافظ ابن كثير (١)

((غزوة تبوك))

خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه قاصد الروم فى بلاد الشام سنة تسع من الهجرة فى شهر رجب فى شدة الحر وفى زمن العسرة وطلب من أصحابه أن يخرجوا معه وكان ذلك فى حر شديد وضيق من الحال وخرج معه نحو ثلاثين ألف رجل ، ولما أراد الخروج حث أهل الغنى على الانفاق ، وكان لعثمان بن عفان الموقف الذى لم يكن لأحد سواه فى تلك الغزوة فقد جهز ثلاث مائة مقاتل حيث جاد بثلاث مائة بعير بأحلاسها ومعها ألف دينار وقال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، (ما على عثمان ماعمل بعد هذا) وسار صلى الله عليه وسلم حتى وصل تبوك ، فلما وصلها علم به الروم وأرسل صلى الله عليه وسلم كتابا الى (هرقل) ولما وصله دعا قسيسى الروم وبطارقتها وأغلق عليهم الابواب وأخبرهم أن الرسول صلوات الله وسلامه عليه خيره بين ثلاث خصال أن تؤمن ، أو تعطى الجزية والارض أرضنا ، أو نلقى اليه الحرب ، والله انكم لقد عرفتم فيما تقرؤن من الكتب ليأخذن أرضنا شهلم فلنتبعه على دينه ، أو نعطيه مالنا على أرضنا ، فأبوا وقالوا : تدعونا الى أن نذر النصرانية ، أو نكون عبيدا لاعرابى جاء من الحجاز فلما علم تصليبهم

---

(١) جـ ٣ ص ٤٥٥ - ٤٦٨ تحقيق مصطفى عبد الواحد ط دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع .

لهم قال لهم : انما قلت لكم ذلك لاعلم صلابتكم على أمركم .

وقد قدم عليه صلى الله عليه وسلم وهو بتبوك (يحنة بن روءبة صاحب أيلة فصالحه ، وأعطاه الجزية ، وأتاه أهل (جرباء) و (أذرح) فأعطوه الجزية ، وكتب لهم كتابا فهو عندهم ، وصورة كتابه ليحنة بن روءبة ، وأهل أيلة :

(بسم الله الرحمن الرحيم ، هذه أمنة من الله ومحمد النبى رسول الله ليحنة بن روءبة وأهل أيلة سفنهم وسيارتهم فى البر والبحر ، لهم ذمة الله وذمة محمد النبى ومن كان معهم من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر فمن أحدث منهم حدثا فانه لا يحول ماله دون نفسه وانه طيب لمن أخذه من الناس ، وانه لا يحل أن يمنعوا ماء يردونه ، ولا طريقا يردونه من برأ وبحر .

ثم بعث صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد الى (أكيدر دومة الجندل) وهو : أكيدر بن عبد الملك رجل من بنى كندة ملكا عليها وهو نصرانى فخرج اليه خالد فلقيه يصطاد الوحش فى الليل هو وأخوه فقتل خالد أخاه وأسره هو ، وقدم به على رسول الله صلى الله عليه وسلم ولما قدم عليه حقن له دمه وصالحه على الجزية وخلى سبيله فرجع الى قريته .

قال ابن اسحاق فأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بتبوك بضع عشرة ليلة لم يجاوزها ، ثم انصرف قافلا الى المدينة . أنتهى ملخصا من السيرة النبوية للحافظ ابن كثير (١) .

---

(١) جـ ٤ ص ٣ - ٣٢ المصدر السابق

قلت : ان فى خروجه صلى الله عليه وسلم من المدينة فى شدة من الحر وضيق من الحال قاصدا بلاد الروم ودعوته لهم الى الايمان بالله ورسوله ، وعقده للصلح بينه وبين كثير منهم وأخذه منهم الجزية إن فى هذا كله دليلا واضحا على أن دعوته عامة وليست بخاصة كما يزعمه بعض أعداء الاسلام من اليهود والنصارى وغيرهم ، وكذلك أيضا أرساله قبل ذلك جيشا من أصحابه الى بلاد الروم حتى وصلوا موءتة وقاتلوا الروم هناك وأستشهد منهم كثير فى سبيل الله كل هذا فعله صلى الله عليه وسلم تطبيقا لامر الله جل وعلا بقوله له : يأيها الرسول بلغ ما أنزل اليك من ربك وان لم تفعل فما بلغت رسالته ...) (١)

وسوف أذكر لك نبذة قليلة عن سبب هاتين الغزوتين لتستدل به على أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يجعل السيف أولا هو الوسيلة لنشر الاسلام .

غزوة موءتة

كان سببها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث الحرث بن عمير الازدى أحد بنى لهب بكتابه الى الشام الى ملك الروم ، أو بصرى فعرض له شرحبيل بن عمرو الغسانى فأوثقه رباطا ثم قدمه فضرب عنقه فأشتد ذلك عليه صلى الله عليه وسلم حين بلغه الخبر فبعث بعث موءتة . (٢)

---

١) جزء من آية ٦٧ من سورة المائدة

٢) انظر زاد المعاد لابن القيم جـ ٢ ص ١٧٣ ط شركة ومطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده بمصر مراجعة وتقديم طه عبد الروءوف طه

أما سبب غزوة تبوك فقال ابن القيم - وابن سيد الناس فى عيون الاثر:

وذكر ابن سعد قال : بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الروم قد جمعت جموعا كثيرة بالشام وأن هرقل قد رزق أصحابه لسنة ، وأجلبت معه لخم وجذام ، وعاملة ، وغسان ، وقدموا مقدماتهم الى البلقاء . (١)

وينبغى لنا أن نبادر بالقول الى أنه صلى الله عليه وسلم فى هاتين الغزوتين وماسواهما من سائر الغزوات لم يكن معتديا ولا ظالما ، وانما صنع ماصنع بعد أن اعتدى الروم وغيرهم على المسلمين .

---

(١) زاد المعاد جـ ٣ ص ٣ المصدر السابق . وعيون الاثر فى فنون المغازى والشمائل والسير لابن سيد الناس جـ ٢ ص ٢٠٦

(المبحث الخامس عشر)

فى تطبيق المسلمين لعالمية دعوة الاسلام

تقدم الكلام على النصوص الدالة على عالمية رسالة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم كما تقدم الاستدلال على تطبيق الرسول صلى الله عليه وسلم لعموم تلك الرسالة فى حياته وهى : كتبه التى أرسل الى ملوك وعظماء البلاد خارج جزيرة العرب ، ككتابه لقيصر ، وكتابه لكسرى ، والنجاشى ، وغير ذلك وغزوة مؤتة ، وتبوك كما تقدم قريبا والآن هل انقطع تطبيق عموم الرسالة بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم أولا ؟ .

والجواب : لم ينقطع ذلك ، بل تزايد وتضاعف ولنذكر لك من ذلك أمثلة حية .

تنفيذ جيش أسامة .

أن أول خليفة للمسلمين وهو أبو بكر الصديق رضى الله عنه نفذ الجيش الذى توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عازم على ارساله الى بلاد الشام على الرغم من معارضة بعض أكابر الصحابة لذلك بسبب الاضطراب فى بلاد العرب ، ولكن الخليفة أصر على انفاذ ذلك الجيش وقال : أنى لا أرد قضاء قضى به رسول الله صلى الله عليه وسلم فأبو بكر رضى الله لما بويع بالخلافة جمع الناس فقال : ليتم بعث أسامة ، والحال أن العرب قد ارتدت فى جميع أطراف الجزيرة ، وظهر النفاق وعدت النصارى واليهود أعناقهم ، والمسلمون فى ذلك الوقت فى ظروف حرجة بسبب موت نبيهم صلى الله عليه وسلم وارتداد العرب ، وقلتهم وكثرة

أعداءهم فقال الناس حينئذ لأبي بكر ان هؤلاء جل المسلمين والعرب على ما ترى قد انتقضت بك فليس ينبغي لك أن تفرق عنك جماعة المسلمين ، فقال أبو بكر رضي الله عنه : (والذي نفس أبي بكر بيده ، لو ظننت أن السباع تخطفني لأنفذت بعث أسامة كما أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولو لم يبق في القرى غيري لأنفذته ، فخرج الجيش مع أسامة وحبس أبو بكر رضي الله عنه من بقي من تلك القبائل التي كانت لهم الهجرة في ديارهم فصاروا مسالح (١) حول قبائلهم وهم قليل ، وكان من جملة الذين هيأهم رسول الله صلى الله عليه وسلم للذهاب تحت امرة أسامة : عمر بن الخطاب وغيره من كبار الصحابة مهاجرين وأنصارا . ولما صمم أبو بكر على انفاذ الجيش قال الأنصار لعمر بن الخطاب أذهب الى أبي بكر وقل له ان أبيت الا أن نمضي فول علينا رجلا أقدم سنا من أسامة فخرج عمر وأخبر أبا بكر الخبر فقال أبو بكر : لو خطفتني الكلاب والذئاب لم أرد قضاء قضى به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم أخذ بلحية عمر وقال له ثكلتك أمك وعدمتك يابن الخطاب استعمله رسول الله صلى الله عليه وسلم وتأمرني أن أنزعه فرجع اليهم وأفهمهم ألا سبيل الى تغيير أي أمر ، وخرج أبو بكر حتى أتاهم وودعهم وأوصاهم ألا يخونوا وألا يغلوا ولا يغدروا ولا يمثلوا ، ولا يقتلوا طفلا صغيرا ولا شيخا كبيرا ولا امرأة . . . وطلب من أسامة عمر (٢) قال : ان رأيت أن تعينني بعمر فأذن له . فحرص أبي بكر رضي الله عنه على تنفيذ بعث أسامة الى بلاد الشام ماهو الا نوع من تطبيق عموم هذه الرسالة

---

(١) مسالح جمع مسلحة وهي : قوم ذو سلاح ، وتقال للثغر . المختار الصحاح ص ٣٠٨

(٢) انظر تاريخ الطبري جـ ٣ ص ٢٢٦ ط الثانية دار المعارف بمصر

النبوية ، وقد كان انفاذ هذا الجيش أول سلسلة من الجيوش التى بعث بها الخلفاء الراشدون ومن بعدهم حتى فتحوا بلاد الفرس ، والشام ومصر ، وافريقية ، وبعض بلاد أوربا كما فتحوا بلاد السند وغير ذلك ، فأدخلوا دولة الفرس القديمة فى الاسلام ، واستولوا على بلاد الاسبان ، وملكوا بلاد الشام فلولا أن هؤلاء المسلمين يعتقدون أنه يجب عليهم أن يطبقوا ماتضمنه عموم دعوة الاسلام لما أتعبوا أنفسهم وجادوا بها للموت ، واكتفوا بجزيرة العرب حيث كانت خاضعة لهم بلا منازع بعد انتهاء معارك أهل الردة ، ولكنهم لم يكتفوا بذلك .

هذا ومع تطبيقهم لعموم الرسالة عمليا لم يتركوا سماحة الاسلام وعطفه حيث لم يجعلوا السيف وحده هو الوسيلة لدخول الناس فى هذا الدين ونشره بين الشعوب الوثنية والمسيحية بل جعلوه من ضمن وسائل الدعوة ونشر الاسلام اذ الم يجدوا عنه معدلا فالرسول صلى الله عليه وسلم كان اذا أرسل جيشا أمر عليه أحد أصحابه وأوصاه بأن يخير العدو بين خصال ثلاث : اما أن يسلموا ويدخلوا فى الاسلام مع المسلمين فيكون لهم ماللمسلمين ، وعليهم ما على المسلمين .

٢- واما أن يعطوا الجزية ويبقوا على كفرهم .

٣- وأما أن يقاتلهم

فاستعمال السيف كان المرحلة الاخيرة ، وأصحاب النبى صلى الله عليه وسلم كانوا هكذا مقتدين به لأنهم أحرص الناس على اتباعه .

ويدل لما ذكرت حديث مسلم الثابت فى صحيحه .

(أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان اذا أمر أميرا على جيش أو سرية

أوصاه فى خاصته بتقوى الله ، وبمن معه من المسلمين خيرا ثم قال : اغزوا على اسم الله فى سبيل الله قاتلوا من كفر بالله ، اغزوا ولا تغلوا ، ولا تغدروا ، ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا وليدا ، واذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم الى ثلاث خصال فأيتهن أجابوك اليها فاقبل منهم وكف عنهم ، ادعهم الى الاسلام فان أجابوك فاقبل منهم ، ثم ادعهم الى التحول من دارهم الى دار المهاجرين ، فان أبوا فأخبرهم بأنهم يكونون كأعراب المسلمين ، ولا يكون لهم فى الغنيمة والفىء شىء ، الا أن يجاهدوا مع المسلمين ،

٢ فان هم أبوا فسألهم الجزية ، فان هم أجابوك فاقبل منهم .

٣ فان أبوا فاستعن عليهم بالله تعالى وقاتلهم ، واذا حاصرت أهل حصن فأرادوا أن تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه فلا تفعل ، ولكن اجعل لهم ذمتك فانكم ان تخفروا ذممكم أهون من أن تخفروا ذمة الله ، واذا أرادوك أن تنزلهم على حكم الله فلا تفعل بل على حكمك فانك لا تدرى أتصيب فيهم حكم الله أو لا ؟ (١)

فترى السيف كان آخر مرحلة من مراحل الدعوة كما فى هذا الحديث اذ لابد قبله من الدعاء الى الاسلام عن طريق المسالمة ، ثم بعد ذلك يصار الى صيانة الانفس بالمال الذى هو الجزية فاذا لم يكن الا × الا سنة مركب تعين السيف عند ذلك . فهذه الآداب التى تبرهن على سماحة الاسلام ، والتى كان الرسول صلى الله عليه وسلم يوصى بها أصحابه حيث كان يوصيهم ألا يغلوا ، ولا يغدروا ولا يقتلوا النساء ولا الشيوخ ،

---

١) أخرجه مسلم فى كتاب الجهاد فى باب تأمير الامام الامراء على البعوث .... الخ جـ ٣ ص ١٣٥٧ - ١٣٥٨ المصدر السابق .

ولا المنقطعين فى الصوامع للعبادة ، كل هذه الآداب سلكها أصحابه من بعده فى نشرهم لدعوة الاسلام كما تقدم فى وصية أبى بكر لأسامة فانه أوصاه بما تضمنه الحديث من عدم الغدر . . . الخ وكذلك سلك هذا المنهج بعدهم تابعوهم ، وتابعوا تابعيهم ، وقد كانت هذه السماحة سببا رئيسيا فى ادخال كثير من الناس مسيحيين وغير مسيحيين فى الاسلام كما شهد بذلك المسيحيون أنفسهم .

يقول : (سيرتوماس ارنولد) : ويمكننا أن نحكم من الصلاة الودية التى قامت بين المسيحيين والمسلمين من العرب بأن القوة لم تكن عاملا حاسما فى تحويل الناس الى الاسلام ، فمحمد (صلى الله عليه وسلم) نفسه عقد حلفا مع بعض القبائل المسيحية ، وأخذ على عاتقه حمايتهم ، ومنحهم الحرية فى اقامة شعائرهم الدينية ، كما أتاح لرجال الكنيسة أن ينعموا بحقوقهم ونفوذهم القديم فى أمن وطمأنينة .

وقد وجد حلف كهذا بين أتباع النبى (صلى الله عليه وسلم) وبين مواطنيهم الذين كانوا يدينون بالوثنية : دينهم القديم ، والذين تقدم كثير منهم عن طواعية لمؤازرة المسلمين فى حملاتهم الحربية ، وأظهروا للحكومة الجديدة نفس روح الولاء التى جعلتهم يقفون بمنأى عن الردة التى رفعت لواء العصيان فى كافة أرجاء بلاد العرب على أثر وفاة الرسول (صلى الله عليه وسلم) (١)

ثم قال أيضا : مؤيدا استعمال أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم لجانب [illegible] وسماحة الاسلام : وأن المسيحيين يعلمون أن ذلك من شأن المسلمين .

---

١) الدعوة الى الاسلام ص ٦٥ - ٦٦ المصدر السابق .

قال فى شأن فتح العرب بلاد الشام وفلسطين ،

ان المسيحيين حين علموا أن أبا عبيدة وصل الاردن كتب عند ذاك المسيحيون فى تلك البلاد الى العرب المسلمين يقولون : يامعشر المسلمين أنتم أحب الينا من الروم وان كانوا على ديننا ، أنتم أوفى لنا ، وأرأف بنا ، وأكف عن ظلمنا وأحسن ولاية علينا ، ولكنهم ظهروا على أمرنا ، وعلى منازلنا ، وظلق أهل حمص أبواب مدينتهم دون جيش هرقل ، وأبلغوا المسلمين أن ولايتهم وعدلهم أحب اليهم من ظلم الاغريق وتعسفهم . (١)

وقال فى كلام آخر بعد ان ذكر بعض ماوقع من الاضطهادات بين الطوائف غير المسلمين كما وقع بين الطائفة النسطورية ، والكنيسة الارثوذكسية وذكر أن عددا ضخما من رجال الكنيسة الارثوذكسية يبلغ ٧٨٠٠ مع عدد ضخم من العلمانيين قد ذبحوا فى هذا الاضطهاد بسبب اغراء (برصوما) أسقف نسطورى ملك الفرس بأن دبر لهم ذلك ، ثم قال : ولكن مبادى التسامح الاسلامى حرمت مثل هذه الاعمال التى تنطوى على الظلم ، بل كان المسلمون على خلاف غيرهم اقد يظهر لنا أنهم لم يألوا جهدا فى أن يعاملوا كل رعاياهم من المسيحيين بالعدل والقسطاس . مثال ذلك أنه بعد فتح مصر استغل اليعاقبة فرصة اقصاء البزنطيين ليسلبوا الارثوذكس كنائسهم ، ولكن المسلمين أعادوها لهم بعد أن أثبتوا ملكيتهم لها . واذا نظرنا الى التسامح الذى أمتد على هذا النحو الى رعايا المسلمين من المسيحيين فى صدر الحكم

---

١) الدعوة الى الاسلام ص ٧٣ المصدر السابق .

الاسلامى ، ظهر أن الفكرة التى شاعت بأن السيف كان العامل فى تحويل الناس الى الاسلام بعيدة عن التصديق . (١)

ثم ذكر فى موضع آخر من كتابه مايؤيد أن دخول الكثيرين من المسيحيين فى الاسلام لم يكن عن قهر ولا شدة وطأة عليهم ، ولكن عن رغبة منهم فى الاسلام لما رأوا سماحته ، ولما كانوا يلاقونه من الاضطهادات والتعذيب قبل الدخول فى الاسلام فذكر أن اليعاقبة (٢) الذين كانوا يكونون السواد الاعظم من سكان مصر من المسيحيين كانوا يلاقون من الحكم البيزنطى معاملة مجحفة سيئة فقد كان الارثوذكس يعاملون القبط اليعاقبة معاملة لا نظير لها فى البشاعة حتى بذروا فى أنفسهم السخط والحنق عليهم ، وفى نفوس أعقابهم الى الآن فقد كان بعضهم يعذب ثم يلقى به فى اليم وفضل كثير منهم المنفى لينجوا من أيدى المطهدين ، وأخفى عدد منهم عقائده الحقيقية وتظاهروا بقبول مجمع قرارات خلقيدونية . (٣)

وقد جلب الفتح الاسلامى الى هؤلاء القبط : ذلك اللفظ الذى يطلق على المسيحيين من اليعاقبة فى مصر حياة تقوم على الحرية الدينية التى لم ينعموا بها قبل ذلك بقرن من الزمان ، فقد تركهم عمرو أحرارا على

---

١) الدعوة الى الاسلام سير توماس ص ٨٧ - ٨٨

٢) نسبة الى يعقوب البرادعى الذى يقول : ان للمسيح طبيعة واحدة هو كذا بذلك مذهب بطريكية الاسكندرية انظر محاضرات فى النصرانية لابى زهرة ص ١٤٨

٣) هو الذى قرر أن للمسيح طبيعتين مخالفا بذلك مجمع اقسس الثانى الذى تبنته كنيسة الاسكندرية القائلة بالطبيعة الواحدة انظر المصدر السابق ص ١٤٥

على أن يدفعوا الجزية ، وكفل لهم الحرية فى اقامة شعائرهم الدينية ولم يضع يده على شىء من ممتلكات الكنائس ولم يرتكب عملا من أعمال السلب والنهب . . . . وليس هناك شاهد من الشواهد يدل على أن ارتداد هم عن دينهم القديم ودخولهم فى الاسلام على نطاق واسع كان راجعا الى اضطهاد أو ضغط يقوم على عدم التسامح من جانب حكامهم المحدثين ، بل قد تحول كثير منهم الى الاسلام قبل أن يتم الفتح الى غير ذلك مما ذكره من محاسن الاسلام وتسامح أهله وعدم قهرهم للناس وأن الكثير من الناس دخل فى الاسلام عن طواعية ورغبة لا عن قهر بالسيف واجبار ، بل لما رأوا فيه من التسامح والتعاطف والتراحم وغير ذلك . (١)

فتراه أثبت فى كلامه هذا والذى قبله سماحة الاسلام ، وعدم انتشاره بالقوة ، ورد على القائلين بأنه انتشر بالسيف بالأمور الواقعية التى يشهد بها التاريخ . وانما استدللنا بكلامه هذا لأنه لا يقول عن المسيحيين الا حقا : عند جهينة الخبر اليقين .

قلت : وما أتصف به (سير توماس هنا من الاتزان ووصف الاسلام بالسماحة والرحمة فانه قد وصفه فى أول كتابه بضد ذلك ، فقد لوح بذلك فى أول كتابه حيث قال : ينبغى أن يعلم القارىء منذ البداية أننا لم نضع هذا الكتاب لدراسة تاريخ الاضطهادات الاسلامية ، وانما وضعناه لدراسة الدعوة الاسلامية فى أنحاء العالم ، وليس الغرض أن نؤرخ هنا للحالات التى استعملت فيها القوة لادخال الناس فى الدين الاسلامى فقد عنى الكتاب الأولون ببيان هذه الحالات حتى لم يعد

---

(١) الدعوة الى الاسلام سير توماس ص ١٢٣ - ١٢٤

ثمت خوف لاغفالها (١) فتأمل هذا التناقض أيها القارىء فان صاحبه مع مايتسم به من الاتزان لابد وأن يبدو للاسلام مايشكك فيه أهله.

ثم ذكر سيرتوماس فى كلامه على الهجرة الى المدينة وعلى تحويل القبلة كلاما برهن فيه على أن ذلك كله حركة قومية تستهدف باستقلال العرب بوجهتهم الى بيتهم القديم ، وكأن الرسول زعيم ينادى بالحرية والاستقلال وذكر أن القصد من استقبال بيت المقدس أولا : استمالة اليهود ، وأن النبى صلى الله عليه وسلم حاول استرضاءهم بوسائل أخرى كثيرة فقد دأب على الاستشهاد بكتبهم ومنحهم الحرية التامة فى اقامة شعائرهم الدينية ولكنه لما أخفق فى اتباعهم له ، أمر صحابته أن يولوا وجوههم شطر المسجد الحرام ذكر هذا الكلام تحت عنوان : (الهجرة الى المدينة بداية الحياة القومية الى الاسلام) (٢) وهذا أيضا من تناقضاته ،

وقد رد عليه فضيلة الشيخ محمد الغزالى فى كتابه مع الله فقال فسى تفنيد هذه الفكرة الخاطئة مايكفينا عن الرد عليه ،

قال : وهذا الكلام من أوله الى آخره تخليط وشذوذ فان الاسلام لم يختص اليهودية بتلطفه واحسانه حتى يكون متهما فى أدبه مع هؤلاء القوم .

ان الاسلام سبق بالمباسرة والتحمل فى علاقاته مع عبدة الأوثان وأهل الكتاب جميعا ولم يحتج الى القتال الا بعد ما أخرجه العدوان وتهدد حياته .

---

١) الدعوة الى الاسلام ص ٣٠

٢) الدعوة الى الاسلام سيرتوماس ص ٤٧

أما القبلة الاولى فقد اتجه المسلمون اليها فى مكة قبل أن يعاشروا اليهود أو يكونوا معهم صلة ما ، وذلك طبعى فى دين يعترف بالنبوات القديمة ويصدق أصولها ويخالف الوثنية الضاربة فى أرجاء الجزيرة ، ويخاصم شركها ، فلما حقت كلمة الله على أهل الكتاب وهد امن مسلكهم ازاء الرسالة الجديدة أنهم مصرون على حربها وأنهم بهذه الحرب ينسلخون عن قواعد الدين التى جاء بها شيخ الانبياء ابراهيم صرف الله المسلمين عن القبلة التى تجمعهم مع اليهود والنصارى الى القبلة التى بنى ابراهيم نفسه أركانها وأقام معالمها .... والبيت العتيق ليس بناء عربيا يحج اليه جنس معين شاده لنفسه حتى يكون شارة عنصرية ، بل هو أثر الرجل الذى ينتمى اليه اليهود والعرب جميعا وتنسب الديانات الكتابية كلها اليه ، أثر ابراهيم الخليل صلوات الله وسلامه عليه ، ولكن المستشرقين يصبغون الحقائق بلون ينضح بتكلفهم للاسلام وتخيلهم العليل لحقيقة الرسالة الخاتمة (١)

كما رد فضيلة الشيخ محمد الغزالى أيضا عليه فى تناقضاته الاولى التى قال فيها : ان المسلمين استعملوا القوة لادخال الناس فى الاسلام فى أول كتابه وبعد ذلك ذكر مايخالف قوله ، ومن اراد الوقوف على رده عليه فليطالع كتاب (مع الله) ص ١٠٩ - ١١٠ فانه رد عليه هناك بمافيه الكفاية ويشفى الخليل .

مثال آخر :

لما كان فى السنة الثانية عشرة من الهجرة وانتهى قتال اهل الردة

---

(١) مع الله ص ١١٩ - ١٢٠ المصدر السابق .

فى اليمامة على يد خالد بن الوليد ومن معه من المسلمين كتب أبو بكر الصديق رضى الله عنه الى خالد بن الوليد ان سر الى العراق حتى تدخلها ، وتألف أهل فارس ومن كان فى ملكهم من الامم . فذهب خالد بمن معه من جيوش المسلمين حتى نزل الحيرة فخرج اليه أشرافها مع قبيصة بن اياس الطائى وكان أمره عليها كسرى بعد النعمان بن المنذر فقال لهم خالد : أدعوكم الى الله والى الاسلام فان أجبتم اليه فأنتم من المسلمين لكم مالهم وعليكم ماعليهم ، فان أبيتم فالجزية ، فان أبيتم الجزية فقد جئتكم بأقوام هم أحرص على الموت منكم على الحياة : جاهدناكم حتى يحكم الله بيننا وبينكم ، فقال له قبيصة بن اياس ، مالنا بحربك من حاجة ، بل نقيم على ديننا ونعطيك الجزية فصالحهم على تسعين ألف درهم (١) ثم سار خالد فى طريقه وتوالت الفتوحات وقامت المعارك بين جيوش المسلمين والفرس حتى فتح الله على أيديهم تلك البلاد .

وليس مرادى أن استقصى خبر الفتوحات العراقية ولا الشامية لان ذلك يخرجنى عن المقصود ، وانما قصدت بذلك أن أمثل لتطبيق أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم لعموم دعوته كما طبقها هو فى حياته فانهم لم يثنهم موته عن نشر دعوة الاسلام ودعوة جميع الشعوب الموجودة على وجه الارض لانهم كلما فتحوا بلدا واستقر فيه الاسلام زحفوا الى المكان الذى يليه حتى وصلوا بلاد السند والهند ، ووصلوا الاندلس فى أوربا وفتحوا الكثير من بلاد أفريقيا الى غير ذلك من البلاد .

---

(١) تاريخ ابن جرير الطبرى جـ ٢ ص ٥٥١ - ٥٥٢

كل هذا يدل على عموم رسالة نبينا صلى الله عليه وسلم وأنها شاملة لا تختص بزمان ولا بمكان .

يقول الأستاذ العقاد :

وتوصف العقيدة الاسلامية بالشمول لأنها تشمل الأمم الانسانية جميعا كما تشمل النفس الانسانية بجملتها من عقل وروح وضمير ، فليس الاسلام دين أمة واحدة ولا هو دين طبقة واحدة ، وليس هو للسادة المسلطين دون الضعفاء المسخرين ، ولا هو للضعفاء المسخرين دون السادة المسلطين ، ولكنه رسالة تشمل بنى الانسان من كل جنس وملة وقبيل . . . فهذه عقيدة انسانية شاملة لا تخص بنعمة الله أمة من الأمم لأنها من سلالة مختارة دون سائر السلالات لفضيلة غير فضيلة العمل (١) .

(٢)

الواقع يشهد بعموم رسالة محمد صلى الله عليه وسلم .

ان رسالة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم رسالة عامة شاملة من جميع

---

١) انظر حقائق الاسلام وأباطيل خصومه للعقاد ص ٣٢ - ٣٣

٢) قلت قول الاستاذ : لأنها تشمل الأمم الانسانية جميعا ، وقوله : ولكنه رسالة تشمل بنى الانسان من كل جنس وملة وقبيل الظاهر أن هذا الكلام يفهم منه قصر الرسالة النبوية على بنى الانسان خاصة ، وذلك ينافى ماقدمنا من حكاية الاجماع على شمولها للثقلين : الانس والجن ، وماقدمناه أيضا من الخلاف فى شمولها للملائكة ومامر من

النواحى لمصالح العباد فى معاشهم ومعادهم فى كل زمان ومكان وليست قاصرة على الجيل الذى بعث فيه صلى الله عليه وسلم ، وليست مقصورة على العرب دون غيرهم من سائر المخلوقات كما يشيع ذلك أعداء الاسلام ، فقد اشتملت على جلب المصالح للعباد ودرء الفاسد عنهم ، كما اشتملت على مكارم الأخلاق واتباع أحسن المناهج من التحسينات والتتميمات والسعادة لا تعدو هذه الأمور .

ومع هذا فان شريعة الاسلام مرنة فقد شملت كل ما يتصل بالعباد من عقيدتهم وعباداتهم ومعاملاتهم وسلوكهم وجميع شؤونهم فرادى ومجتمعين ، فمفعول الرسالة النبوية وقت ظهورها ونزولها على نبينا صلى الله عليه وسلم وتطبيقه لها ، وتطبيق أصحابه الكرام لها ، ذلك المفعول سار الى الآن لم يتغير بعد أربعة عشر قرنا ، وهذا أعظم دليل على عمومها وشمولها لأهل كل زمان ومكان حتى يرث الله الأرض ومن عليها .

---

(١) النصوص الدالة على ذلك من الكتاب والسنة كقوله تعالى :

(تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا)

وقوله تعالى :

(وما أرسلناك الا رحمة للعلمين)

وقوله صلى الله عليه وسلم : (.... وأرسلت الى الخلق كافة)

وتقدم هذا كله .

بيد أنى أقول بأن الاستاذ العقاد لم يلحظ هذا المعنى اذ لا أظنه يقول بقصرها على بنى الانس وحدهم .

فكان أول هدف من أهداف هذه الرسالة هو : الايمان باللـــه تعالى وتوحيده بانقاذ الناس من عبادة المخلوقين الى عبادة رب واحد خالق رازق ، والايمان بملائكته ، وكتبه ورسله ، وباليوم الآخـــر ، وبالقدر خيره وشره .

وكانت نتيجة هذا الايمان آنذاك هى نتيجته الآن ، وهى السعادة فى الدنيا والآخرة لأن الله جلت قدرته خلق هذا الخلق لا للمقام فى دار الدنيا بل جعلها له مرحلة عبور يعبر منها الى دار المقام الأبدى ، اما مقام جحيم ، واما مقام نعيم ، وجعل للمقام فى ذلك النعيم سلما يرتقى اليه منها ، وذلك السلم هو الايمان بالله وأنه خالق الكون ومدبر شؤنه ، وهو المتصرف فيه وهوالذى يحيى ويميت واليه النشور ، فاذا آمن العبد بهذا وعقد عليه القلب ، وآمن بملائكة الله الذيـن خلقهم وجعلهم عبادا مكرمين لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملـــون ، وآمن بالرسل لا يفرق بين واحد منهم وآخر ، وبكتب الله الذى أنزل على رسله ، وآمن باليوم الآخر ، وأنه يوم تجازى فيه النفوس بأعمالها ان خيرا فخيروان شرا فشر ، وآمن بالقدر خيره وشره ، وأن الامر كلـه من الله فمن آمن بهذا نال رضا الله وفاز بالنعيم المقيم لأن اللـــه وعد بذلك كل من آمن به من المؤمنين قديما وحديثا سواء فى عصر الرسالة أو الآن فى القرن الخامس عشر فمدلول الرسالة النبوية هـــو هو فمن آمن هذا الايمان المذكور الآن من اليهود أو النصارى ، أو المجوس أوغيرهم نال ذلك النعيم لأن الله وعد به كل من آمن به فى أى زمان وفى أى مكان ولن يخلف الله وعده فمدل هذا على انها رسالة عامة

شاملة من جميع النواحى .

وكذلك العبادات نتيجتها فى مطلع الرسالة سارية المفعول حتى الآن لم تتغير ولم تنسخ ، فالصلاة كانت ولم تزل هى عماد الدين ، وتنهى عن الفحشاء والمنكر ولم تزل صلة بين العبد وربه يناجيه فيها ويتقرب اليه فى يومه خمس مرات دون تطوعاته يناجيه طرفى النهار وزلفا من اليل ولم تزل هكذا دأبها تنهى كل مخلوق من خلق الله عن الفحشاء والمنكر ، كان تركها علامة على كفر صاحبها أو فسقه ، ولم يزل الأمر كذلك الى الآن مما يدل على مرونة هذه الشريعة التى جاءت بها رسالة خاتم الأنبياء وشمولها للازمنة والأمكنة ، ولسنا نريد التوسع فى الكلام على الصلاة وفضلها وفوائدها الكثيرة ولا التوسع فى غيرها من العبادات ، وانما أريد أن ألمح من خلال ذكرها الى مرونة هذه الشريعة السمحاء وعموم رسالة محمد صلى الله عليه وسلم .

وكذلك القول فى سائر العبادات : كالزكاة والصوم ، والحج فمن تأملها كلها علم أنها تدل على عموم هذه الرسالة النبوية وخلودها ومرونتها ودوام الحكمة منها لم تتغير أى حكمة من حكم العبادات من ذلك الزمن حتى الآن لا من حكم الصلاة ولا الزكاة ولا الصوم ، ولا الحج ولا الجهاد . (١)

وقال ابن القيم ... فلرسالته عمومان محفوظان لا يتطرق اليهما تخصيص :

عموم بالنسبة الى المرسل اليهم ، وعموم بالنسبة الى كل ما يحتاج اليه من بعث اليه فى أصول الدين وفروعه ، فرسالته كافية شافية عامة

---

(١) طالع الدعوة الاسلامية دعوة عالمية لمحمد الراوى ، ورسالة الاسلام للسيد عبد الحميد الخطيب فقد بسطا القول فى دلالة أركان الاسلام على عموم رسالة محمد صلى الله عليه وسلم .

لا تجوج الى سواها ولا يتم الايمان به الا باثبات عموم رسالته فى هذا وهذا ، فلا يخرج أحد من المكلفين عن رسالته ، ولا يخرج نوع من أنواع الحق الذى تحتاج اليه الامة فى علومها وأعمالها عما جاء به . (١)

مرونة الشريعة دلالة على عموم الرسالة

ان الشريعة والعقيدة متلازمتان لا تنفك احداهما عن الاخرى منذ أرسل الله الرسل وشرع الشرائع فكل رسول أرسله الله أمره بالدعوة الى العقيدة ، قال تعالى :

(وما أرسلنا من رسول الا نوحى اليه أنه لا اله الا أنا فاعبدون) (٢)

وقال تعالى :

(ولقد بعثنا فى كل امة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطغوت) (٣)

وكل رسول أرسله الله جعل له شرعة ومنهاجا كما قال تعالى :

(.. لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ...) (٤) وقد شملت شريعة محمد صلى الله عليه وسلم جميع الشرائع المتقدمة عليها وزادت وهيمنت عليها وأثبتت للناس جميع مصالحهم من كل ما يحتاجون اليه ، وذلك

---

١) انظر اعلام الموقعين جـ ٤ ص ٣٧٥ ط دار الفكر بيروت تعليق محمد محيى الدين عبد الحميد .

٢) تقدمت

٣) تقدمت أيضا

٤) جزء من آية ٤٨ من سورة المائدة .

لأنها لا شريعة بعدها فكان الزاما أن ترسم للناس دستورا يمشون عليه مدة حياتهم فلا بد أن تكون هذه الشريعة الأبدية كاملة مستوعبة لكل ماتتطلبه الحياة البشرية في مختلف اتجاهاتها وجوانبها من تنظيم واصلاح ، وقد نظمت هذه الشريعة للبشرية حياة سعيدة اجتماعية وسياسية واقتصادية على أكمل وأحسن الوجوه . . . .

والشريعة الاسلامية غير قابلة للتغيير ولا للتبديل ، ولا للتنقيح والتهذيب لأنها من عند من يعلم ماكان ومايكون وقد أحاط بكل شيء علما ، وتستمد قواعدها من كتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ،

فيه بيان كل شيء ، وتفصيل كل شيء ، ولا يمكن لأهل الأرض قاطبة من جميع نواحيها أن يغيروا جزئية واحدة من هذا التشريع ويأتوا بدل لها بما يخلفها ، كما لا يمكن أن يضيفوا اليها شيئا يجانسها ، وقد باء أهل القوانين الوضعية بالفشل حيث يضعون اليوم دستورا ويغيرونه غدا ، أو بعد غد ، ويضعونه صالحا لمدة معينة ويغيرونه قبل ذلك (. . ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا) (١) وليست هذه الشريعة قابلة للزيادة كما فعل النصارى بدياناتهم حيث يقررون عقيدة وشريعة في مجمع ثم لم يلبثوا الا قليلا حتى يقرروا مجمعا آخر ويزيدوا في تشريعهم ذلك وهلم جرا الى آخر مجامعهم الكثيرة ، فشريعة الاسلام مستوعبة ومتكاملة في جميع الميادين والاتجاهات ، ولا شك أننا نشاهد المجتمعات المعاصرة الآن التي تحكم بشريعة غير شريعة

---

١) جزء من آية ٨٢ من سورة النساء

الاسلام أصيبت بالفوضى والهمجية والانحلال ، وانتشرت فيها أنواع الظلم كالسرقات والنصب والقتل وجميع أنواع الاعتداءات ، وذلك نتيجة لجوء هذه المجتمعات الى تحكيم قوانين وضعية معرضة للتغيير والتبديل وكل ما غير منها جانب جيء بجانب أسوأ منه فأختل نظام الحياة وعمت الفوضى والاضطرابات اهـ (١)

---

١) طالع الدعوة الى الله خصائصها مقوماتها ، مناهجها د : أبو المجد السيد نوفل ص ١٠١ - ١٠٣ بتصرف .

(المبحث السادس عشر)
في أمثلة حيوية من التشريع الاسلامي

ان المصالح العامة للبشر كله تدور حول المحافظة على ستة أشياء:

١- الدين

٢- النفس

٣- العقل

٤- النسب

٥- العرض

٦- المال

وهذه الجواهر الستة حافظ عليها الاسلام محافظة كاملة يتبين منها عموم هذه الرسالة وشمولها لما يحتاجه العباد في كل زمان ومكان بحيث لا يحتاجون الى تشريع آخر وبين الحكمة في المحافظة عليها ، وأوجب درء المفاسد عنها .

أولا - الدين : فانه لما كان سببا في سعادة المرء امتثال أمر خالقه ولا تمكن الحياة السعيدة بدونه ، وكان الله لا يقبل من الأديان الا دين الاسلام فقد أقتضت حكمة التشريع الاسلامي صيانته والمحافظة عليه ، قال صلى الله عليه وسلم : (من بدل دينه فاقتلوه) (١)

وقال صلى الله عليه وسلم : (لا يحل دم امرىء مسلم يشهد أن لا اله الا الله وأني رسول الله الا باحدى ثلاث :

---

١) أخرجه البخاري في كتاب استتابة المرتدين .. في باب : اثم من أشرك بالله وعقوبته في الدنيا والآخرة .

الثيب الزانى ، والنفس بالنفس ، والتارك لدينه المفارق للجماعه) (١)

ثانيا : النفس فقد خلق الله جل وعلا عباده ليعبدوه وجعلهم شعوبا وقبائل ليتعارفوا وحرم عليهم دماءهم وأموالهم الا بحقها ولهذا اقتضى التشريع الاسلامى المحافظة على النفس بأحكم الطرق وأقومها الا وهى طريقة القصاص التى هى أعظم وسيلة لسلامة الانفس من القتل ، قال تعالى :

(ولكم فى القصاص حيوة ياأولى الالباب لعلكم تتقون) (٢)

فكل من هم بالقتل وتذكر أنه اذا قتل يقتل أشفق على نفسه من القتل فأحيا نفسه والذى كان يريد قتله .

ثالثا : العقل فلنه لماكان مناط التكليف وفى افساده مضرة عظيمة على الدين والدنيا أوجب الله تعالى حفظه فمنع شرب الخمر التى هى سبب فى افساده وجعل عليه عقوبة صارمة تمنع منه وهى : الحد فقد أوجب الله فى الاسلام الحد على شارب الخمر درءا للمفسدة عن العقول .

رابعا : النسب : من لطف الله بعباده أن جعل بينهم النسب والصهر ليعطف البعض على البعض ، وليتراحموا فلهذا حرم الله الزنا لئلا يبقى الاولاد من الزنا ضائعين تائهين لاعاطف عليهم ، ولا رحيم يرحمهم فاقتضت حكمة التشريع الالهى تحريم الزنا ولأجل المحافظة على الانساب جعل

---

١) أخرجه البخارى فى كتاب الديات فى باب قول الله تعالى : أن النفس بالنفس ... ومسلم فى القسامة جـ ٣ ص ١٣٠٢ المصدر السابق

٢) آية ١٧٩ من سورة البقرة

الله في الاسلام عقوبة صارمة على مرتكبه ربما أودت بحياته فلأجل هذه العقوبة حفظت الانساب ومنعت من الضياع والاختلاط .

خامسا : العرض فانه لماكان اغتياب المسلم والنيل منه وسبه ينافي الحكمة التي خلق لها الخلق حرم الله جل وعلا على العباد أعراضهم ، ومن أجل المحافظة عليها وصيانتها أوجب الاسلام على من قذف أخاه المسلم عقوبة صارمة هي الحد درءا للمفسدة عن الاعراض .

سادسا : المال أما المال فانه لماكان قوام الحياة وكان لا غنى للبشرية عنه حيث تقوم به حياتهم كما قال تعالى :

(ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قيما) (١)

أمر الله تعالى بالمحافظة عليه ، وحرم أكله بالباطل وحرم على المسلم القليل والكثير من مال المسلم الا برضاه ، ولأجل المحافظة على هذا القوام اقتضت حكمة الله في عباده أن يجعل عقوبة صارمة على من أخذ ربع دينار ذهبا أو ثلاثة دراهم فضة من مال أخيه المسلم خفية من حرز المثل ، ألا وهي قطع اليد درءا للمفسدة عن الاموال (٢) فالمتأمل في هذا التشريع السماوي ومنهجه وحكمه يعلم أنه تشريع من حكيم خبير صالح لكل زمان ومكان .

واذا قارنا بين أموال البلاد التي تدعي الحرية والديمقراطية وتحكم بالقوانين الوضعية وبين من يحكم شريعة

---

١) جزء من آية ٥ من سورة النساء

٢) انظر منهج التشريع الاسلامي وحكمته للشيخ محمد الامين الشنقيطي ص ٣٩ فما بعدها بتصرف واختصار .

الاسلام ويطبق الدستور السماوى الشامل لصالح الفرد والمجتمع الشامل لكل خير وسعادة : وجدنا فرقا شاسعا بين أولئك وهؤلاء فنجد أولئك لا يمكن لشخص أن يحصى جرائم الشهر ، بل وجرائم الأسبوع لأنهم لم يضعوا عقوبة صارمة تردع مرتكبى الجريمة عن فعلها كما هو نص الشريعة الاسلامية . فتبين أن شريعة الاسلام حيوية شاملة متكاملة .

(المبحث السابع عشر)

فى حكم من لم تبلغه دعوة الاسلام من هذه الأمة

مما لا شك فيه أن من لم تبلغه دعوة الاسلام ، ولم يرالنبى صلى الله عليه وسلم ولم يبلغه القرآن غير مؤاخذ بها ، لأن الله تعالى الحكم العدل لا يعذب العباد حتى يقيم عليهم الحجة بارسال الرسل اليهم وتبليغهم اياهم ، فمن أطاع سعد ، ومن أبى عذب وقامت عليه الحجة ، كما نطقت بهذا الآيات القرآنية بكثرة (كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير ، قالوا بلى قد جاءنا نذير ، فكذبنا وقلنا مانزل الله من شيء ان أنتم الا فى ضلل كبير) (١)

(رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل) (٢)

(... وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا (٣)

(وسيق الذين كفروا الى جهنم زمرا حتى اذا جاؤها فتحت أبوابها وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيت ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا) (٤)

وقد يرد هنا سؤال وهو : هل يشترط فى اقامة الحجة أن تبلغ الدعوة الناس على وجه مفصل صحيح ، أو يكفى مجرد اعلامهم برسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، وبلوغ القرآن لهم وانتشار المسلمين فى أقطار الدنيا ؟ .

---

١) آية ٩ وجزء من آية ٨ من سورة الملك

٢) جزء من آية ١٦٥ من سورة النساء

٣) جزء من آية ١٥ من سورة الاسراء

٤) جزء من آية ٧١ من سورة الزمر

وأقول : أما الذين بلغتهم دعوته صلى الله عليه وسلم على وجه مفصل صحيح سواء كانوا أهل كتاب أوغيرهم وعقلوها وفهموها فهما صحيحا وأعرضوا عنها ، فان هؤلاء حقت عليهم كلمة الكذاب بلا شك . وبقى من بلغته على وجه غير مفصل بحيث سمع أن محمد بن عبد الله رسول آخر الزمان أتى بشريعة نسخت جميع الشرائع وبلغه القرآن ، ورأى بعض المسلمين وقرأ تاريخهم ، هل تركه لله دخول فى الاسلام يجعله فى اعداد أهل النار أولا ؟ وهل اليهود والنصارى من كان منهم متمسكا بشريعته مؤمنا بالله واليوم الآخر مصدقا لنبيه موسى أوعيسى عليهما الصلاة والتسليم ويعمل الصالحات ينجيه ذلك أولا ؟

وقد تكلم فضيلة الشيخ محمد الغزالى فى كتابه (مع الله) على هذه المسألة فقال :

. . . . ونحن عندما نبحث أحوال الأمم الكثيفة التى لم تدخل الاسلام ، ونفكر فى مصيرها عند الله لابد أن نضع نصب أعيننا الحقائق التالية :-

١ - ان هناك ألوفا مؤلفة تعتبر فى حكم من لم تبلغه الدعوة أصلا ، وان مرت على بعثة الرسول (صلى الله عليه وسلم) صاحب الدعوة أربعة عشر قرنا . فهى : اما أن تجهل كل شىء عن محمد صلى الله عليه وسلم وقرآنه وسائر تعاليمه ، واما أن تعلم من ذلك مفتريات روجها أعداء الاسلام وحشوها بمافى أدمغتهم من أكاذيب ، ولعلها معذورة فى صدودها عن ذلك الدين لأنها لم تتلق الحق من أصحابه ولم تسمع لهم قيلا . . . ثم قال : انهم يشبهون أهل الفترة ولا يعذبون . . . الى ان قال غير أنه يضاف الى ماسبق شىء آخر وهو أن الله زود الانسان بعقل يحسن به التفكير ، والحكم ،

والنقد ، والرد ، وجعل فى طاقة هذا العقل أن يتعرف على الخالق وأن يطمئن الى وحدانيته كما زوده بعقل يعرف به الخير والشـــر ويرضى به العدل ، ويسخط به الظلم ، وبهذه الخصائص الانسانية يكلف الانسان ولو لم يأته (١) نبى أن يبتعد عن الالحاد والشرك وان ينفر من الظلم والفساد وربما لم يطالب بجملة العبادات التى بينها المرسلون لكنه مكلف بأركان الحقيقة العظمى فى حياة البشر وهى : اليقين فى اله واحد ، وفعل الخير جهد الاستطاعة قال تعالى : (واذا أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم . .) الآية الى أن قال :

٢- وهناك أقوام على مواريث من ديانتى موسى وعيسى كبعض الموحدين من اليهود والنصارى الذين قام لديهم من الثقة ما جعلهم يعتقدون أنهم محقون ، وأنهم يؤدون ما يرضى رب العالمين ، وقامت كذلك على بصائرهم حجب جهلتهم بالقرآن وحرمتهم من نوره .

وحكمهم اذا آمنوا بالله على نحو صحيح وعملوا الصالحات فى حدود ما يعرفون أنهم لا يعذبون مالم يشب ايمانهم تثليث أوتجسيم ، أو حلول ، أو اتحاد ، وذلك كفر من مفكرى الشرق والغرب يؤمنون

---

(١) التكليف دون بعثة الأنبياء يخالف نصوص القرآن الكثيرة ، والعقل وحده لا يتوصل الى معرفة الخالق سبحانه وتعالى الا بضمية النقل اليه الا على مذهب المعتزلة .

بآلـه واحد ، ويتقربون اليه بسلامة الضمير واحسان العمل بيـد أنهم لا يعرفون محمد اصلى الله عليه وسلم لا نّ أحد الم يعرفهم بـه أو يشرح لهم أصول دينه ، وهم يرون المرسلين جميعا ومنهـم عيسى ابن مريم رجالا طيبين يستحقون الا جلال والشكر لما قدموا من خير للناس انتهى محل الغرض من كلامه (١)

قلـت : ان لى اعتراضا على كلام الشيخ محمد الغزالى من وجوه :

١ - ان تشبيه مفكرى الشرق والغرب من اليهود والنصارى بمن لم تبلغهم الدعوة الا سلامية ولم يعرفوا شيئا عن الرسول صلى الله عليه وسلم ولا عن القرآن غير مقبول عندى الا اذا ثبت عن طريق الاستقراء التام أن هؤلاء الباحثين المفكرين من الشرق والغرب لم يعرفوا شيئـا عن محمد صلى الله عليه وسلم ولا عن القرآن ، وهذا من الصعـب جدا لا نّنا الآن ندرس تأليف المفكرين من الشرق والغرب فى الاسلام وشبهاتهم التى أوردوها عليه وتحينهم الفرص فى ذلك تحين الخبير ونستفيد من تأليفهم فى الاسلام ، وهل يفصل هذا الا من عنده علم مفصل عن حقيقة الاسلام ، فليس من الممكن عندى أن يكون هؤلاء لم يعرفوا شيئا عن الرسول صلى الله عليه وسلم ولا عن القرآن لا نّ منهم من تتبعه سورة سورة أو آية آية ، ومنهم من درس حيـاة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ودرس سيرته ، ومنهم مـن درس وسائل انتشار الاسلام فى البلاد وألفوا فى ذلك تأليف كثيرة .

أضف الى هذا أن الزمان تقارب وما من قطر الا وفيه بعض المسلمين وما من بلد الا ويذيع القرآن الكريم ، وقد كثر الباحثون الدارسـون

---

(١) مع الله ص ٥٧ - ٥٨

لشريعة محمد صلى الله عليه وسلم ،

فتشبيههم بأهل الفترة الذين لم تبلغهم دعوة رسول على الاطلاق فيه مافيه ، واذا كانت هذه الآلاف المؤلفة من الناس كما عبر به لا يعذبون لأنهم معذورون كأهل الفترة فما الفرق بين أمة الدعوة وأمة الاجابة ؟

٢ - ان قوله : وهناك أقوام على مواريث من ديانتي موسى وعيسى كبعض الموحدين من اليهود والنصارى الذين قام لديهم من الثقة ما جعلتهم يعتقدون أنهم محقون وأنهم يؤدون مايرضى رب العالمين . . . وحكمهم اذا آمنوا بالله على نحو صحيح وعملوا الصالحات في حدود مايعرفون : أنهم لا يعذبون مالم يشب ايمانهم تثليث أو تجسيم ، أحلول أو اتحاد . . . الخ كلامه : فهذا الكلام كله عندي غير مقبول وذلك لأن توارث شريعة موسى وعيسى لا ينفع انسانا كائنا من كان بعد ظهور شريعة محمد صلى الله عليه وسلم لأنها نسخت جميع شرائع الأنبياء الا ما أقرت منها مع أن موسى وعيسى لو كانا موجودين زمن رسالته صلى الله عليه وسلم لما وسعهما الا اتباعه ، وترك شد بقيهما ، يدل لذلك الحديث الذي رواه الامام أحمد وهو قوله صلى الله عليه وسلم :

(والذي نفسي بيده ، لو أصبح فيكم موسى عليه السلام ثم ابتعتموه وتركتموني لضللتم انكم حظي من الأمم وأنا حظكم من النبيين) (١)

وان كان الحديث لم يكن خطابا لأهل الكتاب لأن العبرة بعموم الألفاظ لا بخصوص الأسباب ، وقد ثبت عنه صلى الله عليه وسلم

---

١) المسند جـ ٣ ص ٤٧١

أنه لا يسمع به أحد من أمته ثم لم يؤ من به الا دخل النار فقد ثبت في صحيح مسلم أنه صلى الله عليه وسلم قال ،

(والذى نفس بيده لا يسمع بى أحد من هذه الامة يهودى ولا نصرانى ثم يموت ولم يؤ من بالذى أرسلت به الا كان من أصحاب النار) (١)

فالنبى صلى الله عليه وسلم صرح فى هذا الحديث الصحيح أن كل من سمع به ومات ولم يؤ من به دخل النار ، وهؤ لاء المفكرون يبدو لى أنهم سمعوا به ، وقد نص على اليهود والنصارى ، وقد تقدم أنهم عالمون برسالته صلى الله عليه وسلم اليوم وبلغتهم كما بلغت أسلافهم زمنه صلى الله عليه وسلم .

فهؤ لاء الذين توارثوا شريعة موسى وعيسى عليهما وعلى نبينا أفضل الصلاة والتسليم اذا كانوا متمسكين بشريعتهم التى جاء هم بها موسى وعيسى ولم يحرفوا ولم يبدلوا ولم يغيروا فهؤ لاء هم أعلم الناس بمحمد صلى الله عليه وسلم وبرسالته ، لأن فى شريعة عيسى البشارة بمحمد صلى الله عليه وسلم وبنبوته .

وقد تقدم تفسير على بن أبى طالب وابن عباس لقوله تعالى : (واذ أخذ الله ميثاق النبيين ...) وهو أن الله ما بعث نبينا من الانبياء الا أخذ عليه الميثاق لئن بعث الله محمدا وهو حى ليؤ منن به ولينصرنه وأمره أن يأخذ الميثاق على أمته لئن بعث محمد وهم أحياء ليؤ منن به ولينصرنه ، فميراثهم من موسى وعيسى لوجاء هم كاملا لابد أن يجدوا فيه أخذ الميثاق عليهم بالايمان به صلى الله عليه وسلم .

---

(١) صحيح مسلم جـ ١ ص ١٣٤ المصدر السابق .

والله جلا وعلا أخبر أن عيسى بشر بمحمد صلى الله عليه وسلم وذلك فى قوله تعالى :

(واذ قال عيسى ابن مريم يبنى اسرائيل انى رسول الله اليكم مصدقا لما بين يدى من التورية ومبشرا برسول يأتى من بعدى أسمه أحمد) (١)

واليهود يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، والنصارى كذلك ، وعليه فيكونون قد كفروا برسالته صلى الله عليه وسلم وبالقرآن وجحدوهما كما جحدهما أسلافهم من قبل ولا يعذرون ، ولا يشبهون بأهل الفترة ، مع أن الذى يتمسكون به ويعتقدون أنه ينجيهم انما هو مما حرفه آباؤهم وبدلوه وأتوا به من عند أنفسهم فهم يدينون لله بشىء ، يعلمون أنه من عند غير الله ، فلا ينبغى الحكم عليهم بأنهم ناجون من عذاب الله . وان كانوا يعتقدون أنهم على حق فهم : يحسبون أنهم على شىء الا إنهم هم الكاذبون .

وفضيلة الشيخ حكم عليهم بأنهم لا يعذبون الا اذا شيب ايمانهم بتثليث ، أو تجسيم ، أوحلول ، أو اتحاد ، وهل بنى اليهود والنصارى عقائدهم الا على هذه المذكورات ؟ كما هو أعلم بذلك منى .

٣ - ان من لم يؤمن بمحمد صلى الله عليه وسلم لا ينفعه عمله الصالح فى الآخرة لأن الله جل وعلا يقول :

(وقدمنا الى ماعملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا) (٢) ويقول :

(والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى اذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفيه حسابه والله

---

١) جزء من آية ٦ من سورة الصف

٢) آية ٢٣ من سورة الفرقان

سريع الحساب) (١) ويقول تعالى :

(مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف لا يقدرون مما كسبوا على شىء ...) (٢) الى غير ذلك من الآيات .

وهو يقول : انهم اذا آمنوا بالله على نحو صحيح مع حجب بصائرهم عن نور القرآن واحترامهم منه ينجون من عذاب الله .

أضف الى هذا ان العلماء صرحوا بأن العمل الصالح لا ينفع صاحبه الا بشرطين وهما :-

أولا : أن يكون العمل خالصا لوجه الله الكريم

ثانيا : أن يكون موافقا لشريعة محمد صلى الله عليه وسلم بعد ورودها وقد مثلوا بالرهبان والمنافقين حيث قالوا ان الرهبان فى عملهم وعبادتهم مخلصون لله ، ولكن هذا العمل لم يوافق ماجاء به محمد صلى الله عليه وسلم فلم ينفعهم ، والمنافقون صلاتهم وصومهم وجهادهم يوافق ماجاء به صلى الله عليه وسلم ولكنهم غير مخلصين فى ذلك لله فهم فى الدرك الأسفل من النار .

٣) فظهر مما ذكرنا ان اعتقاد هؤلاء الوارثين لشريعة موسى وعيسى ويعملون الصالحات ، ويعتقدون أن هذا وحده ينفعهم دون الايمان بنبينا صلى الله عليه وسلم مع علمهم به وبرسالته وبالقرآن - اعتقاد باطل وزعم فاسد ، فلا اعتداد بايمانهم

---

١) آية ٣٩ من سورة النور

٢) جزء من آية ١٨ من سورة ابراهيم

٣) طالع ابن كثير عند تفسير قوله تعالى : بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فى سورة البقرة جـ ١ ص ١٥٤ المصدر السابق .

ولا بعملهم الصالح وذلك كله مردود لأن الرسول صلى الله عليه وسلم يقول :

(من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد) (١)

وذكر الشيخ رشيد رضا كلاما قريبا من كلام الشيخ محمد الغزالى فى تفسير : المنار حيث قال عند تفسير آية البقرة : (ان الذين آمنوا والذين هادوا والنصرى والصبئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون) قال بعد أن ذكر كلاما للشيخ محمد عبده قرره فى دروسه : وانى أتمسه على المنهج الذى جريت عليه فأقول ....

فالآية بيان لسنة الله تعالى فى معاملة الأمم تقدمت أو تأخرت فهو على حد قوله : (ليس بأمانيكم ولا أمانى أهل الكتب) (٢) الى قوله نقيرا ... فظهر بذلك أنه لا اشكال فى جعل من آمن بالله واليوم الآخر على قوله : (ان الذين آمنوا ..) الخ ولا اشكال فى عدم اشتراط الايمان بالنبى صلى الله عليه وسلم لأن الكلام فى معاملة الله تعالى لكل الفرق أو الأمم الموءمنة بنبى ووحى . بخصوصها الظانة أن فوزها فى الآخرة كائن لا محالة لأنها مسلمة ، أو يهودية أونصرانية أو صابئة مثلا ، فالله يقول : ان الفوز لا يكون بالجنسيات الدينية وانما يكون بايمان صحيح له سلطان على النفس ، وعمل يصلح به حال النفس ولذلك نفى كون الأمر عند الله بحسب أمانى المسلمين أو أمانى أهل الكتاب ، وأثبت كونه بالعمل الصالح مع الايمان الصحيح انتهى/ الغرض من كلامه (٣) .

---

١) أخرجه البخارى فى كتاب الصلح فى باب : اذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود . ومسلم فى كتاب الاقضية فى باب نقض الاحكام الباطلة ورد محدثات الامور ج٣ ص ١٣٤٤ المصدر السابق

٢) جزء من آية ١٢٣ من سورة النساء

٣) انظر تفسير المنار ج ١ ص ٣٣٦ ط ١٤

قلت اذا كان قول الاستاذ (رشيد رضا) ولا اشكال فى عدم اشتراط الايمان بالنبى صلى الله عليه وسلم الخ كلامه يريد بذلك من آمن من الامم السابقة بأنبيائهم قبل نبوة نبينا صلى الله عليه وسلم ، فهذا كلام حق ، وهو الذى دلت عليه الآية الكريمة ، وان كان الايمان بالانبياء السابقين يتضمن الايمان به صلى الله عليه وسلم كما قدمنا ، وان كان يريد أن الموجود من اليهود والنصارى والصابئين فى زمنه صلى الله عليه وسلم أو فى زمننا هذا يكون : من أمن منهم بالله واليوم الآخر وعمل صالحا وفق ما جاء به نبى من الانبياء قبل نبينا صلى الله عليه وسلم ناجيا من عذاب الله بسبب هذا الايمان وهذا العمل الصالح فان هذا الكلام غير مقبول عندنا الا اذا كان هؤلاء لم يسمعوا بمحمد صلى الله عليه وسلم ولا بشريعته وقد تقدم مايتضمن رده فى الاعتراض على كلام الشيخ محمد الغزالى ، وانما قلت هذا لأن الله صرح فى كتابه بأن التفرقة فى الايمان بين الرسل لا تفيد المؤمن ببعض دون بعض . قال تعالى :

(آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملئكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله ...) (١) وقال تعالى :

(كذبت قوم نوح المرسلين)(٢) مع أنهم لم يكذبوا الا برسول واحد وهو نوح عليه السلام . وقال أيضا بعد أن نقل كلاما للامام الغزالى جعل فيه الناس بالنسبة لبعثة النبى صلى الله عليه وسلم واسطه وطرفين :

طرف غير مؤاخذ قطعا وهو : من لم تبلغه الدعوة أصلا لا اجمالا ، ولا تفصيلا بحيث لم يسمع عنها ، ولا عن صاحبها أى شىء ، وطرف مؤاخذ

---

١) جزء من آية ٢٨٥ من سورة البقرة

٢) آية ١٠٥ من سورة الشعراء

قطعا وهو : من بلغته الدعوة على وجهها ولم ينظر فى أدلتها أهمالا أو عنادا أو استكبارا ، وهؤلاء هم المؤاخذون قطعا ،

والواسطة : من بلغته الدعوة على غير وجهها أو مع فقد شرطها : وهو أن تكون على وجه يحرك داعية النظر ، وهؤلاء عنده فى معنى الصنف الأول اهـ كلام الامام الغزالى . ثم قال رشيد رضا وأقول : فى حل معنى الآية على هذا أن أهل الأديان الالهية وهم الذين بلغتهم دعوة على وجهها وبشرطها اذا آمنوا بالله واليوم الآخر على الوجه الصحيح الذى بينه نبيهم وعملوا الأعمال الصالحة فهم ناجون مأجورون عند الله تعالى اهـ (١)

وأقول : ان المفكرين من رجال الشرق والغرب اليوم وهم معروفون مثل الصنف الثانى لأنهم بلغتهم الدعوة وأعرضوا عنها عنادا واستكبارا واهمالا ، فهم عندى مثل الصنف الذى قال الغزالى انه مواخذ قطعا وذلك أن المتدينين اليوم من اليهود والنصارى بلغتهم دعوته صلى الله عليه وسلم وأعرضوا عنها عنادا واستكبارا ، وحاولوا ومازالوا يحاولون طمسها وصد الناس عنها بشتى الوسائل المتفرقة من أنواع التبشير الذى بثوه فى جميع المعمورة ولا سيما فى القارتين الآسيوية والافريقية اللتين يقطنهما معظم المسلمين ، وقد بعثوا المستشرقين منذ قرون عديدة لدراسة الاسلام فدرسوه وجالوا فى بلاد المسلمين واختلطوا بعلماء الأزهر وغيرهم ، وحاضروا فى الجامعات فى الاقطار الاسلامية فكيف يقاسون على من لم تبلغهم الدعوة أصلا ولم يسمعوا بها ولا بالرسول ولا القرآن . اللهم الا اذا كان القياس مع وجود الفارق سائغا عند القائل بنجاتهم .

---

١) تفسير المنار جـ ١ ص ٣٣٩ المصدر السابق .

ويؤيد ما ذكرته من عدم نجاة هؤلاء المتدينين من اليهود والنصارى ماذكره الدكتور أبوالمجد السيد نوفل فى كتابه : الدعوة الى الله فقد قال بعد أن ذكر كلام الامام محمدعبده وتلميذه الشيخ رشيد رضا فى هذه المسألة ملخصا ، وذكر كلام الغزالى الذى تقدم مانصه :

والحاصل أن الناس أمام الدعوة أصناف ،

من لم تبلغهم الدعوة مطلقا ،أو بلغتهم لكن بصورة مشوشة وعلى وجه لا يحرك داعية النظر ،أو كان فاقد الوسائل الادراك من عقل وسمع وبصر فهؤلاء برحمة الله تعالى ناجون على رأى الاشاعرة ، وغيرناجين عند الصنف الثالث على رأى المعتزلة ،

لكن الناجين من هؤلاء ليسوا على درجة واحدة فى النجاة مع أصحاب الرسالات العاملين ، وذلك لتحقيق العدالة فى الجزاء ،

وصنف بلغته الدعوة بصورة صحيحة غير مشوشة وهو متمتع بحواسه وعقله لكنه لم يستجب وعاند واستكبر ، وهؤلاء هم الهالكون حتما وعلى رأسهم رجال الاديان الاخرى ومن فى حكمهم ، والعلماء وغيرهم ممن هم على صلة بموضوعات الاديان ومايتعلق بها ولم يكلفوا أنفسهم عناء البحث عن الحقيقة فيما يبحثون .

(١) ومحل الشاهد من كلامه قوله : وعلى رأسهم رجال الاديان الاخرى فان رجال الاديان هم المفكرون والباحثون من رجال الشرق والغرب الذين يزعمون أنهم ورثوا شريعة موسى وعيسى عليهما الصلاة والتسليم ، ويحصلون كثيرا من الخير كالمواساة بأنواعها من الطب وأنواع الامدادات المادية ونشر العلوم وغيرذلك ويعتقدون بهذا أنهم ناجون عند الله من العذاب ، وقد قدمنا أن هذا زعم باطل - لا لعدم صدقهم اه .

---

(١) الدعوة الى الله للدكتور أبو المجد السيد نوفل ص ٣٤

الفصل الثالث

فى رد بعض الشبه الواردة حول عموم دعوة الاسلام

تمهيد : ان الشبه التى أوردها أعداء الاسلام حول الدين الحنيفى كثيرة لا تحصى ولسنا بصدد الكلام عليها الآن ، وانما القصد عندنا الآن فى هذه الرسالة رد بعض الشبه التى وجهت حول عموم الدعوة الاسلامية فقط . وسوف أرد منها ان شاء الله ما أمكننى رده بالأدلة التى تناسب الشبه التى سوف أوردها .

وقد اشتمل هذا الفصل على مبحثين :

الأول : يتضمن الرد على شبهة أوردها المستشرق (السيروليم ميور) مضمونها أن عالمية رسالة الاسلام فكرة طارئة بعد موته صلى الله عليه وسلم ...

الثانى : فى رد شبهة أوردها (بولس) أسقف صيدا الأنطاكى مضمونها أن فى القرآن آيات كثيرة تدل على أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يرسل الى النصارى ، وانما رسالته خاصة بالعرب ...

الشبهة الأولى :

يقول (السيروليم ميور) ان فكرة عالمية الرسالة قد جاءت فيما بعد وان هذه الفكرة على الرغم من كثرة الآيات والأحاديث التى تؤيدها لم يفكر فيها محمد (صلى الله عليه وسلم) نفسه ، وعلى فرض أنه فكر فيها فقد كانت الفكرة غامضة ، فان عالمه الذى كان يفكر فيه انما كان بلاد العرب ، كما أن هذا الدين الجديد لم يهيأ الا لها ، ولأن محمد (صلى الله عليه وسلم) لم يوجه دعوته منذ بعث الى أن مات الا للعرب

دون غيرهم ، وهكذا نرى أن نواة عالمية الاسلام قد غرست ولكنها اذا كانت قد اختمرت ونمت بعد ذلك فانما يرجع هذا الى الظروف والاحوال أكثر منه الى الخطط والمناهج (١)

الرد على الشبهة الاولى :

أقول : ان قول (السير وليم ميور) ان فكرة عالمية الرسالة المحمدية جاءت فيما بعد ، وأن النبى (صلى الله عليه وسلم) لم يفكر فيها .. الخ كلامه .

ان هذا القول خطأ وقائله يعلم أنه كذب وافتراء ،

والدليل على ذلك أن عالمية الرسالة النبوية ظهرت منذ بعث الله أن محمد اصلى الله عليه وسلم فى مكة المكرمة ، وان كانت قد توسعت دائرتها بعد الهجرة الى المدينة ،

ففى سور القرآن المكية التصريح بعالمية رسالته صلى الله عليه وسلم ، ففى سورة ن والقلم وهى مكية قوله تعالى (وماهو الا ذكر للعلمين) ولفظ العالمين يشمل النصارى واليهود وغيرهم ، كما تقدم مرارا ، وفى سورة (ص) وهى مكية قوله تعالى : (.. ان هوالا ذكرللعلمين) وفى سورة الاعراف وهى مكية قوله تعالى (قل يأيها الناس انى رسول الله اليكم جميعا ..) وأهل الكتاب من اليهود والنصارى داخلون فى الناس بلا شك ،

فهذه الادلة على عالمية الرسالة وردت فى مرحلة الدعوة الاولى فى مكة ، وماتركناه من الايات أكثر لاننا قدمنا جميعه فى الفصل الذى قبل هذا وقد ثبت عنه صلى الله عليه وسلم وهو بمكة أنه أرسله الله الى الناس جميعا ،

---

١) حاشية كتاب سيرتوماس أرلوند الدعوة الى الاسلام ترجمة حسن ابراهيم حسن وزميليه ط الثالثة ص ٥٠

فقد روى البخارى فى المشاجرة التى وقعت بين أبى بكر وعمر رضى الله عنهما من حديث أبى الدرداء قال : (كانت بين أبى بكر وعمر رضى الله عنهما محاورة فأغضب أبو بكر عمر فانصرف عنه عمر مغضبا فأتبعه أبو بكر يسأله أن يستغفر له فلم يفعل حتى أغلق بابه فى وجهه فأقبل أبو بكر الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أبو الدرداء ونحن عنده فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أما صاحبكم هذا فقد غامر قال وندم عمر على ماكان منه فأقبل حتى سلم وجلس الى النبى صلى الله عليه وسلم وقص عليه الخبر فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجعل أبو بكر يقول : والله يارسول الله لانا كنت أظلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هل أنتم تاركوالى صاحبى انى قلت يايها الناس انى رسول الله اليكم جميعا فقلتم كذبت وقال أبو بكر صدقت قال أبوعبد الله غامر سبق بالخير . (١) ومتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا الكلام ؟ انه قاله بمكة فى بداية رسالته لأن أبا بكر لم يتلكأ عن التصديق برسالته صلى الله عليه وسلم لانه مادعا أحدا الى الايمان الا تلكأ عنه غير أبى بكر ، فأبو بكر قال صدقت فى مكة عندما بعث صلى الله عليه وسلم ودعاه الى الايمان فمحل الشاهد من الحديث قوله : (يأيها الناس أنى رسول الله اليكم جميعا) . وقصة صهيب الرومى ، وبلال الحبشى اللذين أسلما فى مكة المكرمة وحسن اسلامهما تدل دلالة واضحه على أنه صلى الله عليه وسلم جهر بعالمية الرسالة ، وأنه دعا جميع الناس الى الاسلام .

---

١) أخرجه البخارى فى كتاب التفسير فى باب : قل يأيها الناس أنى رسول الله اليكم جميعا

وقد روى الحاكم فى المستدرك من طريق أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : السباق أربعة : أنا سابق العرب وسلمان سابق الفارس ، وبلال سابق الحبشة ، وصهيب سابق الروم (١) وروى الامام أحمد من حديث ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلى ولا أقوله فخرا بعثت الى الناس كافة : الأحمر والأسود ، ونصرت بالرعب مسيرة شهر ، وأحلت لى الغنائم ولم تحل لأحد قبلى ، وجعلت لى الأرض مسجدا وطهورا ، وأعطيت الشفاعة فأخرتها لأمتى يوم القيامة فهى لمن لا يشرك بالله شيئا (٢) قال ابن كثير اسناده جيد . وثبت فى صحيح مسلم والبخارى قوله صلى الله عليه وسلم .

(أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلى : كان كل نبى يبعث الى قومه خاصة ، وبعثت الى كل أحمر وأسود ، وأحلت لى الغنائم ولم تحل لأحد قبلى وجعلت لى الارض طيبة طهورا ومسجدا فأيما رجل أدركته الصلاة صلى حيث كان ، ونصرت بالرعب بين يدى مسيرة شهر واعطيت الشفاعة (٣) وقال تعالى : فى مطلع سورة ابراهيم الخليل (... كتب أنزلته اليك لتخرج الناس من الظلمت الى النور ...) وهذه السورة مكية أيضا وأمثالها كثيرة جدا مما لا يبقى مجالا للشك فى عالمية الرسالة النبوية

---

١) المستدرك للحاكم جـ ٣ ص ٣٨٤ - ٣٨٥

٢) المسند جـ ١ ص ٣٠١

٣) صحيح مسلم جـ ١ ص ٣٧٠ - ٣٧١ المصدر السابق . والبخارى فى كتاب التيمم .

لأن هذه الآيات التى ذكرنا نزلت بمكة كلها ، أما فى المدينة فقد أتسعت الدائرة وصرح القرآن الكريم بدعوة النصارى واليهود الى الدخول فى هذا الدين الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم وأن من لم يتبعه منهم مخلد فى النار ، وقد دعاهم بالفعل ، ودخل منهم البعض ، وقد بعث بالكتب الى رؤساء وملوك البلاد خارج الجزيرة العربية كما قدمنا فالنبى عليه الصلاة والسلام علم من ربه أن رسالته عالمية باخبار منه له بذلك ، ونفذ ذلك أحسن تنفيذ مدة حياته حتى انتقل الى الرفيق الأعلى وطبق ذلك بعده أصحابه خلفاؤه الراشدون فمن بعدهم ، فنشر الخلفاء الراشدين لدين الاسلام بعد وفاة نبيهم صلى الله عليه وسلم وتوسعهم فى الفتوحات الذى ظن مورد الشبهة أو علم وتجاهل أنه اختراع منهم ماهوالا اتباع منهم له صلى الله عليه وسلم واقتفاء لأثره ، وليس فكرة جديدة كما يقول طرأت على العرب بعد موت نبيهم .

وأما الأمر له من الله بأن ينذر عشيرته الأقربين فى قوله تعالى : (وأنذر عشيرتك الأقربين) (١) فان هذا لا ينافى انذاره لغير عشيرته لأنه أمره فى آيات آخر كثيرة بانذار جميع الناس وذكر بعض أفراد العام لا يكون تخصيصا للعام ، والله جل وعلا لم يقل له على صيغة الحصر : لا تنذر الا عشيرتك الأقربين حتى يتوهم متوهم أن الانذار منحصر فيها ، بل المفروض أنه يبدأ بعشيرته وأقاربه ويدعوهم حتى يدخلوا فى الاسلام ليتقوى بهم على دعوة غيرهم كما فعل صلى الله عليه وسلم فقد كان يرسل أصحابه بعد أن أسلموا الى البلاد النائية يدعون أهلها الى الاسلام فمن زعم أن محمد اصلى الله عليه وسلم لم يفكر فى عالمية الرسالة ، وأن فكرتها

---

(١) آية ٢١٤ من سورة الشعراء .

كانت غامضة فى حياته فقد افترى على الله الكذب

وقد قدمنا ارساله للكتب لملوك الروم والفرس والحبشة كما ثبت فى صحيح مسلم من حديثه الذى قدمناه .

وثبت فى صحيح مسلم أيضا أنه صلى الله عليه وسلم أرسل كتابا الى هرقل عظيم الروم مع دحية الكلبى ، وذكر فيه القصة الطويلة المشهورة : قصة أبى سفيان بن حرب الذى كان موجودا بالشام اذ ذاك وناداه هرقل وسأله عن صفات رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولم يستطع اخفاء شىء منها مخافة أن يؤثر عنه الكذب ، فلما فرغ من سؤال أبى سفيان قال : ان يكن ماتقول حقا فانه نبى ، وقد كنت أعلم أنه خارج ، ولم أكن أظنه منكم ، ولو أنى أعلم أنى أخلص اليه لاحببت لقاءه ، ولو كنت عنده لغسلت قدميه ، وليبلغن ملكه ماتحت قدمى ، ونص الكتاب تقدم أيضا من رواية مسلم ،

ورواه البخارى أيضا مطولا وزاد فى القصة : فأذن هرقل لعظماء الروم فى (١) دسكرة له بحمص ، ثم أمر بأبوابها فغلقت ثم اطلع فقال : يامعشر الروم هل لكم فى الفلاح والرشد وأن يثبت ملككم فتتابعوا هذا النبى (٢) . فحاصوا حيصة حمر الوحش الى الابواب فوجدوها مغلقة ، فلما رأى هرقل نفرتهم وايسهم من الايمان قال : ردوهم على وقال : انى قلت مقالتى آنفا أختبر بها شدتكم على دينكم فقد رأيت فسجدوا له ورضوا عنه فكان ذلك آخر شأن هرقل (٣) وقوله فكان ذلك آخر شأن هرقل .

قال ابن حجر أى فيما يتعلق بهذه القصة بداءة الى الايمان ، لا أنه انقضى أمره حينئذ . . . واختلف الاخباريون هل هو الذى حاربه

---

١) الدسكرة بسكون السين المهملة القصر الذى حوله بيوت . انظر فتح البارى جـ ١ ص ٤٨ ط الحلبى

٢) أى نفروا وشبههم بالوحش لشدة نفورها وبالحمر لمناسبة فتح البارى

٣) أخرجه البخارى فى كتاب بدء الوحى

المسلمون فى زمن أبى بكر وعمر أو ابنه ، والاظهر أنه هو والله أعلم (١) فهل بعد ما ذكرنا من الاحاديث الصحيحة الدالة على دعوته صلى الله عليه وسلم لملوك الروم وفارس والحبشة وكل جبار عنيد . والآيات القرآنيه الدالة على عموم دعوته وشمولها للجن والانس ، بعد هذا كله يقول قائل أن دعوته لم تكن عامة وانما هى فكرة طرأت بعد موته صلى الله عليه وسلم وأنه لم يفكر فيها حياته ، سبحانك هذا بهتان عظيم ، وهل الحبشة من بلاد العرب ، وهل الروم والفرس من بلاد العرب ، وهل المقوقس من بلاد العرب ؟

وفى الكتاب الذى أرسله الى هرقل عظيم الروم التنصيص على أهل الكتاب ، وذلك فى قوله (يأهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم الا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ...)

وقال جل وعلا فى كتابه مخاطبا أهل الكتاب ومبينا لهم أن محمدا صلى الله عليه وسلم مرسل اليهم (ياهل الكتب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل أن تقولوا ماجاءنا من بشير ولا نذير فقد جاءكم بشير ونذير ...) (٢) والمراد بالبشير والنذير الذى جاءهم هو محمد صلى الله عليه وسلم .

وقال تعالى مخاطبا أهل الكتاب أيضا ومبينا لهم أنهم يعلمون أن رسالة محمد صلى الله عليه وسلم حق (يأهل الكتب لم تكفرون بأيت الله وأنتم تشهدون ، يأهل الكتاب لم تلبسون الحق بالبطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون) (٣) وقال تعالى : مخبرا اليهود والنصارى والمشركين أن من كفر منهم بمحمد صلى الله عليه وسلم فى نارجهنم (ان الذين كفروا

---

١) أنظر فتح البارى جـ ١ ص ٤٨ - ٤٩ ط الحلبى وأولاده بمصر
٢) جزء من آية ١٩ من سورة المائدة
٣) آية ٧٠ - ٧١ من سورة آل عمران

من أهل الكتب والمشركين فى نارجهنم خلدين فيها أولئك هم شر البرية .) (١) وقال تعالى فى شأن أهل الكتب مبشرا لهم ومخبرا لهم أن من آمن منهم نبيه ثم آمن بمحمد صلى الله عليه وسلم يؤته الله أجره مرتين فقال :

(الذين آتيناهم الكتب من قبله هم به يؤمنون ، واذا تتلى عليهم قالوا آمنا به انه الحق من ربنا انا كنا من قبله مسلمين ، أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا .) (٢) وقال تعالى :

(وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدا) (٣) وأهل الكتابين قالوا : اتخذ الله ولدا . والايات بمثل هذا كثيرة جدا ،

وفى الصحيح أنه صلى الله عليه وسلم قال : (ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين : رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه ، وأدرك النبى صلى الله عليه وسلم فآمن به واتبعه وصدقه فله أجران ، وعبد مملوك أدى حق الله تعالى وحق سيده فله أجران ، ورجل كانت له أمة ففداها فأحسن غذاءها ، ثم ادبها فأحسن تأديبها ، ثم اعتقها وتزوجها فله اجران (٤)

فالرسالة : انذار وتبشير ، ووعد ووعيد ، والقرآن الكريم أنذر أهل الكتاب ، وتوعدهم بالعذاب ، اذا لم يؤمنوا ووعدهم بالثواب

---

١) آية ٦ من سورة لم يكن

٢) آية ٥٢ - ٥٣ وجزء من آية ٥٤ من سورة القصص

٣) آية ٤ من سورة الكهف

٤) اخرجه مسلم جـ ١ ص ١٣٤ - ١٣٥ فى كتاب الايمان المصدر السابق والبخارى فى كتاب الجهاد فى باب فضل من أسلم من أهل الكتابين .

اذا آمنوا بنبى الله محمد صلى الله عليه وسلم وبشرهم بمضاعفة الأجر اذا جمعوا بين الايمان بانبيائهم وبين الايمان بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وقد تقدم حديث مسلم الذى أقسم فيه صلى الله عليه وسلم انه لا يسمع به أحد من هذه الأمة يهودى ولا نصرانى ثم يموت ولم يؤمن بالذى أرسل به الا دخل النار ،

وقد تقدم الكلام على غزوة مؤتة وتبوك ، وذكرنا أن جيش رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج من المدينة حتى وصل مؤته ، واشتبك بجيوش الروم وهزمهم على الصحيح خلافا لما ذكره ابن سيد الناس فى عيون الاثر عن ابن اسحاق أن كل فئة انحازت على الأخرى دون هزيمة (١) .

وأما قول المستشرق فى شبهته : ان هذا الدين الجديد يعنى دين الاسلام لم يوجه الى لبلاد العرب فقد ظهر لك أن ذلك كذب وافتراء ، وقد تقدم فى الفصل السابق أن هذا الدين مرن وأن شريعته حيوية وصالحة لكل زمان ومكان ، فعباداته ، وعقائده ، ومعاملاته صالحة لبنى البشر أين كانوا ، ومتى كانوا ، وأن هذه الشريعة اشتملت على جميع مصالح العباد دينا وأخرى ، فبنو البشر لا يحتاجون مع هذه الرسالة : رسالة محمد صلى الله عليه وسلم الى شىء البته . وقد تقدمت الآيات الدالة على أن جميع الناس مطالبون بهذا الدين : دين الاسلام لأن الله لن يقبل من عباده دينا غيره بعد ما أنزله على رسوله صلى الله عليه وسلم .

وبزوغ هذا الاسلام وظهوره فى بلاد العرب لا ينافى عمومه ، ومطالبة الناس به جميعا ، بل مطالبة الثقلين ، وكيف لا يبدأ هذا الدين ببلاد

---

(١) عيون الأثر فى فن المغازى والسير لابن سيد الناس جـ٢ ص١٥٣-١٥٥ ط دار المعارف بيروت وابن هشام جـ ٤ ص ٧ فما بعدها ط الحاج عبد السلام محمد بن شقرون .

العرب ، والرسول الذى أنزل عليه عربى ، فالنبى صلى الله عليه وسلم لما كان عربيا واختاره الله لرسالته كان لا بد أن يظهر دينه فى أول أمره فى بلاده ثم يمتد منها الى سائر البلاد الاخرى بلدة بلدة حتى عم جل البلاد ولله الحمد .

فتبين مما ذكرت أن نواة عالمية الرسالة غرست فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم ، ونمت فى زمنه وتمت بالخطط الحكيمة التى رسمها صلى الله عليه وسلم ، وبالمناهج التى نهجها : من وعد وعيد وانذار وتبشير ، وحكمة ، وموعظة حسنة ، ومجادلة بالتى هى أحسن ، ومحاربة لمن أبى الا الحراب حيث لم تنفع فيه جميع الوسائل المطلوبة من تبليغة .

ولو تأمل صاحب الشبهة كتبه الثلاثة التى ارسلها الى ملوك الامبراطوريات الثلاث التى كانت تسيطر على العالم لما أورد شبهته هذه وقد تقدمت صورة كتابه لهرقل ، وتقدم خبر النجاشى . واليك نص الكتاب الذى بعث به الى كسرى ملك الفرس يدعوه فيه الى الاسلام .

قال ابن اسحاق : بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله بن حذافة بن قيس السهمى الى كسرى بن هرمز ملك الفرس وكتب .

(بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله الى كسرى عظيم فارس سلام على من اتبع الهدى ، آمن بالله ورسوله واشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله فانى أدعوك بدعاية الله فانى رسول الله الى الناس كافة لانذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين ، فأسلم تسلم ، وان أبيت فان اثم المجوسية عليك) انتهى بواسطة نقل ابن تيمية (١) فجعل العالم كان خاضعا لسيطرة الروم

---

(١) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح جـ ١ ص ١٠٦ ط التجارية

والحبشة ، والفرس وهو لاء دعاهم صلى الله عليه وسلم فى حياته الى الاسلام ودعاهم أصحابه من بعده أسوة به واقتفاء لا أنهم فكروا فى عالمية الرسالة بعد موته عليه السلام كما زعم (السيروليم ميور) أن هذا الدين لم يهيأ الا لاهل الجزيرة العربية . وبعد ما أوردنا لك صورة الكتاب الذى أرسل الى كسرى من طريق ابن اسحاق أورده لك من طريق البخارى فقد روى فى صحيحه عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث بكتابه الى كسرى مع عبد الله بن حذافة السهمى فأمره أن يدفعه الى عظيم البحرين (١) فدفعه عظيم البحرين الى كسرى فلما قرأه مزقه فحسبت (٢) أن ابن المسيب قال فدعا عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يمزقوا كل ممزق . (٣)

---

١) هو نائب كسرى على البحرين واسمه المنذر بن ساوى العبدى فتح البارى جـ ٨ ص ١٢٧ ط السلفية .

٢) قائل ذلك الزهرى وهو موصول بالاسناد المذكور فتح البارى المصدر نفسه .

٣) البخارى جـ ٦ ص ٢٧ ط ادارة الطباعة المنيرية

(المبحث الثانى)

الشبهة الثانية والرد على موردها :

جاء فى رسالة تنسب الى بولس الراهب أسقف صيدا الانطاكى ، وهذه الرسالة هى عمدة اعتقاد النصارى قديما وحديثا ، وهى من القداسة عندهم بمكان ، وكانت هذه الرسالة هى السبب فى تأليف ابن تيمية لكتابه (الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح) حيث قدمت عليه من قبرص وتصفحها فبادر بالرد على مافيها من الشبه فصلا فصلا ،

وقد جاء فى هذه الرسالة أن محمدا صلى الله عليه وسلم لم يرسل الى النصارى ، وانما أرسل الى أهل الجاهلية من العرب ، وادعوا أن فى القرآن آيات تشهد لهم بذلك ، كما أدعوا أن العقل يشهد لهم بدعواهم أيضا ، وادعوا أن محمدا صلى الله عليه وسلم اثنى على دينهم فى القرآن الكريم ومدحه بما يوجب عليهم أن يثبتوا عليه اهـ بواسطة نقل ابن تيمية (١)

وقد أورد الآيات التى ذكروا أنها تشهد لدعواهم وأنها تدل على خصوص رسالة محمد صلى الله عليه وسلم بالعرب دون غيرهم فقال :

ان كاتب الكتاب الذى ورد عليه من قبرص قال :

ان الاسقف (ديان) الملك الرومى اجتمع برؤساءهم وفاوضهم فيما علمه من رأى القوم الذين رآهم بجزائر البحر قبل دخوله الى قبرص وسألهم عن اعتقادهم وما يحتجون به عن أنفسهم ، ثم ذكر الكتب ماقالوه للاسقف ونصه :

انا سمعنا أن قد ظهر انسان من العرب اسمه محمد يقول انه رسول الله ،

---

١) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح جـ ١ ص ١٩-٢٠ ط المجد التجارية .

وأتى بكتاب وذكر أنه منزل عليه من الله ، فلم نزل الى أن حصل الكتاب عندنا قال :

أى الاسقف ديان الملك الروسى : فقلت لهم اذا كنتم قد سمعتم بهذا الكتاب وهذا الانسان وأجهدتم على تحصيل هذا الكتاب الذى أتى به عندكم فلأى حال لم تتبعوه ؟ ولا سيما وفى هذا الكتاب الذى يقول :

(ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخسرين) (١)

أجابوا قائلين لأحوال شتى قال فقلت وماهى ؟ قالوا منها أن الكتاب الذى أنزل عليه عربى وليس بلساننا حسب ماجاء فيه : يقول :

(انا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون) (٢) ويقول (بلسان عربى مبين) (٣) وذكر آيات كثيرة منها قوله تعالى (ولو نزلناه على بعض الأعجمين ، فقرأه عليهم ماكانوا به مؤمنين)(٤) ومنها قوله تعالى (كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلوا عليكم آيتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتب والحكمة ويعلمكم مالم تكونوا تعلمون) (٥) ومنها قوله تعالى :

(لقد من الله على المؤمنين اذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلوا عليهم آيته ويزكيهم ويعلمهم الكتب والحكمة وان كانوا من قبل لفى ضلل مبين) (٦) وقال تعالى : (لينذر قوما ما أتيهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون) (٧) (لتنذر قوما ماأنذر آباؤهم فهم غفلون) (٨) .

---

١) آية ٨٥ من سورة آل عمران
٢) آية ٢ من سورة يوسف
٣) آية ١٩٥ من سورة الشعراء
٤) آية ١٩٨ - ١٩٩ من سورة الشعراء
٥) آية ١٥١ من سورة البقرة
٦) آية ١٦٤ من سورة آل عمران
٧) جزء من آية ٤٦ من سورة القصص
٨) آية ٦ من سورة يس

قالوا فلما رأينا هذا علمنا أنه لم يأت الينا بل الى جاهلية العرب الذين قالوا انه لم يأتهم رسول ولا نذير من قبله ، وأنه لا يلزمنا اتباعه لأننا نحن قد أتانا رسل من قبله خاطبونا بالسنتنا وأنذرونا بديننا الذى نحن متمسكون به الى يومنا هذا ، وسلموا الينا التوراة والانجيل بلغتنا على مايشهد به هذا الكتاب الذى أتى به هذا الرجل حيث يقول فى سورة ابراهيم : (وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه ليبين لهم ...) (١) (ولقد أرسلنا من قبلك رسلا الى قومهم) (٢) فقد صح فى هذا الكتاب أنه لم يأت الا الى الجاهلية من العرب .. (٣)

الرد على هذه الشبهة :

وأقول فى رد هذه الشبهة : ان هذا ليس بأول كذب افتراه النصارى على محمد صلى الله عليه وسلم وعلى الاسلام والمسلمين ، فليس هذا بغريب فقد كذبوا على الله تعالى ، وكذبوا على عيسى ابن مريم وأمه فالنصارى يعلمون علم يقين أن محمدا رسول الله صلى الله عليه وسلم أرسل اليهم ، ولكنهم جحدوا رسالته عنادا وحسدا فهو أرسل لكافة الخلق انسه وجنه بما فى ذلك النصارى واليهود ، ولكن أهل الكتاب لما لم يكن محمد صلى الله عليه وسلم من بنى اسرائيل حسدوا العرب على بعثته منهم وقد فضحهم الله جل وعلا فى القرآن وبين ماتنطوى عليه أحشاؤهم من الخبث ، وما يضمرونه للعرب من الحسد على هذا الرسول الكريم ، وعلى هذا الدين الحنيف قال تعالى :

---

١) جزء من آية ٤ من سورة ابراهيم الخليل

٢) جزء من آية ٤٣ من سورة النحل

٣) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح لابن تيمية جـ ١ ص ٢٦-٢٨ المصدر السابق ،

(ود كثير من أهل الكتب لو يردونكم من بعد ايمانكم كفارا حسدا من عند أنفسهم من بعد ماتبين لهم الحق ..) (١) فهذا اخبار من الله جل وعلا للمؤمنين عن سلوك أهل الكتاب ، واعلام لهم بعداوتهم لهم في الباطن والظاهر وما اشتملوا عليه من الحسد للمؤمنين مع علمهم بفضل هذا الدين ، وفضل نبيه الذى جاء به من عند ربه ، وما هذا الا قليل من اعتزاز أهل الكتاب بدينهم وتفنيد ماسواه من الأديان فقد حكموا على الله تعالى بأنه لن يدخل جنته التى خلقها الا من كان يهودا أونصرانيا وذلك فيما حكاه تعالى عنهم فى قوله : (وقالوا لن يدخل الجنة الا من كان هودا أونصرى ...) (٢) ولكن الله تعالى كذبهم فى ذلك وأبطل دعواهم هذه ، وأخبر أنها مجرد أمان كاذبة خاطئة وتحداهم بطلب الدليل على ماقالوه ان كانوا صادقين فى مقالتهم فقال : (... تلك أمانيهم قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين) (٣) فيما ادعيتم . ثم قال تعالى راداً عليهم : (بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم وهم يحزنون (٤) فكل من أخلص عمله لله ولم يرائ به ، وهو محسن فيه بأن كان موافقا لما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم بعد أن بعثه الله فله أجره عند ربه ولا يخاف يوم الفزع الأكبر .

---

١) جزء من آية ١٠٩ من سورة البقرة

٢) جزء من آية ١١١ من سورة البقرة

٣) آخر الآية السابقة

٤) آية ١١٢ من سورة البقرة

ولا يحزن (١)

أما دعواهم أن فى القرآن الكريم مايشهد لهم بما قالوا فان ذلك ليس بصحيح فليس فى القرآن مايشير الى ذلك ، بل كل الآيات التى ذكروا لا دليل لهم فيها ألبتة ، وانما أولوها عن معانيها وحرفوها لتوافق دعواهم الباطلة .

وقولهم ان القرآن نزل بلغة العرب كما قال تعالى (أنا انزلنه قرأنا عربيا . . .) .

وقوله تعالى : (بلسان عربى مبين) .

وقوله تعالى : (ولو نزلنه على بعض الاعجمين ، فقرأن عليهم ماكانوا به مؤمنين) الخ

أما قوله تعالى : (انا أنزلنه قرأنا عربيا . .) ذلك لأن المنزل عليه عربى ، ولا يمكن أن ينزل عليه الا كتاب عربى بحيث يفهمه ويتعقله ، ويفهمه قومه ، ثم بعد ذلك يفهمونه للناس ، وهذا أمر طبعى ، ولأن لغة العرب أفصح اللغات وأبينها وأوسعها ، وأكثرها تأدية للمعانى التى تقوم بالنفوس ، فلهذا أنزل أشرف الكتب بأشرف اللغات على أشرف الرسل بسفارة أشرف الملائكة فى أشرف بقاع الأرض ، وبدأ نزوله فى أشرف شهور السنة : رمضان فكمل من كل الوجوه (٢)

وانى أقول للنصارى : ان كان الكتاب الذى أنزل على رسوله بلغته لا يلزم به غير أهل تلك اللغة فلم تلزمون الناس الذين يتكلمون بلغة

---

١) طالع تفسير ابن كثير عند الآية

٢) طالع ابن كثير جـ ٤ ص ٢٩٤ ط دار الشعب تحقيق عبد العزيز غنيم وزميليه

الا ناجيل بالدخول فى المسيحية اذا كان كتابكم نزل بلغتكم كما قلتم فى شبهتكم أن رسلكم سلمتكم التوراة والانجيل بلغتكم أى العبرية ، فعلى قولكم هذا لا يلزم أى انسان الايمان بالتوراة ولا بالانجيل الا اذا كان يهوديا أو نصرانيا ، وأنتم الآن وقبل الآن تخططون الخطط لادخال جميع الشعوب فى دين المسيحية ، وقد أدخلتم بالفعل كثيرا من الشعوب التى لا تتكلم بالعبرية ولا بالسريانية فلم تلزمون الناس أمرا لا يلزمهم ، وليسوا مطالبين به ؟ وأما احتجاجكم بقوله تعالى (بلسان عربى مبين) فيقال فيه مايقال فى الآية السابقة ، مع أنكم ذكرتم هذه الآية : (بلسان عربى مبين) وتركتم آيتين بعدها : هما قوله تعالى : (وانه لفى زبر الاولين ، أولم يكن لهم آية أن يعلمه علموابنى اسرائيل) وذكرتم الآية الثالثة : (ولو نزلنه على بعض الاعجميين) وفى تركتم للايتين دليل على تحريفكم ولعبكم بكتب الله ، ووضعكم لها حسب أهوائكم ، فالقرآن ومحمد صلى الله عليه وسلم فى كتب الانبياء التى أنزلت على أسلافكم وعلماء بنى ارسائل يعلمون ذلك ويكفيكم ذلك دليلا على أنكم مطالبون بما فى القرآن الكريم ، وليس فى الآية التى ذكرتم دليل على أنكم غير مطالبين برسالة محمد صلى الله عليه وسلم لان معناها : ولو نزلنا هذا القرآن على رجل من الاعاجم ممن لا يدرى من العربية كلمة وأنزل عليه هذا الكتاب ببيانه وفصاحته وبلاغته ، ثم قرأه على قومه لا يؤمنون به (٢) وقيل ان المعنى : ولو نزلنا هذا القرآن على بعض البهائم التى لا تفطن ، ذكر هذا القول ابن جرير وأورد فيه آثارا عن عبد الله بن مطيع ، فقد ساق بسنده اليه أنه كان واقفا بعرفة فقرأ هذه

---

١) آية ١٩٦-١٩٧ الشعراء

٢) ابن كثير جـ ٣ ص ٣٤٨ ط دار أحياء الكتب العربيه

الآية : (ولو نزلنه على بعض الاعجميين ، فقرأة عليهم ماكانوا به مؤمنين) قال : لو نزل على بعيرى هذا فتكلم به ما آمنوا به . لقالوا لولا فصلت آياته حتى يفقهه عربى وعجمى (١) . ولكن النصارى تعودوا ألا يأخذوا بمعانى نصوص القرآن الصحيحة وانما يؤولونه حسب رغباتهم ، والا فيكفيهم مارد الله عليهم به فى قوله : (أولم يكن لهم آية أن يعلمه علموا بنى اسرائيل) فان المعنى : أولم يكن لهؤلاء المعرضين وعلى رأسهم النصارى عما يأتيك يامحمد من ذكر من ربك دلالة على أنك رسول رب العالمين أن يعلم حقيقة ذلك وصحته علماء بنى اسرائيل (٢) واذا ثبت حقا أنه رسول من رب العالمين ، ودعا النصارى الى الدخول فى الاسلام وأخبرهم أنه مرسل اليهم لزمهم تصديقه لأن من ثبت أنه رسول وجب تصديقه فيما يخبر به عن ربه .

قال ابن كثير عند تفسير هذه الآية : (أولم يكن لهم آية ... مانصه وان ذكر القرآن والتنويه به لموجود فى كتب الأولين المأثورة عن أنبيائهم الذين بشروا به فى قديم الدهر وحديثه كما أخذ الله عليهم الميثاق بذلك حتى قام آخرهم خطيبا فى ملائه بالبشارة بأحمد (واذ قال عيسى ابن مريم ..) (٣) يضاف الى هذا أن الله أخذ الميثاق على الانبياء جميعا لئن بعث محمد وهم أحياء ليؤمنن به وينصرنه وأمرهم أن يأخذوا المواثيق على أممهم بذلك كما تقدم عن على بن أبى طالب وابن عباس وروى عن طاوس ، فهؤلاء النصارى الذين يقولون : نحن

---

١) أنظر ابن جرير جـ ١٩ ص ٦٩ - ٧٠ ط دار المعرفة بيروت

٢) أنظر ابن جرير فى الصفحة نفسها

٣) ابن كثير جـ ٣ ص ٣٤٧ ط دار احياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبى وشركاؤه .

لا تشملنا رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، وانما هى مقصورة على العرب الامّيين الذين لم يأتهم نذير قبل هذا الرسول أخذ عليهم عيسى المواثيق والعهود أن يؤمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم على نحو ما أخبر به على وابن عباس حبر الامّة وطاوس فاذا كانوا أتباع عيسى حقا آمنوا بما أخبرهم به عيسى وأمرهم به ومن ذلك الايمان نبينا صلى الله عليه وسلم وان كانوا أتباع الهوى والتشريع / البشرى والعقائد المفتعلة فدعواهم أن القرآن يشهد لهم بأنهم غير مطالبين باتباع محمد صلى الله عليه وسلم ما هى الا احدى الدعاوى التى يدعونها دائما ولا دليل لهم عليها من نقل ولا عقل .

ومما يؤيد مطالبة النصارى بشريعة نبينا صلى الله عليه وسلم واتباعه والايمان به أن عيسى عليه السلام اذا ظهر فى آخر الزمان يحكم بشريعة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وهذا أعظم دليل على أن الذين يدعون اتباع عيسى عليه السلام يجب عليهم أن يتبعوا محمدا صلى الله عليه وسلم : ففى صحيح مسلم :

حدثنا زهير بن حرب حدثنى الوليد بن مسلم حدثنا ابن أبى ذئب عن ابن شهاب عن نافع مولى أبى قتادة عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

(كيف أنتم اذا نزل فيكم ابن مريم فأمسكم منكم) فقلت لابن أبى ذئب ان الاوزاعى حدثنا عن الزهرى عن نافع عن أبى هريرة (وامامكم منكم) قال ابن أبى ذئب تدرى ما أمسكم منكم ؟ قلت تخبرنى قال فأمسكم بكتاب ربكم تبارك وتعالى وسنة نبيكم صلى الله عليه وسلم : (١)

---

(١) صحيح مسلم جـ ١ ص ١٣٧ المصدر السابق .

فالنصارى لا يخرجون فى زعمهم عن شريعة موسى وعيسى ، وموسى تقدم أن الرسول أخبر أهل زمنه أنه لو جاءهم واتبعوه وتركوه صلى الله عليه وسلم لضلوا ، وعيسى سوف ينزل فى آخر الزمان ويحكم بشريعة محمد صلى الله عليه وسلم ، فياليت شعرى ماذا يفعل النصارى بعد نزول عيسى حاكما بشريعة الاسلام ؟

وأما استدلالهم بقوله تعالى : (كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلوعليكم آيتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتب والحكمة ويعلمكم مالم تكونوا تعملون) وقوله تعالى : (لقد من الله على المؤمنين اذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلوا عليهم أيتنا ويزكيهم ويعلمهم الكتب والحكمة وان كانوا من قبل لفى ضلل مبين) على أن الرسول انما أرسل الى العرب فقط فليس فى هذا دليل لهم على ما ادعوه لانه ان كان الخطاب فى قوله : (رسولا منكم) لنوع البشر فيكون هذا امتنانا من الله على نوع البشر بأن أرسل اليهم رسولا من جنسهم ، ولم يرسل لهم ملكا لا يطيقون الاخذ عنه ولا الاتصال به ، ولا معرفة أحواله ، فمن عليهم بأن أرسل اليهم بشريا . وان كان الخطاب للعرب كما ادعوه فلم يتضمن تدعيم دعواهم ، وانما تضمن انعام الله على المخاطبين بارساله رسولا من جنسهم ، وليس فى هذا مايمنع ارساله الى غيرهم من الاجناس ، فهو صلى الله عليه وسلم بلا شك مرسل للجن وليس من جنسهم والنصارى أقرب الى العرب من الجن . (١)

أما الآية الثانية التى هى قوله تعالى : (لقد من الله على المؤمنين اذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم . . .) الآية : فان الخطاب فيهـــا

---

١) انظر الجواب الصحيح جـ ١ ص ١٦١

للمؤمنين ، والمؤمنون وقت نزولها فيهم العربى ، والرومى ، والفارسى والحبشى لأنها من سورة آل عمران ، وآل عمران مدنية ، وقد دخل فى ذلك الزمن والذى سبقة اناس فى الاسلام من مختلفى الأجناس ، كسلمان وصهيب ، وبلال ، وعبد الله بن سلام ، وغيرهم . فان كانت من العام الذى أريد به الخصوص ويكون المراد المؤمنين من قومه فقد قدمنا أن ذلك لا يمنع من ارسالة لغيرهم ، ويكون هذا منة من الله على هؤلاء القوم دون غيرهم بأن جعل هذا الرسول منهم ، وأن كان المراد بها جميع المؤمنين كما حكاه القرطبى ، وعليه يكون المعنى ، أنه واحد منهم وبشر مثلهم ، وانما امتاز عنهم بالوحى (١) وقال القرطبى أيضا عند تفسيره لآية التوبة : (لقد جاءكم رسول من أنفسكم ..) (٢) بعد أن ذكر أن الخطاب للعرب عند الجمهور مانصه : وقال الزجاج هى مخاطبة لجميع العالم والمعنى : لقد جاءكم رسول من البشر ، والأول أصوب (أى قول الجمهور) والقول الثانى أوكد للحجة يعنى قول الزجاج (٣) وعلى أية حال سواء على قول الجمهور فقد قدمنا أنه لا دليل فيه للنصارى ، أو على مقابلة فمن باب أولى .

وأما استدلالهم بقوله تعالى : (لتنذر قوما ما أتيهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون) (لتنذر قوما ما أنذر آباؤهم فهى غفلون) .

فليس فى الآيتين أيضا دليل لهم على دعواهم بخصوصية الرسالة بالعرب لأن انذاره للعرب لا ينافى انذاره لغير العرب ، وكون العرب لم يأتهم نذير لا يلزم منه أنه ان جاءهم نذير لا ينذر غيرهم ، فالله جل

---

١) القرطبى جـ ٤ ص ٢٦٤ طـ دار الكتاب العربية للطباعة والنشر

٢) جزء من آية ١٢٨ من سورة التوبة

٣) القرطبى جـ٨ ص ٣٠١ المصدر السابق

ولما قال لنبيه : (وأنذر عشيرتك الأقربين ، والاجماع على أن الانذار يتناول غير عشيرته الأقربين فأى دلالة على أنه اذا أمر بانذار العرب لا يصح أن ينذر غيرهم .

وفى معنى الآية أوجه عند أهل التفسير ، فبعض المفسرين يقول : المراد بقوله : (... قوما ما أنذر آباؤهم ...) العرب لأنهم لم يرسل اليهم رسول قبل نبينا صلى الله عليه وسلم ، وهذا القول بعيد لأنه من المعلوم أن اجداد هؤلاء العرب أرسل اليهم اسماعيل عليه السلام ، وكأنه لطول المدة بينه وبين نبينا صلى الله عليه وسلم واندراس شريعته قبل ذلك ،

وقيل : انما قيل ذلك لانقطاع بعثته بموته وأنه لم يرسل اليهم نبى بعده قبل محمد صلى الله عليه وسلم (١) .

وقال الزمخشرى عند تفسير آية القصص هذه : المراد بعدم اتيان النذير انما هو فى زمن الفترة بين نبينا صلى الله عليه وسلم وبين عيسى عليه السلام وهى خمس مائة وخمسون سنة (٢)

---

١) طالع روح المعانى للالوسى جـ ٢٠ ص ٨٧ - ٨٨ ط. احياء التراث العربى

٢) قلت مانقله الزمخشرى من كون مدة الفترة بين نبينا صلى الله عليه وسلم وبين عيسى خمس مائة وخمسين سنة يرده ما فى صحيح البخارى عن سلمان موقوفا قال : فترة بين عيسى ومحمد صلى الله عليه وسلم ست مائة سنة صحيح البخارى : جـ ٥ ص ٩٠ فى باب اسلام سلمان فى كتاب مناقب الأنصار . وقال الحافظ ابن حجر: والمراد بالفترة : المدة التى لا يبعث فيها رسول من الله ، ولا يمتنع أن ينبأ فيها من يدعو الى شريعة الرسول الأخير ، ونقل ابن الجوزى الاتفاق على ما اقتضاه حديث سلمان ، وتعقب بأن الخلاف فى ذلك ، فعن قتادة أنها

ونحوه قوله : لينذر قوما أنذر آباؤهم (١)

وعلى كل حال سواء كان العرب أنذروا قبل محمد صلى الله عليه وسلم أولم ينذروا فانذارهم بنذير منهم لا يقتضى عدم انذاره لغيرهم ،

ولقد أفاد ابن كثير حيث يقول عند تفسير آية يس (لتنذر قوما ما أنذر آباؤهم فهم غفلون) يعنى بهم العرب فانه ما آتاهم من نذير من قبله ، وذكرهم لا ينفى من عداهم ، كما أن ذكر بعض الافراد لا ينفى العموم ، وقد تقدم ذكر الآيات والاحاديث المتواترة فى عموم رسالته صلى الله عليه وسلم عند قوله تعالى :

خمس مائة وستون أخرجه عبد الرزاق عن معمر عنه ، وقيل : هى خمس مائة وأربعون ، وقيل : أربع مائة سنة . فتح البارى جـ ٧ ص ٢٧٧ ط السلفية . قلت وماروى من أن بين عيسى ومحمد صلى الله عليه وسلم رسول من العرب اسمه خالد بن سنان يرده ما فى الصحيحين عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم فى الاولى والآخرة قالوا كيف يارسول الله ؟ قال : الانبياء اخوة من علات وأمهاتهم شتى ودينهم واحد فليس بيننا نبى . البخارى فى كتاب الانبياء ، ومسلم فى كتاب الفضائل فى باب فضل عيسى .

(١) الكشاف جـ ٣ ص ١٨٢ ط دار المعرفة بيروت

(قل يأيها الناس انى رسول الله اليكم جميعا) (١) هذا ولم يتفق المفسرون على أن (ما) فى الآية نافية ، بل قال بعضهم انها مصدرية ، وقال بعضهم انها موصولة ، قال أبو حيان : (ما أنذر) قال عكرمة بمعنى الذى أى الشىء الذى أنذره آباؤهم من العذاب فما مفعول ثان كقوله : (انا أنذرنكم عذابا قريبا) (٢) .

قال ابن عطية : ويحتمل أن تكون ما مصدرية أى ما انذر آباؤهم والآباء على هذا هم الأقدمون من ولد اسماعيل ، وكانت النذارة فيهم ، وفهم على هذا التأويل بمعنى فانهم .. وقال قتادة : (ما) نافية أى أن آباءهم لم ينذروا ،

فآباؤهم على هذا هم القريبون منهم (٣) .

فظهر مما ذكرنا أن النفى فى الآية لا يقطع به ، وأن العرب آباؤهم الأولون أنذروا على لسان اسماعيل ، وآباؤهم الأقربون لم ينذروا ، فاذا كان فى عدم انذار العرب بنذير قبل محمد صلى الله عليه وسلم حجة للنصارى فى عدم الزامهم برسالة نبينا صلى الله عليه وسلم فقد بطلت الحجة ، وثبت أن المراد بنفى الانذار انما هو نفيه عن آبائهم الأقربين مع أنه لو بقى النفى على ظاهرة وكان آباء العرب لم ينذروا جميعا لا دليل لهم فى ذلك كما تقدم تقريره .

---

١) تفسير ابن كثير جـ ٣ ص ٥٦٣ - ٥٦٤ ط دار احياء الكتب العربية الحلبى وأولاده .

٢) جزء من آية ٤٠ من سورة النبا

٣) البحر المحيط لأبى حيان جـ ٧ ص ٣٢٣ ط دار الفكر

وأما استدلالهم بقوله تعالى : (وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه ليبين لهم ...) وقوله . (ولقد أرسلنا من قبلك رسلا الى قومهم فجاءوهم بالبينات ...)

فليس في هاتين الآيتين أيضا دليل على دعواهم : نعم ان قومه صلى الله عليه وسلم هم العرب عموما ، وقريش خصوصا ، ونزل عليه القرآن بلسان قومه ، وليس في هذا دليل على عدم ارساله الى غيرهم ، لأن الله لم يقل وما أرسلنا من رسول الا الى قومه ، فالرسل الذين خصهم بالرسالة الى أقوامهم بين لهم ذلك وصرح لهم به فقال : (انا أرسلنا نوحا الى قومه ...) وقال في هود (والى عاد أخاهم هودا الى غير ذلك مما قدمنا في القسم الأول من هذا الباب ، وقد تقدم حديث مسلم وفيه : وكان كل نبي يبعث الى قومه خاصة وبعثت الى كل أحمر وأسود ، فالله جل وعلا أرسل نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم بلسان قومه ليبين لهم أولا ، ثم بعد ذلك يحصل البيان لغيرهم ، ولو لم يبين لقومه أولا لم يحصل مقصود الرسالة لا لهم ولا لغيرهم ، فاذا بين لقومه أولا وفهموا عنه حصل البيان للآخرين بشتى الطرق الكثيرة ،

وأما قولهم : انهم جاءتهم رسل من قبل نبينا صلى الله عليه وسلم مستدلين بذلك على عدم الزامهم برسالة نبينا فليس في هذا ما يؤيد دعواهم لأن بني اسرائيل جاءهم موسى رسولا من الله ، ثم تتابعت عليهم الرسل بعد ذلك ، فلو كان كل أناس أرسل الله اليهم رسولا يمنعهم ذلك من مجيء رسول آخر لما أرسل الله الى بني اسرائيل رسولا بعد موسى عليه السلام ، والرسل تتابعت على بني اسرائيل من بعده ، وآخرهم عيسى ومن لم يؤمن به منهم فقد كفر ، وبهذا بطلت دعواهم ولزمهم اتباع محمد (صلى الله عليه وسلم) ،

فكل من لم يؤ من به بعد رسالته ممن بلغته دعوته فهو كافر ، كما أن من لم يؤمن بالمسيح من بنى اسرائل كافر ، ولا ينفعه ايمانه بموسى ، فكذلك النصارى اذا آمنوا بعيسى عليه السلام وكفروا بمحمد صلى الله عليه وسلم ، لأن من كذب رسولا واحدا من رسل الله فقد كذب جميع الرسل كما تقدم الاستشهاد على ذلك بآية البقرة : (أمن الرسول . .) الآية وغيرها .

والله جل وعلا أخبر عن قوم نوح ، وقوم لوط ، وقوم هود ، وقوم صالح أنهم كذبوا المرسلين مع أن قوم نوح لم يكذبوا الا نوحا ، وقوم لوط لم يكذبوا الا لوطا ، وكذلك قوم صالح ، وقوم هود ، فدل هذا على أن من اتاهم رسول من الله وآمنوا به ثم جاءهم رسول آخر وجب عليهم الايمان به والا كانوا كفارا (١)

وأما قولهم : ان العقل يشهد لهم بما ادعوه من عدم شمول دعوة محمد صلى الله عليه وسلم لهم ، فان هذه دعوه لا أساس لها من الصحة ، بل العقل يشهد بضد ماقالوا : وذلك أن الله تعالى أدرى بمصالح العباد من أنفسهم ،

ولما كان يعلم أن العباد لابد لهم من تشريع الهى يسيرون فى ظله لأن التشريع غير الالهى لا يضمن للعباد مصالحهم فى معاشهم ولا معادهم وكان قد ختم الشرائع بشريعة محمد صلى الله عليه وسلم ، وختم الرسل به كما أخبر بذلك فى قوله :

(ماكان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين) (٢)

---

١) أنظر الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح جـ ١ ص ١٩٦ فما بعدها .
٢) جزء من آية ٤٠ من سورة الأحزاب .

وثبت فى صحيح مسلم أنه قال : (وختم بى النبيون) كما تقدم الحديث بكامله .

لهذا كله تعين عقلا بعد الثبوت نقلا ان جميع المكلفين مطالبون برسالة محمد صلى الله عليه وسلم لأنها هى الرسالة التى ختمت بها الرسالات وصاحبها ختم به الرسل ، وشريعتها نسخت جميع الشرائع ، فالعقل الصحيح يشهد بهذا ولا يشهد للنصارى بما ادعوه من شهادة العقل لهم على عدم مطالبتهم برسالته صلى الله عليه وسلم .

وأما قولهم : ان محمدا صلى الله عليه وسلم أثنى على دينهم بما يوجب لهم التمسك به ، فأقول فى ذلك : ان ثناء رسول الله صلى الله عليه وسلم على المسيح ابن مريم وأمه وعلى من اتبعه وكان على دينه الذى لم يبدل فهذا حق لأن عيسى يستحق الثناء وكذلك أمه ومن اتبعه بحق ، وهو لا ينافى وجوب اتباعه صلى الله عليه وسلم على من بعث اليه ، فلو قدر أن شريعة عيسى لم تبدل ، وأن محمدا أثنى على كل من اتبعها ، وقال مع ذلك ان الله أرسلنى اليكم لم يكن متناقضا ، واذا كفر من لم يؤمن به لم يناقض ذلك ثناؤه عليهم قبل أن يكذبوه ، فكيف وهو انما مدح من اتبع دينا لم يبدل ، أما الذين بدلوا دين المسيح فلم يثن عليهم ولم يمدحهم ، بل ذمهم كما قال :

(ومن الذين قالوا انا نصرى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظا مما ذكروا به فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء الى يوم القيمة وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون (١) فالنصارى كفروا بتبديلهم وتحريفهم التوراة وكفروا بتكذيبهم وتحريفهم الانجيل ومن لم يبدل منهم ولم يحرف ولم يكفر بعيسى ومات على ذلك أو أدرك محمدا وآمن به فانه يستحق الثناء (٢) اهـ

---

١) آية ١٤ من سورة المائدة

٢) طالع الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح جـ ١ ص ٢٧٥

وبهذا تكون أبطلنا هاتين الشبهتين وأثبتنا أن النصارى ملزمون برسالة محمد صلى الله عليه وسلم ولا ينفعهم ما يتشبثون به من الدعاوى الباطلة من كونهم غير ملزمين بها ومن كون علميتها كانت غامضة في زمنه صلى الله عليه وسلم ، وأن عالميتها فكرة طرأت بعد موته كل هذا تبين فساده . ا هـ .

قوله تعالى : (الله الذى له مافى السموات ومافى الأرض وويل للكفرين من عذاب شديد)

معنى الآية : أن الله الذى يملك جميع من فى السموات ومن فى الأرض يقول لنبيه صلى الله عليه وسلم أنزلت اليك هذا الكتاب لتدعو عبادى الى عبادة من هذه صفته ، وبدعواعبادة من لا يملك لهم ولا لنفسه ضرا ولا نفعا من الآلهة والأوثان ، ثم توعد جل وعلا من كفربه ولم يستجب لدعاء رسوله الى ما دعا اليه من اخلاص التوحيد له فقال :

(وويل للكفرين من عذاب شديد) يقول : ان الوادى الذى يسيل من صديد أهل جهنم لمن جحد وحدانيته وعبد معه غيره من عذاب الله الشديد . (١)

قوله تعالى :

(الذين يستحبون الحيوة الدنيا على الآخرة ويصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا اولئك فى ضلل بعيد)

الذين يستحبون : مبتدأ خبره أولئك فى ضلل بعيد ، ويصح أن يكون مجرورا صفة للكافرين أو منصوبا على الذم ، والاستحباب استفعال من المحبة لأن المؤثر للشىء على غيره كأنه يطلب من نفسه أن يكون أحب

أ) طالع تفسير ابن جرير ج ١٣ ص ١٢١ طـ دار المعرفة للطباعة والنشر بيروت

اليها وأفضل عندها من غيره ، فهؤلاء فضلوا لذات الدنيا الفانية على نعيم الآخرة الباقي ، وصدوا الناس عن سبيل الله ، وكانوا يبغونها عوجا ، أى منعوا الناس من الدخول في سبيل الله وحالوا بينهم وبين الاسلام وكانوا يبغون أن تكون طريقة عوجا ، ويصح أن تكون من صد اللازم أى صدوا عن سبيل الله ، وان كان كل من أصد الناس عن سبيل الله صد عنه لا محالة ، اولئك الذين صدوا عن سبيل الله ، وطلبوا السبيل الله زيغا واعوجاجا ويوهمون الناس أنها ناكبة عن الحق غير مستوية في ضلل بعيد ، أى فيه بعد ، أو ذى بعد لأن الضال قد يضل عن الطريق مكانا قريبا وبعيدا ، وقال القرطبي : و يبغونها عوجا أى يطلبون لها زيغا وميلا لموافقة أهوائهم وقضاء حاجاتهم وأغراضهم ، والسبيل تذكر وتؤنث ، والعوج بكسر العين في الدين والأمر والأرض وفي كل ما لم يكن قائما ، وبفتح العين في كل ماكان قائما كالحائط والرمح ونحوه أولئك في ضلال بعيد أى ذهاب عن الحق بعيد عنه . (٢)

قوله تعالى : (وماارسلنا من رسول الا بلسان قومه ليبين لهم فيضل الله من يشاء ويهدى من يشاء وهو العزيز الحكيم)

يقول تعالى : وأرسلنا من رسول قبلك يامحمد الا بلسان قومه أى بلغتهم ليبينوا لهم أمر دينهم ، ووحد اللسان وان أضافه للقوم لأن المراد اللغة فهى اسم جنس يقع على القليل والكثير .

ولا حجة للعجم وغيرهم في هذه الآية لأن كل من ترجم له ما جاء به النبى صلى الله عليه وسلم ترجمة يفهمها لزمته الحجة ، وقد قال الله

---

١) طالع الكشاف جـ ٢ ص ٣٦٦

٢) القرطبي جـ ٥ ص ٣٥٦٩ ط

تعالى (وما أرسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيرا ...) وقال صلى الله عليه وسلم : (والذى نفسى بيده لا يسمع بى أحد من هذه الامة يهودى ولا نصرانى ثم يموت ولم يؤمن بالذى أرسلت به الا كان من أصحاب النار) (١)

وقوله : (فيضل الله من يشاء ويهدى من يشاء : استئناف وليس بمعطوف على ليعبدون لأن الارسال وقع للتبيين بخلاف الاضلال ،

(وهو العزيز) الذى ماشاء كان ومالم يشأ لم يكن ، (الحكيم) فى أفعاله فيضل من يستحق الاضلال ، ويهدى من هو أهل لذلك :

قال ابن كثير عند تفسير هذه الاية : وقد كانت هذه سنته فى خلقه أنه مابعث نبيا فى أمة الا أن يكون بلغتهم فاختص كل نبى بابلاغ رسالته الى أمته دون غيرهم ، واختص محمد بن عبد الله رسول الله صلى الله عليه وسلم بعموم الرسالة الى سائر الناس كما ثبت فى الصحيحين عن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(أعطيت خمسا لم يعطهن أحد من الانبياء قبلى : نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت لى الارض مسجدا وطهورا ، وأحلت لى الغنائم ولم تحل لاحد قبلى ، وأعطيت الشفاعة ، وكان النبى يبعث الى قومه خاصة وبعثت الى الناس عامة (٢)

قال الزمخشرى ... وقيل : الضمير فى قومه لمحمد ، صلى الله عليه وسلم ، وروى عن الضحاك وأن الكتب كلها نزلت بالعربية ثم أداها كل

---

١) تقدم تخريجه
٢) تقدم تخريجه

نبى بلغة قومه ، ثم قال : وليس بصحيح لأن قوله : ليبين لهم ضمير القوم وهم العرب فيؤدى الى أن الله أنزل التوراة من السماء بالعربية ليبين للعرب وهذا معنى فاسد اهـ (١) .

الدعوة فى الآيات

اشتملت هذه الآيات الأربع على بعض أهداف الدعوة ، ووسائلها وأساليبها .

١- اشتملت الآية الأولى على أعظم أهداف الدعوة الى الله وأهمها وهو الايمان بالله تعالى ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، واخراج الناس من ظلمات الكفر الى نور الايمان ، ومن ظلمات الجهل بالله الى نور العلم به وتوحيده ، دل على هذا قوله تعالى : (... لنخرج الناس من الظلمات الى النور ...)

٢- يستفاد من عموم (الناس) أن الداعية يدعو جميع الناس وجميع الشعوب يدعو الكافر ليخرجه من ظلمة الكفر الى نور الايمان ، ويدعو الجاهل ليعلمه فيخرج من ظلمة الجهل الى نور العلم ، ويدعو الشاك ليخرجه من حيرة الشك الى حقيقة اليقين ، ويدعو المؤمن العاصى ليتوب ويفيق من هفوة المعصية الى نور الهدى .

٣- اشتملت الآية الثانية على قسمين من أقسام التوحيد ، وهما توحيد الألوهية والربوبية ، وذلك فى قوله تعالى : (الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ...)

---

١) الكشاف جـ ٢ ص ٣٦٧ المصدر السابق

فأخبر تعالى فى الآية أنه المالك للسماوات والأرض ومافيهما وما بينهما ، والمدبر لشؤنهما والخالق لمن فيهما والمحى والمميت والرازق وهذا هو توحيد الربوبية .

واذا ثبت هذا الأجل وصلا وجب أن يكون هو المعبود وحده حقا لأنه هو المستحق للعبادة فوجب صرف جميعها له وخلع جميع المعبودات سواه وهذا هو توحيد الألوهية ، والتوحيد بأنواعه هدف سام من أهداف الدعوة .

٤- فى عجز الآية الثانية أيضا أسلوب من أساليب الدعوة الى الله وهو : اسلوب الترهيب . وذلك فى قوله (. . . وويل للكفرين من عذاب شديد) حيث أخبر تعالى عن المكذبين بدعوة الرسل أن لهم العذاب الشديد فيأخذ الداعية من هذا أن يستعمل أسلوب الترهيب لأن بعض المدعوين أوقع فى قلبه الترهيب ، وأدعى لاستجابته ، وبعضهم أوقع فى قلبه الترغيب وأدعى لاستجابته فيستعمل الداعى ذاك لأولئك ويستعمل هذا لهؤلاء .

٥- فى الآية الثالثة بيان هدف من أهداف الدعوة وهو : تحقير الحياة الدنيا وبيان عاقبة من فضل الاستمتاع بلذاتها الفانية على الاستمتاع بلذات الآخرة الأبدية ، وهذا هدف من أهداف الدعوة ينبغى للداعية التركيز عليه ، وذلك فى قوله : (الذين يستحبون الحيوة الدنيا على الآخرة . . .)

٦- فى الآية الرابعة وسيلة من وسائل الدعوة من أسباب نجاحها أشارت لها الآية وهى معرفة الداعى لغة من يدعوهم فينبغى له أن يكون متخصصا فى لغة قومه الذين يريد دعوتهم أو على الأقل عنده من لغتهم مايحصل به التفاهم اذ الدعوة لا تمكن بدون تفاهم ، وذلك فى قوله - ١١ .

(وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه ليبين لهم . . .) اهـ

اَلبَابُ اَلثَّانِى

الباب الثانـــى

دعوة نوح ، وهود ، وصالح ، وموسى عليهم السـلام

يشتمل هذا الباب على مايلى :

١- تفسير الآية التى ذكرت عندها هذه الرسل وبيان من المخاطب بها .

٢- أربعة فصـول :

١- الفصل الأول فى منهج نوح فى دعوته وأسلوبه فيها والمعجزة التى أيده الله بها تصديقا له .

٢- الفصل الثانى فى منهج هود عليه السلام فى دعوته وأسلوبه فيها والمعجزة التى أيده الله بها .

٣- الفصل الثالث فى منهج صالح فى دعوته وأسلوبه فيها ومعجزته التى أيده الله بها .

٤- الفصل الرابع فى منهج موسى عليه السلام فى دعوته وأسلوبه فيها والآيات التى أيده الله بها تصديقا له .

٥- بيان الدعوة فى الآية الكريمة .

قوله تعالى : (ألم يأتكم نبوء الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم الا الله جاءتهم رسلهم بالبينت فردوا أيديهم فى أفواههم وقالوا انا كفرنا بما أرسلتم به وانا لفى شك مما تدعوننا اليه مريب)

تفسير الآية :

من المخاطب بهذه الآية ومن المخاطب بها ؟

اختلف المفسرون فى هذا الخطاب على ثلاثة أقوال :-

١- قال بعضهم ان هذا خطاب من موسى لقومه ، وعليه يكون داخلا تحت التذكير بأيام الله الذى أمره الله به فى قوله (... وذكرهم بأيم الله)

٢- قال قوم انه ابتداء كلام من الله تعالى خطابا لقوم موسى ، وتذكيرا لهم بالقرون الاولى وأخبارهم ومجىء الرسل اليهم ، وهذا القول استظهره أبو حيان .

٣- قال آخرون انه ابتداء خطاب من الله سبحانه لقوم محمد صلى الله عليه وسلم وتحذيرهم عن مخالفته ، وتخويف لهم بما حل بالامم السابقة من العذاب لما كذبوا رسلهم .

والذى رجحه ابن جرير أن هذا خطاب من موسى لقومه فانه قال : يقول تعالى ذكره مخبرا عن قيل موسى لقومه : ياقوم (ألم يأتكم نبوء الذين من قبلكم ...) يقول خبر الذين من قبلكم من الامم التى مضت قبلكم ، قوم نوح وعاد وثمود ... وعاد معطوف بها على قوم نوح ، والذين من بعدهم يعنى من بعد قوم نوح وعاد وثمود (... لا يعلمهم الا الله ...)

يقول : لا يحصى عددهم ولا يعلم مبلغهم الا الله ،

ثم ذكر آثارا عن ابن مسعود وغيره تدل على أن معنى لا يعلمهم الا الله أى لا يعلم عددهم الا الله سبحانه وتعالى ، وأن ابن مسعود كان اذا قرأ هذه الآية قال كذب النسابون . (١)

وقال ابن كثير : ان قول ابن جرير هذا فيه نظر ، وقال ان الأظهر أن هذا خبر مستأنف من الله تعالى لهذه الأمة فانه قد قيل : ان قصة عاد وثمود ليست فى التوراة فلوكان هذا من كلام موسى لقومه وقصصه عليهم لا شك أن تكون هاتان القصتان فى التوراة والله أعلم (٢) ، وصدر أبو السعود بالقول الأول ، ورجحه واستبعد غيره فانظره .

وقال بعض العلماء : ان المراد بقوله : (. . . لا يعلمهم الا الله) أمم ما بلغتنا أخبارهم ، كذبوا رسلهم لم نعرفهم ، ولا يعرفهم الا الله سبحانه ،

والقائلون بهذا القول طعنوا أيضا فى أقوال من يصل الانساب من النسابين الى آدم عليه السلام ، وقال ان نظير هذه الآية قوله (. . . وقرونا بين ذلك كثيرا (٣)

وقوله : (ولقد أرسلنا رسلا من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك . . .) (٤)

وقوله : (ورسلا قد قصصنهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك) (٥)

---

١) تفسير ابن جرير جـ ١٣ ص ١٢٥ المصدر السابق .

٢) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٥٢٤ طـ دار احياء الكتب العربية .

٣) جزء من آية ٣٨ من سورة الفرقان

٤) جزء من آية ٧٨ من سورة غافر

٥) جزء من آية ١٦٤ من سورة النساء

ورجح الفخر الرازى فى تفسيره هذا القول الأخير ، قال : لأن قوله تعالى : (... لا يعلمهم الا الله ...) نفى للعلم بهم ، وذلك يقتضى نفى العلم بذواتهم اذ لو كانت ذواتهم معلومة وكان المجهول هو : مدد أعمارهم وكيفية صفاتهم لما صح نفى العلم بذواتهم . (١)

وعلى كل حال فان الاستفهام فى قوله : (ألم يأتكم ...) للتقرير والتوبيخ .

وقوله : والذين اما فى محل جر على أنه معطوف ، اما على الذين ، أو على قوم نوح وعاد وثمود ، واما فى محل رفع مبتدأ خبره قوله : لا يعلمهم الا الله (٢)

وأقول : سواء كان الخطاب من موسى لقومه ، أومن الله لقوم موسى ، أومن الله لقوم محمد صلى الله عليه وسلم ، فان فيه التقرير لدعوة الرسل ومجيئهم لأممهم ، وفيه توبيخ المخاطبين باعراضهم عن دعوة الرسل وتهديدهم بما حل بمن سبقهم من الأمم المكذبة وتحذيرهم من تلك العواقب السيئة ،

وكل هذا من أساليب الدعوة التى اشتملت عليها هذه السورة الكريمة وقوله : (... جاءتهم رسلهم بالبينت فردوا أيديهم فى أفواههم وقالوا انا كفرنا بما ارسلتم به وانا لفى شك مما تدعوننا اليه مريب)

هذا بيان لأحوال الأمم والرسل الذين كذبوا ،

يقول : جاءت هؤلاء الأمم رسلهم الذين أرسلهم الله اليهم بدعائهم الى اخلاص العبادة له بالبينات يعنى بالحجج الواضحات

---

١) تفسير الفخر الرازى : جـ ١٩ ص ٨٨ - ٨٩ المصدر السابق

٢) طالع البحر المحيط جـ ٥ ص ٤٠٨ المصدر السابق

والدلالات البينات الظاهرات على حقيقة ما دعوهم اليه معجزات (١)

موقف الكفار من سماع دعوة الرسل

وقد اختلف المفسرون فى معنى قوله تعالى : (فردوا أيديهم فى أفواههم ...) وذكروا أقوالا كثيرة والكثير منها متقارب وكلها يؤول الى تكذيب الأمم لرسلهم وكفرهم بما جاءوهم به من الحق .

القول الأول وهو قول الأكثر ورجحه ابن جرير أن المعنى أن الكفار لما سمعوا كلام الرسل ودعوتهم الى توحيد الله رد الكفار أيديهم فى أفواههم وعضوا عليها غيظا على الرسل مما جاءوهم به ، وهذا المعنى وصف الله به المنافقين فى قوله (... واذا لقوكم قالوا آمنا واذا خلوا عضوا عليكم الانامل من الغيظ ...) (٢)

وهذا المعنى معروف شائع فى كلام العرب ومنه قول الشاعر :

: لو أن سلمى أبصرت تخددى (٣) ∴ ودقة فى عظم ساقى ويدى

وبعد أهلى وجفاء عودى ∴ عضت من الوجد بأطراف اليد

٢- وقال قوم ان معنى ذلك أن الكفار سمعوا كلام الرسل عجبوا منه ووضعوا أيديهم على أفواههم .

٣- وقال آخرون ان المعنى : أن الكفار كانوا يضعون أيديهم على أفواه الرسل رداً عليهم قولهم وتكذيبا لهم ، وعليه يكون ضمير أيديهم للكفار ، وضمير أفواههم للرسل .

٤- وقال قوم إن المعنى : أن الكفار أخذوا أيدى الرسل ووضعوها فى

---

١) طالع تفسير ابن جرير جـ ١٣ ص ١٢٥- ١٢٦ المصدر السابق

٢) جزء من آية ١١٩ من سورة آل عمران

٣) التخدد اضطراب اللحم من الهزال

أفواه الرسل ليسكتوهم ويقطعوا كلامهم وعزا القرطبي هذا القول لمقاتل وعليه فالضمير ان للرسل .

٥- وقال بعضهم : ان هذا مثل أريد به أنهم كفوا وأمسكوا عن الجواب وامتنعوا مما أمروا به .

وهذا القول مردود لأن الله صرح بأنهم أجابوا الرسل بقولهم :

(... انا كفرنا بما أرسلتم به ...) الى غير ذلك من الأقوال (١)

وقولهم : (... وانا لفي شك مما تدعوننا اليه مريب) هذا تتمة لفعل الأمم المكذبة لرسل الله ، لما سبق من بعضهم أنا ملهم من الغيظ على الرسل من أجل أن دعوهم الى توحيد الله وترك عبادة ماسواه لم يكتفوا بذلك حتى قالوا : انا كفرنا بما أرسلكم به من أرسلكم في زعمكم من الدعاء الى ترك عبادة الأوثان ، وانا لفي شك من حقيقة ما تدعوننا اليه من توحيد الله مريب أي موجب للريبة ، وقولهم واننا لفي شك لا ينافي كفرهم القطعي بما أرسلت به الرسل من البينات فانهم كفروا بها قطعا حيث لم يهتدوا بها ، ولم يجعلوها من جنس المعجزات ولذلك قالوا (فأتونا بسلطان مبين) (٢)

قلت : وهذه سنة الله في الأمم فما من رسول أتى قومه الا كذبوه كما قال تعالى : (ثم أرسلنا رسلنا تترا كل ما جاء امة رسولها كذبوه) (٣)

وقال تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : (فان كذبوك فقد كذب رسل من قبلك جاءو بالبينت والزبر والكتب المنير) (٤) والآيات الدالة على هذا كثيرة جدا .

---

١) ذكر هذه الأقوال ابن [illegible] والقرطبي وغيرهما عند / تفسير هذه الآية فأنظرهما هنا .

٢) انظر تفسير أبي السعود هنا

٣) جزء من آية ٤٤ من سورة المؤمنون

٤) آية ١٨٤ من سورة آل عمران .

الفصل الاوّل : نـوح عليه السلام

من هو نـوح ؟

هو نوح بن لامك بن متوشلخ بن خنوخ . وهو ادريس بن يرد بن مهلا ييل بن قينن بن أنوش بن شئث بن آدم أبى البشر عليه السلام كان مولده بعد وفاة آدم بمائة وست وعشرين سنة فيما ذكره ابن جرير وغيره (١)

لقد كان سبب عقد هذا الباب لهؤلاء الرسل الاربعة هو أن ثلاثة منهم ذكروا فى هذه الآية المتقدمة ، وهم نوح وهود وصالح ، أمـا موسى فانه ذكر فى الآية التى قبلها مباشرة ، وقد كان نوح عليه السلام من أعظم الدعاة الى الله عز وجل ،

وقد رسم للدعاة منهجا حكيما فى دعوته يسيرون عليه ،

فقد أشتهر بالصبر على الدعوة ، وتحمل الاذى فيها ، والتغاضى عن زلات قومه والنصح لهم ، ولين الجانب معهم ،

كما سلك معهم الاساليب الحكيمة بالحكمة والموعظة والحسنة الى غير ذلك مما سنقف ان شاء الله فى مناهجه وأساليبه فى دعوته فى هـذا / عليه الفصل . وجل ذلك مأخوذ من كتاب الله لأن قصة نوح عليه السلام ذكرت مبسوطة فى عشر سور من القرآن .

١ - فى سورة الاعراف ٢ - فى سورة يونس ٣ - فى سورة هود - فى سورة الانبياء ٥ - فى سورة قد أفلح المؤمنون ٦ - فى سورة الشعراء ٧ - فـى سورة العنكبوت ٨ - فى سورة الصافات ٩ - فى سورة الفرقان - ١٠ - فى سورة نوح .

---

١) انظر البداية والنهاية لابن كثير جـ ١ ص - ١٠٠ - ١٠١ ط الثانية مكتبة المعارف بيروت .
وابن جرير فى التاريخ جـ ١ ص ١٧٣ وماقبلها فى قصة آدم ذكر ذلك فى كلام طويل يتلخص منه النسب

كما ذكر أسمه ووسط لقصته في سور كثيرة ، كما في سورة النساء والاسراء ، والتوبة ، وابراهيم ، وغير ذلك مما هو كثير جدا (١)

منهجه في دعوته

ما المراد بالمنهج وما المراد بالاسلوب ؟

ج المراد بالمنهج : المبادىء العامة التي تدعو اليها بها الرسل لتكون منارات للدعاة في دعوتهم .

والمراد بالاسلوب : الصور اللغوية والبيانية التي تردعلى ألسنة الرسل في دعوتهم من كونها خبرا أو انشاء أمرا أونهيا ، أو استفهاما حوارا أو قصصا وما الى ذلك مما هو كثير .

ان المنهج العام للرسل في دعوتهم هو : الدعوة الى توحيد الله تعالى وافراده بالعبودية ونبذ عامة الشركاء كما قال تعالى :

(ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطغوت) (٢)

وقال تعالى : (وما أرسلنا من قبلك من رسول الا نوحي اليه أنه لا اله الا أنا فاعبدوه) (٣)

وقال تعالى : (وسئل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن الهة يعبدوه) (٤)

فما من نبي بعثه الله تعالى الا دعا الناس لعبادة الله وحده وترك عبادة ماسواه من الاصنام ،

---

١) طالع قصص الانبياء لابن كثير جـ ١ ص ٤ ٧ فما بعدها ومطالع قصص الانبياء للنجار

٢) جزء من آية ٣٦ من سورة النحل

٣) آية ٢٥ من سورة الانبياء

٤) آية ٤٥ من سورة الزخرف .

وكان نوح عليه السلام أول رسول بعثه الله الى أهل الارض كما فى حديث الصحيحين وذلك لانه لما انتشر الفساد فى الارض وعم البلاء بعبادة الاصنام بعث الله نوحا الى أهل الارض يدعوهم الى عبادة الله وحده .

ففى حديث الشفاعة الطويل عن أبى هريرة رضى الله عنه .....

(فيأتون نوحا فيقولون يانوح أنت أول الرسل الى الارض وسماك الله عبدا شكورا ألا ترى الى مانحن فيه ؟ ألا ترى مابلغنا ألا تشفع لنا الى ربك عز وجل فيقول : ربى غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده مثله ، وانه كانت لى دعوة دعوتها على قومى نفسى نفسى أذهبوا الى غيرى ...) (١)

ولما بعث الى أهل الارض دعاهم الى افراد الله وحده بالعبادة وألا يعبدوا معه صنما ولا تمثالا ولا طاغوتا وأن يعترفوا بوحدانيته وأنه لا اله غيره ولا رب سواه . وقد أخذ نوح بحظه من هذا المنهج الحكيم منهج الرسل فى دعوتهم العباد الى توحيد الله فأمر قومه بعبادة الخالق وحده وحذرهم من عبادة غيره كما أخبرنا القرآن الكريم بذلك فى آيات كثيرة منه قال تعالى :

(لقد أرسلنا نوحا الى قومه فقال يقوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره انى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم) (٢) وقال تعالى :

(ولقد أرسلنا نوحا الى قومه انى لكم نذير مبين ، أن لا تعبدوا الا الله

---

١) أخرجه البخارى فى كتاب التفسير بعض فى سورة اسرائيل فى باب ذرية من حملنا مع نوح .. ومسلم فى كتاب الايمان جـ ١ ص ١٨٥ المصدر السابق

٢) آية ٥٩ من سورة الاعراف

أنى أخاف عليكم عذاب يوم أليم) (١) وقال تعالى :

(ولقد أرسلنا نوحا الى قومه فقال يقوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره أفلا تتقون) (٢)

وقال تعالى حاكيا عنه

(قال يقوم أنى لكم نذير مبين ، أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون) .

فهذا المنهج العام الذى بعث الله الرسل من أجله أخذ نوح يعظه الا وُفر منه فدعا قومه الى عبادة الله ليلا ونهارا ، وسرا وجهارا كما سيأتى بيانه ان شاء الله .

السبب فى كونه أول رسول الى أهل الارْض

سبب ذلك أن القرون التى كانت بينه وبين آدم كانت على شريعة من الحق على ملة آدم عليه السلام حتى عبدت الاصْنام فى زمن نوح فبعثه الله الى قومه فكان أول رسول بعث الى أهل الارْض بعد أن عبدت الاصْنام .

فقد روى الحاكم فى المستدرك عن ابن عباس قال : (كان بين نوح وآدم عشرة قرون كلهم على شريعة من الحق فأختلفوا فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين قال : وكذلك فى قراءة عبد الله : كان الناس أمة واحدة فاختلفوا) (٣)

ثم قال هذا حديث صحيح على شرط البخارى ولم يخرجاه ،

---

١) آيتى ٢٣ - ٢٤ من سورة هود

٢) آية ٢٣ من سورة المؤمنون

٣) الآية ٢ - ٣ من سورة نوح

٤) المستدرك لابى عبد الله النيسابورى الحاكم جـ ٢ ص ٥٤٦

وقد أقره الذهبي على تصحيحه فانظره في المحل السابق (١)

---

١) تنبيه : ذكر الحافظ ابن كثير في كتابه قصص الأنبياء هذا الحديث وعزاه للبخاري في صحيحه ولفظه : ثبت في صحيح البخاري عن ابن عباس أنه قال : (كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الاسلام) جـ ١ ص ٧٤ . وعزاه له في البداية والنهاية جـ ١ ص ١٠١ وذكره بلفظه . وقد بحثت عن الحديث في صحيح البخاري ولم أجده ، وقد ذكره السيوطي في الاتقان جـ ٢ ص ١٣٨ وعزاه للحاكم ولم يعزه للبخاري ، وقد رواه ابن جرير عن ابن عباس بسنده .
قال : كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على شريعة من الحق فأختلفوا فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين ، قال : وكذلك هي في رواية عبد الله : كان الناس أمة واحدة فأختلفوا . تفسير ابن جرير جـ ٣ ص ٣٣٤ فلم يختلف لفظه عن لفظ الحاكم . هذا مع أن ابن كثير نفسه ذكر هذا الحديث عند تفسير قوله تعالى : (كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين) جزء من آية ١١٣ من سورة البقرة . وقال رواه الحاكم في مستدركه من حديث بندار عن محمد بن بشار ثم قال صحيح الاسناد ولم يخرجاه .
فظهر مما ذكرنا أن عزو الحافظ بن كثير هذا الحديث للبخاري في صحيحه في كتابيه قصص الأنبياء ، والبداية والنهاية غير صحيح والله أعلم .

وعلى أية حال : الروايات عن السلف كثيرة بأن الناس كانوا على الاسلام الى زمن نوح فعبدوا الأصنام وكفروا فبعث الله نوحا الى أهل الأرض ، وعلى هذا كثير من المفسرين فأنظر اقوالهم عند قوله تعالى : (كان الناس أمة واحدة ..) من سورة البقرة ، وان كان بعضهم حكى عن ابن عباس أنه قال : كان الناس أمة واحدة على الكفر ، ولكن هذا القول مردود بالروايات التي أثبت منه عن ابن عباس من أنهم كانوا على شريعة من الحق كما تقدم .
وقال ابن كثير : ان الرواية الأولى عنه أصح سندا ومعنى لأن الناس كانوا على ملة آدم عليه السلام حتى عبدوا الأصنام في زمن نوح فبعث اللهآليهم فأنظره عند تفسير الآية (كان الناس أمة واحدة ...) .

ففى زمنه عليه السلام عبدت الأصنام والطواغيت وشرع الناس فى الضلال والكفر فبعثه الله رحمة للعباد فكان أول رسول بعث الى أهل الأرض ، وذلك أنهم كان فيهم رجال صالحون ، ود ، وسواع ، ويغوث ، ويعوق ، ونسر ، ولما مات هؤلاء الرجال الصالحون أوحى الشيطان الى قومهم أن أنصبوا الى مجالسهم التى كانوا يجلسون فيها أنصابا وسموها بأسمائهم ففعلوا ذلك فلم تعبد حتى اذا هلك أولئك الناس ونسخ العلم عبدت .

فقد روى البخارى فى صحيحه عن ابن عباس قال : (صارت الأوثان التى كانت فى قوم نوح فى العرب بعد ، أما ود فكانت لكلب بدومة الجندل ، وأما سواع فكانت لهذيل ، واما يغوث فكانت لمراد ، ثم لبنى غطيف بالجرف عند سبا ، وأما يعوق فكانت لهمدان ، وأما نسر فكانت لحمير لآل ذى كلاع ، وهى أسماء رجال صالحين من قوم نوح عليه السلام فلما هلكوا أوحى الشيطان الى قومهم : أن انصبوا الى مجالسهم التى كانوا يجلسون فيها أنصابا وسموها بأسمائهم ففعلوا فلم تعبد حتى اذا هلك أولئك ونسخ العلم عبدت .

(١) وروى ابن جرير أن يغوث ويعوق ونسرا كانوا قوما صالحين من بنى آدم وكان لهم أتباع يقتدون بهم ، فلما ماتوا قال أصحابهم الذين كانوا يقتدون بهم : لو صورناهم كان أشوق لنا الى العبادة اذا ذكرناهم فصوروهم فلما ماتوا جاء آخرون دب اليهم ابليس فقال : انما كانوا يعبدونهم ، وبهم يسقون المطر فعبدوهم (٢)

ولقد بذل نوح منتهى وسعه واجتهد بغاية امكانه أن يتبعه قومه ، وأن يؤمنوا بالله تعالى ويتركوا عبادة تلك الأصنام ، وطال عليه الزمن

---

(١) صحيح البخارى كتاب التفسير سورة نوح باب ود اولا وسواعا

(٢) تفسير ابن جرير جـ ٢٩ ص ٦٢ المصدر السابق .

وهو يغاد يهم ويراوحهم بالدعوة والنصح ، ويأمل منهم الايمان ، ويدعوهم سرا وعلانية ، وهم لا يزدادون الا اعراضا وبعدا عما يدعوهم اليه من توحيد الله ، وقد حاول بشتى الوسائل اقناعهم فقد رغبهم بانزال المطر على أرضهم اذا آمنوا ، ويمدادهم بالمال والبنين كما حاول اقناعهم بلفت أنظارهم الى خلق السماوات والأرض وأن من خلقهن يستحق أن يعبد وأن يوحد ، ، ثم ذكرهم بكيفية خلقهم وأنهم خلقوا أطوارا طورا بعد طور الى غير ذلك من جميع الوسائل التي حاول اقناعهم بها فلم يفد ذلك فيهم شيئا ولم يؤمن منهم الا القليل (١)

منهجه في الصبر على الدعوة

ان نوحا عليه السلام صبر على دعوة قومه وحرص على هدايتهم صبرا لم يقع لأحد من الرسل ولا من غيرهم فقد رزقه الله تعالى طول الباع وأعطاه درجة من الصبر لم يوفق لها غيره فقد لبث في قومه يدعوهم الى الله المدة التي يخبرنا عنها القرآن الكريم التي بلغت ألف سنة الا خمسين عاما وقد لبث فيهم هذه المدة يدعوهم ليلا ونهارا سرا وعلانية ، ومع هذا لم يزدادوا الا فرارا عن الحق واعراضا عنه وتكذيبا لنبي الله نوح فما آمن له الا القليل منهم .

هذا مع مايلاقيه في تلك المدة من أنواع الأذى كالسخرية والاستهزاء به ومن آمن معه ، وتكذيبهم له : قال تعالى حاكيا عنهم بعض ذلك .

(فقال الملأ الذين كفروا من قومه مانريك الا بشرا مثلنا ومانريك اتبعك الا الذين هم أراذلنا بادي الرأي ومانرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين) (٢)

---

١) طالع قصص الانبياء للنجار بتصرف في الالفاظ ص ٣٣

٢) آية ٢٧ من سورة هود

هكذا كانت مقالة الملأ من قوم نوح كانوا يسخرون ويهزؤون به وينسبونه الى الكذب ويذمون من اتبعه من الناس فقد عارضوا رسالته وكذبوه بدعوى أنه بشر مثلهم فى البشرية ، وأن الذين أتبعوه انما هم أراذل كالحاكة والباعة ولم يتبعه الاشراف ولا الرؤساء ، ثم قالوا له : ان هؤلاء الذين اتبعوك لم يكن اتباعهم لك عن تروٍ منهم فى أمرك ولا فكر ولا نظر بل بمجرد دعوتك لهم أجابوك فى أول بادىء ولا فضل لكم علينا فى خلق ولا خلق ، ولا رزق ولا حال من الأحوال لما دخلتم فى دينكم هذا بل نظنكم كاذبين - فيما تدعون من البر والصلاح والخير والسعادة فى الآخرة اذا صرتم اليها . وهذا جهل من هؤلاء وحمق فانه ليس بعار على الحق رذالة من اتبعه فان الحق فى نفسه حق صحيح سواء اتبعه الاشراف أو الأراذل ، وكل من اتبع الحق صار شريفا بالحق ، فالحق الذى لا شك فيه أن أتباع الحق هم الاشراف وان كانوا فقراء ، أوضعفاء ، والذين يأنفون عن الحق هم الأراذل ولوكانوا أغنياء أقوياء ، والغالب أن أول مايتبع الرسل ويستجيب للحق ضعفاء الناس ، والغالب فى الاشراف والكبراء مخالفته ، قال تعالى : (وكذلك ما أرسلنا من قبلك فى قرية من نذير الا قال مترفوها انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على أثارهم مقتدون) (١) فهكذا كان شأن رسل الله يتبعهم الضعفاء من الناس أولا ، ولكن هؤلاء الضعفاء يصيرون هم الأقوياء والاشراف والعظماء بسبب الاسلام واتباعهم للرسل وقبولهم دعوتهم ولما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان بن حرب حين قدم عليه رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو اذ ذاك بالشام ، لما سأله عن صفات النبى

---

(١) [illegible] من سورة الزخرف

صلى الله عليه وسلم ، كان من جملة ما سأله عنه أشراف الناس أتبعوه أم ضعفاؤهم ؟ قال بل ضعفاؤهم ، فقال هرقل هم أتباع الرسل .

وأما قولهم : بادى الرأى فليس بعيب ولا مذمة فيه لأن الحق اذا وضح لا يبقى للرأى ولا للتفكير فيه مجال ، بل لابد من اتباع الحق والحالة هذه لكل ذى ذكاء ، بل لا يفكرهنا الا غبى أو عيى ، والرسل صلوات الله وسلامه عليهم ما جاءوا الا بأمر جلى واضح لا لبس فيه . (١)

وهذه الآية مثل قولهم له : (قالوا أنؤمن لك واتبعك الأرذلون) (٢) أى لا نؤمن بما جئت به ولا نتبعك لأن الذين أتبعوك وصدقوك أراذل فلا نتأسى بهم ولا نقتدى ، فكان جوابه أن قال : (وما علمى بما كانوا يعملون ، ان حسابهم الا على ربى لو تشعرون ، وما أنا بطارد المؤمنين ان أنا الا نذير مبين) (٣) فكأنهم سألوه أن يبعد عنه هؤلاء المؤمنين ويتعابعوه فأبى وقال : ما أنا بطارد المؤمنين ، ان أنا الا نذير مبين ، أى إنما بعثت نذيرا فمن أطاعنى واتبعنى وصدقنى كان منى وأنا منه ، سواء كان شريفا أو وضيعا فى رأيكم أوجليلا أوحقيرا (٤) وقد صبر عليه السلام على سخريتهم منه عند ما يمرون به وهو يصنع الفلك كما قال تعالى : (ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه) (٥)

---

١) طالع تفسير ابن كثير عند تفسير آية هود هذه جـ ٢ ص ٤٤٢-٤٤٣ ط دار احياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبى وشركاؤه .

٢) آية ١١١ من سورة الشعراء

٣) الآيات من ١١٢ - ١١٥ من سورة الشعراء

٤) انظر ابن كثير هنا جـ ٣ ص ٣٤٠ المصدر السابق

٥) جزء من آية ٣٨ من سورة هود

فلم يزدهم فى الجواب على أن قال : (. . . ان تسخروا منا فانا نسخر منكم كما تسخرون ، فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم) (١)

هكذا كان حال نوح فى صبره على دعوة قومه ، فقد لبث فيهم المدة التى ذكر لنا القرآن الكريم التى بلغت تسع مائة وخمسين سنة صابرا على أذاهم متحملا زلاتهم متغاضيا عن خطئهم لا يمنعه . ذلك من دعوتهم مبلغا رسالة ربه متحملا مافيها من المشاق .

فينبغى للداعية المخلص أن يتأسى بنبي الله نوح فى صبره على الدعوة الى الله وعدم الضجر ولا يستكثر المدة التى مضت عليه وهو يدعو الناس فلم يستجيبوا ويتحمل كل مايلاقيه من مشقة وهوان فى سبيل دعوته الى ربه عز وجل .

منهجه فى التوكل على ربه

ان نوحا عليه السلام رغم انفراده فى قومه وقلة من آمن معه منهم لم يثن ذلك عزيمته عن دعوتهم الى الله تعالى وتحديهم بأن يجمعوا له أمرهم مع مالهم من الشركاء وأن ينهوا أمره ولا يمهلوه ساعة واحدة ، وما هذا الا من شدة توكله على ربه وعلمه أنهم لا يستطيعون أن يضروه بشىء لم يشأ الله تعالى أن يضروه به ،

وقد صور القرآن الكريم لنا هذا التوكل والتحدى فى آية من سورة يونس

---

١) جزء من آية ٣٨ - وآية ٣٩ من سورة هود

قال تعالى : (واتل عليهم نبأ نوح اذ قال لقومه يقوم ان كان كبر عليكم مقامى وتذكيرى بآيت الله فعلى الله توكلت فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمة ثم افضوا الى ولا تنظرون) (١)

يقول عليه السلام لقومه : يا قوم ان كان عظم عليكم مقامى فيكم ولبثى بين أظهركم وتذكيرى اياكم بآيات الله أى بحججه القاطعه وبراهينه الساطعه ، فعلى الله توكلت أى فانى لا أبالى بكم ولا أكف عن دعوتكم عظم ذلك عليكم أولا فأجمعوا أمركم مع شركائكم الذين تدعونهم من دون الله من أصنام وأوثان ، ثم لا يكن أمركم عليكم غمة أى لا تجعلوه ملتبسا ، بل وضحوا حالكم معى فان كنتم تزعمون أنكم محقون فاقضوا الى ولا تنظرون واستريحوا منى ولا تؤخرون ساعة واحدة مهما قدرتم فافعلوا فانى لا أبالى بكم ولا أخافكم لانكم لستم على شىء .

وهكذا ينبغى أن يكون الداعية متوكلا على الله لا يخاف غير الله ولا يخاف فى الله لومة لائم ، ويعلم أن الناس لو اجتمعوا على أن يضروه بشىء لم يرد الله أن يضروه به لم يستطيعوا ، كما ينبغى له الا يطلب أجرا على دعوته الا من الله تأسيا بنوح عليه السلام حيث يقول بعد هذا مباشرة : (فان توليتم فما سألتكم من أجران أجرى الا على الله وأمرت أن أكون من المسلمين) (٢) .

منهجه فى أدبه مع قومه وتلطفه فى دعوته

أن نوحا عليه السلام مع كفر قومه وعنادهم وقسوتهم فى الخطاب : مع هذا كله فانه ضرب المثل الاعلى للدعاة فى لين الجانب للمدعوين والتلطف

---

٢) آية ٧٢ من سورة يونس

بهم لأجل هدايتهم ولم يشتد معهم الا حينما حصل له اليأس من هدايتهم عن طريق الوحى من الله ، هنالك يشتد عليهم ويقسو ويدعو عليهم كمال قال الله تعالى عنه :

(وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكفرين ديارا) (١)

فنوح عليه السلام لم يدع على قومه ولم يقس معهم الا بعد أن أخبره الله أنه لن يؤمن منهم الا من قد آمن كمال قال تعالى :

(وأوحى الى نوح أنه لن يؤمن من قومك الا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون) (٢)

وقد ذكر القرآن نماذج من أدبه مع قومه وتلطفه ولينه معهم عندما يعارضه الملأ من قومه ويكذبونه علنا ، هنالك يلين جانبه ويتلطف لهم فى الخطاب ويضرع الى الله عز وجل ، وهكذا ينبغى أن يكون الداعى اليوم متحليا بالصبر ولين الجانب والصفح واللجوء الى الله تعالى ويسلك الطريق السوى الذى رسمه أول رسول الى أهل الأرض نوح : ـ عليه وعلى نبينا الصلاة والتسليم ـ للدعاة فان فى رسل الله الأسوة الحسنة .

قال تعالى : معبرا عن ذلك كله من لينه وأدبه ، وقسوة قومه وكفرهم ، وما يخاطب به الملأ من قوم (لقد أرسلنا نوحا الى قومه فقال يقوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره أنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم ، قال الملأ من قومه انا لنريك فى ضلل مبين ، قال يقوم ليس بى ضللة ولكنى رسول من رب العلمين ، أبلغكم رسلت ربى وأنصح لكم وأعلم من الله ما لا تعلمون

---

١) آية ٢٦ من سورة نوح

٢) آية ٣٦ من سورة هود

أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ولتتقوا ولعلكم ترحمون) (١)

فتراه عليه السلام لما قال له الملأ من قومه: انا لنزيل فى ضلال مبين فماذا كان الجواب ؟ كان الواجب فى غاية اللين والتواضع (. . . يقوم ليس بى ضللة ولكنى رسول من رب العلمين) أى ما أنا بضال ولكن أنا رسول من رب كل شىء وخالقه ورازقه ومليكه ، أبلغكم الرسالة من الله وأنصح لكم وأرشدكم الى مافيه لكم الفوز وسعادة الدارين وأعلم من الله مالا تعلمون ، وهكذا شأن الرسل لابد أن يكونوا ناصحين مبلغين عن الله ما أمرهم بتبليغه ،

ولذلك لما حج نبينا صلى الله عليه وسلم حجة الوداع ووقف بعرفة وأصحابه فى ذلك الوقت أوفرماكانوا ، قال فى ذلك اليوم .

(. . . وأنتم تسألون عنى فما أنتم قائلون ؟ قالوا نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت فجعل يرفع اصبعه الى السماء وينكتها الى الناس ويقول اللهم اشهد اللهم اشهد اللهم اشهد ثلاث مرات .) (٢)

ثم يقول نوح لقومه بعد ذلك كله برفق ولين وأدب :

لا تعجبوا من هذا فليس بعجب ان يوحى الله الى رجل منكم رحمة بكم ولطفا واحسانا منه اليكم لينذركم ذلك الرسول عذاب الله ولتتقوا العذاب ولا تشركوا بالله شيئا ولعلكم ترحمون ،

وقال تعالى : حاكيا عنه لما كذبه قومه وقالوا له : أنت بشر مثلنا ، ولست ملكا ، ولم يتبعك الا الأراذل من الناس ، ولن نرى لك أنت ولا من أتبعك

---

١) الآيات من ٥٨ - ٦٣ من سورة الأعراف

٢) صحيح مسلم جـ ٢ ص ٨٩٠ كتاب الحج المصدر السابق ،

فضلا علينا ، وانا لنظنك كاذبا فيما تدعيه من رسالة الله لك ونظن قومك كاذبين أيضا فيما يدعونه من الصلاح والبر وسعادة الدنيا والآخرة ، وكان الجواب منه عليه السلام أن قال :

(. . يقوم أرأيتم ان كنت على بينة من ربى وآتينى رحمة من عنده فعميت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كرهون) (١)

فأخبرهم عليه السلام بلين ورفق أنه على يقين من ربه بما يدعوهم اليه وأن نبوته حق ، وأنها رحمة عظيمة من الله به وممن آمن به منهم ، وأن هذه الرحمة خفيت عليهم وأنه لا يلزمهم بها ولا يخصهم على الدخول فيها حيث كانوا لها كارهين .

وقال تعالى : حاكيا مقالة قومه الشنعاء وما رد عليهم به .

(ولقد أرسلنا نوحا الى قومه فقال يقوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره أفلا تتقون ، فقال الملأ الذين كفروا من قومه ماهذا الا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم ولو شاء الله لأنزل ملئكة ماسمعنا بهذا فى آبائنا الأولين ، ان هو الا رجل به جنة فتربصوا به حتى حين) (٢)

ولما قالوا له هذا كان الجواب منه أن قال : معرضا عن الرد عليهم بما يستحقون من الشتم والتوبيخ (. . . رب انصرنى بما كذبون) (٣)

فقد لجأ الى ربه تعالى وسأل منه أن ينصره عليهم ولم يقابل اساءتهم بالمثل ولم يرد عليهم ، وقد فعل الله ، فنصره عليهم فأوحى اليه أن يصنع الفلك وأن يسلك فيها من كل زوجين اثنين ، ولما حان وقت هلاكهم أغرقهم الله جميعا ونجى نبيه نوحا عليه الصلاة والسلام ومن آمن معه .

---

١) جزء من آية ٢٨ من سورة هود

٢) الآيات ٢٣ = ٢٥ من سورة المؤمنون

٣) جزء من آية ٢٦ من سورة المؤمنون

هذا ملخص عن منهج نوح عليه السلام في دعوته مأخوذ من القرآن الكريم ذكرناه ليكون بصيرة للدعاة يقتفونه ويقتدون به لينجحوا في دعوتهم ،

اسلوب نوح عليه السلام في دعوته

ان نوحا عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والتسليم نوع أساليب دعوته لقومه فقد استعمل معهم أسلوب الترغيب تارة ، وأسلوب الترهيب تارة ، وتارة يلفت أنظارهم الى الاعتبار بمخلوقات الله المحسوسة المشاهدة بالنظر في خلق السموات والأرض والنجوم والشمس والقمر ،

كما أرشدهم الى النظر في بدء خلقهم ، وأنهم خلقوا من تراب ، وأنهم سوف يعادون اليها ويخرجون منها بعد ذلك أحياء .

وكان يذكرهم بنعم الله التي أنعم عليهم بها حيث بسط لهم الأرض ليسلكوا منها سبلا فجاجا لتحصيل معاشهم وغير ذلك من الأساليب التي اتخذها معهم صلى الله عليه وسلم . وقد أنزل الله فيه وفي دعوته لقومه سورة كاملة من القرآن لم يذكر فيها غير قصته مع قومه من أول السورة الى آخرها ، فيها كيفية دعوته لهم وطول صبره على ذلك ووسائل الدعوة التي استعملها معهم ، وماكانوا يواجهونه به من التكذيب والاعراض عن الحق والتمادي على عبادة الأصنام ،

ولم ينزل الله سورة من القرآن كاملة في شأن رسول مع قومه ليس فيها غير قصته معهم الا في نوح وحده .

وهي سورة نوح كما قال تعالى :

(بسم الله الرحمن الرحيم . انا أرسلنا نوحا الى قومه أن أنذر قومك من قبل أن يأتيهم عذاب اليم ...) الى آخر السورة .

فهذه السورة الكريمة قد اشتملت على كثير من أساليب الدعوة الى الله تعالى فقد رسم فيها نوح عليه السلام للدعاة طريقا يسلكونه فى دعوتهم وبين لهم أساليب الدعوة ووسائلها المختلفة .

فقد بدأ نوح فى هذه السورة قومه بأسلوب الترهيب ، وذلك فى قوله : (يقوم انى لكم نذير مبين) أى بين النذارة ظاهر الأمر واضحة فاعبدوا الله واتقوه ، واتركوا محارمه ، واجتنبوا مساخطه .

فقد أنذرهم فى مطلع هذه السورة مستعملا أسلوب الترهيب ، ثم أمرهم بعد ذلك بثلاثة أشياء مستعملا أسلوب الطلب .

أمرهم بعبادة الله وحده المتضمنة لسعادة الدارين ، وأمرهم بتقوى الله جل وعلا ، وأمرهم بطاعة نبيه نوح عليه السلام (١)

وقد نوع أسلوبه فى هذه الآية القصيرة فأتى فيها بثلاثة أوامر كل واحد منها له معنى وان كان شملها المعنى الأول الذى هو عبادة الله على الوجه المطلوب لكن نسبى الله غاير فى الأسلوب ليبين لقومه ويوضح لهم ولئلا يترك طريقا الا جاء هم منها .

أسلوب الترغيب

ثم أخذ عليه السلام فى نوع آخر من أساليب الدعوة وهو أسلوب الترغيب فقال : (يغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم الى أجل مسمى) (٢)

فكأنه يقول لهم : ان فعلتم ما أمرتكم به من عبادة الله وتقواه وطاعتى فيما أمرتكم به يغفر الله لكم من ذنوبكم ويؤخركم الى أجل مسمى عند الله فقد وعدهم بغفران الذنوب التى ارتكبوها من الكفر والشتم لرسول الله

---

١) وذلك لأن الأمر بعبادة الله يتناول جميع الواجبات والمندوبات من أفعال القلوب والجوارح ، والأمر بتقوى الله يتناول الزجر عن جميع المحرمات والمكروهات وطاعة الرسول تستلزم امتثال جميع المأمورات واجتناب جميع المنهيات وان كان هذا الأخير داخلا تحت الأولين ولكنه خص بالذكر تأكيدا فى ذلك التكليف ومبالغة فى تقريره .
انظر تفسير الفخر الرازى جـ ٣٠ ص ١٣٤ المصدر السابق .

٢) جزء من آية ٤ من سورة نوح .

نوح وتكذيبه والسخرية منه (١)

وقوله : ويؤخركم الى أجل مسمى نوع آخر من الترغيب ، رغبهم فى طول المكث فى الدنيا بطول العمر ان آمنوا بالله واتقوه وأطاعوا رسولهم لأن طاعته تستلزم طاعة الله جل وعلا .

قال الزمخشرى هنا : فان قلت كيف قال : (ويؤخركم) مع اخباره بامتناع تأخير الأجل وهل هذا الا تناقض ؟

قلت : قضى الله مثلا أن قوم نوح ان آمنوا عمرهم الله ألف سنة ، وان بقوا على كفرهم أهلكم على رأس تسع مائة فقيل لهم آمنوا يؤخركم الى اجل مسمى أى الى وقت سماه الله وضربه امد اتنتهون اليه لا تتجاوزونه وهو الوقت الأطول تمام الالف ، ثم أخبرهم أنه اذا جاء ذلك الأجل لا يؤخر هذا الوقت ولم تكن لهم حيلة هـ (٢)

---

١) قلت اختلف علماء العربية فى (من) من قوله تعالى : (يغفر لكم من ذنوبكم فقال بعضهم : انها للتبعيض لأن الايمان يجب ما قبله لا ما بعده فيكون الكلام خاصا بما كان قبل الايمان من الذنوب ، وما كان بعده فهو سكوت عنه ، وقيل انها لابتداء الغاية ، وقيل انها صلة كما أجاز ذلك الاخفش ومن وافقه من الكوفيين حيث أجازوا زيادة (من) فى الاثبات ، وقيل المعرفة فلا يشترطون وجود نفى قبلها ولا كون مابعدها نكرة . انظر الفتوحات الالهية لسليمان الجمل جـ ٤ ص ٤٠٩ ط اولى الاستقامة بالقاهرة .
وقيل انها لبيان الجنس ، ورده أبوحيان وقال : ليس قبلها ماتبينه فأنظره .

٢) انظر الكشاف جـ ٤ ص ١٦١ المصدر السابق

(١)

أسلوب الترهيب

ثم عدل عليه السلام عن أسلوب الترغيب الى أسلوب الترهيب لئلا تبقى ناحية الا أقام عليهم الحجة منها فقال : (ان أجل الله اذا جاء لا يؤخر لو كنتم تعلمون) .

أى أن الأجل المحدد لكم الذى لا تتجاوزونه اذا جاء لا يؤخر عنكم الهلاك لحظة واحدة فلو علمتم أن الأمر كذلك لانتهتم الى طاعة ربكم ، فلما رغبهم بغفران الذنوب وامتداد الاعمار فى حياة طيبة وعلم أن ذلك لم يفد فيهم عدل الى أسلوب الترهيب فخوفهم وأخبرهم أن الزمن المحدد لهلاكهم اذا جاء لا ينظرون الى وقت آخر فلو كانوا يعلمون شيئا لانتبهوا عن غفلتهم الى يقظة وتابوا الى ربهم وآمنوا بنبيهم ،

ثم بعد هذا كله شرع يخبر ربه وهو أعلم بحاله بالوسائل التى اتخذها فى دعوة قومه من دعوته لهم فى السر والعلانية وفى الليل والنهار وما وقع منهم من التمادى على التكذيب والكفر ، وأنه كلما دعاهم الى سبب المغفرة الذى هو الايمان جعلوا أصابعهم فى آذانهم لئلا

---

١) قلت دلت السنة على مثل هذا : ففى الصحيحين : (من أحب أن يبسط له فى رزقه وينسأله فى أثره فليصل رحمه أخرجه البخارى فى كتاب البيوع فى باب : من أحب البسط فى الرزق ، وفى كتاب الأدب ، ومسلم فى كتاب البر والصلة والآداب فى باب صلة الرحم وتحريم قطيعتها جـ ٤ ص ١٩٨٢ المصدر السابق .

يسمعوا دعوته ، وغطوا وجوههم بثيابهم وأصروا على كفرهم ثم رجع ثانيا الى أسلوب الترغيب فقال (. . . استغفروا ربكم أنه كان غفارا ، يرسل السماء عليكم مدرارا ، ويمدكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنت ويجعل لكم أنهـر) . . . . .

(١) وقال بعضهم ان معنى : واستغشوا ثيابهم غطوا وجوههم لئلا يعرفهم . (٢)

لفت الانظار الى عجائب صنع الله

لما رهب نوح قومه ، ورغبهم بخير الدنيا والآخرة ولم يفد ذلك فيهم أخذ يلفت أنظارهم الى آيات الله الكونية كخلق السماوات وجعل القمر فيهن نورا ، والشمس سراجا كما وجه أنظارهم الى مبدأ خلقهم وأن الله خلقهم من الارض ، وأنه يعيدهم اليها أمواتا ويخرجهم منها يوم الجزاء اخراجا ،

كما وجه أنظارهم الى نعمة تمليك الله الارض اياهم ليسلكوا منها سبلا فجاجا اى طرقا واسعة ، ثم بعد هذا كله رفع الشكوى الى ربه ، وأخبره أنهم عصوه ، واتبع الاصاغر منهم الاكابر ، واتبع المرءوس الرئيس الذى

---

١) طالع تفسير ابن جرير وتفسير الشوكانى هنا فى هذه السورة

٢) قلت : وهذا القول بعيد عندى لانه ليس معه الا قومه الذين آمنوا معه ، وقومه الذين لم يؤمنوا به ، فالمؤمنون لن يغطوا وجوههم عنه ، وغيرهم يعلم أنهم من المصرين سواء غطوا وجوههم أو لا ، وانما غطوا وجوههم كراهة أن يروا ذات نبى الله نوح عليه السلام ،

ا ... ماله وولده الا خسارا ، ومكروا مكرا كبارا ، وقالوا لا تذرن آلهتكم التى تعبدونها ، ولا تذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا ، وقد تقدم الكلام على هؤلاء الاصنام وسبب عبادة الناس لها ،

أسلـــوب القصـوة

ان نبى الله نوحا لما علم بوحى من ربه أن قومه لن يؤمن منهم الا من قد آمن بعد أن اتخذ معهم أساليب اللين والترغيب والترهيب وعلم أن ذلك لن يزيدهم الا اصرارا على الكفر عند ذلك دعا عليهم بالهلاك وذلك فى قوله كما حكى الله عنه فى هذه السورة :

(. . . . رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا ، انك ان تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا الا فاجرا كفارا)

وهذا مثل دعاء نبى الله موسى على قومه لما علم بالوحى من الله عدم ايمانهم قال :

(. . . ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم) (١)

وقد استجاب الله دعاء نبيه عليه الصلاة والتسليم فأهلكهم الله جميعا بالغرق ونجى الله نوحا وجميع من آمن معه .

ثم بين عليه السلام علة دعائه عليهم بالابادة فقال : (انك ان تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا الا فاجرا كفارا)

وذلك لشدة خبرته بهم وطول مكثه بين أظهرهم علم خبثهم وفساد نواياهم الى غير ذلك مما اتصفوا به من المكر والكفر .

وفى هذه السورة كفاية ففيها من مناهج دعوة هذا الرسول وأساليبه والوسائل التى اتخذها مايكفى مع أننا لم نتتبع مافيها آية آية لأن الغرض

---

(١) جزء من آية ٨٨ من سورة يونس .

عندنا مجرد نماذج من أساليب الرسل ومناهجهم ووسائل دعوتهم ليقتدى بهم الداعى ويتأسى بهم ، ويكونوا سلفا له ويكون خلفالهم وليس فى وسعنا حصر ماورد عن هؤلاء الرسل الذين ذكرنا من أحوال دعوتهم لأن القرآن ملىء بذلك - والبصير يعتبر بما ذكر ، ويقيس مالم يذكر على ماذكر . اهـ

معجزة نوح عليه السلام

ان مما لاشك فيه أن كل نبى من الأنبياء عليهم الصلاة والتسليم أيده الله تعالى بمعجزة تقتضى ايمان من شاهدها بصدقه ، ولا يضره اصراو من أصرعلى العناندة ، لأن الهداية بيد الله تعالى ،

لما ثبت فى الصحيحين ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

(مامن الأنبياء نبى الا أعطى من الآيات مامثله آمن عليه البشر وانما كان الذى أوتيته وحيا أوحاه الله الى فأرجوا أن اكون أكثرهم تابعا يوم القيامة) (١)

فكلمة (نبى) فى الحديث من قوله : (مامن نبى) نكرة فى سياق النفى ، والنكرة فى سياق النفى نص فى العموم كما هو معلوم عند الأصوليين ، فدل ذلك على أنه لابد لكل نبى من معجزة من حقها أن يؤمن بها من شاهدها من البشر أى يصدق بأنها من عند الله أيد بها رسوله .

قال الحافظ ابن حجر . . . والمعنى أن كل نبى أعطى آية أو أكثر من شأن من يشاهدها من البشر أن يؤمن به لأجلها ، وعليه بمعنى اللام

---

١) أخرجه البخارى فى أول كتاب فضائل القرآن وفى كتاب الاعتصام ، وسلم فى كتاب الايمان جـ ١ ص ١٣٤ المصدر السابق .

أوالبناء الموحدة .

والنكتة فى التعبير بها تضمنها معنى الغلبة أى بدء من بذلك مغلوبا عليه بحيث لا يستطيع دفعه عن نفسه ، لكن قد يجحد فيعاند كما قال الله تعالى : (وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا) (١) انتهى محل الغرض من كلامه : (٢)

وقد تبين مما ذكرنا أن لكل نبى من الأنبياء معجزة تدل على صدقة سواء اشتهرت حتى عرفها الناس كلهم ، أو خفيت على بعضهم ، ولا يرد على هذا قول عاد لرسولهم هود : (... بهود ما جئتنا ببينة . (٣) لأن ذلك من شدة جهلهم وتجاهلهم وعنادهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، والا فهو جاءهم بمعجزة عظمى كما سيأتى إن شاء الله .

ومع هذا فان الرسل عليهم الصلاة والتسليم يتفاوتون فى هذا فمنهم من تكون له معجزة واحدة ، ومنهم من تكون له معجزات كثيرة لكنها محصورة كموسى وعيسى عليهما السلام ، ومنهم من تكون معجزاته فاقت الحصر كنبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، وان كان القرآن هو معجزته العظمى كما قدمنا الا أن له معجزات كثيرة لا يمكن حصرها .

ونوح عليه السلام أيده الله بمعجزة دلت دلالة واضحة على صدقه وأنه رسول من رب العالمين ، وذلك أنه عاش بين قومه وحيدا فريدا يعلمون حاله ، وقلة منعته فيهم ، وقلة من تبعه من المؤمنين ، واذا به يتحدى

---

١) جزء من آية ١٤ من سورة النمل

٢) فتح البارى جـ ٩ ص ٦ ط السلفية

٣) جزء من آية ٥٣ من سورة هود

هؤلاء القوم بعد أن سفه أحلامهم ، وسب آلهتهم وأخبرهم أنها لا تستحق العبادة ، وأن الذى يستحقها هو الله وحده ، بعد هذا كله فإذا به يتحداهم قائلا لهم :

(... يقوم ان كان كبر عليكم مقامى وتذكيرى بآيات الله فعلى الله توكلت فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمة ثم اقضوا الى ولا تنظرون) (١)

ففى هذا الكلام أعظم تحد لهؤلاء الكفرة فانه قال لهم :

(ان كان شق عليكم مقامى أى لبثى بين أظهركم ، أو قياسى على الدعوة والتذكير لأنه مكث فيهم ألف سنة الا خمسين عاما (٢) .

ثم أخبرهم بعد التحدى أنه توكل على الله جل وعلا ، فليجمعوا أمرهم وليصمموا على اهلاكه ولا يترددوا فى ذلك ، فأجمعوا أمركم أى اعزموه ، وشركاءكم أى أمر شركائكم على حذف مضاف فشركاءكم معطوف على أمركم على هذا (٣)

وعلى كل حال ، فان هذا فى غاية التحدى والتعجيز لأنه أمرهم ألا يكون أمرهم غمة عليهم ، أى لا يكن خفيا مبهما وليكن ظاهرا متكشفا وقال لهم نفذوا ما اردتم ، ولا تنظرون ساعة واحدة من ليل أو نهار هذه معجزة نوح عليه السلام ، وانها لمن أعظم المعجزات حيث يخاطب رجل واحد أمة كاملة ويقول لهم أجمعوا أمركم أى أعزموا على ماتريدون من السوء بى ، وحضرواشركاءكم الذين تدعون أنهم ينفعون ويضرون وحاولوا أن تضرونى بسوء ولا تمهلونى ساعة واحدة

---

١) جزء من أية ٧١ من سورة يونس

---

٢) وقيل المراد بقوله : مقامى : نفسى أى ذاتى كما فى قوله : (ولمن خاف مقام ربه جنتان) آية ٤٦ من سورة الرحمن . انظر أبا السعود جـ ٢ ص ٣٤١

٣) ذلك لأن أجمع يؤتى بها للمعانى ، وجمع يؤتى بها للذوات فلا يقال أجمع شركاء ، وقيل أنه منصوب باضمار فعل لائق أى واجمعوا شركاءكم بهمزة وصل قبل الفعل الثلاثى ، وقيل انه مفعول معه أى أجمعوا أمركم مع شركائكم انظر الفتوحات الالهية لسليمان الجمل جـ ٢ ص ٣٦٣

قلت : الذى عليه أكثر النجاة أن : وشركاءكم منصوب بفعل محذوف مناسب تقديره اجمعوا ، أو مفعول معه ،

وعلى ذلك درج ابن مالك فى الخلاصة حيث قال :

والعطف ان يمكن بلا ضعف أحق . . والنصب مختار لدى ضعف النسق

والنصب ان لم يجز العطف يجب . . أو أعتقد اضمار عامل نصب

وقد مثل الشراح بهذه الآية لما لم يمكن عطفه ، ولذلك تعين فيها ماذكرنا من النصب بالفعل أو بالواو أو على اضمار فعل . أنظر شرح ابن عقيل جـ ٢ ص ٢٠٨ ط ١٥ تحقيق محى الدين عبد الحميد .

من قال بأن هذه معجزة نوح

قال الصاوى فى حاشيته على الجلالين ان هذا التحدى هو معجزة نوح عليه السلام ، ذكر ذلك فى الكلام على معجزة هود ، وأنها من نوع معجزة نوح لأن كلا منهما تحدى قومه وتوكل على الله وطلب من قومه أن يكيدوه ولا ينظروه قال مانصه :

وكذا معجزة نوح التى قامت بها الحجة عليهم هى قوله تعالى : (... فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمة ثم اقضوا الى ولا تنظرون) وأما الريح والطوفان وان كان كل معجزة فيهما هلاكهم لا اقامة الحجة عليهم . (١)

قلت : أما الريح والغرق فان هذين الأمرين وقعا بعد ما يئس من الهداية بعد أن وقع اليأس من ايمان أولئك القوم ، ولم يبق الا الهلاك فكانت الريح والطوفان هما السبب فى الهلاك ، وكذلك السفينة لا تعد من نوع المعجزات التى تستدعى ايمان المدعوين لأنها كذلك انما صنعها نوح لانقاذ المؤمنين من الغرق لأنه لما أوحى الله اليه أنه لن يؤمن من قومه الا قد آمن وقطع الطمع عن ايمانهم أمره الله أن يصنع الفلك لأنه لا سبيل الى صيانة نفسه ومن معه من المؤمنين الا بذلك ، فصنع الفلك على هذا القبيل ، لا أنه من نوع المعجزات التى تستدعى ايمان المدعوين ، والله تعالى أعلم اهـ

---

١) حاشية الصاوى على الجلالين جـ ٢ ص ٢٠٤ ط المصطفى البابى الحلبى .

الفصل الثانى

هود عليه السلام

من هو هود ؟

هو هود بن عبد الله . بن رباح . بن الخلود . بن عاد . بن عوص . بن ارم . بن سام . بن نوح ،

ومن أهل الانساب من يزعم أن هود اهو : عابر بن شالخ ، بن أرفخشد ابن سام ،بن نوح ، وكانوا أهل أوثان ، ثلاثة يعبدونها يقال لاحدها صداء ، وللآخر صمود ، وللثالث الهباء ،فدعاهم الى توحيد الله وافراده بالعبادة دون غيره ، وترك ظلم الناس فكذبوه وقالوا : من أشد منا قوة ؟ فلم يؤ من بهود منهم الا قليل فوعظهم هود اذ تمادوا فى طغيانهم . . . . وكان جوابهم أن قالوا سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين . اهـ (١)

وقال ابن كثير : هو هود بن شامخ ،بن أرفخشذ ، بن سام ، ابن نوح ،وذكر رواية الطبرى التى صدرها أيضا فانظره (٢)

منهج هود عليه السلام فى دعوته

أن منهج نبى الله هود عليه السلام فى دعوته لا تختلف عن منهج أخيه نوح عليهما الصلاة والتسليم بكثير لأن جميع الرسل متفقون فى المبدأ على الدعوة الى توحيد الله تعالى : فهى المنهج الاساسى للرسل فى دعوتهم الاسم .

---

١) تاريخ ابن جرير جـ ١ ص ٢١٦ - ٢١٧ ط الثانية تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم

٢) البداية والنهاية لابن كثير جـ ١ ص ١٢٠ ط الثانية مكتبة المعارف بيروت

وقد أخذ نبى الله هود بحظه من ذلك المنهج فدعا قومه الى توحيد الله وعبادته وحده ، ونبذ عبادة الأصنام .

ولقد كان قومه أصحاب أوثان يعبدونها من دون الله عبادة لا تقل عن عبادة قوم نوح لها فبعث الله فيهم هودا عليه السلام فدعاهم الى عبادة الله ، وأمرهم أن يوحدوه ، وأن يكفوا عن ظلم الناس فأبوا ذلك وكذبوه وقالوا من أشد منا قوة ؟ (١)

وكان عليه السلام ينذر قومه ويحذرهم بأس الله ، ويضرب لهم المثل بقوم نوح ويذكرهم بنعم الله تعالى عليهم حيث زادهم فى الخلق بسطة وجعلهم خلفاء فى الأرض من بعد قوم نوح ، وبوأهم أرضا مثمرة تدر عليهم الخير الكثير تنبت لهم الزرع الذى يعيشون به ، والكلأ الذى تعيش به بهائمهم ، وكان يخبرهم أن الواجب عليهم أن يستعملوا هذه القوة التى أعطاهم الله ولم يعطها لأحد قبلهم فى طاعة الله وأن يستعملوا عقولهم ويفكروا بها ليتبينوا بها أن ما يعبدون من دون الله لا يضرهم ولا ينفعهم ، وأن الذى يضر وينفع هو الله وحده الذى خلقهم وأعطاهم القوة ، والذى بيده احياؤهم وامانتهم ، وأنهم اذا تابوا الى الله وأنابوا اليه مما سلف من الشرك منهم تاب عليهم وأغدق عليهم نعمه من ارسال السماء عليهم بالمطر ، ومن امدادهم بقوة الى قوتهم ، وزيادتهم عزا الى عزهم ،

ومع هذا كان عليه السلام يخبرهم أنه لا يطلب منهم اجرا مقابل دعوته لهم ونصحه لهم ، وانما يطلب الأجر على ذلك من الله ، فهو يخبرهم بأنه لا يريد من وراء ذلك نفعا يجره لنفسه ، ولا فائدة يستفيدها منهم ،

---

(١) تفسير المنار جـ ٨ ص ٤٩٧

ولا زعامة يتزعمها ، ولكن قوم هود عتوا وكفروا بالله وبرسوله هود عليه السلام وسفهوه وكذبوه وتجاهلوا الحجج التى جاءهم بها من ربه ، والبراهين القاطعة التى أقامها على صدقة وقالوا له :

(. . . ماختنا بيننة ومانحن تاركى آلهتنا عن قولك ومانحن لك بمؤمنين ، ان نقول الا اعتريك بعض آلهتنا بسوء . . .) (١) .

(٢)

لقد بين لنا القرآن الكريم المنهج الذى سلكه نبى الله هود فى دعوته لقومه حيث يقول (والى عاد أخاهم هودا قال يقوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره أفلا تتقون ، قال الملأ الذين كفروا من قومه انا لنريلك فى سفاهة وانا لنظنك من الكذبين ، قال يقوم ليس بى سفاهة ولكنى رسول من رب العلمين ، أبلغكم رسلت ربى وأنا لكم ناصح أمين أوعجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم واذكروا اذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم فى الخلق بسطة فاذكروا ألاء الله لعلكم تفلحون) (٣)

فنبى الله هود دعا الى توحيد الله كما هو بشأن جميع الرسل عليهم الصلاة والسلام وأنكر على قومه عدم تقوى الله حيث قال لهم أفلا تتقون . وكان جواب قومه له لما أمرهم بتقوى الله أن قال له القادة والسادة المعبر عنهم بالملأ : (. . . انا لنزيل فى سفاهة وانا لنظنك من الكذبين) أى انا لنظنك فى حمق وجهالة حيث تدعونا الى ترك عبادة الأصنام والاقبال على عبادة الله وحده (٤)

---

١) جزء من آية ٥٣ وجزء من آية ٦٣ من سورة هود ٢) طالع قصص الأنبياء عبد الوهاب النجار ص ٥١ - ٥٢
٣) الآيات من ٦٥ - ٦٩ من سورة الأعراف

٤) قلت : وهذا مثل قول قريش لما دعاهم الرسول صلى الله عليه وسلم الى عبادة اله واحد تعجبوا من ذلك وقالوا (أجعل الآلهة الها واحدا ان هذا الشىء عجاب) آية ٥ من سورة ص

وكان جواب نبى الله هود لقومه لما رموه بالسفاهة والكذب فى غاية اللين والتلطف والحكمة ، وذلك فى قوله " . . يقوم ليس بى سفاهة ولكنى رسول من رب العلمين " ولست كما تزعمون ، أنما أنا رسول من الله جئتكم بالحق من الله الذى هو ربى وربكم ورب العالمين جميعا أبلغكم رسالته لى اليكم مع أنى ناصح لكم أمين عليكم ثم أرشدهم ألا يعجبوا من ارسال الله اليهم رجلا منهم لينذرهم بأس الله ويحذرهم بطشه ، ثم ذكرهم نعم الله عليهم حيث جعلهم خلفاء فى الارض من بعد قوم نوح فان الله أهلك أهل الأرض بدعوته لما كذبوه وكفروا به ، وذكرهم بنعمة القوة التى أعطاهم الله حيث قال لهم : (وزادكم فى الخلق بسطة) أى زادكم قوة على بنى جنسكم ، فقوم نوح الذين أنتم من ذريتهم جعلكم الله أقوى منهم فاذكروا هذه النعم لعلكم تفلحون ، أى تفوزون فى الدنيا والآخرة (١)

وقال تعالى فى شأنه .

(والى عاد أخاهم هودا قال يقوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره ان أنتم الا مفترون ، يقوم لا أسئلكم عليه أجرا ان أجرى الا على الذى فطرنى أفلا تعقلون ، ويقوم استغفروا ربكم ثم توبوا اليه يرسل السماء عليكم مدرارا ويزدكم قوة الى قوتكم ولا تتولوا مجرمين) (٢)

فبعد أن دعاهم الى توحيد الله ، وأنه لا اله غيره ، وأخبرهم أنهم كاذبون فى دعواهم الهة مع الله ، وأنه لا يطلب منهم أجرا على تبليغهم لهم الدعوة من الله وانما يطلب الأجر على ذلك من الله جل وعلا ،

---

١) طالع تفسير ابن كثير عند تفسير هذه الآيات من سورة الاعراف

٢) الآيات من ٥٠ - ٥٢ من سورة هود

وأرشدهم الى الاستغفار من الذنوب والتوبة الى الله تعالى ، وأخبرهم أن ذلك سبب فى ادرار السماء عليهم بالمطر كما أنه سبب فى زيادة قوتهم التى تبجحوا بها حيث قالوا .. (.. من أشد منا قوة) لما سمعوا هذا كله تجاهلوا الحق وعاندوا واستكبروا وكفروا وقالوا : (... يهود ما جئتنا ببينة وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين ، ان نقول الا اعتريك بعض آلهتنا بسوء) (١)

أى ما جئتنا بحجة وبرهان قاطع على ماتدعيه ، وما نحن بتاركى آلهتنا بمجرد دعوى منك لم تقم عليها بينة ولا برهانا قاطعا وما نحن بمصدقين لك بمجرد هذه الدعوى وما نظن الا أن بعض آلهتنا أصابك بجنون وخبل فى عقلك بسبب نهيك عن عبادتها وعيبك لها ، فلما قالوا مقالتهم هذه قال لهم نبى الله هود مبينا لهم أن هذه الأصنام لا تضر من عابها ولا تنفع من عبدها ، وبين لهم شدة توكله على ربه ، وأنهم لو كادوه جميعا وحاولوا ضره ولم ينتظروه ساعة ماضره ذلك وقال متحديا لهم : (... انى اشهد الله واشهدوا أنى برىء مما تشركون من دونه فكيدونى جميعا ثم لا تنظرون ، انى توكلت على الله ربى وربكم ما من دابة الا هو آخذ بناصيتها ان ربى على صراط مستقيم)

وقد تضمن هذا المقام حجة بالغة ودلالة قاطعة على صدق ما جاءهم به وبطلان ماهم عليه من عبادة الأصنام التى لا تنفع ولا تضر ، بل هى جماد لا تسمع ولا تبصر ، ولا تتوالى ولا تعادى ، وانما يستحق اخلاص العبادة له وحده لا شريك له من بيده الملك وله التصرف ، وما من شىء الا تحت ملكه وقهره وسلطانه فلا اله الا هو ولا رب سواه (٢) .

---

١) آية ٥٣ وجزء من آية ٥٤ من سورة هود
٢) جزء من آية ٥٤ وآية ٥٥ - ٥٦ من سورة هود
٣) طالع تفسير ابن كثير عند آيات هود هذه

وقد ذكر الله قصة عاد فى كثير من سور القرآن ، فيها كيفية هلاكهم ونوع العذاب الذى أهلكوا به ،

فقد ذكرت فى سورة الشعراء ، وفى سورة حم السجدة ، وفى سورة الأحقاف ، وفى سورة الذاريات ، وفى سورة النجم ، وفى سورة القمر ، وسورة الحاقة ، وسورة الفجر ، وقد ذكر اسمه فى القرآن وذكر قبيلته ، وتكذيبهم له وما حل بهم من النكال والعذاب فى سور كثيرة غير مبسوطة فيها قصتهم ذكر ذلك كله ليتزجر به السامعون ، وليعتبروا بحال هؤلاء المكذبين ، وما لاقوا من العذاب الشديد حيث أرسل الله عليهم ريحا صرصرا فى يوم نحس مستمر تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر ،

فيجب على كل داع الى الله أن يقتدى بهود عليه السلام فى منهجه فى دعوته وسلوكه مع قومه فى الصبر على دعوتهم ، والتوكل على الله ، وتبليغه لهم رسالة ربه ونصحه لهم ، كما يجب على المدعوين أن يعتبروا بحال قوم هود لما كذبوا نبى الله وأعرضوا عن دعوته ولم يستجيبوا لما سمعوه من الحق والنصيحة ، ويحذروا ما أصابهم من الهلاك فى الدنيا وما سيصيبهم فى الآخرة ، فنتيجة العقل : الاعتبار بالغير والنظر فى عواقب الأمور ، والا لم تكن للانسان الذى خص بالعقل فائدة على غيره من الحيوانات التى لا تعقل اهـ

أسلوب هود عليه السلام

ان هودا عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والتسليم بذل كل مافى وسعه فى دعوة قومه واستعمل الكثير من الأساليب فى دعوته لقومه ليهتدوا الى سواء السبيل ، ولكن القوم لغبشهم وشدة كفرهم قابلوا ذلك بالعناد له والسخرية منه والاستهزاء والاعجاب بما أعطاهم الله من قوة فى الأجسام حتى أهلكهم الله على كفرهم وجعلهم آية لمن بعدهم ،

وقد بين القرآن الكريم كيف كانت أساليب هود مع قومه فى سور كثيرة تقتصر على البعض من ذلك ان شاء الله ،

قال تعالى : (والى عاد أخاهم هودا قال يقوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره أفلا تتقون ، قال الملأ الذين كفروا من قومه انا لنزيك فى سفاهة وانا لنظنك من الكذبين ، قال يقوم ليس بى سفاهة ولكنى رسول من رب العلمين ، أبلغكم رسلت ربى وأنا لكم ناصح آمين ، أوعجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم واذكروا اذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم فى الخلق بسطة فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون ، قالوا أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ماكان يعبد آباؤنا فأتنا بما تعدنا ان كنت من الصدقين ، قال قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب أتجدلوننى فى أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما نزل الله بها من سلطان فانتظروا انى معكم من المنتظرين ، فأنجيناه والذين معه برحمة منا وقطعنا دابر الذين كذبوا بئاياتنا وماكانوا مؤمنين (١)

---

١) من آية ٦٥ الى ٧٢ من سورة الأعراف .

فى هذه الآيات استعمل نبى الله هود عليه السلام كثيرا من الأساليب فى دعوته لقومه .

١- ففيها الأمر الصريح حيث قال لهم أولا أعبدوا الله ، فقد استعمل اسلوب الطلب ،

٢- وفيها الخبر الصريح حيث قال : مالكم من اله غيره فقد استعمل اسلوب الخبر ،

٣- وفيها الاستفهام حيث قال : أفلا تتقون ،

٤- وفيها النفى الصريح حيث نفى عن نفسه الضلالة

٥- وفيها أسلوب الحوار

فان سبما من الآيات المذكورة ورد ت على سبيل الحوار بينه وبين قومه فى حوار لطيف مع أولئك الكفرة ونصيحة ومواعظة حسنة ،

فانظر حيث يقول له الملأ من قومه : (انا لنزيك فى سفاهة وانا لنظنك من الكذبين) فماذا كان الرد ؟

كان الرد أن أخبرهم بحكمة أن دعواهم كذب ونفى عن نفسه مانسبوه اليه وأثبت رسالة ربه له : (يقوم ليس بى سفاهة ولكنى رسول من رب العلمين أبلغكم رسلت ربى وأنا لكم ناصح أمين) وأخبرهم أن ارسال رجل منهم ليس بعجيب فان الله تعالى يعلم حيث يجعل رسالته ، وعلم أنى أهل لهذه الرسالة دونكم فأعطانيها وكرر عليهم التذكير بنعم الله زيادة فى التقرير لأن ذكر النعم سبب باعث على شكرها ، وقد أنكروا عليه دعوته لهم الى عبادة اله واحد ، وذلك لأنهم وجدوا آباءهم وأجدادهم على خلاف مايدعوهم اليه من التوحيد ، وكان من جهلهم أن استعجلوا العذاب الذى كان هود يهددهم به فقالوا له :

(. . . فأتنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين) (قال قد وقع عليهم من ربكم رجس وغضب . . .) عبر عن المتوقع بالواقع تنبيها على تحقق وقوعه ، وقيل ان معنى وقع وجب ، والرجس العذاب ، وقيل : الرين على القلب بزيادة الكفر (١)

ثم أنكر عليهم بأسلوب الاستفهام ماوقع منهم من محاورته ومجادلته بالباطل فقال : بأسلوب لطيف (اتجادلونني فى أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما نزل الله بها من سلطن . . .) فعبر عن المسميات بالأسماء لأن المسميات تسميتها بالالهة باطلة فهى اذا أسماء دون مسميات ، سميتموها أنتم وأباؤكم وهى لا حقيقة لها مانزل الله بها من سلطان أى من حجة تحتجون بها على ماتدعونه من الدعاوى الباطلة ،

٦- ثم عدل عليه السلام الى اسلوب الوعيد فتوعدهم بأشد وعيد فقال :

(. . . فانتظروا انى معكم من المنتظرين) أى انتظروا ما طلبتموه من العذاب فانى منتظر وقوعه بكم وهو واقع بكم لا محالة ونازل ،

ثم أخبر الله عما وقع بهم من الهلاك ، وعن نجاة نبيه عليه السلام ، ثم اعاد لهم الاسلوب فى سورة هود ،

٧- والتكرار أسلوب من أساليب الدعوة لأنه يزيد الأمر بيانا ووضوحا ، ولهذا ذكر الله قصص كثير من الأنبياء مكررة لترسخ قصصهم فى النفوس ، ولتتضح للناس فتارة يذكر القرآن القصة مبسوطة فى محل ثم يذكرها فى محل آخر موجزة ، ولكن لابد أن يكون هناك تغاير فى الاسلوب وزيادة معنى فى موضع على الموضع الآخر كما هنا : فقد ذكرت القصة فى سورة هود

---

١) أنظر فتح القدير للشوكانى هنا عند آيات الاعراف هذه .

بأوسع مما فى سورة الأعـــراف ،

ففى سورة هود أخبر قومه بأنهم مفترون على الله فى دعواهم الآلهة معه ، كما أخبرهم فيها أنه لا يطلب منهم اجرا على التبليغ ، وانما يطلب الأجر من الله ،

٨- واستعمل فى هود أيضا اسلوب الترغيب كما تقدم .

كما تكررت القصة فى سورة الشعراء ، وتنايرت الأساليب أيضا ، فقد أمرهم بتقوى الله أمرا صريحا فى سورة الشعراء حيث قال :

(فاتقوا الله وأطيعون)

كما أنكر عليهم طول أملهم فى الحياة وبنيانهم مصانع فى الجبال كأنهم مخلدون فى الدنيا ، أو يرجون الخلود فيها (١)

كما لفت أنظارهم الى أن الذى أمدهم بالأنعام والبنين والبساتين والعيون التى تجرى فيها يجب أن يتقوه ويحذروا عذابه حيث قـــال : مبدأ الأمر بتقوى الله : (كذبت عاد المرسلين ، اذ قال لهم أخوهم هود ألا تتقون) انى لكم رسول أمين ، فأتقوا الله وأطيعون ، وما أسئلكم عليه من أجر أن أجرى الا على رب العلمين ، أتبنون بكل ريع آيـــة تعبثون ، وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون ، واذا بطشم بطشم جبارين فاتقوا الله وأطيعون ، واتقوا الذى أمدكم بما تعلمون ، أمدكم بأنعم وبنين ، وجنت وعيون ، أنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم) (٢) هكذا كانت أساليب هود فى دعوته كان يبين لقومه أنه نصوح لهم وشفيق عليهم من عذاب الله ، وأنه لا يطلب أجرا على ذلك الا من الله ، ولا يطلب من ورائه رئاسة دنيوية ، ولا تطاولا عليهم كما كان يأمرهم بتقوى الله وطاعـــة

---

١) انظر فتح القدير ج ٤ ص ١٠٩ - ١١٠ ط مصطفى البابى الحلبى

٢) الآيات من ١٢٣ - ١٣٥ من سورة الشعراء

نبيه ، وكان أيضا يرغبهم فى الايمان والتوبة والاستغفار ولما علم أنهم يركنون الى الدنيا أخبرهم أنهم أن آمنوا زادهم الله قوة وبسط عليهم الخير وأنزل عليهم المطر فيزرعون وترعى مواشيهم ، ولكن قومه غلبت عليهم الشقوة فلم ينفع فيهم ذلك كله وقالوا له : (سواء علينا أو عظت أم لم تكن من الواعظين ، ان هذا الا خلق الاولين ،)

أى قالوا ماهذا الذى جئتنا به الا أخلاق الاولين ، على قراءة من قرأ خلق بفتح الخاء وسكون اللام ،كما قال مشركوا قريش : (. . أسطير الاولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا) (١) وعلى القراءة الثانية خلق الاولين بضم الخاء واللام يكون المعنى : ماهذا الذى نحن عليه الا دين الاولين فهو دين الآباء والاجداد ونحن تابعون لهم نعيش كما عاشوا ونموت كما ماتوا ، ولا بعث ولا معاد ، ولهذا قالوا : (وما نحن بمعذبين) (٢)

قال عبد الوهاب النجار فى كتابه قصص الانبياء :

ان القارىء لقصة هود عليه السلام مع قومه يخيل اليه أنه يرى انسانا وقورا رزينا يزن الكلام قبل القائة ، يتجلى الاخلاص وحسن النية على قسمات وجهه ، وهو لا يقابل الشر بمثله ، بل لا يفارقه استعمال اللين فى كلامه مع قومه ، انظروا الى قولهم له : (. . انا لنريك فى سفاهة وانا لنظنك من الكذبين) . (٣)

ثم ماذا كان جوابه ؟ كان جوابه أن قال لهم : (يقوم ليس بى سفاهة ولكنى رسول من رب العلمين ، أبلغكم رسلت ربى وأنا لكم ناصح امين)

١- جزء من آية ١٣٦ وآية ١٣٧ من سورة الشعراء
٢- جزء من آية ٥ من سورة الفرقان
٣- آية ١٣٧ من سورة الشعراء

فمن تأمل هذا الجواب وجده في غاية الروعة وحسن الخلق والتلطف في اسداء النصيحة الخالصة من شوائب جرأى منفعة . (١) اهـ

---

١) قصص الأنبياء للنجار ص ٥٦

معجزة هود عليه السلام

ان معجزة نبى الله هود عليه السلام من نوع معجزة أخيه نوح عليهما وعلى محمد وسائر الانبياء والرسل أفضل الصلاة والتسليم . وذلك لانه تحدى قومه ايضا وهو فريد وحيد ، تحداهم وأمرهم ان يكيدوه جميعا بدون أن يتخلف منهم أحد عن ذلك ، وأمرهم الا ينظروه لحظة واحدة ، ولا يقدح فى هذه المعجزة العظيمة قول قومه : ... (... يهود ما جئتنا ببينة ومانحن بتاركى آلهتنا عن قولك ..) لان ذلك من فرط عنادهم وشدة جهلهم ، وعدم اعتدادهم بما جاءهم من البينات .

قال تعالى : حاكيا عنهم مقالتهم هذه وموضحا هذه الآية العظمى لنبيه هود .

(قالوا يهود ما جئتنا ببينة ومانحن بتاركى آلهتنا عن قولك ومانحن لك بمؤمنين ، ان نقول الا اعتريك بعض آلهتنا بسوء ، قال انى أشهد الله واشهدوا أنى برىء مما تشركون من دونه فكيدونى جميعا ثم لا تنظرون ، انى توكلت على الله ربى وربكم مامن دابة الا هو آخذ بناصيتها ان ربى على صراط مستقيم) .

فقد بين لهم فى هذه الآيات عظم توكله على ربه جل وعلا وشدة براءته من الاوثان وتحداهم غاية التحدى بأن يضروه بأى سوء وأمرهم الا يمهلوه لحظة واحدة .

هذه معجزة هود عليه السلام ، وأعظم بها من معجزة فان انسانا واحدا يتحدى أمة كاملة أخبر الله جل وعلا أنه لم يخلق مثلها فى البلاد كما قال تعالى : (الم تر كيف فعل ربك بعاد ، ارم ذات العماد ، التى لم يخلق مثلها فى البلد) (١)

---

(١) الآيات ٦ - ٨ من سورة الفجر

وقال تعالى عنهم : (. . . وقالوا من أشد منا قوة . . . .) (١)
وقد تحداهم هود غاية التحدى مع مالهم من القوة والسطوة واجابهم بقوتهم ولم يستطيعوا ضره بقليل ولا كثير فعصمته منهم هى معجزته .
من قال بذلك

١- قال الصاوى (فى حاشيته على الجلالين) عند تفسير آية هود هذه مانصه :-
(قوله : (ببينة) أى معجزة ، وكانت معجزته التى قامت بها الحجة عليهم ما يأتى فى قوله : (. . . فكيدونى جميعا ثم لا تنظرون) فعصمته منهم هى معجزته (٢) وقد تقدم أن الريح وان كانت معجزة الا أنها ليست لاقامة الحجة عليهم ، وانما هى سبب فى هلاكهم والله تعالى أعلم .
٢- وقال أبو السعود فى تفسير آيات هود هذه عند قوله تعالى . . .
(فكيدونى جميعا ثم لا تنظرون) مانصه :
أى ان صح مالوحتم به من كون آلهتكم مما يقدر على اضرار من ينال منها عبادتها ولو بطريق ضمنى ، فانى برىء منها فكونوا أنتم معها جميعا ، وباشروا كيدى ولا تمهلونى ولا تسامحونى فى ذلك .
فالفاء لتفريع الأمر على زعمهم فى قدرة آلهتهم على ماقالوا وعلى البراءة كليهما ، وهذا من أعظم المعجزات فانه عليه الصلاة والسلام كان رجلا مفردا بين الجم الغفير والجمع الكثير من عتاة عاد الغلاظ الشداد ، وقد خاطبهم بماخاطبهم وحقرهم وآلهتهم وهيجهم على

---

١) جزء من آية ١٥ من سورة فصلت
٢) أنظر حاشية الصاوى على الجلالين جـ ٢ ص ٢٠٤ المصدر السابق

مباشرة مبادىء المضادة والمضارة وحثهم على التصدى لأسباب المعازة فلم يقدروا على مباشرة شيء مما كلفوه وظهر عجزهم عن ذلك ظهورا بينا كيف لا ؟ وقد التجأ الى ركن منيع رفيع واعتصم بحبل متين حيث قال :

(انى توكلت على الله ربى وربكم ..) يعنى انكم وان بذلتم فى مضارتى مجهودكم لا تقدرون على شيء مما تريدون بى فانى متوكل على الله تعالى . وانما جيء بلفظ الماضى لكونه أدل على الانشاء المناسب للمقام - وواثق بكلاءتى وحفظى من غوائلكم وهو مالكى ومالككم لا يصدر عنكم شيء ، ولا يصيبنى أمر الا بارادته ومشيئته ، ثم برهن عليه بقوله :

(.. مامن دابة الا هو آخذ بناصيتها ...) آى الا هو مالك لها قادر عليها بصرفها كيف يشاء غير مستعصية عليه ، فان الأخذ بالناصية تمثيل لذلك . ان ربى على صراط مستقيم ، تعليل لما يدل عليه التوكل من عدم قدرتهم على اضراره . (١)

٣- وقال الحافظ ابن كثير فى تفسيره لآيات هود هذه بعد أن ذكر ما دلت عليه من التحدى والتوكل على الله مانصه :

وهذا وحده برهان قاطع على أن هودا عبد الله ورسوله ، وأنهم على جهل وضلال فى عبادتهم غير الله لأنهم لم يصلوا اليه بسوء ، ولا نالوا منه مكروها ، فدل على صدقه فيما جاءهم به وبطلان ماهم عليه وفساد ماذهبوا اليه ،

وهذا الدليل بعينه قد استدل به نوح عليه السلام قبله فى قوله :

(... يقوم ان كان كبر عليكم مقامى وتذكيرى بآيات الله فعلى الله توكلت فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمة ثم اقضوا الى ولا تنظرون) (٢) آ...

---

١) طالع تفسير أبى السعود جـ٣ ص ٢٩ المصدر السابق

٢) طالع البداية والنهاية لابن كثير جـ١ ص ١٢٤ ط ٢ مكتبة المعارف بيروت

((الفصل الثالث))

((صـــالح عليه الســـــلام))

من هـو صالح ؟

هو صالح بن عبد الله بن ملسـح بن عبيد بن حاجربن ثمود بن عابر بن ارم بن سام ابن نوح (١)

وقد أرسله الله الى قومه ثمود وهم قبيلة مشهورة يقال لهم ثمود سموا بأسم جدهم ثمود أخي جديس من ذرية سام بن نوح ، ومساكنهم بمدائن الحجر بين تبوك والمدينة (٢) . وكان هؤلاء بعد عاد قوم هـود كما بين ذلك القرآن حيث يقول حاكيا عن صالح يخاطب قومه :

(واذكروا اذ جعلكم خلفاء من بعد عاد ...) (٣)

وكان منهجه عليه السلام في دعوته لما بعثه الله رسولا الى قومه : هو الدعوة الى توحيد الله تعالى وافراده بالعبادة وطرح عبادة الاوثان . ولما دعا صالح قومه الى الايمان بالله آمن به البعض منهم ، وكفر به جمهورهم وآذوه وهموا بقتله ، وعقروا الناقة التي جعلها الله آية على صدقة ، فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر ،

وقد بين القرآن الكريم قصته عليه السلام مع قومه ، وكيفية هلاكهم وسوء عاقبتهم ورد كيدهم في نحورهم لما هموا بقتله عليه السلام حين تقاسموا بالله ليبيتنه وأهله ، ثم ليقولن لوليه ماشهدنا مهلك أهله وانا لصادقون ،

فمكر الله بهم لما أرادوا المكر بنبيه ، وقد تكررت قصته في كثير من

---

١) البداية والنهاية لابن كثير جـ ١ ص ١٣٠-١٣١ المصدر السابق

٢) قصص الانبياء لابن كثير جـ ١ ص ١٤٥

٣) جزء من آية ٧٤ من سورة الاعراف

سور القرآن ، تارة مبسوطة ، وتارة موجزة ، والاغلب أنه كلما ذكرت قصة صالح عليه السلام ذكر العذاب الذى أصاب قومه .

منهجه فى دعوته

لم يختلف منهج نبى الله صالح عن مناهج اخوانه من الانبياء لان المناهج العامة للانبياء لا تختلف لان دينهم واحد ، ودعوتهم الى التوحيد واحدة ، وانما يختلفون فى الشرائع فقط كما قدمنا أن الرسل أبناء علات دينهم واحد وصالح عليه السلام دعا الى الله والى الايمان بنبيه صالح ، وأخبر قومه أنه لا اله لهم غير الله فأمرهم بتوحيده وافراده بالعبادة وحده ، كما أمرهم بنبذ الاصنام ، ورغبهم ورهبهم وبلغهم رسالة ربه .

قال تعالى فى شأنه مع قومه : (والى ثمود أخاهم صلحا قال يقوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل فى أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم) (١)

فنبى الله صالح عليه السلام أول شىء دعاهم اليه لما أرسله الله اليهم : هو توحيد الله تعالى كغيره من سائر الانبياء ، فقال لهم : (اعبدوا الله) فأمرهم بعبادته تعالى وأخبرهم أنه لا اله لهم الا هو ، وهذا فى معنى التعليل لعبادة الله لانهم اذا لم يكن لهم اله غيره وجب عليهم أن يفردوه بالعبادة ويتركوا ماسواه من الاوثان ويعلموا أنها ليست بآلهة وأنها لا تضر ولا تنفع ، ولذلك لا تستحق أن تعبد ، وانما الذى يستحق أن يعبد هو من بيده الضر والنفع .

---

١) آية ٧٣ من سورة الأعراف

وأخبرهم أن هذه الناقة بينة واضحة على صدقة وحذرهم أن يمسوها بسوء . ولما قرر لهم صالح نبوته وأثبتها لهم بالأدلة القاطعة قال الملأ من قومه للذين آمنوا مع صالح كما حكى القرآن الكريم : (. . . أتعلمون أن صلحا مرسل من ربه قالوا انا بما أرسل مؤمنون ، قال الذين استكبروا انا بالذى آمنتم به كفرون ، فعقروا الناقة وعتـــو عن أمر ربهم وقالوا يصلح أئتنا بما تعدنا ان كنت من المرسلين ، فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دراهم جثمين فتولى عنهم وقال يقوم لقد أبلغتكم رسالة ربى ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين) (١)

وقال تعالى : (والى ثمود أخاهم صلحا قال يقوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها فأستغفروه ثم توبوا اليه ان ربى قريب مجيب) (٢)

وقال تعالى : (ولقد أرسلنا الى ثمود أخاهم صلحا ان اعبدوا الله فاذا هم فريقان يختصمون) (٣) وخلاصة القول أن صلحا عليه السلام دعا قومه الى عبادة الله وتوحيده ، ونصح لهم وذكرهم بآيات الله ، وأقام لهم الأدلة القاطعة على صدقة فى دعوته .

ولكن قومه أبوا غاية الجحود والعناد والكفر متعمدين فقالوا له : (ائتنا بما تعدنا ان كنت من المرسلين) واستحبوا العمى على الهدى وجحدوا بآيات الله وعصوا رسوله فأخرج الله اليهم ناقة عشراء من صخرة صماء . آية لهم على صدق نبيه ، ونهاهم عن التعرض لها بسوء فأبوا واستعجلوا بالسيئة قبل الحسنة ، وعقروا الناقة فأخذهم الله بعذابه فى الدنيا وعنده لهم فى الآخرة ما هو أعظم .

---

١) جزء من آية ٧٥ والآيات ٧٦ الى ٧٩ من سورة الأعراف
٢) آية ٦١ من سورة هود
٣) آية ٤٥ من سورة النمل

وقد ذكرت قصة صالح فى سور كثيرة غيرماذكرنا .

فقد ذكرت مبسوطة فى سورة الشعراء ، وذكرت غير مبسوطه فى سورة القمر ، وسورة فصلت ، وسورة الشمس ، وسورة الحجر ، والذاريات ، وسورة النجم ، وسورة الحاقة .

كل هذا للعبرة بهذه القصة العظيمة فقد تكررت فى القرآن الكريم ليعتبر بها ذووالعقول ويتعظوا كما قال تعالى : (لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الالباب ..) (١) فمن تأمل مصيرهؤلاء فى الدنيا ومايؤل اليه أمرهم فى الآخرة صدق الرسل فيما جاءوا به .

قال فى المنار : وقد علمنا من سنة القرآن وأساليبه فى قصص الأنبياء مع أقوامهم أن المراد بها العبرةوالموعظة ببيان سنة الله تعالى فى البشر وهداية الرسل عليهم الصلاة والسلام ، لاحوادث الأمم وضوابط التاريخ مرتبة بحسب الزمان أو أنواع الأعمال ، وقد حكى هنا عن صالح عليه السلام أنه ذكر الآية التى أيده الله بها عقب تبليغ الدعوة ، وفى قصته من سورة هود أنه ذكر لهم الآية بعد ردهم لدعوته وتصريحهم بالشك فى صدقه ، وزاد فى سورة الشعراء طلبهم الآية منه ، وكل ذلك صحيح ومراد وهو المستون المعتاد . (٢) اهـ

---

١) جزء من آية ١١١ من سورة يوسف

٢) تفسير المنار جـ ٨ ص ٥٠١

أسلوب صالح عليه السلام فى دعوته

ان نبى الله صالح عليه وعلى جميع الرسل أفضل الصلاة والتسليم ، استعمل مع قومه ثمود كثيرا من أساليب الدعوة .

فقد استعمل معهم أسلوب الترهيب فحذرهم من عذاب الله تعالى وأنذرهم بأسه ، هذا بعد أن أمرهم بتصديقه والايمان بما جاء به من عنده من التوحيد ، وأتاهم ببينة دالة على صدقه فنهاهم عن مسها بأى سوء . وأخبرهم أنهم أن فعلوا أخذهم الله بعذاب أليم ، كما كان يلفت أنظارهم الى النعم التى أنعم الله عليهم بها حيث بوأهم ديار عاد بعد هلاكهم ، وأنعم عليهم بكثير من نعمه حيث كانوا يتخذون من الجبال بيوتا يسكنونها ينحتونها نحتا ، ويتخذون من سهول الارض بيوتا كذلك يسكنون فيها . وكان ينهاهم عن الفساد فى الارض بالمعاصى والكفر ،

وكان يوجه أنظارهم الى مبدأ نشأتهم ، وأن الله الذى أوجدهم هوالذى يستحق العبادة ، وأن أول وجودهم من هذه الارض التى يمشون عليها ويبنون فيها القصور وينحتون جبالها حيث خلق أباهم آدم منها واستعمرهم فيها أى أعمرهم فيها ديارهم ، ثم هو وارثها منهم اذا انقضت أعمارهم أو المراد جعلهم معمرين ديارهم فيها لأن الرجل اذا ورث من بعده داره فكأنما أعمره اياها لانه يسكنها عمره ثم يتركها لغيره (١)

وقيل : استعمركم فيها أى جعلكم عمارها وسكانها من قولهم أعمر فلان فلانا داره فهى له عمرى فتكون أستفعل بمعنى أفعل مثل استجاب بمعنى أجاب ، وقيل معناه أطال اعماركم فيها ، وقيل معناه أمركم

---

١) أنظر الكشاف جـ ٢ ص ٢٧٨ المصدر السابق

بعمارتها من بناء المساكن وغرس الأشجار . كما كان صالح عليه السلام يأمر قومه بالتوبة الى الله والاستغفار من الذنوب ويرغبهم فى ذلك ، وكان يخبرهم أن ربه قريب ممن دعاه مجيب له ،

ولكن نبى الله صالحا كان ينادى أقواما عميا عن رؤية الحق صما عن سماعه غلبت عليهم الشقوة ، فأنكروا عليه نهيه لهم عن عبادة ماكان آباؤهم يعبدونه من الأصنام ، وأخبروه أنهم فى شك موقع لهم فى الريبة من دعوته التى قدمها اليهم ، وقالوا له : (قد كنت فينا مرجوا قبل هذا (١) أى كانت تلوح فيك مخائل الخير وأمارات الرشد فكنا نرجوك لنستنفع بك ، فلما نطقت بهذا القول انقطع رجاؤنا منك ، وعلمنا أن لا خير فيك ، وقيل : المعنى كنا نرجوك أن تدخل فى ديننا وتوافقنا على مانحن عليه . (٢)

ولما قالوا مقالتهم هذه كان جوابه فى غاية الروعة ولين الجانب فقال : (. . . يقوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى وآتينى منه رحمة فمن ينصرنى من الله ان عصيته فما تزيدوننى غير تخسير) (٣)

أى ياقوم أرأيتم أن اتبعتكم وعصيت ربى فى أوامره فمن يمنعنى عذابه ؟ فما تزيدوننى غير تخسير أى تضليل وابعاد من الخير .

واليك بعض الآيات التى استعرضت أساليب نبى الله صالح مع قومه من سورة الاعراف وسورة هود . ،

قال تعالى : (والى ثمود أخاهم صلحا قال يقوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل فى أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم ، واذكروا اذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم فى الارض تتخذون من سهولها قصورا وتنحتون الجبال بيوتا فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا فى الأرض مفسدين)

---

١) جزء من آية ٦٢ من سورة هود
٢) طالع الكشاف فى المرجع السابق نفسه
٣) جزء من آية ٦٣ من سورة هود

قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم أتعلمون أن صلحا مرسل من ربه قالوا انا بما أرسل به مؤمنون ، قال الذين استكبروا انا بالذى آمنتم به كفرون ، فعقروا الناقة عتوا عن أمر ربهم وقالوا يصلح ائتنا بما تعدنا ان كنت من المرسلين ، فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جثمين ، فتولى عنهم وقال يوم لقد أبلغتكم رسالة ربى ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين) (١)

وقال تعالى : (والى ثمود أخاهم صلحا قال يقوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره هو أنشاكم من الأرض واستعمركم فيها فاستغفروه ثم توبوا اليه ان ربى قريب مجيب ، قالوا يصلح قد كنت فينا مرجوا قبل هذا اتنهينا أن نعبد ما يعبد آباؤنا واننا لفى شك مما تدعونا اليه مريب ، قال يقوم أرأيتم أن كنت على بينة من ربى وآتينى منه رحمة فمن ينصرنى من الله ان عصيته فما تزيدوننى غير تخسير ، ويقوم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل فى أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب ، فعقروها فقال تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب ، فلما جاء أمرنا نجينا صلحا والذين آمنوا معه برحمة منا ومن خزى يومئذ ان ربك هو القوى العزيز ، وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جثمين ، كأن لم يغنوا فيها ألا ان ثمودا كفروا ربهم ألا بعدا لثمود) (٢)

ففى هذه الآيات أوضح لنا القرآن الكريم كيف كان نبى الله صالح يدعو

---

١) الآيات من ٧٣ الى ٧٩ من سورة الأعراف

٢) الآيات من ٦١ - ٦٨ من سورة هود

قومه ، ويبين لنا الأساليب التى كان يستعملها معهم ، كما بينت الآيات مدى كفر هؤلاء القوم وطغيانهم وتمردهم على الله تعالى .

ويكفى مافى هذه الآيات لمن تأملها فقد ذكر الكثير من شأن هذا النبى الكريم فيها وما استعمله فى سبيل : نجاح دعوته لقومه من الوسائل والأساليب والمناهج ، والا فإنه ذكرت قصته فى سورة من القرآن كثيرة اهـ

معجزة صالح عليه السلام

ان معجزة صالح عليه السلام معجزة مشهورة كشهرة الشمس والقمر ، ويروى المفسرون والمؤرخون القصة المشهورة وهى : أن ثمود اجتمعوا فى ناديهم وجاءهم صالح فدعاهم الى الله فقالوا له : ان أخرجت لنا من هذه الصخرة وأشاروا الى صخرة : ناقة من صفتها كيت وكيت آمنا بك ، وأخذ عليهم المواثيق أنه ان فعل آمنوا به ، وقام الى مصلاه ودعا الله فأجاب دعاءه فخرجت لهم ناقة كما وصفوا دليلا قاطعا وبرهانا ساطعا على صدقه فأمن به بعضهم وبقى الكثير منهم على كفره (١)

ويكفى فى اثباتها ماذكره الله فى سور كثيرة من كتابه مصرحا بأن هذه الناقة آية على صدق صالح تارة ، وتارة يذكر أنها بينة على صدقه .

قال تعالى : فى سورة الأعراف

(والى ثمود أخاهم صلحا قال يقوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم هذه ناقة الله لكم آية ....) .

---

(١) ذكر هذه القصة ابن كثير فى البداية والنهاية جـ ١ ص ١٣٤ المصدر السابق ورواها الزمخشرى فى كشافه مطولة جـ ٢ ص ٨ المصدر السابق

وقال فى سورة هود (... ويقوم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل فى أرض الله ولا تمسوها بسوء ...) وقال تعالى فى سورة الاسراء (... وأتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها ...) (١)

وقال تعالى : (... قالوا انما أنت من المسحرين ، ما أنت الا بشر مثلنا فأت بآية ان كنت من الصادقين ، قال هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم ، ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب يوم عظيم) (٢) الى غير ذلك من المواضع التى ذكرت فيها هذه الآية العظيمه مثل سورة القمر ، وسورة الشمس ، وغير ذلك .

وقد ذكر الله كيفية اهلاكهم فى سور أخرى مثل سورة الحاقة ، والذاريات ، وغير ذلك ولعبرة هذه المعجزة وكثرة دورانها فى القرآن وكثرة كلام المفسرين عليها اكتفينا بهذا القدر من شأنها ومن أراد الزيادة فليراجع من كتب التفسير ماشاء .

---

١) جزء من آية ٥٩ من سورة الاسراء

٢) الآيات من ١٥٣ الى ١٥٦ من سورة الشعراء

((الفصل الرابـــع))

((موسى عليه السلام))

من هو موســـى ؟

هـو : موسى بن عمران بن قاهـت بن عازر بن لاوى بن يعقوب بن اسحاق بن ابراهيم عليهم السلام (١)

وكان رسولا نبيا ، وناداه الله من جانب الطور الأيمن وقربه نجيا ووهب له من رحمته أخاه هارون نبيا ، وقد ذكر الله قصته في مواضع كثيرة من القرآن مبسوطة مطولة تارة وموجزة تارة .

منهجه عليه السلام في دعوته

ان منهج موسى بن عمران كمنهج من سبقه من الرسل ومن تأخر عنه منهم حيث كان يجمعهم هدف رئيسي هو : الدعوة الى توحيد الله تعالى كما قال جل ثناؤه :

(ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطغوت)

وكان لموسى حظه من هذا الهدف العظيم فقد دعا الى توحيد الله تعالى كما حكى لنا القرآن الكريم ذلك قال تعالى :

(٢)

(واذ أخذنا ميثاق بني اسرائيل لا تعبدون الا الله وبالوالدين احسانا وذي القربى واليتمى والمسكين وقولوا للناس حسنا وأقيمـــو

---

١) البداية والنهاية جـ ١ ص ٢٣٧ المصدر السابق

٢) الميثاق مفعال من التوثيق باليمين ونحوها من الأمور التي عوهد عليها والفعل وأصله موثاق سكنت الواو بعد كسرة فقلبت ياء فمعنى الكلام ، واذكروا يامعشر بني اسرائيل اذ أخذنا ميثاقكم لا تعبدون الا الله ، انظر ابن جرير هنا .

الصلوة وأتوا الزكوة ثم توليتهم الا قليلا منكم وأنتم معرضون) (١)
وقد بين أبو حيان أن هذا الميثاق أخذ عليهم وهم عقلاء على لسان نبى الله موسى عليه السلام ، وعلى ألسنة غيره من أنبياء بنى اسرائيل ونسب هذا القول لابن عطية ، وضعف القول القائل بأن هذا الميثاق أخذ عليهم وهم فى أصلاب أبائهم كالذر كما قاله مكى قال :

هذه الآية مناسبة للآيات الواردة قبلها فى ذكر توبيخ بنى اسرائيل وتقريعهم وتبيين ما أخذ عليهم من ميثاق العبادة لله وحده وافراده تعالى بالعبادة وما أمرهم به من مكارم الأخلاق من صلة الأرحام والاحسان الى المساكين .

والمواظبة على ركنى الاسلام : البدنى والمالى ، ثم ذكر تولهم عن ذلك ونقضهم لذلك الميثاق على عادتهم السابقة وطريقتهم المألوفة .

واذ معطوف على الظروف السابقة قبل هذا ، والميثاق هو الذى أخذه تعالى عليهم فى صلب أبائهم كالذر قاله مكى ، وضعف بأن الخطاب قد خصص ببنى اسرائيل وميثاق الآية فيهم ، أو ميثاق أخذ عليهم وهم عقلاء فى حياتهم على لسان موسى عليه السلام وغيره من أنبيائهم قاله ابن عطية ، وقيل هو ميثاق أخذ عليهم فى التوراة بأن يعبدوا الله (٢)

---

١) آية ٨٣ من سورة البقرة
٢) البحر المحيط جـ ١ ص ٢٨٢ المصدر السابق

وعلى أية حال : اما أن يكون الميثاق أخذ عليهم فى التوراة فالأمر واضح ، فموسى عليه السلام دعا بنى اسرائيل الى افراد الله بالعبادة وحده ، واما أن يكون أخذ عليهم فى غير التوراة على لسان موسى وغيره من أنبيائهم فان الآية تدل على أنه دعا بنى اسرائيل لعبادة الله وحده ،

وقال الالوسى : وهذا الميثاق : ما أخذ عليهم على لسان موسى وغيره من أنبيائهم عليهم الصلاة والسلام ، أوميثاق أخذ عليهم فى التوراة وقول مكى انه ميثاق أخذ عليهم وهم فى أصلاب أبائهم كالذر لا يظهر وجهه هنا .

(١) وقد ذكر المفسرون أوجها كثيرة فى معنى قوله : (لاتعبدون الا الله) وفى توجيه اعراب الجملة (٢)

---

١) انظر روح المعانى جـ ١ ص ٣٠٧

٢) وأظهر الوجه التى ذكروا فى ذلك عندى أنه خبر بمعنى النهى لأن ذلك أبلغ من صريح النهى لما فيه من ايهام أن المنهى كانه سارع الى الكف عن المنهى عنه حتى أخبر عنه بالحال أو الماضى أى ينبغى أن يكون كذلك ، ويؤيده قراءة ابن مسعود : لا تعبدوا وكذلك المعطوفات عليه كلها أو امر : وبالوالدين احسانا : أى أحسنوا اليهم احسانا ، وقولوا للناس حسنا ، وأقيموا الصلوة وآتوا الزكوة ، انظر روح المعانى هنا .

وقد ذكر أبو حيان أوجها عديدة فى توجيه هذه الجملة أعرضنا عن ذكرها ، ومن جملتها الوجه الذى ذكرنا .

والمقصود عندنا أن نقيم الدليل على أن موسى أمر قومه بعبادة الله وحده ، وذلك لأن الغالب في القرآن أنه اذا ذكر فيه ارسال رسول الى قومه أتبع ذلك بأمر الرسول لقومه بعبادة الله أمراصريحا تلوالرسالة فورا ، وموسى عليه السلام لا شك أن له الحظ الوافر من ذلك النوع من الدعوة ، ولكني الى الآن بعد استعراض قصته في القرآن لم أجد الأمر الصريح كماقال في نوح : (ولقد ارسلنا نوحا الى قومه فقال يقوم اعبدوا الله ...) وفي هود (والى عاد أخاهم هودا قال يقوم اعبدوا الله ...)

وفي صالح : (والى ثمود أخاهم صلحا قال يقوم اعبدوا الله ...)

وفي شعيب : (والى مدين أخاهم شعيبا قال يقوم اعبدوا الله) (١)

وقال في ابراهيم : (وابراهيم اذ قال لقومه اعبدوا الله ...) (٢)

وقال في عيسى : (ماقلت لهم الا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم) (٣)

وقال تعالى في شأنه (واذ نادى ربك موسى أن ائت القوم الظلمين قوم فرعون الا يتقون) (٤)

قال أبوحيان : قال ابن عطية : معناه قل لهم ، فجمع في هذه العبارة من المعاني نفي التقوى عنهم وأمرهم بالتقوى ، فأنظره عند تفسير آية الشعراء هذه . (٥)

فعلى هذا يكون موسى أمرقومه بعبادة الله وحده لأن توحيد الله يدخل في الأمر بتقوى الله دخولا أوليا بلا شك .

---

١) آية ٨٤ من سورة هود
٢) جزء من آية ١٦ من سورة العنكبوت .
٣) جزء من آية ١١٧ من سورة المائدة
٤) آيتي ١٠ و ١١ من سورة الشعراء
٥) جـ ٧ ص ٢ [illegible]

وهذا التفسير ذكره ابن جرير فقال : ومعنى الكلام : قوم فرعون فقل لهم ألا تتقون ، وترك اظهار فقل لهم لدلالة الكلام عليه (١)

وقيل المعنى قل لهم ألا تتقون ، وجاء بالياء لأنهم غيب وقـــت الخطاب (٢) فتحصل أن موسى أمر فرعون وقومه بتقوى الله المستلزمة لعبادته وحده لا شريك له وطرح جميع الأصنام كما أمر بنى اسرائيل بذلك ايضا ،

وقد تقدم الكلام فى قوم موسى هل هم بنواسرائيل أو فرعون وقومه ؟ وذكرت ما ظهر لى فى ذلك ، وقال تعالى : (ولقد أرسلنا موسى بآياتنا أن أخرج قومك من الظلمت الى النور ...) (٣)

وقد دلت هذه الآية أيضا على دعوته الى توحيد الله تعالى فان الاخراج من ظلمات الكفر الى نورالايمان لا يتم الاعن طريق افراد الله وحده بالعبادة ، والاقرار له بالعبودية .... أى أدعهم من الضلالة الى الهدى ومن الكفر الى الايمان قاله ابن عباس (٤)

والحاصل أن المقصود من البعثة واحد فى حق الرسل جميعاعليهم الصلاة والسلام وهو أن يسعوا فى اخراج الخلق من ظلمات الضلالت الى أنوار الهدايات .

---

١) تفسير ابن جرير جـ ١٩ ص ٦٤ المصدر السابق

٢) طالع القرطبى عند تفسير هذه الآية جـ ١٣ ص ٩١ طـ دارالكتب

٣) جزء من آية ٥ من سورة ابراهيم

٤) تفسير ابن جرير جـ ١٣ ص ١٢٢ المصدر السابق

فهذه الآيات التى ذكرت دلت على أن موسى دعا قومه الى عبادة رب واحد ، وان كنت الى الآن لم أعثر فى القرآن على الأمر الصريح بصيغة من صيغه المعروفة (١) من مادة العين والباء والدال .

ولما اتخذ بنوا اسرائيل العجل الها وقالوا (. . هذا الهكم واله موسى) (٢) قال لهم عندما رجع (انما الهكم الله الذى لا اله الا هو) (٣) أى ليس هذا الهكم انما الهكم الذى لا اله الا هو الذى لا يستحق العبادة الا هو وحده فان كل شىء مفتقر اليه وعبد له أحاط كل شىء عددا احاط علمه بكل شىء .

وقد وردت قصة موسى فى القرآن فى سور كثيرة فقد ذكر اسمه فى القرآن أكثر من مائة وثلاثين مرة ، وسبب ذلك أن قصته أشبه قصص الرسل بقصة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم من حيث إنه أوتى شريعة دينية دنيوية وكون الله به أمة عظيمة (٤)

والناظر فى قصة موسى عليه السلام يتبين من خلالها منهجه فى دعوته ، فقد كان يتصف باللين فى الخطاب ، ويكثر من الموعظة الحسنة ، ويجادل قومه بالتى هى أحسن ، وكان يتصف بالصفح والاعراض عن جهل قومه وسوء أخلاقهم .

---

١) وهى فعل الأمر ، والمضارع المجزوم بلام الأمر واسم فعل الأمر ، والمصدر النائب عن فعل الأمر ، نحو أقيم الصلاة ، ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير . . . عليكم أنفسكم ، فضرب الرقاب .

٢) جزء من آية ٨٨ من سورة طه

٣) جزء من آية ٩٨ من سورة طه

٤) انظر دعوة الرسل محمد أحمد العدوى ص ١٨١

منهجه في الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة

ان موسى عليه السلام علمه الله تعالى كيف يدعو فرعون وقومه فقد رسم له منهجا يسير عليه في دعوته حيث يقول له آمرا له ولأخيه هارون ..

(اذهبا الى فرعون انه طغى ، فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى) (١)

وقد امتثل هو وأخوه فعرضا الدعوة على فرعون بحكمة وموعظة حسنة كما أوضحت ذلك سورة النازعات في قوله تعالى : (أذهب الى فرعون أنه طغى ، فقل هل لك الى أن تزكى وأهديك الى ربك فتخشى ، فأريه الآية الكبرى (٢)

أي اذهبا على رجائكما و طمعكما وباشرا الأمر مباشرة من يرجو ويطمع أن يثمر عمله ولا يخيب سعيه فهو يجتهد بطوقه ، ويحتشد بأقصى وسعه ، وجد وى ارسالهما اليه مع العلم بأنه لن يؤمن الزام الحجة وقطع المعذرة لئلا تكون له حجة كما قال تعالى : (ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت الينا رسولا فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى) (٣)

وقوله : (.. أو يخشى ..) أي يخشى أن يكون الأمر كما تصفان فيجره انكاره وجحوده الى الهلكة . (٤)

---

١) ايتي ٤٣ - ٤٤ من سورة طه

٢) الآيات من ١٧ - ٢٠ من سورة النازعات

٣) آية ١٣٤ من سورة طه

٤) طالع الكشاف عند تفسير آية طه هذه جـ ٢ ص ٥٣٨ المصدر السابق .

صبره وتوكله على ربه

ان موسى عليه السلام رسم للدعاة منهجا فى الصبر والتوكل على الله تعالى فى غاية الروعة فانه لما ذهب ببنى اسرائيل من مصر وتبعه فرعون وجنوده حتى تراءى الجمعان جمع موسى وجمع فرعون وفزع قوم موسى لما يعلمون من تعذيب فرعون لهم وشدة سطوته وبأسه وكثرة جنوده وقالوا لموسى : انا لمدركون ، فهناك ظهر توكله على ربه وثقته فيه فزجر قومه مخبرا لهم أن ربه معه يحفظه ورعايته وأنه ماذهب بهم من مصر الا بأمر منه ، وأنه سوف يهديه الى مافيه نجاتهم من عدوهم قال تعالى : (فلما تراءى الجمعان قال أصحب موسى انا لمدركون ، قال كلا ان معى ربى سيهدين) (١)

فموسى عليه السلام عندما أشتد الموقف وبلغ الخوف من قومه مابلغ وعاينوا جيش فرعون الكثير ورأوا البحر تلتطم أمواجه أمامهم وتيقنوا الهلاك لأنهم يرون فرعون وجنوده وراءهم متبعين لهم يطلبونهم ، ويرون البحر أمامهم ، وهذا أمر فى غاية الخطورة ، ولكن عندذاك ظهر توكل موسى على ربه وثقته به فقال لهم (. . . كلا ان معى ربى سيهدين) أى لا يصل اليكم شىء مما تكرهون فان الله سبحانه هو الذى أمرنى أن أسير بكم هاهنا وهو لا يخلف الميعاد .

ولما آمن سحرة فرعون برب موسى وبموسى ووقف فرعون مغلوبا مذموما مدحورا وهدد السحرة بقطع الايدى والأرجل من خلاف والتصليب على

---

١) آيتى ٦١ - ٦٢ من سورة الشعراء .

جذ وع النخل وبادر الملأ من قوم فرعون يحرضونه على موسى ومن آمن معه ويقولون له انه يفسد في أرضه ، ويعبد الها غيره ، وقال لهم فرعون انه سيقتل أبناء قوم موسى ويستحيي نساءهم لتكثر المعرة فيهم ظهر هناك صبر موسى وتوكله على ربه حيث قال لقومه :

(. . . استعينوا بالله واصبروا ان الارض لله يورثها من يشاء من عباده والعقبة للمتقين) (١)

وقال تعالى حاكيا عنه أمره لقومه بالتوكل على ربهم :

(. . . يقوم ان كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا ان كنتم مسلمين) (٢)

وحاصل القول أن موسى عليه السلام نهج منهج اخوانه من النبيين من قبله فدعا قومه الى عبادة الله وحده وتقوى الله والبراءة من الأصنام والطواغيت كما نهج منهجهم في الصبر على دعوته والتوكل على ربه جل وعلا الى غير ذلك من المناهج التي اتخذها عليه الصلاة والتسليم .

---

١) جزء من آية ١٢٨ من سورة الاعراف .

٢) جزء من آية ٨٤ من سورة يونس

أسلوبه فى دعوتـه

ان موسى عليه السلام نوع الأساليب فى دعوته لقومه حرصا على هدايتهم فقد كان يستعمل أسلوب الحوار تارة ، وكان ينكر على فرعون وقومه تارة وينكر على بنى اسرائيل ماكانوا يرتكبونه من الأمور المنكرة ، كما كان يأمر قومه وينهاهم ، ويرغبهم ويحذرهم ، ويذكرهم نعم الله عليهم الى غير ذلك مما كان يستعمله من الأساليب فى دعوته الى ربه .

أسلـوب الحوار

ان الحوار من الأساليب التى استعملها موسى عليه السلام ،

وذلك لأن الرسل بمقتضى أمانتهم وصدقهم لابد أن يبلغوا عن الله رسالته ، ويؤدوا الأمانة التى أئتمنوا عليها ، فهم طرف ، والطرف الآخر كفار ورثوا الكفر عن آبائهم وقلدوهم فى كل شىء ،

ومهمة الرسل هى انتزاع هؤلاء الكفار من كفرهم وتخليصهم عن عقائدهم وعقائد آبائهم وأجدادهم ، فمقتضى ذلك كله دام الحوار بين الرسل وأقوامهم فقد حاور ابراهيم عليه السلام النمرود كما يأتى ان شاء الله ، وحاور الكفار رسل الله كما يأتى أيضا فى قوله : (قالت رسلهم أفى الله شك ...) الآيات .

وكل هذا الحوار بين رسل الله والأمم المكذبة موضوعه الدعوة الى الله تعالى .

وقد بين لنا القرآن الكريم حوار موسى مع فرعون عدو الله فى شأن دعوته له حيث يقول : (فأتيا فرعون فقولا انا رسول رب العلمين ، أن أرسل معنا بنى اسرائيل ، قال ألم نربك فينا وليدا ولبثت فينا من عمرك سنين ،

وفعلت فعلتك التي فعلت وأنت من الكفرين ، قال فعلتها اذ اوأنا من الضالين ، ففررت منكم لما خفتكم فوهب لي ربي حكما وجعلني من المرسلين ، وتلك نعمة تمنها علي أن عبدت بني اسرائيل ، قال فرعون وما رب العلمين ، قال رب السموات والارض وما بينهما ان كنتم موقنين قال لمن حوله الا تستمعون ، قال ربكم ورب آبائكم الاولين ، قال ان رسولكم الذي أرسل اليكم لمجنون ،

قال رب المشرق والمغرب وما بينهما ان كنتم تعقلون ، قال لئن اتخذت الها غيري لأجعلنك من المسجونين ، قال أولو جئتك بشيء مبين ، قال فات به ان كنت من الصادقين ، فألقى عصاه فاذا هي ثعبان مبين ، ونزع يده فاذا هي بيضاء للنظرين ، قال للملاء حوله ان هذا لسحر عليم ، يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره فماذا تأمرون)(١) .

سؤال فرعون عن رب العالمين يقتضي أن موسى دعاه الى طاعة رب العالمين ، ويدل لذلك أن الله قال لموسى وهارون (اذهبا الى فرعون فقولا انا رسول رب العلمين)

فلا بد أن يكونا اخبراه انهما رسولان من رب العالمين ، ودعواه الى طاعته ، فهناك سأل فرعون عن رب العالمين ماهو ؟

ولما كان فرعون لا يمكن أطلاعه على معرفة الله تعالى الا بآثاره في خلقه ، وأظهر آثار خلق الله وأبرزها هو السماوات والارض وما بينهما فلم يكن لسؤال فرعون جواب غير ما أجابه به موسى حيث قال له :

(. . . رب السموات والارض وما بينهما ان كنتم موقنين ، أي ان كنتم

---

١) الآيات من ١٦ الى ٣٥ من سورة الشعراء

موقنين باسناد هذه المحسوسات الى موجود واجب الوجود فهو رب العالمين الذى سألتم عنه ،

ولما أجابه بهذا الجواب أبدى عدو الله العجب وكأنه أظهر لملائه أن الجواب غير مطابق للسوءال لانه سأل عن ذات الله تعالى ، وأجابه موسى بتأثير تلك الذات فى الخلق (قال فرعون) لمن حوله ... (الا تستمعون) فأجابه موسى بما هو أقرب الى الاذهان من الجواب الاول فقال له : (.. ربكم ورب آبائكم الاولين) فقد عدل عن التعريف بخالقية السماوات والارض الى التعريف بكونه خالقا لهم ولآبائهم ، وذلك لان السماوات والارض بعظمهما وداوسهما لا يمتنع أن يعتقد أحد وجوب وجودهما لذاتهما واستغنائهما عن الخالق ، ولكن لا يمكن أن يعتقد عاقل فى أبيه وأجداده وجوب الوجود لان المشاهدة شهدت بأنهم وجدوا بعد عدم ، وعدموا بعد وجود ، ولهذا عدل موسى الى هذا التعريف لانه أظهر ، وكان جواب فرعون أن قال :

(... ان رسولكم الذى أرسل اليكم لمجنون) يعنى أن موسى عرفه على الله بالآثار الخارجية ولم يسأله عن ذلك فهو اذا مجنون لا يفهم السوءال فضلا عن أن يجيب عليه ، ثم أتى موسى بجواب ثالث فقال : (... رب المشرق والمغرب وما بينهما ان كنتم تعقلون) فعدل الى طريق أوضح مما قبلها وذلك لانه أراد بالمشرق طلوع الشمس وظهور النهار وأراد بالمغرب غروب الشمس وذهاب النهار ، وهذا يدل على أن هذا التدبير المستمر الدائم المتوازن الذى لا يتغير بطول الزمن لا يتم الا بتدبير مدبر متصرف فى هذا الكون وحده خالق

له وسميت له ، ثم ذيل موسى عليه السلام هذا الجواب بقوله :

(.. ان كنتم تعقلون) أى ان كنتم من العقلاء علمتم أنه لا جواب لسوء الكم الا ما أجبتكم به .

ولما عجز فرعون وقامت عليه الحجة عدل الى التهديد فقال : (لئن اتخذت الها غيرى لأجعلنك من المسجونين) فأجاب موسى بلين وحكمة :

(... أو لو جئتك بشىء مبين) أى أتسجننى ولو جئتك بأمر واضح بين لا لبس فيه على أنى رسول رب العالمين ، وعلى أنه موجود واجب الوجود لذاته . فعند ذلك طغى على فرعون جهله فقال لموسى (... فأت به ان كنت من الصادقين) أى اتت بهذا الشىء المبين الذى ذكرت أنه دليل لك على أنك رسول من رب العالمين وأن رب العالمين موجود .

(فألقى عصاه فاذا هى ثعبان مبين ، ونزع يده فاذا هى بيضاء للنظرين) .

فلما رأى فرعون ذلك (قال للملأ حوله ان هذا لسحر عليم ، يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره فماذا تأمرون ، قالوا أرجه وأخاه وابعث فى المدائن حشرين ، ياتوك بكل سحار عليم) الى آخر القصة التى نصر الله فيها موسى وأخاه هارون حيث آمن السحرة بموسى . (١) (٢)

---

١) طالع تفسير الفخر الرازى عند هذه الآيات من سورة الشعراء بتصرف جـ ٢٤ ص ١٢٧ - ١٣٠ ط البهية المصرية .

٢) قلت وقول ابن كثير رحمه الله

أسلوب الانكـــار

كان موسى عليه السلام ينكر على فرعون وقومه . كما كان ينكر على بنى اسرائيل كلما رأى منكرا سواء كان صادرا من فرعون وأتباعه أو من بنى اسرائيل .

عند تفسير هذه الآيات : ومن زعم من أهل المنطق وغيرهم أن هذا - يعنى قول فرعون ومارب العلمين - سؤال عن الماهية فقد غلط فانه لم يكن مقرا بالصانع حتى يسأل عن الماهية ، بل كان جاحدا له بالكلية فيما يظهر ، وان كانت الحجج والبراهين قد قامت عليـــه . غير ظاهره عندى ،

وذلك لأن فرعون مقربالصانع ولكنه جاحد ومغالط وهويعلم فى نفسه ان دعواه الربوبيه كذب ومغالطة ، وانماذ لك كله تلبيس على قومه ومحافظة على منصبه وهيبته ، ودليل ماقلنا : أن الله تبارك وتعالى صرح فى آيتين من كتابه بأن فرعون انما كان يعارض موسى ويكذبه ظلما وعلوا وأنه متيقن للحقيقة ولكنه يغالط نفسه ويعمى على الغير ، قال تعالى :

(فلما جاءتهم آيتنا مبصرة قالوا هذا سحر مبين ، وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا فانظر كيف كان عقبة المفسدين) أيتى ١٣-١٤ من سورة النمل . ويدل لماقلته كلام ابن كثيرنفسه فانه قال عند تفسيرآية النمل هذه (وجحدوا بها) مانصه : فلما جاءتهم آيتنا مبصرة أى بينة واضحة ظاهرة قالوا : (هذا سحرمبين) وأراد وامعارضته بسحرهم فغلبوا وانقلبوا صاغرين وجحدوا بها : أى فى ظاهر أمرهم (واستيقنتها أنفسهم أنها حق من عند الله ولكن جحدوها وعاندوها وكابروها (ظلما وعلوا) أى ظلمـــا من أنفسهم سجية ملعونة وعلوا أى استكبارا عن اتباع الحق اهـ

والآية الثانية هى قوله تعالى (قال لقد علمت ماأنزل هؤلاء الا رب السموات والأرض بصائر وانى لأظنك يافرعون مثبورا) آية ١٠٢ من سورة الاسراء .

فموسى عليه السلام أقسم فى هذه الآية ان فرعون يعلم أن هذه الآيات أنزلها رب السموات والأرض الذى سأل عنه فرعون فكيف يقال انه لم يكن مقرا بالصانع حتى يسأل عنه بل كان جاحدا له بالكلية فيما يظهر . وقد أوضح الشيخ محمد الامين الشنقيطى فى أضواء البيان جـ ٣ ص ٦٣٢ هذا المعنى الذى ذكرنا ، وأوضحه أبوحيان فى البحر المحيط جـ ٦ ص ٨٦ وكذلك الألوسى جـ ١ ص ٨٥ فأنظرهم .

قال تعالى : سبينا انكار موسى على فرعون وقومه لما قالوا ان الآيات التى جاءهم بها سحر :

(قال موسى أتقولون للحق لما جاءكم أسحر هذا ولا يفلح الساحرون) (١) فهو يقول لهم منكرا عليهم ، أتصفون الحق الذى جئتكم به من عند الله بأنه سحر ؟ وكيف تكون هذه الحقيقة التى جئتكم بها سحرا ؟ ولا يفلح الساحرون أى لا يفوزون ، وقد اختار ابن جرير هذا المعنى وقال ان المقول من ناحية فرعون محذوف وأن القول : (.. أسحر هذا ...) من قول موسى ، قال مانصه :

وأولى ذلك بالصواب عندى أن يكون المقول محذوفا ، ويكون قوله (... أسحر هذا ...) من قبل موسى منكرا على فرعون وملائه قولهم للحق لما جاءهم (سحر) فيكون تأويل الكلام حينئذ : قال موسى لهم : (... أتقولون للحق لما جاءكم ...) وهى الآيات التى أتاهم بها من عند الله حجة له على صدقه (سحر) أسحر هذا الحق الذى ترونه ؟ فيكون السحر الأول محذوفا اكتفاء بدلالة قول موسى أسحر هذا على أنه مراد فى الكلام . (٢)

وأما انكاره على بنى اسرائيل فقد بينه الله فى كتابه حيث قال :

(واذ قال موسى لقومه يقوم لم تؤذوننى وقد تعلمون أنى رسول الله اليكم) (٣)

---

١) آية ٧٧ من سورة يونس

٢) طالع تفسير ابن جرير جـ ١١ ص ١٤٥ المصدر السابق

٣) جزء من آية ٥ من سورة الصف

كما أنكر على بنى اسرائيل لما طلبوه أن يجعل لهم الها حين رأوا أقواما يعكفون على اصنام يعبدونها وقالوا له : (... يموسى اجعل لنا الها كما لهم آلهة قال انكم قوم تجهلون) (١)

فوصفهم بالجهل انكارا عليهم قولهم هذا وقال : (ان هـؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ماكانوا يعملون ، قال أغير الله أبغيكم الها وهو فضلكم على العلمين) (٢)

فقد أخبرهم أن الله مهلك مافيه هؤلاء من العمل . ومفسده ومعذبهم عليه . ثم يقول لهم عليه السلام : (... أغير الله أبغيكم الها ...) أى سوى الله التمسكم الها وأجعله لكم معبودا تعبدونه ؟ والله الذى خلقكم ورزقكم فضلكم على عالمى زمانكم ودهركم ، أفأبغيكم معبودا لا ينفعكم ولا يضركم تعبدونه وتتركون عبادة من فضلكم على أهل زمانكم ؟ ان هذا لجهل عظيم (٣)

وقد أنكر عليه السلام على بنى اسرائيل عبادتهم للعجل فى غيبته لمناجاة ربه عز وجل لما صنع لهم السامرى عجلا جسدا له خوار فعبدوه وجعلوه الها وقالوا : هذا الهكم واله موسى حين رجع اليهم أنكر ذلك عليهم غاية الانكار وأخبرهم أن الله وعدهم وعدا حسنا بأنه غفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى .

---

١) جزء من آية ١٣٨ من سورة الاعراف

٢) آيتى ٣٩ - ٤٠ من سورة الاعراف

٣) طالع ابن جرير جـ ٩ ص ٤٦ المصدر السابق

قال تعالى مبينا لنا ذلك (وما أعجلك عن قومك يموسى قال هم اولا على أثرى وعجلت اليك رب لترضى ، قال فانا قد فتنا قومك من بعدك وأضلهم السامرى فرجع موسى الى قومه غضبسن آسفا ، قال يقـــوم ألم يعدكم ربكم وعدا حسنا أفطال عليكم العهد أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم فأخلفتم موعدى) (١)

أى بسبب عبادتكم العجل وعكوفكم عليه وتركم السير فى أثرى للموعد الذى كان الله وعدكم ،

كما أنكر على السامرى مافعله من تضليل بنى اسرائل بعباد تهم للعجل الذى صوره لهم وأمرهم بعبادته ، قال تعالى فى شأن ذلك ،

(قال فى خطبك يسمرى) (٢) أى ما شأنك ياسامرى ؟ وما الذى دعاك الى مافعلت . الى غير ذلك من اساليبه الكثيرة فى سور القرآن وقد أعطينا للقارىء منها برنامجا يعتبر به ويهتدى به فى طريق دعوته . اهـ

---

١) الآيات من ٨٣ - ٨٦ من سورة طه

٢) آية ٩٥ من سورة طه

معجزات موسى عليه السلام

ان موسى عليه الصلاة والسلام أيده الله بمعجزات كثيرة تدل على صدقه وتقيم الحجة على قومه ، وقد صرح القرآن بأن الله أيده بتسع آيات وان كان العلماء اختلفوا فى تعيينها كما يأتى ان شاء الله . قال تعالى فى سورة الاسراء .

(ولقد أتينا موسى تسع آيت بينت فسأل بنى اسرائل اذ جاءهم فقال له فرعون انى لأظنك يموسى مسحورا) (١) وقال تعالى فى سورة النمل :

(أدخل يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء فى تسع آيت الى فرعون وقومه إنهم كانوا قوما فسقين) (٢)

اختلاف العلماء فى تعيين هذه الآيات .

أختلف العلماء فى تعيين هذه الآيات فبعضهم عد منها مالم يعده البعض الآخر ، وذلك لأن الله أعطى نبيه موسى آيات كثيرة منها ماهو بمصر مع فرعون وقومه ، ومنها ماهو بعد عبوره ببنى اسرائل البحر وعدتهم فى التيه .

والحاصل أن الله بعث نبيه موسى بتسع آيات وهى الدلائل القاطعة على نبوته وصدقه فيما أخبر به عن من أرسله الى فرعون وهى :

العصا ، اليد ، السنون ، فلق البحر ، الطوفان ، الجراد ، القمل ، الضفادع ، الدم ، هذا قول ابن عباس .

وقيل : اليد ، العصا ، الطوفان ، الجراد ، القمل ، الضفادع ، الدم ، الطمس ،

---

١) آية ١٠١ من سورة الاسراء
٢) آية ١٢ من سورة النمل

الحجر ونسب هذا القول لمحمد بن كعب القرظي ،

وقيل : العصا ، والسنون ، ونقص الثمرات ، والطوفان ، والجراد والقمل ، والضفادع والدم ، ونسب هذا القول لابن عباس أيضا ومجاهد وعكرمة والشعبي وقتادة ، واستظهر ابن كثير هذا القول وحسنه وقواه ، وقد جعل الحسن البصري السنين ونقص الثمرات واحدة ، والتاسعة عنده : تلقف العصا ما يأفكون (١) فهذه الآيات التسع التي ذكرها هؤلاء الأئمة هي المرادة في قوله تعالى :

(وألق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا ولم يعقب يموسى لا تخف ... الى قوله : (وأدخل يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء في تسع آيات الى فرعون وقومه انهم كانوا قوما فاسقين) (٢)

فذكر القرآن هاتين الآيتين هنا : العصا ، واليد ، وبين الآيات الباقية في سورة الأعراف وفصلها ،

وقد أعطى موسى آيات أخرى كثيرة منها : ضربه الحجر بالعصا وخروج الماء منه ، ومنها / تظليلهم بالغمام ، وانزال المن والسلوى وغير ذلك مما أعطاه الله بني اسرائيل على يد موسى عليه السلام بعد مفارقتهم مصر ولكن الآيات التي ذكرنا شاهدها فرعون وقومه فكانت حجة عليهم فخالفوها وعاندوها كفرا وجحودا ... فهذا كله يدل على أن المراد بالتسع الآيات ماتقدم ذكره من العصا ، واليد ، والسنين ، ونقص الثمرات ، والطوفان ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم ، التي فيها حجج وبراهين على فرعون وقومه وخوارق ودلائل صدق موسى ووجود

---

١) قلت : قول الحسن : ان السنين ونقص الثمرات آية واحدة وجيه عندي لأن القحط المعبر عنه بالسنين يستلزم نقص الثمرات بلا شك ، أما قوله أن تلقف العصا لما يأفكه سحرة فرعون آية مستقلة فغير وجيه عندي لأن تلقفها واهتزازها كانها جان وانقلابها حية تسعى كل ذلك معجزة واحدة تتعلق بالعصا والله أعلم .

٢) جزء من آية ١٠ وآية ١٢ من سورة النمل

الفاعل المختار الذى أرسله . (١)

فابن كثير رحمه الله صرح فى آخر كلامه بأن الآيات التسع هى : العصا واليد ، والسنون ، ونقص الثمرات ، والطوفان ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم ، وفى أول كلامه قال : بأنه قول ظاهر جلى قوى وحسن ».

وقد ذكر الله تعالى فى كتابه آية العصا واليد فى سور كثيرة بأساليب مختلفة .

فقد ذكرتا فى سورة طه ، والأعراف ، وذكرت العصا فى سورة الشعراء ، وذكرتا فى سورة النمل وسورة القصص الى غير ذلك لأنهما من أعظم معجزات موسى عليه السلام ،

فهذه العصا التى تفتح فاها وتلقف الحبال والعصى وتارة تكون جانا أى نوعا من الحيات شديد السرعة كثير الاضطراب ، وتارة تكون حية عادية . وهذه اليد التى يدخلها فى جيب درعه فاذا أدخلها وأخرجها ، خرجت بيضاء ساطعة كأنها قطعة قمر لها لمعان تتلألأ كالبرق الخاطف ،

فهذان أمران خارقان يستحقان الذكر أكثر من غيرهما ، وقد قال تعالى فى شأنهما بعد أن ذكرهما فى سورة القصص (... فذانك برهنن من ربك الى فرعون وملائه انهم كانوا قوما فسقين) (٢)

والمراد بالسنين : السنوات التى يمسك الله فيها المطر عن الارض ،

---

١) طالع تفسير ابن كثير فى آخر سورة الاسراء

٢) جزء من آية ٣٢ من سورة القصص

والمراد بنقص الثمرات قلة ثمر ما يملكون من الأشجار من نخيل وغير ذلك .

واختلفوا فى الطوفان ، فقال ابن عباس انه كثره الامطار المغرقة المتلفة للزروع والثمار ، وعنه أيضا أنه كثرة الموت ، وبه قال عطاء ، وقال مجاهد : الطوفان الماء والطاعون .

وذكر ابن جرير فيه حديثا مرفوعا عن عائشة رضى الله عنها أنه الموت .

وأما الجراد فهو معلوم عند كل أحد ، قيل : إنه كان يأكل مسامير بيوتهم ويترك خشبها ،

وأما القمل فقيل : انه الشوس الذى يخرج من الحنطة ، وقيل انه الجراد الصغير الذى لا أجنحة له ، وقيل انه دواب سود صغار ، وقيل إنه البراغيث ، وقيل انه جمع واحدته قملة وهى : دابه تشبه القمل تأكل الابل .

وأما الضفادع فمعروفة قيل إنها ملأت بيوتهم وأوانيهم وأطعمتهم فلا يكشف أحد ثوبا ولا اناء الا وجد فيه الضفادع .

وأما الدم فانه أرسله الله عليهم فصارت مياه آل فرعون دما لا يستقون من بئر ولا نهر ولا يغترفون من اناء الا عاد دما عبيطا ،

وكل هذه الامور اذا أصابتهم طلبوا من موسى أن يدعوا الله ليزيلها عنهم فاذا زالت آمنوا به واذا دعا ربه واستجاب دعاءه وكشف عنهم البلاء رجعوا على ما كانوا عليه من الكفر والتعذيب (١)

كما قال جل وعلا عنهم : (ولما وقع عليهم الرجز قالوا يموس ادع لنا ربك لما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بنى اسرائيل ، فلما كشفنا عنهم الرجز الى أجل هم بالغوه اذا هم ينكثون) (٢)

---

١) طالع ابن كثير جـ ٢ ص ٢٤١ - ٢٤٣ طـ عيسى البابى الحلبى وشركاه
٢) آيتى ١٣٤ - ١٣٥ من سورة الاعراف .

وقد ذكر غير واحد من السلف ان موسى عليه السلام لما اجتمع بسحرة فرعون وألقوا حبالهم وعصيهم ، القى عصاه فصارت حية عظيمة ذات قوائم وعنق عظيم وشكل هائل مزعج بحيث ان الناس انحازوا منها وهربوا سراعا وتأخروا عن مكانها وأقبلت على ما ألقوه من الحبال والعصى فجعلت تلقفه واحدا واحدا في أسرع ما يكون من الحركة . والناس ينظرون اليهـا ويتعجبون منها (١)

ويكفينا القرآن في ذلك فقد أخبرنا أنه لما ألقاها فاذا هي تلقف ما يأبأ فكون .

قال تعالى ﴿ (فألقوا حبالهم وعصيهم وقالوا بعزة فرعون انا لنحن الغلبون ، فألقى موسى عصاه فاذا هي تلقف ما يافكون) (٢) الى غير ذلك من المواضع التي تكرر فيها ذكر تلقفها لحبال السحرة وعصيهم ،

وقد نبه ابن كثير على الفرق بين هذه الآيات التسع وبين الكلمات العشر ، وقال ان الكلمات العشر هي : الأمر بعبادة الله وحده لا شريك له ، والنهي عن الحلف بالله كاذبا ، والأمر بالمحافظة على السبت ومعناه تفرغ يوم من الأسبوع للعبادة ،

أكرم أباك وأمك ليطول عمرك في الأرض ، الذي يعطيك الله ربك ، لا تقتل ، لا تزن ، لا تسرق ، لا تشهد على صاحبك شهادة زور ، ولا تمد عينك الى بيت صاحبك ولا تشته امرأة صاحبك ولا عبده ولا أمته ولا ثوره

---

١) قصص الانبياء لابن كثير جـ ٢ ص ٤٦
٢) آيتي ٤٤ - ٤٥ من سورة الشعراء

ولا حماره ولا شيئا من الذى لصاحبك ومعناه النهى عن الحسد (١)

وقال فى البداية والنهاية بعد كلامه على آيات الاسراء والنمل .

وهذه الآيات التسع غير العشر الكلمات فان التسع من كلمات الله القدرية ، والعشر من كلماته الشرعية . ثم قال : وانما نبهنا على هذا لأنه قد اشتبه أمرها على بعض الرواة فظن أن هذه هى هذه كما قررنا ذلك فى تفسير / آخرها سورة بنى اسرائل (٢)

وقد ذكر فى آخرا أيضا أن الحديث الذى رواه الامام أحمد فى مسنده (٣) والترمذى فى تفسير سورة بنى اسرائل وقال حسن صحيح (٤) والنسائى وابن ماجه وابن جرير ، ومعناه أن يهوديين سألا النبى صلى الله عليه وسلم عن آيات موسى التسع فقال : لا تشركوا بالله شيئا ولا تسرقوا ، ولا تزنوا ، ولا تقتلوا النفس التى حرم الله الا بالحق الحديث ، وقال انه مشكل وأن فيه عبد الله بن سلمة فى حفظه شىء وقد تكلموا فيه ولعله اشتبه عليه التسع الآيات بالعشر الكلمات فانها وصايا فى التوراة لا تعلق لها بقيام الحجة على فرعون والله أعلم فانظره فى كلامه السابق فى آخر سورة الاسراء . ا هـ

---

١) انظر قصص الأنبياء لابن كثير جـ ٢ ص ١٠٥ - ١٠٦ المصدر السابق .

٢) البداية والنهاية جـ ١ ص ٢٤٨ المصدر السابق

٣) جـ ٤ ص ٢٣٩

٤) جـ ٤ ص ٣٦٧ - ٣٦٨ ط المكتبة السلفية

الدعـــوة فى الآيـة :

١- فى هذه الآية أسلوب من أساليب الدعوة وهو أسلوب التقرير والانكار ففيها تقرير المخاطبين وتوبيخهم على تكذيبهم رسل الله عليهـــم الصلاة والسلام لما جاءوهم بالبينات فكذبوهم .

٢- فى الآية لفت أنظار السامعين الى احاطة علم الله بالاشياء حيث أخبر فى الآية الكريمة أن بعد قوم نوح وعاد وثمود / أمما لا يعلـــم عددها الا هو ذواتها الا الله جل وعلا ، وأن غيره من سائر المخلوقات يعلم شيئا بجانب علم الله .

٣- كما أن فيها لفت أنظار من يدعون الى النظر فيما حل بأقوام هؤلاء الرسل المكذبين لدعاة الحق المذكورين فى هذه الآية .

وهم قوم نوح حيث أهلكهم الله بالطوفان ، وقوم عاد حيـــث أهلكهم بريح صرصر فى يوم نحس مستمر ، وقوم ثمود حيـــث أهلكهم بالصيحة فكانوا كهشيم المحتظر .

٤- من أساليب الدعوة قياس الاشباه على النظائر وذلك يتجلـــى فيما يستفاد من الآية حيث ان قريشا ومن سار سيرها فى تكذيب رسول الله صلى الله عليه وسلم والصد عن سبيل الله والكفر به لابد أن يكون مصيرهم كمصير من تقدمهم من الامم .

فكذلك من كذب دعاة الحق وصد الناس عن اتباعه وشككهـــا فيه لابد أن يكون مصيره مثل مصير من كذب رسل الله لأن كلا يدعو الى حق .

البَابُ الثالث

((الباب الثالث))
حوار
الرسل وأممهم

يشتمل هذا الباب على مايلى :-

١- تفسير الآيات تفسيرا اجماليا

٢- ثلاثة فصول :-

الفصل الأول : فى اثبات وجود الله تعالى وفيه
بيان عقيدة الاسلام اجمالا ،
وبيان عقيدة أهل الكتابين اجمالا .

الفصل الثانى : فى اثبات بشرية الرسل مهما بلغوا
من الكمال .

الفصل الثالث : فى الربط بين رسالات الأنبياء
ومصير المكذبين .

٣- الدعوة فى الآيات :

((الفصل الأول))

في اثبات وجود اللـــــه

قوله تعالى : (قالت رسلهم أفي الله شك فاطر السموات والأرض يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم الى أجل مسمى ...)

هذا الاستفهام للتقريع والتوبيخ والمعنى أفي وحدانيته سبحانه شك ؟ وهي في غاية الوضوح والجلاء ، وقد ذكر الرسل بعد انكارهم على الكفار مايؤكد انكارهم ذلك من الشواهد الدالة على عدم الشك في وجوده سبحانه وتعالى ووحدانيته فقالوا : (فاطر السموات والأرض) أي خالقهما ومخترعهما وموجدهما بعد العدم يدعوكم الى الايمان به وتوحيده ليغفرلكم من ذنوبكم ... ويؤخركم الى أجل مسمى أي الى وقت مسمى عنده سبحانه وهو الموت في وقته المحدد لكم . (١)

هذا وقد دلت هذه الآية الكريمة على وجود الله تعالى ، كما تضمنت نوعين من أنواع التوحيد وهما : توحيد الألوهية ، وتوحيد الربوبية .

واليك بيان ذلك : ان الآية الكريمه دلت على وجود الله وذلك لأن همزة الاستفهام أدخلت على الظرف المخبر به عن المبتدأ الذي هو الفكرة (شك) لأن الكلام ليس في الشك ، وانما هو في المشكوك فيه وأنه لا يحتمل الشك لظهور الأدلة وشهادتها عليه ، فكأن الله تعالى يحكي على السنة رسله بأداة الاستفهام الانكاري أن وجود الله

---

١) طالع الشوكاني ج ٣ ص ٩٨ المصدر السابق .

تعالى أوضح من أن يشك فيه شاك (١)

فالكلام على تقدير مضاف والمعنى : أفى الهمزة الله شك ، وقيل افى وحدانيته ؟ ثم نبه المخاطبون على الوصف الذى يقتضى الا يقع فيه شك البته وهو كونه منشىء العالم وموجده فقال : (فاطر السموات والارض) ولما ذكر انه موجد العالم ونبه على الوصف الذى لا يناسب ان يكون معه فيه شك ذكر ما هو عليه من اللطف والاحسان اليهم فقال (يدعوكم ليغفر لكم) أى يدعوكم الى الايمان به كما قال : (.. اذ تدعون الى الايمان ..) (٢) او يدعوكم لأجل المغفرة . (٣) وقد تقدم الكلام على قوله يغفر لكم من ذنوبكم ، وهل (من) زائدة أو للتبعيض ؟ فى الكلام على دعوة نوح فى سورته فانظره ، وقال الزمخشرى ان وجود (من) قبل لفظة الذنوب مطرد بطريق الاستقراء فى خطاب الكفار كما هنا وكما فى قوله : (.. يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب اليم) فى شأن الجن وكقوله فى نوح (يقوم انى لكم نذير مبين أن اعبدوا الله واتقوه واطيعون يغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم الى أجل مسمى ..)

اما المؤمنون فقال فى شانهم بعد قوله : (يأيها الذين آمنوا هل ادلكم على تجرة تنجيكم من عذاب اليم) ..... (يغفر لكم ذنوبكم ..) (٤)

---

١) انظر الكشاف هنا جـ ٢ ص ٣٦٩
٢) جزء من آيه ١٠ من سورة غافر .
٣) انظر البحر المحيط جـ ٥ ص ٤٠٨ ط دار الفكر للطباعه
٤) آية ٩ من سورة الصف وجزء من آيه ١١ منها ايضا

وقال : ان ذلك للتفرقة بين الخطابين ولئلا يسوى بين الفريقين فى العناد (١) وقال ابن كثير : أفى الله شك يحتمل وجهين : أحدهما :

أفى وجوده شك ؟ فان الفطر شاهدة بوجوده ومجبولة على الاقرار به فان الاعتراف به ضرورى فى الفطر السليمة ، ولكن قد يعرض لبعضها شك فتحتاج الى النظر فى الدليل الموصل الى وجوده ، ولهذا قالت لهم الرسل : (فاطرالسموات والأرض . .) الذى خلقهما وابتدعهما على غير مثال سبق . . . . .

والوجه الثانى فى قولهم أفى الله شك ؟ أفى الهيته وتفرده بوجوب العبادة له شك ؟ وهو الخالق لجميع الموجودات ، ولا يستحق العبادة الا هو وحده لا شريك له فان غالب الامم كانت مقرة بالصانع ولكن تعبد معه غيره (٢)

وقال ابن جرير هنا مانصه : يقول تعالى ذكره : قلت رسل الامم التى أتتها رسلها أفى الله أنه المستحق عليكم أيها الناس الالوهية والعبادة دون جميع خلقه شك ؟ وقوله : (. . . فاطرالسموات والارض) يقول خالق السماوات والارض يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم ، يقول يدعوكم الى توحيده وطاعته ليغفرلكم ذنوبكم ، يقول فيستر عليكم بعض ذنوبكم بالعفو عنها فلا يعاقبكم عليها (ويؤخركم) يقول وينسىء فى آجالكم

---

١) أنظر الكشاف جـ ٢ ص ٣٦٩ المصدر السابق

٢) انظر تفسير بن كثير جـ ٢ ص ٥٢٥ ط دار احياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبى وشركاؤه .

فلا يعاقبكم فى العاجل فيهلككم ولكن يؤخركم الى الوقت الذى كتب فى أم الكتاب أنه يقبضكم فيه وهو الأجل الذى سمى لكم اهـ(١)

وكلام المفسرين هنا كثير ومتقارب فى المعنى وعلى كل حال فالآية الكريمة أثبتت وجود الله تعالى وبينت أنه لا ينبغى أن يشك فيه شـــاك وأقامت الدليل على ذلك بكونه هو الذى خلق السماوات والأرض وأبرزهما من العدم الى الوجود لأن خالق هذه الصنعة المشاهدة على هـــذا النمط باحكام لابد أن يكون موجودا اذ الا يمكن أن يوجد هذا الخلق بدون خالق تعالى الله علوا كبيرا عما يقوله الملحدون ـ فهذا العالم بسمائة وأرضه وبحاره وأشجاره وجباله وأوديته ودوابه لا يمكن أن يوجد صدفة ، ولا يمكن أن يوجده مايسمونه (الطبيعة) لأن الصدفة لا تكاد توجد فى الجزئيات الحقيرة فكيف بهذا العالم على امتداده وسعتـــه وسيرنظامه من ليل ونهار وشمس وقمر وكواكب .

(لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا اليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون) (٢)

(.. والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ألا له الخلق والامر تبرك الله رب العلمين) (٣) .

الى غير ذلك مما لايعلم علمه الا الله سبحانه وتعالى الذى خلقه وأتقن صنعه كما قال تعالى :

(... صنع الله الذى أتقن كل شى ...) (٤) وقال تعالى :

(الذى أحسن كل شىء خلقه وبدأ خلق الانسان من طين) (٥)

---

١) تفسير ابن جرير جـ ١٣ ص ١٢٧ المصدر السابق
٢) اية ٤٠ من سورة يس
٣) جزء من آية ٥٤ من سورة الاعراف
٤) جزء من آية ٨٨ من سورة النمل
٥) آية ٧ من سورة السجدة

وذكر فى الآية الأكبر وهو خلق السماوات والارض تنبيها على القدرة على خلق الأصغر بالأولى كما قال تعالى :

(لخلق السموات والارض أكبر من خلق الناس) (١)

وقال تعالى : (أوليس الذى خلق السموات والارض بقادر على أن يخلق مثلهم ...) (٢)

هذا من ناحية دلالة الآية على اثبات وجود الله تعالى وأنه الخالق لجميع العالم .

أما دلالتها على توحيد الالوهية فانك اذا تأملت كلا من كلام ابن جرير وابن كثير السابقين علمت دلالتها على ذلك ، وذلك أن ابن جرير جعل الآية واردة فى توحيد الألوهية حيث لم يفسرها الا على ذلك وقد تقدم أنه قال : قالت رسل الأمم التى أتتها رسلها :

أفى الله أنه المستحق عليكم أيها الناس الألوهية والعبادة دون جميع خلقه شك ؟

وأما ابن كثير فانه قال كما تقدم أيضا : والمعنى الثانى فى قولهم (أفى الله شك) أى أفى الهيته وتفرده بوجوب العبادة له شك ؟ وهو الخالق لجميع الموجودات ولا يستحق العبادة الا هو وحده لا شريك له فان غالب الأمم كانت مقرة بالصانع ولكن تعبد معه غيره من الوسائط التى يظنون أنها تنفعهم أو تقربهم من الله زلفى الخ . وهذا هو توحيد الالوهية بعينه وهو الذى دارت فيه المعارك بين جميع الرسل وأممهم ، وهو الذى ما بعث الله نبيا من الأنبياء الا أمره أن يأمر أمته به كما تقدم ذلك غير مرة .

---

١) جزء من آية ٥٧ من سورة غافر

٢) جزء من آية ٨١ من سورة يس

فتوحيد الألوهية هو خلع جميع المعبودات غير الله تعالى في جميع أنواع العبادات ، وافراد رب السماوات والأرض وحده بجميع انواع العبادات على الوجه المشروع . أما دلالتها على توحيد الربوبية الذي هو الايمان بأن الله هو الخالق الرازق وهو المحيي والمميت ، وأنه رب كل شيء ، ومالكه ومدبره لا شركة لأحد معه فيه فقد دل على هذا قوله :

(فاطر السموات والأرض . . .)

وهذا المعنى في القرآن كثير مثل قوله تعالى : (الحمد لله رب العلمين) (١) وغير ذلك من الآيات وعلى هذا فيكون صدر هذه الآية دل على قسمين من أقسام التوحيد الثلاثة :-

١- توحيد الألوهية

٢- توحيد الربوبية

٣- توحيد الأسماء والصفات

ولا مانع أن نلم بتوحيد الأسماء والصفات لما ذكرنا قسميه لنأتي بنبذة قليلة مما يعتقده المسلمون تجاه الله تعالى ، ثم أذكر بعد ذلك نبذة قليلة عن ايمانهم بالرسل والملائكة والكتب واليوم الآخر والقدر خيره وشره كل هذا بايجاز ثم أذكر عقيدة أهل الكتاب في الاله والرسل ليتبين للناظر أن عقيدة المسلمين بنيت على حق ، وأن عقيدة أهل الكتاب بنيت على باطل ولا يبنى على الباطل الا باطل .

وأقول : ان توحيد الأسماء والصفات يرتكز على ثلاثة أسس دل عليها

---

(١) آية ١ من سورة الفاتحة

القرآن الكريم .

١- الأول من هذه الأسس هو تنزيه الله جل وعلا عن مشابهته لخلقه في ذاته وصفاته وأفعاله ، ومن شبهه بخلقه فقد كذب القرآن ومن كذب القرآن فقد كفر ، قال تعالى : (ليس كمثله شيء ...)(١) وقال تعالى : (ولم يكن له كفوا أحد) (٢) وقال تعالى : (فلا تضربوا الله الأمثال ...) (٣) وقال تعالى : (... هل تعلم له سميا) (٤)

٢- والأساس الثاني هو : الايمان بما وصف الله به نفسه لأنه لا يصف الله أعلم به منه ، (... ء أنتم أعلم أم الله ...) (٥) والايمان بما وصفه به رسوله محمد صلى الله عليه وسلم لأنه لا أحد بعد الله أعلم به من نبيه محمد صلى الله عليه وسلم الذي قال في شأنه : (وما ينطق عن الهوى ، ان هو الا وحي يوحى) (٦)

فيجب على كل مكلف أن يؤمن بما وصف الله به نفسه أو وصفه به محمد صلى الله عليه وسلم مع كمال التنزيه لربه تعالى عن مشابهة الخلق ، كما يجب عليه أن يعلم أن بين صفة الخالق وصفات خلقه

---

١) جزء من آية ١١ من سورة الشورى
٢) آية ٤ من سورة الاخلاص
٣) جزء من آية ٧٤ من سورة النحل
٤) جزء من آية ٦٥ من سورة مريم
٥) جزء من آية ١٤٠ من سورة البقرة
٦) آيتي ٣ - ٤ من سورة النجم

فرقا كبيرا ، فبين الصفة والصفة مابين الذات والذات ، فلله تعالى صفات تناسب قدره العظيم ، وللمخلوق صفات تناسب قدره أيضا ، فمن ظن أن صفات الله تعالى تشبه صفات خلقه فقد جهل عظمة خالقة وضل والعياذ بالله ، ومن آمن بها منزها ربه عن تشبيه صفاته بصفات خلقه فهو موء من منزه سالم من التشبيه والتعطيل ، وهذا المعنى دل عليه قوله تعالى : (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير) فالله جل جلاله يقول بعد قوله :

(ليس كمثله شيء وهو السميع البصير) والسمع والبصر من حيث هما : يتصف بهما جميع الحيوانات ، فكأن الله تعالى يشير للناس بذكرهاتين الصفتين اللتين يتصف بهما جميع الأحياء بأن لا ينفوا عنه صفة سمعه وبصره بدعوى أن الحوادث تسمع وتبصر وأن ذلك تشبيه ، بل الواجب عليهم أن يثبتوا له سمعه وبصره على أساس قوله : (.. وهو السميع البصير) وأن ينفوا عنه المشابهة على أساس قوله : (.. ليس كمثله شي ..) والسمع والبصر كغيرهما من سائر الصفات لأن صفات الله من باب واحد .

٣- أما الأساس الثالث فهو قطع الطمع عن ادراك كيفية اتصاف الذات العلية بصفاتها ، وهذا الأساس دل عليه قوله تعالى :

(.. ولا يحيطون به علما) (١)

فالله جل وعلا وصف نفسه بالسمع والبصر فقال (..ان الله سميع بصير) (٢)

---

١) جزء من آية ١١٠ من سورة طه

٢) جزء من آية ١ من سورة المجادلة

ووصف الانسان بالسمع والبصر فقال : (انا خلقنا الانس من نطفة أمساج نبتليه فجعلنه سميعا بصيرا)(١) وهل يخطر ببال مسلم أن سمع الله وبصره يشبهان سمع الانسان وبصره ؟ ولله المثل الاعلى ، واذا خطر ببالك أيها المخلوق الذى لا تعرف الا سمعا خارجا من أذن جارحة وبصرا خارجا من حدقة . وأنك لا تعرف كيفية سمع الله وبصره فاعلم أنه لا غرابة فى ذلك لانك لا تعرف الذات العلية التى اتصفت بهذه الصفات ومادمت جهلت الذات لابد كذلك أن تجهل كيف اتصفت بصفاتها ، فاعلم أن صفاتها تناسبها . فالله جل وعلا ذات وأنت أيها المخلوق ذات ولكن ذاته لا تشبه ذاتك كذلك صفاته لا تشبه صفاتك فمن جهل ذاته جهل صفاته ووجب عليه الايمان بها اذا ثبتت عنه أوعن رسوله صلى الله عليه وسلم وليقل مقالة مالك بن أنس :

لما سأله سائل عن كيفية استواء الله على عرشه فقال له كيف استوى ؟ قال مالك : الاستواء معلوم ، والكيف مجهول ، والايمان به واجب والسؤال عنه بدعة (٢)

ولا مانع أن أنقل لك بعضا من كلام امام الموحدين أبى الحسن الاشعرى فى هذا الموضوع فى كتابه : (الابانة فى أصول الديانة) قال فى هذا الكتاب . . .

وجملة قولنا أن نقر بالله وملائكته وكتبه ورسله وماجاء من عند الله ومارواه الثقات عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا نرد من ذلك شيئا

---

١) آية من سورة الانسان

٢) طالع محاضرة الشيخ محمد الامين الشنقيطى سلسلة محاضرات الجامعة الاسلامية بعنوان منهج ودراسات للاسماء والصفات ط الجامعة الاسلامية ١٣٩٥هـ

وأن الله عز وجل اله واحد لا اله الا هو فرد صمد لم يتخذ صاحبة ولا ولدا وأن محمدا عبده ورسوله أرسله بالهدى ودين الحق وأن الجنة حق والنار حق وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور، وأن الله استوى على عرشه كما قال : (الرحمن على العرش استوى) (١)

وأن له وجها كما قال : (ويبقى وجه ربك ذو الجلل والاكرام (٢)

وأن له يدين بلا كيف كما قال : (... خلقت بيدي . (٣) وكما قال : (... بل يداه مبسوطتان ...) (٤) وأن له عينا بلا كيف كما قال : (تجرى بأعيننا ..) (٥)

وأن لله علما كما قال : (... أنزله بعلمه ...) (٦) وكما قال (وما تحمل من انثى ولا تضع الا بعلمه) (٧) ونثبت لله السمع والبصر ولا ننفى ذلك كما نفته المعتزلة والجهمية والخوارج ... ونصدق بجميع الروايات التى يثبتها أهل النقل من النزول الى السماء الدنيا .. ونقول فيما اختلفنا فيه على كتاب ربنا وسنة نبينا صلى الله عليه وسلم واجماع المسلمين ، ولا نقول على الله مالا نعلم ، ونقول ان الله عزوجل يجئ يوم القيامة كما قال :

---

١) آية ٥ من سورة طه

٢) آية ٢٧ من سورة الرحمن

٣) جزء من آية ٧٥ من سورة ص

٤) جزء من آية ٦٤ من سورة المائدة

٥) جزء من آية ١٤ من سورة القمر

٦) جزء من آية ١٦٦ من سورة المائدة

٧) جزء من آية ٤٧ من سورة فصلت

(وجاء ربك والملك صفا صفا) (١) ونرى بأن لا نكفر أحدا من أهل القبلة بذنب يرتكبه كالزنا والسرقة وشرب الخمور كما نطقت بذلك الخوارج وزعمت أنهم كافرون ،

ونقول : ان من عمل كبيرة من هذه الكبائر مثل الزنا والسرقة وما أشبهها مستحلا لها غير معتقد لتحريمها كان كافرا . . . وندين بأنه يقلب القلوب ، وأن القلوب بين اصبعين من أصابع الله عز وجل وانه عز وجل يضع السماوات على اصبع والارضين على اصبع كما جاءت الروايات عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الخ كلامه الطويل (٢) وأكثر كلامه الذى ذكرنا حول الاسماء والصفات كما رأيت هـ

عقيدة المسلمين اجمالا

تقدم ذكر أقسام التوحيد الثلاثة ، وسأذكر لك الآن مجمل معتقد المسلمين فى الله ، والملائكة ، والرسل ، واليوم ، والكتب السماوية ، والقدر خيره وشره . ثم بعد ذلك أذكر معتقد أهل الكتاب مبينا له من مصادرهم التى بين أيديهم المقدسة لديهم كما وعدت بذلك أول الباب .

وأقول على طريق الاجمال ان المسلمين يؤمنون بوجود الله تعالى وأنه واحد فرد صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير ،

---

١) آية ٢٢ من سورة الفجر

٢) ملخصا من الابانه فى أصول الديانه لابى الحسن الاشعرى مع تقديم وتاخير لكن مع محافظة على اللفظ ص ٨ - ١١

كما قال تعالى : (... والهكم اله واحد ....) (١)

(... انما الله اله واحد ...) (٢) لا شبيه له ولا مثيل له تعالى عن ذلك علوا كبيرا

كما يؤمنون برسل الله جميعا على الاجمال لا يفرقون بين أحد منهم وبين آخر في الايمان ويعتقدون أنهم صفوة الله من خلقه اختارهم واسطة بينه وبين عباده ، وأنهم أمناء معصومون من الكذب فيما أمروا بتبليغه عن الله تعالى .

---

١) جزء من آية ١٦٣ من سورة البقرة

٢) جزء من آية ١٧١ من سورة النساء

معنى العصمة

— العصمة : تخصيص القدرة بالطاعة فلا تخلق لهم قدرة على المعصية وهى واجبة لجميع الرسل عليهم الصلاة والسلام فقد أجمع أهل الملل والشرائع كلها على وجوب عصمتهم من تعمد الكذب فيما دل المعجز القاطع على صدقهم فيه كدعوى الرسالة وما يبلغونه عن الله تعالى الخلائق ، وصدور الكذب عنهم فيما ذكر سهوا أونسيانا منعه الاكثرون وماسوى الكذب فى التبليغ فان كان كفرا فقد أجمعت الامة على عصمتهم منه قبل النبوة وبعدها ، وان كان غيره فالجمهور على عصمتهم من الكبائر عمدا ومخالف الجمهور الحشوية (١)

كما يؤمنون بماذكر الله من الرسل فى القرآن على سبيل التفصيل وهو خمسة وعشرون رسولا ذكر الله فى سورة الانعام منها ثمانية عشر فى قوله تعالى : (وتلك حجتنا آتيناها ابراهيم على قومه نرفع درجت من نشاء ان ربك حكيم عليم ، ووهبنا له اسحق ويعقوب كلا هدينا ونوحا هدينا من قبل ومن ذريته داود وسليمن وأيوب ويوسف وموسى وهرون وكذلك نجزى المحسنين ، وزكريا ويحيى وعيسى والياس كل من الصلحين ، واسماعيل واليسع ويونس ولوطا وكلا فضلنا على العلمين (٢)

وبقيت منهم سبعة لم تذكر هنا وهى : محمد صلى الله عليه وسلم ، وآدم عليه السلام ، وادريس ، وهود ، وصالح ، وشعيب ، وذو الكفل فهذه الخمسة والعشرون نوه من بها على سبيل التفصيل ، ونوه من بأن

---

١) أنظر نشر البنود شرح مراقى السعود جـ ٢ ص ١١٩ طـ حجر

٢) الآيات من ٨٣ الى ٨٦ من سورة الانعام

الله أرسل رسلا آخرين ولم يقص خبرهم على نبينا صلى الله عليه وسلم كما قال تعالى : (ورسلا قد قصصنهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك ...) (١) وقال تعالى : (ولقد ارسلنا رسلا من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك ...) (٢)

وقد روى الامام أحمد حديثا فى عدد الرسل عن أبى ذر قال :

(أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المسجد فقال يا أبا ذر ... قلت فأبى الانبياء كان أول قال آدم قلت أو نبى كان يارسول الله ؟ قال نبى مكلم قلت فكم المرسلون يارسول الله قال ثلاثمائة وخمسة عشر جما غفيرا (٣)

الملائكـــــة

تعريف الملائكة

هذا اللفظ من (ألك) يقال ألك بين القوم يألك الكا وألوكـه ، ومألكا وألوكا ترسل ، واستألك ألوكته حمل رسالته ، والالوك الرسالة والرسول ، والالوكة الرسالة ، والمسألك والمألكة الرسالة قيل الملـك مشتق منه أصله مألك ، ومعناه مرسل (٤)

والمسألك الرسالة ولا نظير لها أى لم يجىء على مفعل الا هى ، وألكنى اليه أى كن رسولى اليه ، والملك مشتق منه وأصله مألك قلبت

---

١) جزء من آية ١٦٤ من سورة النساء

٢) جزء من آية ٧٨ من سورة غافر

٣) مسند الامام احمد جـ ٥ ص ١٧٩ المصدر السابق

٤) محيط المحيط [illegible]

الهمزه الى موضع اللام فقيل ملأك ثم خففت

الهمزة بأن الغيت حركتها على الساكن الذى قبلها فقيل ملك (١)

وعلى كل حال نؤ من بهم ونعتقد أنهم عباد مكرمون لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤ مرون ، وأنهم لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون يسبحون اليل والنهار لا يفترون .

الكتب السماويه

انا معاشر المسلمين نؤ من بجميع الكتب التى أنزلها الله على رسله كالتوراة التى أنزلت على موسى والانجيل الذى أنزل على عيسى ، وزبور داود وصحف ابراهيم وغير ذلك من جميع الكتب التى أنزلها على رسله (آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملئكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله ...) (٢)

اليوم الاخر

كذلك نؤ من باليوم الاخر وأن الله يبعث الناس من قبورهم يوم القيامة ويساقون الى المحشر للقضاء بينهم ويحاسبون على أعمالهم فى دار الدنيا فيثاب المطيع ويعاقب العاصى ويفترق الفريقان فريق فى الجنة وفريق فى السعير .

قال تعالى : (ذلك بأن الله و هو الحق وأنه يحيى الموتى وأنه على كل شىء قدير ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور) (٣)

---

١) انظر لسان العرب لابن منظور جـ ١٠ ص ٣٩٣ - ٣٩٤ مادة ألك

٢) جزء من آية ٢٨٥ من سورة البقرة

٣) آيتى ٦ - ٧ من سورة الحج

القـــــــدر

كذلك نحن المسلمين نؤمن بالقدر خيره وشره ونعتقد أن الخير والشر كليهما صادران من الله ، وأنه لا راد لقضائه وأنه اذا أراد شيئا قال له كن فيكون وأنه لا يقع فى خلقه الا ما علم أزلا أنه سيقع وأنه قدر الأشياء قبل وقوعها وخلق كل شىء بقدر .

قال تعالى : (انا كل شىء خلقناه بقدر) (١)

هذه ادلة أركان الايمان الستة من القرآن الكريم .

السنـــة المطهـــرة

ثبت فى صحيح مسلم بسنده الى يحيى بن يعمر قال : كان أول من قال فى القدر بالبصرة معبد الجهنى فانطلقت أنا وحميد بن عبد الرحمن الحميرى حاجين أو معتمرين فقلنا لو لقينا احدا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألناه عما يقول هؤلاء فى القدر فوفق لنا عبد الله ابن عمر بن الخطاب داخلا المسجد فاكتنفته أنا وصاحبى أحدنا عن يمينه والآخر عن شماله فظننت أن صاحبى سيكل الكلام الى فقلت يا أبا عبد الرحمن انه قد ظهر قبلنا ناس يقرءون القرآن ويتقفرون (٢) العلم وذكر من شأنهم وأنهم يزعمون الا قدر وأن الأمر أنف (٣) قال : فاذا لقيت أولئك فأخبرهم أنى برىء منهم وأنهم برآء منى والذى يحلف به عبد الله بن عمر لو أن لأحدهم مثل أحد ذهبا فأنفقه ماقبل الله منه

---

١) آية ٤٩ من سورة القمر

٢) أى يطلبونه ويتتبعونه أو يجمعونه انظرشرح النووىلمسلم عند الحديث جـ ١ ص ١٥٥- ١٥٦ ط ٣ دار الفكر بيروت لبنان

٣) أى لم يسبق به قدر ولاعلم من الله تعالى ، وانما يعلمه بعد وقوعه . شرح النووى المصدر السابق نفسه .

حتى يؤ من بالقد ر ثم قال : حد ثنى أبى عمر بن الخطاب قـال : بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ذ ات يوم اذ طلع علينا رجل شد يد بياض الثياب شد يد سواد الشعر لا يرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد حتى جلس الى النبى صلى الله عليه وسلم فأسند ركبتيه الى ركبتيه ووضع كفيه على فخذ يه (١) وقال : يامحمد أخبرنى عن الاسلام فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الاسلام أن تشهد أن لا اله الا الله وأن محمد ارسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتقيم الصلاة وتؤ تى الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت ان استطعت اليه سبيلا قال صد قت قـال فعجبنا له يسأله ويصد قه قال فأخبرنى عن الايمان قال : أن تؤ من بالله وملا ئكته وكتبه ورسله واليوم الا خر وتؤ من بالقد ر خيره وشـــره قال صد قت ، قال فأخبر نى عن الاحسان قال : أن تعبد الله كانك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك ، قال فأخبرنى عن الساعة قال ما المسئول عنها بأعلم من السائل قال فأخبرنى عن أمارتها قال : أن تلد الامة ربتها (٢) وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون فـى البنيان قال ثم انطلق فلبثت مليا ثم قال لى ياعمر أتد رى من السائـــل فقلت الله ورسوله أعلم قال : فانه جبريل أتاكم يعلمكم د ينكم . (٤)

---

١) أى فخذى نفسه

٢) كناية عن كثرة التسرى شرح النووى

٣) أى وقتها طويلا

٤) صحيح مسلم جـ ١ ص ٣٦ - ٣٨ المصد رالسابق والبخارى فى كتاب الايمان

وفى صحيح البخارى من حديث عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الصادق المصدوق قال : إن أحدكم يجمع فى بطن أمه أربعين يوما ثم علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يبعث الله ملكا فيؤمر بأربع برزقه وأجله وشقى أوسعيد ، ثم ينفخ فيه الروح فوالله ان أحدكم أوالرجل ليعمل بعمل أهل النار حتى مايكون بينه وبينها غير باع أوذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة ، وان الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة حتى مايكون بينه وبينها غير ذراع أوذراعين فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها . (١)

وقد فرق بعض العلماء بين القضاء والقدر .

قال ابن حجر عند شرح حديث : كان النبى صلى الله عليه وسلم يتعوذ من جهد البلا ، ودرك الشقاء وسوء القضاء وشماتة الاعداء مانصه : قال :- يعنى ابن بطال - والمراد بالقضاء هنا المقضى لان حكم الله كله حسن لا سوء فيه ، وقال غيره :

القضاء : الحكم بالكليات على سبيل الاجمال فى الازل ، والقدر الحكم بوقوع الجزئيات التى لتلك الكليات على سبيل التفصيل . (٢)

فهذا موجز عن اعتقاد المسلمين فى الله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره . هـ

---

١) صحيح البخارى فى كتاب القدر أول حديث منه

٢) فتح البارى جـ ١١ ص ١٤٩ ط السلفية ومكتبتها .

عقيدة أهل الكتاب

لما ذكرنا عقيدة المسلمين ومايؤمنون به فى حق الله عزوجل وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ،والقدر خيره وشره ، كان من الواجب علينا أن أذكر نبذة من اعتقاد ، أهل الكتاب فى الله والرسل والملائكة .

الاله عند اليهود يلد ويندم

ان اليهود ينسبون الولد لله بنص القرآن الكريم قال تعالى :

(وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصرى المسيح ابن الله . .) (١)

وفى التوراة :

١ـ وحدث لما ابتدأ الناس يكثرون على الأرض وولد لهم بنات أن أبناء الله رأوا بنات الناس أنهن حسنات فاتخذوا لانفسهم نساء من كل ما اختاروا فقال الرب : لا يدين روحى فى الانسان الى الأبد لزيغانه هو بشر وتكون أيامه مائة وعشرين سنة ، كان فى الأرض طغاة فى تلك الأيام ، وبعد ذلك أيضا اذ دخل بنوا الله على بنات الناس وولدن لهم أولادا ، هؤلاء هم الجبابرة الذين منذ الدهر ذوواسم ورأى الرب أن شر الانسان قد كثر فى الأرض وأن كل تصور أفكار قلبه انما هو شرير كل يوم فحزن الرب أنه عمل الانسان فى الأرض وتأسف فى قلبه فقال الرب : أمحو عن وجه الأرض الانسان الذى خلقته ، الانسان مع بهائم ودبابات وطيور السماء لانى حزنت أنى عملتهم (٢)

---

١) جزء من آية ٣٠ من سورة التوبة

٢) انظر سفر التكوين الاصحاح الأول فقره (١) فمابعدها

٢- انتم أولاد للرب الهكم لا تخمشوا أجسامكم ولا تجعلوا قزعة بين أعينكم لأجل ميت لانك شعب مقدس للرب الهك وقد اختارك الرب لكى تكون له شعبا خاصا فوق جميع الشعوب الذين على وجه الارض هـ (١)

من معتقداتهم فى الرسل

الأنبياء عند اليهود يشربون الخمر ويسكرون كما فى العهد القديم

١- وابتدأ نوح يكون فلاحا وغرس كرما وشرب من الخمر فسكر وتعرى داخل خبائه فأبصر حام أبو كنعان عورة أبيه وأخبر أخوته خارجا ، فأخذ سام ويافث الرداء ووضعاه على أكتافهما ومشيا الى الورا ، وستر اعورة أبيهما فلما استيقظ نوح من خمره علم مافعل به ابنه الصغير فقال : ملعون كنعان عبد العبيد يكون لاخوته ، وقال مبارك الرب اله سام وليكن كنعان عبد لهم ليفتح الله ليافث فيسكن فى مساكن سام وليكن كنعان عبد لهم (٢)

٢- أنبياء بنى اسرائيل يدعون الى الوثنية ويصنعون الآلهة بأيديهم (٣)

ولما رأى الشعب أن موسى أبطأ فى النزول من الجبل اجتمع الشعب على هارون وقالوا له : قم اصنع لنا آلهة تسير أمامنا لأن هذا موسى الرجل الذى أصعدنا من أرض مصر لا نعلم ماذا أصابه ، فقال لهم هارون أنزعوا أقراط الذهب التى فى آذان نسائكم

---

١) التثنية أيضا الاصحاح ٢١ فقرة ١٤ فما بعدها

٢) سفر التكوين الاصحاح ٩ فقرة ٢٠ ومابعدها

٣) وهذا النص [illegible] فى استعباد افريقيا فقد جمعوا رجال الاكليروس وأفتوا تبيح لهم ضرب الرق على الافارقة فجاء العلماء بهذا النص وأباحوا لهم ذلك .

وبنيكم وبناتكم وأئتونى بها فنزع كل الشعب أقراط الذهب التى فى آذانهم وأتوا بها الى هارون فأخذ ذلك من أيديهم وصوره بالازميل وصنعه عجلا مسبوكا فقالوا هذه آلهتك ياإسرائيل التى أصعدتك من أرض مصر ، فلما نظر هارون بنى اسرائيل بنى مذبحا أمامه ونادى هارون وقال : غدا عيد للرب فبكروا فى الغد وأصعدوا محرقات وقدموا ذبائح سلامة وجلس الشعب للأكل والشرب ثم قاموا للعب (١)

(٢)

٣ - الأنبياء فى العهد القديم يسكرون ويزنون ببناتهم

وصعد لوط من صوغر وسكن فى الجبال وابنتاه معه . . .

وقالت البكر للصغيرة أبونا قد شاخ وليس فى الأرض رجل ليدخل علينا كعادة كل الأرض هلم نسقى أبانا خمرا ونضطجع معه فنحيى من أبينا نسلا فسقتاه الخمر ودخلت البكر واضطجعت معه ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها ، ثم سقتاه فى الليلة الثانية خمرا واضطجعت معه الصغيرة ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها فحبلتا من أبيهما وولدت البكر ابنا ودعت اسمه موءاب

---

١) سفر الخروج : الاصحاح ٣٢ فقرة (١) فما بعدها

٢) انظر الى هذه القصة فان فيها زيادة على مانسبوه لنبى الله هارون تناقضا صريحا للقرآن حيث اخبر أن الذى صنع العجل هو السامرى وأن هارون أخبرهم بأنهم فتنوا به ، وأن ربهم الرحمن .

وهو أبو العرب الى اليوم ، وولدت الصغيرة ابنا ودعت اسمه ابن عمى وهو أبو بنى عمون الى اليوم (١)

٤- الأنبيا في العهد القديم يسطون على زوجات الغير ويتحيلون على قتل أزواجهم .

٥- الجندى العادى في العهد القديم أملك لنفسه وأضبط لها عند الثارة شهوته من النبى .

٦- الجندى العادى أنصح لرعية النبى منه

وكان فى وقت المساء أن داود (عليه السلام) قام عن سريره وتمشى على سطح بيت الملك فرأى من على السطح امرأة تستحم وكانت المرأة جميلة المنظر جدا فأرسل داود وسأل عن المرأة فقال واحد أليست هذه بششبع بنت أليعام امرأة اوريا الحثي فأرسل داود رسلا وأخذها فدخلت اليه فاضطجع معها وهى مطهرة من طمثها ثم رجعت الى بيتها وحبلت المرأة فأرسلت وأخبرت داود وقالت انى حبلى فأرسل داود الى يوءاب القائد الذى أرسله مع عبيده لخراب بنى عمون وحصاربة ؟ يقول : أرسل الى أوريا الحثي فأرسل يوءاب أووريا الى داود فأتى أوريا اليه فسأله عن سلامة يوءاب وسلامة الشعب ونجاح الحرب وقال داود لأوريا انزل الى بيتك واغسل رجليك فخرج أوريا من بيت الملك وخرجت وراءه حصة من عند الملك ونام أوريا على بيت الملك مع جميع عبيد سيده ولم ينزل الى بيته فأخبروا داود قائلين لم ينزل أوريا الى بيته فقال داود لأوريا أما جئت من

---

(١) سفر التكوين الاصحاح ١٩ فقره ٣٠ ومابعدها بتصرف يسير

السفر فلماذا لم تنزل الى بيتك فقال أوريا لداود ان التابوت واسرائيل ويهوذا ساكنون فى الخيام وسيدى يوءاب وعبيد سيدى نازلون على وجه الصحراء وأنا آتى الى بيتى لاكل وأشرب وأضطجع مع امرأتى وحياتك وحياة نفسك لا أفعل هذا الامر فقال داود لاوريا أقم هنا اليوم أيضا وغدا أطلقك فأقام أوريا فى أورشليم ذلك اليوم وغده ودعاه داود فأكل أمامه وشرب وأسكره وخرج المساء ليضطجع مع عبيد سيده والى بيته لم ينزل ، وفى الصباح كتب كتابا ودفعه اليه يأمر يوءاب أن يجعله فى وجه الحرب ويأمرهم بالرجوع من ورائه ليضرب ويموت ففعل يوءاب فمات أوريا الحثى فأرسل يوءاب يخبر داود بموته ، فلما سمعت المرأة بموته ندبت بعلها ، ولما مضت المناحة أرسل داود وضمها الى بيته وصارت له أمرأة الخ (١)

الانبياء فى العهد القديم يعبدون الاصنام تبعا لرغبة نسائهم

٧ - وكان فى زمان شيخوخة سليمان أن نساءه أملن قلبه وراء آلهة أخرى ولم يكن قلبه كاملا مع الرب الهه كقلب داود أبيه فذهب سليمان وراء عشتورث الهة الصيدونيين ، وملكوم رجس العمونيين ، وعمل سليمان الشر فى عين الرب ولم يتبع الرب تماما كداود أبيه ، حينئذ بنى سليمان مرتفعة لكموش رجس الموءابيين على الجبل الذى تجاه أورشليم ، ولمولك رجس بنى عمون ، وهكذا فعل بجميع نسائه الغريبات اللواتى كن يوقدن ويذبحن لالهتهن .. الخ (٢)

١) أنظر صموئيل الثانى الاصحاح ١١ فقرة ٢ فما بعدها
٢) الملوك الاول الاصحاح ١١ فقرة (٤) ومابعدها

٨ - الأنبياء في العهد القديم يتزوجون أخواتهم من النسب

فقال ابراهيم انى قلت ليس فى هذا الموضع خوف الله ألبته فيقتلوننى لأجل أمرأتى وبالحقيقة أيضا هى أختى ابنة أبى غير أنها ليست أبنة أمى فصارت لى زوجة (١)

(٢)

---

(١) التكوين الأصحاح ٢٠ فقره ١١ فما بعدها

(٢) (فان قيل) كان أولاد آدم يتزوجون بأخواتهم اللاتى لسن شقائق لهم وعليه فيكون هذا دليلا على جواز تزوج الأخت غير الشقيقة فى شرائع الأنبياء قبل شريعة نبينا صلى الله عليه وسلم

فالجواب عن ذلك من وجوه

١- الأول أن ذلك كان مباحا لذرية آدم ، ثم نسخ وحرم على الأنبياء فحرم على موسى وغيره من الأنبياء . انظر القرطبى جـ٢ ص ٦٣ ط دار الكتب العربية .

٢- أن ذلك انما كان مباحا لذرية آدم للضرورة لأنه لا يوجد فى ذلك الوقت غيرهم فأبيح لهم ذلك بخلاف غيرهم من الأمم فان النساء كثرن وعمرت الأرض من السكان فزالت الرخصة . طالع تفسير ابن كثير عند قوله تعالى (واتل عليهم نبأ ابنى آدم بالحق اذ قربا قربانا) جزء من آية ٢٦ من سورة المائدة .

وقال القرافى ان الله شرع لآدم تزويج الأخ بأخته غير توأمته وقد نسخ ذلك طالع شرح تنقيح الفصول للقرافى ص ٣٠٣ ط دار الفكر

٣- أن هذه القصة وهى تزويج الأخ بأخته لم يثبت فيها شىء مرفوع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وان كانت رواها كثير من السلف عن بعض الصحابة كابن عباس وابن مسعود وغيرهم ولكنها من المحتمل أن تكون مما روى عن أهل الكتاب الذين نهينا عن تصديقهم حتى نقف على ما رووه فى شرعنا اثباتا أو نفيا ، وقد روى عن ابن عباس أن سبب قتل ابن آدم لأخيه غير قضية الزواج وذلك يؤيد عدم ثبوت قضية الزواج أما قضية قتل ابن آدم أخاه وتقديمها القربان فان ذلك ثابت بالكتاب طالع تفسير ابن كثير عند آية المائدة المتقدمة تجد ما يؤيد عدم ثبوت أن سبب قتل ابن آدم أخاه قضية تزوجه بأخته .

الأنبياء فى العهد القديم يسجدون للمخلوق

وماتت سارة فى قرية أربع التى هى حبرون فى أرض كنعان فأتى ابراهيم ليندب سارة ويبكى عليها ، وقام ابراهيم من أمام ميته وكلم بنى حث قائلا أنا غريب ونزيل عندكم فأعطونى ملك قبر معكم لأدفن فيه ميتى من امامى فأجاب بنوا حث ابراهيم قائلين له سمعنا ياسيدى أنت رئيس من الله بيننا فى أفضل قبورنا أدفن ميتك لا يمنع أحد منا قبره عنك حتى لا تدفن ميتك .

فقام ابراهيم وسجد لشعب الأرض لبنى حيث (١)

الملائكة فى العهد القديم يأكلون كالبشر

١ـ فأسرع ابراهيم الى الخيمة الى سارة وقال : اسرعى بثلاث كيلات دقيقا سميذا اعجنى واصنعى خبز ملة ، ثم ركض ابراهيم الى البقرة وأخذ عجلا رخصا وجيدا وأعطاه للغلام فأسرع ليعمله ثم أخذ زبدا ولبنا والعجل الذى عمله ووضعها قدامهم واذ كان هو واقفا لديهم تحت الشجرة أكلوا هـ (٢)

٢ـ فجاء الملاكان الى سدوم مساء وكان لوط جالسا فى باب سدوم . . فمالا اليه ودخلا بيته فصنع لهما ضيافة وخبز فطيرا فأكلا . (٣)

---

١) التكوين الأصحاح ٢٣ فقرة (١) فما بعدها

٢) سفر التكوين الأصحاح ١٨ فقرة ٦ فما بعدها

٣) التكوين أيضا الأصحاح ١٩ فقرة (١)

العهد الجديد

من معتقدات النصارى فى الاله

تقدم أن النصارى يعتقدون أن المسيح ابن الله وذلك فى قوله تعالى :

(... وقالت النصرى المسيح ابن الله ...) تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا

واليك بيان ذلك أيضا من أناجيلهم .

١ـ احترزوا من أن تصنعوا صدقتكم قدام الناس لكى ينظركم والا فليس لكم أجر عند أبيكم الذى فى السماوات .... لكى تكون صدقتك فى الخفاء فأبوك الذى يرى فى الخفاء هو يجازيك علانية . (١)

٢ـ النصارى لا يكتفون بدعوى الولد لله حتى أثبتوا فى أناجيلهم أنه تكلم هذا

وفى تلك الأيام جاء يسوع من ناصرة الجليل واعتمد من يوحنا فى الأردن وللوقت وهو صاعد من الماء رأى السماوات قد انشقت والروح مثل حمامة نازلا عليه وكان صوت من السماء أنت ابنى الحبيب الذى به سررت (٢) .

٣ـ العهد الجديد يثبت أن عيسى يقول ان النصارى أبناء الله

بل أحبوا أعداءكم وأحسنوا وأقرضوا وأنتم لا ترجون شيئا فيكون اجركم عظيما وتكونوا بنى العلي فانه منعم على غير الشاكرين والاشرار فكونوا رحماء كما أن أباكم رحيم . (٣)

---

١) انجيل متى الاصحاح ٦ فقرة (١) وفقرة (٥)

٢) انجيل مرقس الاصحاح (١) فقرة (١) فما بعدها

٣) انجيل لوقا الاصحاح ٦ فقرة ٣٦ فما بعدها

٤ـ فتناول اليهود أيضا حجارة ليرجموه ، أجابهم يسوع أعمالا كثيرة حسنة أرايتكم من عند أى بسبب أى عمل منها ترجمونني . . . الخ (١)

من معتقدات النصارى فى الرسل

العهد الجديد يقرر أن سليمان عليه السلام ومن بعده من ذريته من الأنبياء بما فى ذلك عيسى عليه السلام أولاد زنا لأن فى سلسلة نسب عيسى عندهم أن مريم عليها السلام من ذرية سليمان بن داود ، وسليمان أثبتوا أنه ولد أمرأة أوريا التى زنى بها داود فحملت منه بسليمان حاشا الأنبياء مما يقوله النصارى واليهود .

١ـ ويسى ولد داود الملك ، وداود الملك ولد سليمان من التى لأوريا (٢)

٢ـ واذا أمرأة كنعانية خارجة من تلك التخوم صرخت اليه قائلة ارحمنى ياسيدى يابن داود ابنتى مجنونة جدا فلم يجبها بكلمة فتقدم تلاميذه وطلبوا اليه قائلين : اصرفها لأنها تصيح وراءنا فأجاب وقال لم ارسل الا الى خراف بنى اسرائل الضالة فأتت وسجدت (٣) له قائلة ياسيدى أعنى (٤) وفى هذا القدر كفاية من معتقد أهل الكتابين فى الاله والرسل والملائكة ذكرناه ليتبين منه للناظر أن هؤلاء لم يبنوا ديانتهم على أساس صحيح وتركنا ما هو أسوأ هـ .

---

١) انجيل يوحنا الأصحاح ١٠ فقره ٣١ فما بعدها

٢) انجيل متى الأصحاح الأول فقرة ٧ فما بعدها

٣) هذا النص يثبت أن عيسى أقر على السجود لغير الله

٤) انجيل متى الأصحاح ١٥ فقرة ٢٣ ومابعدها

((الفصل الثانـــى))

اثبات بشرية الرســـل

قوله تعالى : (... قالوا ان أنتم الا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا فأتونا بسلطن مبين)

دور الكفار من المحاورة

يقول الكفار لرسل الله ما أنتم الا بشر مثلنا ولستم ملائكة وانما تريدون صدنا عما كان آباؤنا يعبدونه من الاصنام ، واذا كان ماتدعونه من الرسالة حقا فائتونا عليه بحجة بينة تثبت دعواكم الرسالة من الله ، لماذا كان الرسل من جنس المرسل اليهم ؟

تمهيـــــد :

ان من لطف الله تعالى بخلقه أنه اذا اراد أن يرسل للناس رسلا يقيمون عليهم الحجة أرسلهم اليهم من جنسهم ليفقهوا عنهم مايبلغونهم عن الملتقنكتهم من مخاطبتهم ومكالمتهم ، ولو بعث الى الناس رسل من الملائكة لما استطاعوا مواجهتهم ولا الأخذ عنهم ، وقد امتن الله على هذه الأمة حيث بعث فيها رسولا منها فقال :

(لقد من الله على المؤمنين اذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم ...) (١)

وقال تعالى :

(لقد جاءكم رسول من أنفسكم ..) (٢) ولكن الكفار لم ينتبهوا لهذه

---

١) جزء من آية ١٦٤ من سورة آل عمران

٢) جزء من آية ١٢٨ من سورة التوبة

النعمة العظيمة واللطف الكبير فجعلوها موضع تعجب واستنكار واستغربوا أن يكون الله أرسل اليهم رسلا من جنسهم وهذه سنة الله في جميع الامم من لدن قوم نوح الى أمة محمد صلى الله عليه وسلم كلهم كانوا يتعجبون من هذا وكان سببا في اعراضهم عن الايمان بالرسل تشبثا بهذه الشبهة الواهية . وهل قام لديهم دليل قاطع على أن جنس الملائكة أفضل من جنس البشر؟ أما علموا أن الله الله أعلم حيث يجعل رسالته ؟

الآيات التي استنكرت فيها الامم كون الرسل من البشر

قال تعالى : حكاية عن قوم نوح (ولقد أرسلنا نوحا الى قومه فقال يقوم أعبدوا الله مالكم من اله غيره أفلا تتقون ، فقال الملؤا الذين كفروا من قومه ماهذا الا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم ولوشاء الله لانزل ملئكة ما سمعنا بهذا في آبائنا الاولين) (١)

وقال في قوم صالح على الصحيح لا في قوم هود لان الله قال فيهم فأخذتهم الصيحة وقوم عاد أهلكوا بريح صرصر ، قال فيهم :

(فأرسلنا فيهم رسولا منهم أن اعبدوا الله مالكم من اله غيره أفلاتتقون وقال الملأ من قوم الذين كفروا وكذبوا بلقاء الاخرة وأترفنهم في الحياة الدنيا ماهذا الا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون ، ولئن أطعتم بشرامثلكم انكم اذا لخسرون) (٢) وقال تعالى في شأن قوم موسى (ثم أرسلنا موسى وأخاه هرون بئاياتنا وسلطن مبين ، الى فرعون وملائه فاستكبروا وكانوا قوما عالين ، فقالوا أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عبدون) (٣)

---

١) آيتي ٢٣ - ٢٧ من سورة المؤمنون
٢) الآيات ٣٢ - ٣٣ من سورة المؤمنون
٣) الآيات ٤٥ - ٤٧ من سورة المؤمنون

وقال تعالى عن أمة محمد صلى الله عليه وسلم (وقالوا مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق لولا أنزل اليه ملك فيكون معه نذيرا) (١) وقد رد الله عليهم مقالتهم هذه فأخبرهم أنه ما أرسل قبله نبيا الا كان يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق ، وذلك فى قوله :

(وما أرسلنا قبلك من المرسلين الا انهم ليأكلون الطعام ويمشون فى الاسواق ...) (٢) وقد أخبر الله تعالى أن هذه الشبهة هى التى منعت الأمم على العموم من الايمان أو منعت أهل مكة على الخصوص (٣) وذلك فى قوله تعالى : (وما منع الناس أن يؤمنوا اذ جاءهم الهدى الا أن قالوا أبعث الله بشرا رسولا) (٤) فالهمزة فى قوله :

(أبعث) للانكار منهم أن يكون الله بعث بشرا رسولا : أى ما منعهم من الايمان بمحمد صلى الله عليه وسلم ، أو بالرسل على العموم الا مقالتهم هذه وقد رد الله عليهم مقالتهم هذه بقوله : (قل لوكان فى الأرض ملئكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا) (٥) أى لوكان سكان الأرض بدلا منكم ملائكة مستقرين فيها لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا من جنسهم ، فلما كنتم مستوطنين هذه الأرض مستقرين فيها كان المناسب أن يبعث اليكم رسولا من جنسكم ، وقال تعالى :

(أكان للناس عجبا أن أوحينا الى رجل منهم أن أنذر الناس) (٦)

---

١) آية ٧ من سورة الفرقان

٢) جزء من آية ٢٠ من سورة الفرقان

٣) انظر فتح القدير جـ ٣ ص ٢٦ المصدر السابق

٤) آية ٩٤ من سورة الاسراء

٥) آية ٩٥ من سورة الاسراء

٦) جزء من آية ٢ من سورة يونس

فالاستفهام فى قوله : (أكان) لانكار العجب مع مايفيده من التفريع والتوبيخ وليس فى هذا ما يقتضى العجب فانه لا يلابس الجنس ويرشده ويخبره عن الله تعالى الا من كان من جنسه (١) وقال تعالى عن جملة الامم الماضية مخاطبا هذه الامة بشأنهم (ألم يأتكم نبؤا الذين كفروا من قبل فذاقوا وبال أمرهم ولهم عذاب أليم ، ذلك بأنه كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فقالوا أبشر يهدوننا فكفروا وتولوا واستغنى الله والله غنى حميد (٢) والآيات بمثل هذا كثيرة جدا تدل على أن هذه الشبهة تشبث بها جميع الامم اهـ ولنعد الى تفصيل الكلام على آخر الآية .

قال الكفار من قوم هؤلاء الرسل (ان أنتم) أى ما أنتم (الا بشر مثلنا) لا فضل لكم يوهلكم لما تدعون من الرسالة (تريدون) بما أنتم عليه من الدعوة والارشاد (ان تصدونا) بما تدعونا اليه من التوحيد وتخصيص العبادة بالله وحده (عما كان يعبد آباؤنا) أى عما استمر على عبادته آباؤنا من غير شىء يوجبه ، وان لم يكن الامر كما قلنا وكنتم رسلا من الله كما تدعون (فأتونا بسلطن مبين) يدل على صحة ما تدعون من الرسالة حتى نترك ما كنا نعبده أبا عن جد ، وهذا الطلب كان بعد اقامة الحجة عليهم من قبل الرسل عليهم الصلاة والسلام بالآيات الظاهرة والبينات الباهرة ولكن حملهم على ذلك العناد والمكابرة (٣) فكأنهم لم يعتبروا ما جاء وهم به من البينات والحجج واقترحوا عليهم آية أخرى تعنتا ولجاجا (٤)

---

١) فتح القدير جـ ٢ ص ٤٢٢ المصدر السابق

٢) آيتى ٥ - ٦ من سورة التغابن

٣) انظر روح المعانى جـ ١٣ ص ١٧٧ ادارة الطباعة المنيرية بمصر

٤) تفسير البيضاوى ص ٣٣٧

جواب الرسل للمكذبين

ان الرسل صلوات الله وسلامه عليهم ردوا هذه الشبهة التى تعلقت بها أممهم فأخبروهم بأنهم بشر مثلهم فى البشرية ولكن ذلك لا يمنع أحدا أن يمن الله عليه بفضله لانه يعطى من يشاء ويمنع من يشاء فقد سلموالهم المشاركة فى الجنس وجعلوا الموجب لاختصاصهم بالنبوة فضل الله تعالى ومنه عليهم ، وذلك فى قوله تعالى : (قالت لهم رسلهم ان نحن الا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده وماكان لنا أن نأتيكم بسلطن الا باذن الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون)

فالرسل فى حوارهم مع أممهم أقروهم على قولهم : أن أنتم الا بشر مثلنا فأثبتوا البشرية لانفسهم ، ولكنهم أخبروهم أن الاشتراك فى البشرية لا يقتضى المساواة من كل وجه فان الله يمن بفضله على بعض البشرية دون بعض ، كما أخبروهم أنهم لا يمكن أن يأتوهم بسلطان الا بارادة الله تعالى ، وأنهم متوكلون عليه غاية التوكل لان أمرهم للموء منين به يدخلون فيه دخولا أوليا ، فقد سلموالهم المساواة فى البشرية فقط ، وأما ما سوى ذلك من الاوصاف التى اختصوا بها دونهم فلم يكونوا مثلهم فيها .

ولم يذكروا ماهم عليه من الاوصاف التى تميزوابها تواضعا منهم ونسبوا ذلك الى الله ولم يصرحوا . بمن الله عليهم وحدهم ولكنهم أبرزوا فى عموم من يشاء من عباده ، كما أخبروهم أن الاية التى أقترحوها ليس لهم الاتيان بها ولا هى فى استطاعتهم وانما ذلك أمر يتعلق بمشيئة الله تعالى ، (١)

---

١) طالع البحر المحيط لابى حيان جـ ٥ ص ٤١١ المصدر السابق

وحاصل شبهة هؤلاء أنهم ادعوا أن الاشخاص الانسانية متساوية في تمام الماهية فيمتنع أن يبلغ التفاوت بين تلك الاشخاص الى هذا الحد بحيث أن يكون الواحد منهم رسولا من عند الله مطلعا على بعض المغيبات مخالطا لزمرة الملائكة ، والباقون يكونون غافلين عن كل هذه الاحوال ، فكأنهم يقولون ان كنتم فارقتمونا في هذه الاحوال العالية الالهية الشريفة وجب أن تفارقونا في الاحوال الخسيسة كالحاجة الى الاكل والشرب والوقاع وغير ذلك (١) .

وقد قيل هنا (لهم) دون قولهم السابق قالت رسلهم لاختصاص الكلام هنا بهم حيث أريد الزامهم ، بخلاف ماسبق من انكار وقوع الشك في الله سبحانه فان ذلك عام وان اختص بهم ما يعقبه . (٢)

قلت : ان هذه الشبهة صرح القرآن الكريم بردها في غير ما آية منه ردا على مشركي هذه الامة حيث قالوا : (.. لولا أنزل عليه ملك) (٣) فقد أخبرا لله أنه ما أرسل لبني البشر رسلا من قبل رسالة محمد صلى الله عليه وسلم الا من جنس البشر ، قال تعالى :
(وما أرسلنا من قبلك الا رجالا نوحي اليهم من أهل القرى) (٤)
وقال تعالى : (وما أرسلنا قبلك الا رجالا نوحي اليهم فسئلوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون) (٥)
قوله تعالى : (ومالنا ألا نتوكل على الله وقد هدينا سبلنا ولنصبرن على ما آذيتمونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون)

---

١) انظر الفخر الرازي جـ ١٩ ص ٩٥ المصدر السابق
٢) انظر تفسير ابي السعود جـ ٣ ص ١٢٠ ط أولى
٣) جزء من آية ٨ من سورة الانعام
٤) جزء من آية ١٠٩ من سورة يوسف
٥) آية ٤٣ من سورة النحل

يقول رسل الله فى محاورتهم للامم : اننا لما خصنا الله بهذه الدرجات الروحانية والمعارف الالهية فكيف يليق بنا ألا نتوكل على الله ، بل اللائق بنا ألا نتوكل ولا نعول الا عليه فانه من كانت هذه حاله يقبح عليه أن يرجع فى أمر من الامور الى غير الحق ، (وقد هدينا سبلنا) أى وقد فعل بنا ما يوجب توكلنا عليه وهو التوفيق لهداية كل واحد منا سبيله الذى يجب عليه سلوكه فى الدين (ولنصبرن على ما اذيتمونا) أى والله لنصبرن على أذيتكم لنا فان الصبر مفتاح الرحمة ، والحق لابد أن يصير غالبا قاهرا ، والباطل لابد أن يصير مغلوبا مقهورا (١)

قال الزمخشرى : فان قلت : كيف كرر الامر بالتوكل ؟

قلت : الاول استحداث التوكل ، وقوله فليتوكل المتوكلون معناه فليثبت المتوكلون على ما استحدثوه من توكلهم فانظره هنا .

وقال أبوالسعود : إن الاظهار فى قوله : (وعلى الله) لاظهار النشاط بالتوكل عليه والاستلذاذ بذكره تعالى فانظره هنا أيضا

دور الكفار من الحوار ايضا

ولما توكل الرسل على الله وأمروا المؤمنين بالتوكل عليه والتزموا بالصبر على الاذى من المشركين ، بالغ المشركون فى السفاهة والجهل كما يدل على ذلك قوله تعالى :

(وقال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن فى ملتنا فأوحى اليهم ربهم لنهلكن الظالمين) والمعنى أن الكفار أقسموا للرسل ليكونن أحد أمرين لامحالة .

---

١) تفسير الفخر الرازى جـ ١٩ ص ٩٧ المصدر السابق

اما أن نخرجكم من أرضنا ونستريح منكم ، واما أن تعودوا الى ملتنا وانما قالوا هذا لانّ أهل الحق فى كل زمان قليلون وأهل الباطل فى كل زمان كثيرون ، والظلمة والفسقة دائما يكونون متعاونين متعاطفين فلهذه الاسباب قد روا على هذه السفاهة (١)

وقال ابن جرير معناه لنخرجنكم من أرضنا الا أن تعودوا أو حتى تعودوا فى ملتنا ،

قال ابن العربى وهوغير مفتقر الى هذا التقدير فان أو على بابها من التخيير ، خير الكفار الرسل بين أن يعودوا فى ملتهم ، أو يخرجوهم من أرضهم ، وهذه سيرة الله فى رسله وعباده ألا ترى الى قوله تعالى :

(وان كادوا ليستفزونك من الارض ..) (٢) الآية (٣)

قلت : ذكر المفسرون فى قوله تعالى : (... أو لتعودن فى ملتنا) اشكالا وأجابوا عنه بأجوبة ، وسأذكر ان شاء الله أقربها الى الصواب فى نظرى .

وحاصل الاشكال ان قوله : (أو لتعودن فى ملتنا) يوهم أنهم كانوا على ملتهم فى أول الامر حتى يعودوا فيها ثانيا ، ورسل الله لم يكونوا على ملة هؤلاء الكفار أبدا حتى يعودوا اليها حاشاهم من ذلك وقد أجاب الفخر الرازى عن ذلك بأجوبة .

---

١) انظر الفخر الرازى جـ ١٩ ص ٩٩ المصدر السابق

٢) جزء من آية ٧٦ من سورة الاسراء

٣) انظر أحكام القرآن لابن العربى جـ ٣ ص ١١١٦-١١١٧ طـ دار المعرفة بيروت

١- الأول أن أولئك الأنبياء انما نشئوا فى تلك البلاد وكانوا من تلك القبائل ، وفى أول الأمر ما أظهروا المخالفة مع أولئك الكفار فظن القوم لهذا السبب أن الرسل فى أول الأمر كانوا على دينهم فقالوا قولتهم هذه .

٢- أن هذا حكاية كلام الكفار ولا يجب فى كل ماقالوه أن يكون صدقا فلعلهم توهموا ذلك مع أن الأمر بعيد مما توهموا .

٣- أن الخطاب وان كان فى الظاهر مع الرسل الا أن المقصود به أتباعهم ولا بأس بأن يقال انهم كانوا على ملة اولئك الكفار .

٤- أن العود هنا بمعنى الصيرورة وذلك كثير فى كلام العرب

٥- قالوا لعل أولئك الأنبياء كانوا قبل ارسالهم على ملة من الملل ، ثم أوحى الله اليهم بنسخها وأمرهم بشريعة أخرى ، وبقى الأقوام على تلك الشريعة التى صارت منسوخة مصرين عليها فطلبوا منهم العود الى تلك الملة .

٦- أن المعنى : أولتعودن فى ملتنا أى الى ماكنتم عليه قبل ادعاء الرسالة من السكوت عن ذكر معايب ديننا وعدم التعرض له بالطعن (١)

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ١٩ ص ٩٩ - ١٠٠ المصدر السابق .

هكذا ذكر الرازى هذه الأجوبة (١)

---

(١) قلت : أقرب هذه الأجوبة الى الصواب عندى هو الثالث والرابع ، وأبعدها عندى الوجه الخامس ، أما توجيه القولين : الثالث والرابع فلأننا بطريق الاستقراء وجدنا الخطاب فى القرآن يوجه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم والمراد به غيره من امته بلا شك وذلك نحو قوله تعالى :

(ولقد اوحى اليك والى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخسرين) آية ٦٥ من سورة الزمر ، فهذا الخطاب موجه للرسول صلى الله عليه وسلم والمقصود أمته لأن الله قد عصمه من الشرك . وقال تعالى :

(... اما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما ، واخفض لهما جناح الذل من الرحمة ...) جزء من آيتى ٢٣ - ٢٤ من سورة الاسراء . فالخطاب هنا للرسول صلى الله عليه وسلم ، ومعلوم أن أبويه لم لم يبلغا ولا أحدهما الكبر عنده لأن أباه مات وهو حمل ، وأمه ماتت وهو صغير جدا .

فدل هذا على أن المراد أمته . وبه يتجه القول الثالث وهو أن المراد بقوله : أو لتعودن فى ملتنا من آمن مع الأنبياء لا الأنبياء وأما توجيه القول الثالث فلأن العرب قد كثر استعمالهم لعاد وغيرها من الألفاظ بدل صار حتى كادوا لا ينطقون بكلمة صار الا قليلا فقد استعملوا عشرة الفاظ بكثرة بدلها وأكثر هذه الألفاظ استعمالا (عاد) ، ولذلك هى التى استعمل القرآن الكريم كما هنا وفى سورة الأعراف فى قوله تعالى : (قال الملأ الذين استكبروا من قومه لنخرجنك يشعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أولتعودن فى ملتنا ..) جزء من آية ٨٨ من سورة الأعراف .

وقال أبو السعود : (وقال الذين كفروالرسلهم) لعل القائلين بعض من الكفرة التى نقلت مقالتهم الشنيعة دون غيرهم كقوم شعيب دون جميعهم ولهذا لم يقل وقالوا .

ـــــ والالفاظ العشرة هى : تحول ،آض ،عاد ،رجع ،راح ، غدا ،استحال ،ارتد ، قعد ، حار ، قال الخضرى فى حاشيته على ابن عقيل ، وقد جاء مثل صار فى العمل والمعنى مما جمعته بقولى :

.. بمعنى صار فى الافعال عشر .. تحول آض عاد ارجع لتغنم ..
.. وراح غدا استحال ارتد فاقعد .. وحار فهاكها والله اعلم ..

ثم قال : وقد استعملوا كان وظل وأضحى وأصبح وأمسى بمعنى صار كثيرا نحو (وفتحت السماء فكانت أبوابا) آية ١٩ من سورة النبا طالع حاشية الخضرى على ابن عقيل جـ ١ ص ١١٢ ط عيسى البابى الحلبى وشركاؤه .

وبهذا يتجه القول الرابع ، وقد اقتصر الزمخشرى على هذين الجوابين اللذين اخترتا ولم يذكر غيرهما فانظره هنا .

((الفصل الثالث))

(الربط بين رسالات السماء ومصير المكذبين)

قوله تعالى : (... فأوحى اليهم ربهم لنهلكن الظلمين ، ولنسكننكم الأرض من بعدهم ذلك لمن خاف مقامى وخاف وعيد)

تمهيـــــــد :

ان الله تبارك وتعالى أرسل للناس رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس عليه حجة بعد الرسل ، واثبات رسالتهم بالمعجزات التى يؤيدهم الله بها تصديقا لما أخبروا به عن ربهم ، واذا ثبتت رسالتهم من الله قامت الحجة على من أرسلوا اليهم فمن هداه الله للايمان بما جاء وانه كان مصيره خيرا اذ فاز بسعادة الدارين ، ومن لم يوفقه الله للايمان بما جاء وانه كان مصيره عذاب الدنيا والاخرة الذى لا ينقطع ولا يخفف عنه منه بحيث لا يقضى عليه فيموت ولا يخفف عنه من العذاب .

وقد بينت هذه السورة الكريمة الربط بين رسالات الأنبياء ومصير أممهم فقد بينت لنا تقارب أحوال الرسل فى دعوتهم وأن دعوة هذا الى الحق هى دعوة هذا بعينها وأن أتباع هذا الرسول الذين كذبوه يحل بهم من العذاب مثل ما حل بمن قبلهم من المكذبين أو أشد ،

وأنه ما من نبى أرسله الله الا كذبه قومه وتتابعت الأمم على ذلك كما قال تعالى :

(ثم أرسلنا رسلنا تترا كل ما جاء أمة رسولها كذبوه فأتبعنا بعضهم بعضا وجعلناهم أحاديث فبعدا لقوم لا يؤمنون) (١)

---

١) آية ٤٤ من سورة المؤمنون

وسنرى ان شاء الله فى الآيات التالية مصير المكذبين لرسل الله وكيفية عذابهم فى الآخرة ومخاصمة الاتباع والمتبوعين فى النار الى غير ذلك مما يرغب السامع فى اتباع دعوة الحق ، وينفره من الاعراض عنها وعن السخرية من أهلها ..

رسالات السماء

ان رسالات السماء وحدة متكاملة فى حلقات متصلة يصدق .. اللاحق من الرسل السابق له ويبشر السابق بمن بعده ، وموضوع الرسالة واحد ، لأن كل رسل الله دعوا الى توحيده وعبادته وحده لا شريك له ، وكلهم دعوا الى شرع الله واتباع أوامره واجتناب نواهيه ، وكل الرسل دعوا الى مكارم الأخلاق وفضائل الأعمال ، وبينوا الحلال والحرام وبشروا وأنذروا ودعوا الى الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر والايمان بالمغيبات ، أدوا الامانة جميعا ونصحوا الأمم وبلغوا الرسالة وجاهدوا فى الله حق الجهاد ،

وختمت هذه الرسالات برسالة محمد صلى الله عليه وسلم رسالة الاسلام دينا عاما خالدا صالحا لكل زمان ومكان ،

ولما كان هذا الدين الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم كاملا شاملا خالدا موحدا . وافيا بشؤون الحياة ومتطلباتها قطع الله الرسالة به وختم الأنبياء بصاحبه كما قال تعالى : (ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين ...) (١)

---

(١) جزء من آية ٤٠ من سورة الأحزاب

ومما يدل على وحدة الرسالة والربط بينها قوله تعالى :

(شرع لكم من الدين ماوصى به نوحا والذى أوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ...) (١)

وقوله تعالى : (انا أوحينا اليك كما أوحينا الى نوح والنبيين من بعده وأوحينا الى ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والاسباط وعيسى وأيوب ويونس وهرون وسليمان وآتينا داود زبورا) (٢) وقال تعالى : عن عيسى عليه السلام (واذ قال عيسى ابن مريم يبنى اسرائل انى رسول الله اليكم مصدقا لما بين يدى من التورية ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد - ...) (٣) وقال تعالى :

واذ أخذ الله ميثق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال ءأقررتم وأخذتم على ذلكم اصرى قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشهدين) (٤)

الربط بين مصير الامم

كما ربط القرآن الكريم بين رسالات الانبياء وجعلها وحدة متكاملة . ربط كذلك بين مصير الامم المكذبين متأخرهم ومتقدمهم فأهلك هؤلاء فى الدنيا وعذبهم فى الآخرة كما أهلك أولئك فى الدنيا وعذبهم فى الآخرة .

---

١) جزء من آية ١٣ من سورة الشورى

٢) آية ١٦٣ من سورة النساء

٣) جزء من آية ٦ من سورة الصف

وكان أنبياء الله يحذرون أممهم مما أصاب من قبلهم من العذاب فهذا نبى الله هود قال لقومه : (... واذكروا اذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح ..) (١) وهذا نبى الله صالح يقول لقومه (.. واذكروا اذ جعلكم خلفاء من بعد عاد (٢) وهذا نبى الله شعيب يقول لقومه (ويقوم لا يجرمنكم شقاقى أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح وماقوم لوط منكم ببعيد) (٣)

وقال تعالى : (وعادا وثمود وأصحب الرسل وقرونا بين ذلك كثيرا ، وكلا ضربنا له الأمثل وكلاتبرنا تتبيرا) (٤) وقال تعالى : (وعادا وثمودا وقد تبين لكم من مسكنهم وزين لهم الشيطن أعمالهم فصدهم عن السبيل وكانوا مستبصرين ، وقارون وفرعون ولقد جاءهم موسى بالبينت فاستكبروا فى الأرض وماكانوا سبقين ، فكلا أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا وماكان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) (٥) وهذا كثير فى القرآن جدا (٦)

وفى الحقيقة ان هذا الفصل يدور حول ثلاثة أمور .

---

١) تقدمت

٢) تقدمت

٣) آية ٨٩ من سورة هود

٤) آيتى ٣٨ - ٣٩ من سورة الفرقان

٥) الآيات من ٣٨ - ٤٠ من سورة العنكبوت

٦) طالع بحوث المؤتمر العالمى لتوجيه الدعوة واعداد الدعاة ، اللجنة الأولى اعداد الشيخ أبو طالب شاهين .

الأول : بيان وحدة رسالات السماء والربط بينها وبيان أنها سلسلة متكاملة تدعو الى مبدأ واحد هو : انقاذ العباد من الكفر الى الايمان وعبادة رب واحد فرد صمد .

وآمران آخران رئيسيان هما : بيان صفات الكفار والمعاندين وما ينتظرهم من عقاب فى الدنيا والآخرة هذا أولا ،

وثانيا صفات المؤمنين المطيعين وما أعد لهم من سعادة فى الأولى والآخرة ، فالكافرون والظالمون حتم الله اهلاكهم بسبب ظلمهم وكفرهم وجبروتهم وعنادهم وتبديلهم نعمة الله كفرا واحلالهم قومهم دار البوار وجعلهم لله أندادا واضلالهم الناس عن سواء السبيل .

وهؤلاء ينتظرهم من الله سبحانه وتعالى الدمار والهلاك بشتى أنواع الاهلاك ففى الدنيا الدمار بأسوأ أنواع الهلاك ،

وفى الآخرة أعمالهم كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف . . ومأويهم جهنم يشربون من الصديد الذى يتجرعونه ولا يكادون يستسيغونه ، ويأتيهم الموت والرهب والخوف . . . من كل مكان وليسوا بميتين لأن الله جعلهم أحياء ليذوقوا العذاب الغليظ (. . . وخاب كل جبار عنيد ، من ورائه جهنم ويسقى من ماء صديد يتجرعه ولا يكاد يسيغه ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت ومن ورائه عذاب غليظ) .

أما المؤمنون فقد وعدهم الله تعالى بالاسكان فى الأرض يعنى أرض الكفار بعد هلاكهم يعمرونها ويحيون فيها حياة طيبة كما قال تعالى : (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصلحت ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا . . .) (١)

---

١) جزء من آية ٥٥ من سورة النور .

هذا فى الدنيا .

أما فى الآخرة فهم أهل الجنة ينعمون فيها ، وذلك بسبب ايمانهم وخوفهم مقام ربهم ووعيده كما قال تعالى : (ولمن خاف مقام ربه جنتين) (١) واقامهم الصلاة وايتائهم الزكاة كما قال تعالى : (وأقيموا الصلوة وآتوا الزكوة وأطيعوا الرسول لعلكم ترحمون) (٢) وسترى تفصيل ذلك فى مواضعه من هذا الفصل ان شاء الله .

معنى الآية

تقدم الكلام على أول الآية وهو قوله تعالى : (وقال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن فى ملتنا ...) وسأتكلم الآن على قوله تعالى : (... فأوحى اليهم ربهم لنهلكن الظلمين ، ولنسكننكم الأرض من بعدهم ذلك لمن خاف مقامى وخاف وعيد) . أوحى الله جل وعلا الى رسله وأقسم لهم بأنه سيهلك الظالمين أى المكذبين لهم وأنه يورثهم الأرض من بعدهم أى أرض الظالمين التى كانوا يسكنون ونظير هذا قوله تعالى : (وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشرق الأرض ومغربها التى باركنا فيها ...) (٣) وقوله : (وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم ...) (٥)

قال الزمخشرى : (لنهلكن الظلمين) حكاية تقتضى اضمار القول أو أجراء الايحاء مجرى القول لأنه ضرب منه اهـ

ولما أقسم الكفار على اخراج الرسل من الأرض ، أوعدتهم الى ملتهم ، أقسم الله تعالى على اخراج الكفار من أرضهم واقامة الرسل وأتباعهم

---

١) آية ٤٦ من سورة الرحمن
٢) آية ٥٦ من سورة النور
٣) جزء من آية ١٣٧ من سورة الاعراف
٥) جزء من آية ٢٧ من سورة الأحزاب

مقامهم ،فقوله : (... ذلك لمن خاف مقامى وخاف وعيد) فى ذلك أى توريث الأرض الأنبياء بعد اهلاك الظالمين لمن خاف مقامى وخاف وعيد ، فقوله : (مقامى) يحتمل أن يكون مصدر ا ميميا ويحتمل أن يكون اسم مكان ،قال الفراء هو مصدر أضيف الى فاعله أى لمن خاف قيامى عليه بالحفظ لأعماله ومراقبتى اياه كقوله : (أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت) (١) وقال الزجاج انه اسم مكان أى خاف وقوفه بين يدى للحساب وهو موقف الله الذى يقف فيه عباده يوم القيامة كقوله تعالى : (ولمن خاف مقام ربه جنتان) (٢) (٣) وقوله (وخاف وعيد ..) أى خاف ما أوعدت به من العذاب .

قوله تعالى : (واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد)

اختلف المفسرون فى معنى هذا الاستفتاح فقال بعضهم ان المراد به الاستنصار أى استنصر الأنبياء الله على أعدائهم فنصرهم كقوله (ان تستفتحوا فقد جاءكم الفتح ..) (٤) ،وقيل انه من الفتاحة وهى الحكومة أى استحكم الانبياء الله وطلبوا منه القضاء بينهم وبين الأمم كما فى قول شعيب عليه السلام (... ربنا أفتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين) (٥)

وقال ابن زيد : ان الضمير فى قوله : واستفتحوا عائد على الأمم أى واستفتح الكفار كما قالت قريش (... ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب) (٦) وقولهم

---

١) جزء من آية ٣٣ من سورة الرعد
٢) تقدمت
٣) انظر البحر المحيط جـ ٥ ص (٤١١ - ٤١٢) المصدر السابق
٤) جزء من آية ١٩ من سورة الأنفال
٥) جزء من آية ٨٩ من سورة الاعراف
٦) جزء من آية ١٦ من سورة ص

(... اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم) (١) فكأنهم لما طال تكذيبهم ولم يعاجلوا بالعقوبة ظنوا أن ما جاء به الرسل باطل وأنهم على حق فاستفتحوا تهكما واستهزاء كما قال قوم نوح (... فأتنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين) (٢) وقوله قوم عاد (ومانحن بمعذبين) (٣) الى غير ذلك من الآيات (٤) وجمهور المفسرين على خلاف قول ابن زيد وقالوا ان الضمير فى استفتحوا عائد على الرسل وقوله .. (وخاب كل جبار عنيد) أى هلك كل متكبر جائر حائد عن الاقرار بتوحيد الله واخلاص العبادة له ،والعنيد والعاند والعنود بمعنى واحد (٥) وقوله : (من ورائه جهنم ويسقى من ماء صديد)

لما وصف الله تعالى المكذبين بالهلاك والخيبة ذكرلنا أنواعا من عذابهم ومصيرهم يوم القيامة فقال : (من ورائه جهنم أى امام هذا الجبار المتكبر جهنم لأن الوراء يستعمل فى الامام ، قال الشاعر (٦) .

: عسى الكرب الذى / أمسيت فيه .. يكون وراءه فرج قريب :

وقيل : ان الوراء من الأضداد يقع على الخلف والقدام ومنه قوله تعالى :

(... وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا) (٦)

---

١) جزء من آية ٣٢ من سورة الأنفال
٢) جزء من آية ٣٢ من سورة هود
٣) آية ١٣٨ من سورة الشعراء
٤) انظر البحر المحيط لأبى حيان جـ ٥ ص ١٢٩ المصدر السابق
٥) انظر تفسير ابن جرير جـ ١٣ ص ١٢٩ المصدر السابق
٦) البيت لهدبة بن خشرم العذرى انظر تعليق محمد محى الدين عبد الحميد على ابن عقيل جـ ١ ص ٣٢٧
٧) جزء من آية ٧٩ من سورة مريم

وقيل : الوراء يطلق بمعنى البعد بة فيكون المعنى : من بعده جهنم أى من بعد خيبته جهنم ،ذكر ذلك الرازى ،وقال ابن جرير : من ورائة جهنم أى امام كل جبار جهنم يرد ونها ووراء فى هذا الموضع بمعنى أمام كما يقال : ان الموت من ورائك أى قدامك فانظره هنا ،وقوله : (ويسقى معطوف على محذوف تقديره : من ورائه جهنم يلقى فيها مايلقى ويسقى من ماء صديد كأنه أشد عذابها . قوله تعالى : (يتجرعه ولا يكاد يسيغه ويأتيه الموت من كل مكان وماهو بميت ومن ورائة عذاب غليظ) قوله يتجرعه : قال أبو السعود ان المراد منه الاستئناف لا الحال ولا الصفة للماء كأنه قيل فماذا يفعل به ؟ قيل يتجرعه أى يتكلف جرعه (١) وكذلك قال صاحب الكشاف فانظره أخبر تعالى أن الجبارين المتكبرين عن الحق فى دار الدنيا واتباع رسل الله مصيرهم فى الآخرة الخلود فى جهنم يلقون فيها ويسقون من ماء صديد يسيل من جلود أهل النار يتكلفون استساغته ولا يكادون أى لا يقاربون أن يستسيغوه وقيل ان الصديد هو القيح والدم ، فقوله صديد عطف بيان على ماء ،

وقوله : ويأتيه الموت من كل مكان وماهو بميت : كأن أصناف الموت وأسبابه كلها تألبت عليه وأحاطت به من جميع الجهات تفظيعا لما يصيبه من الآلام ،وقيل : من كل مكان من جسده حتى من ابهام رجله ، وقيل من أصل كل شعرة ، ومن ورائه أى من بين يديه عذاب غليظ أى فى كل وقت يستقبله يتلقى عذابا أشد مما قبله وأغلظ (٢)

---

١) انظر تفسير أبى السعود هنا

٢) انظر الكشاف جـ ٢ ص ٣٧١ المصدر السابق

قوله تعالى : (مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف لا يقدرون مما كسبوا على شيء ذلك هو الضلال البعيد) لم تزل الآيات تتوالى وتحكى لنا مصير الكافرين المكذبين لدعوة الحق العاندين والمعاندين لرسل الله عليهم الصلوات والتسليم ، فتحكى لنا الآية الكريمة صفة أعمال الكفار التى كانوا يعملونها فى الدنيا ويظنون أنها تنفعهم فأخبرتنا أنها كرماد اشتدت به الريح فلم يقدروا على شيء منها ، واختلف علماء العربية فى رافع مثل فقال بعضهم انه مبتدأ وخبره محذوف تقديره عند سببو به فيما يتلى عليكم مثل ، والمثل مستعار للصفة التى فيها غرابة ، وأعمالهم كرماد مبتدأ وخبر جملة أستئنافية على تقدير سوءال كأنه قيل كيف مثلهم ؟ فقيل أعمالهم كرماد كما تقول صفة زيد عرضه مصون وماله مبذول ، وقيل ان مثل رفع بالابتداء وأعمالهم بدل من مثل بدل اشتمال وكرماد الخبر وقيل مثل مبتدأ وأعمالهم مبتدأ ثان وكرماد الخبر للثانى والجملة خبر المبتدأ الأول وهذا القول رجحه ابن عطية ورده أبو حيان وقال انه لا يصح لعدم الرابط فى الجملة الأخيرة وذكر أن الحوفى قال بهذا القول أيضا ولكنه استبعده ورده لأن الجملة ليست نفس المبتدأ ولا تشتمل على رابط (١) وقيل إن تقدير الكلام على الغاء مثل والتقدير : والذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد ، وليس هذا القول يوجيه عندى لعدم الداعى اليه ولأن الأسماء لا تزداد وانما الزيادة فى الحروف والقرآن ينزه عن الغاء شيء منه اذ ليس فيه حشو ، والمعنى على كل حال أن أعمال الكفار محبطة غير مقبولة والرماد ما بقى بعد احتراق الشيء فضرب الله هذه الآية مثلا لأعمال

---

١) انظر البحر المحيط جـ ٥ ص ٤١٥ المصدر السابق

أنه يمحقها كما تمحق الريح الشديدة الرماد في يوم عاصف الريح ، ووصف اليوم بالعصوف مع أن العصوف للريح قيل لأن الريح تكون فيه فجاز أن يقال يوم عاصف كما يقال يوم حار يراد به أن الحر والبرد فيه . وقيل المراد في يوم عاصف الريح لأنها ذكرت في أول الكلام ، وقيل انه نعت للريح غير أنه لما جاء بعد اليوم اتبع اعرابه فجر بالمجاورة كما قالوا جحر ضب خرب(١) وقوله : (لا يقدرون) يعني أن الكفار لا يقدرون (على شيء مما كسبوا) في الآخرة أي من ثواب ماعملوا من البر في الدنيا كالصدقة وصلة الرحم وبر الوالدين واطعام الجائع ، ثم قال تعالى : (ذلك هو الضلال البعيد) .

أي الخسران الكبير ، وقال ابن جرير ذلك هو الضلال البعيد أي الخطأ البين البعيد عن طريق الحق فانظر فيه ، قوله تعالى : (الم تر أن الله خلق السماوات والارض بالحق ان يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد) يقول تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم ألم تر يا محمد بعين قلبك فالرؤية هنا قلبية فتعلم أن الله أنشأ السماوات والارض بالحق منفردا بذلك من غير ظهير ولا معين ، وقوله : ان يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد ، معناه أن الذي تفرد بخلق ذلك وانشائه من غير معين ولا شريك ان شاء أن يذهبكم فيفنيكم أذهبكم وأفناكم وأتى بخلق جديد سواكم مكانكم ، وما ذلك أي افناؤكم وانشاء خلق آخر جديد مكانكم بمتعذر عليه ولا ممتنع لأنه القادر على مايشاء (٢)

---

١) انظر القرطبي جـ ٥ ص ٣٥٨٢ المصدر السابق

٢) طالع تفسير ابن جرير جـ ١٣ ص ١٣٢ المصدر السابق

وقوله بالحق أى بالحكمة والأمر العظيم ، ولم يخلق ذلك عبثا ولا سهوة كما قال (وما خلقنا السماء والارض ومابينهما باطلا . .) (١) وقيل ان المعنى خلق السماوات والارض متلبسا بالحق ، فالجار والمجرور فى موضع الحال ، قال أبو حيان والظاهر أن قوله : (يذهبكم خطاب عام للناس وعن ابن عباس خطاب للكفار ، ويأت بخلق جديد يحتمل أن يكون المعنى يذهبكم أيها الناس ويأت بناس آخرين آدميين من جنسكم ، ويحتمل من غير جنسكم والاول قول جمهور المفسرين وذكر أنه حقق فى سورة النساء عند قوله تعالى : (ان يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت بآخرين . . .) (٢) أنه لا يحتمل الا الوجه الاول فانظره ، قوله تعالى : (وماذلك على الله بعزيز) تقدم معناه فى تفسير الآية السابقة ، قوله تعالى : (وبرزوالله جميعا فقال الضعفوا للذين استكبروا انا كنا لكم تبعا فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شىء قالوا لو هدينا الله لهديناكم سواء علينا أجزعنا أم صبرنا مالنا من محيص) لما ذكر الله مصير هؤلاء المكذبين وأنواع . . عذابهم ذكر بعد ذلك نوعا آخر من العذاب وهو افتضاح الرؤساء وخجلهم أمام أتباعهم ومخاصمة الجميع أمام الله تعالى :

قوله : وبرزوا أى ويبرزون يوم القيامة وانما جىء بلفظ الماضى لان ما أخبر الله به لتحقق وقوعه كأنه كان ووجد ونظيره قوله تعالى : ونادى أصحاب الأعراف (٣) ، (ونادى أصحاب الجنة (٤) وأمثال ذلك ومعنى بروزهم لله والله لا يتوارى عنه شىء حتى يبرز له أنهم كانوا يستترون عن الناس عند ارتكاب الفواحش ويظنون أن ذلك يخاف على الله تعالى

---

١) جزء من آية ٢٧ من سورة ص
٢) جزء من آية ١٣٣ من سورة النساء
٣) جزء من آية ٤٨ من سورة الاعراف
٤) جزء من آية ٤٤ من سورة الاعراف

فاذا كان يوم القيامة انكشفوا لله عند أنفسهم وعلموا أن الله لا يخفى عليه خافية ، أو المعنى : خرجوا من قبورهم فبرزوا لحساب الله وحكمه (١) والضعفاء هم العوام والاتباع ، والذين استكبروا هم الرؤساء والقادة الذين أغووا العوام وصدوهم عن اتباع الرسل ، يخاطبونهم بين يدى الله قائلين لهم (هل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شىء) (فمن) فى الموضعين للتبعيض أى فهل أنتم مغنون عنا بعض شىء ؟ هو عذاب الله أى بعض عذاب الله ، ذكر ذلك الرازى وقال الزمخشرى : يحتمل أن تكون الأولى للتبيين والثانية للتبعيض أى فهل أنتم مغنون عنا بعض الشىء الذى هو عذاب الله ، ويحتمل أن يكونا معا للتبعيض كما قال الرازى ، ورد أبو حيان هذا القول وأطال فى رده فانظره . والاستفهام هنا للتوبيخ والتقريع والا فقد علموا أنهم لن يغنوا عنهم من الله شيئا ، والمعنى : انا تبعناكم فيما كنتم فيه من الضلال كما أمرتمونا وما أغنيتم عنا شيئا ، فلذلك جاء الجواب من الرؤساء (لو هدانا الله لهديناكم) قالوا ذلك على سبيل الاعتذار والخجل ، ورد وا الهداية لله تعالى : أى لو أرشدنا الله لأرشدناكم ، وقوله : (. . . سواء علينا أجزعنا أم صبرنا مالنا من محيص) يقولون لهم أى يقول القادة للاتباع سواء علينا أى مستوعلينا الجزع والصبر ، والهمزة وأم للتسوية ، ثم قالوا لهم مالنا جميعا من محيص أى منجى من العذاب ومهرب وملجأ ، والمعنى أننا مالنا وجه نتباعد به عن النار ،

روى أن أهل النار يقول بعضهم لبعض يا هؤلاء قد نزل بكم من البلاء

---

١) انظر الكشاف جـ ٢ ص ٣٢ المصدر السابق

والعذاب ماقد ترون فهلم فلنصبرفلعل الصبر ينفعنا كما صبر أهل الطاعة على طاعة الله فنفعهم الصبر اذ صبروا فأجمعوا رأيهم على الصبر فصبروا فطال صبرهم فجزعوا فنادوا سواء علينا أجزعنا أم صبرنا مالنا من محيص ذكر هذا الاثر القرطبي عن محمد بن كعب القرظي (١) قوله تعالى : (وقال الشيطن لماقضى الامر ان الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لى عليكم من سلطن الا أن دعوتكم فاستجبتم لى فلا تلومونى ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخى انى كفرت بما أشركتمون من قبل ان الظلمين لهم عذاب أليم)

هذا نوع آخر من أنواع العذاب للمكذبين لدعوة الرسل وهو تبرؤ ابليس اللعين منهم على رؤوس الاشهاد واخباره لهم بأنه وعدهم وعدا كاذبا وأنهم ليست لهم حجة عليه ، وانما يلومون أنفسهم لانه مازاد على أن دعاهم الى الباطل وزين لهم ووسوس فأستجابوا له ، ولا اغاثة منه لهم ولا منهم له .

قوله : (وقال الشيطن) الآية يخبر تعالى عما خاطب به ابليس أتباعه يوم القيامة لما قضى الله بين عباده وأدخل عباده المؤمنين الذين اتبعوا الرسل الجنات ، وأسكن الكافرين الذين كذبوا الرسل أسفل الدركات ،

وقد استظهر ابن كثير أن هذه الخطبة من ابليس بعد دخول أهل النار النار ودخول أهل الجنة الجنة كما ذكرنا ، ولكنه ذكر حديثا طويلا رواه ابن أبى حاتم وابن جرير يدل على أن هذه الخطبة وقعت

---

(١) القرطبى جـ ٥ ص ٣٥٨٤ المصدر السابق

بعد القضاء بين الخلق وقبل افتراق الفريقين فريق الى الجنة وفريق الى السعير ، وعلى كل فانه قال لهم (ان الله وعدكم وعد الحق) أى بالبعث والجنة والنار وثواب المطيع وعقاب العاصى فصدق وعده ، (ووعدتكم) أنا أنه لا بعث ولا نار ولا جنة ولا ثواب ولا عقاب (فأخلفتكم) كما ذكر الله ذلك فى قوله : (يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطن الا غرورا) (١) ثم يقول لهم (وما كان لى عليكم من سلطن) أى لم يكن لى دليل ولا برهان فيما وعدتكم به أى ما أظهرت لكم حجة على ما وعدتكم وزينته لكم فى دار الدنيا ، (الا أن دعوتكم فأستجبتم لى) أى لكنى دعوتكم فأغويتكم فاتبعتمونى واستجبتم لى باختياركم ،

وقيل المعنى : وماكان لى عليكم من سلطان أى على قلوبكم وموضع ايمانكم ، لكن دعوتكم فاستجبتم لى واذا (فلا تلوموني ولوموا أنفسكم) فانكم اتبعتمونى من غير حجة ولا برهان يستوجب اتباعكم الى ، فاللوم عليكم وحدكم دونى ، (ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخى) أى لست بمغيثكم ولستم بمغيثى ، يقال صرخ فلان يصرخ صراخا وصراخا وصرخة اذا استغاث ، والمصرخ المغيث ، والمستصرخ المستغيث (٢)

ثم قال فى آخر خطبته (ان الظلمين لهم عذاب أليم) (ما) فى قوله : بما أشركتمون مصدرية ومن قبل متعلق بأشركتمون والمعنى : انى كفرت اليوم باشراككم اياى من قبل هذا اليوم فى دار الدنيا كما قال تعالى (... ويوم القيمة يكفرون بشركم ..) (٣)

---

١) آية ١٢٠ من سورة النساء

٢) طالع القرطبى جـ ٥ ص ٣٥٨٦ المصدر المتقدم

٣) جزء من آية ١٤ من سورة فاطر

وقيل : انها موصولة بمعنى الذى ، ومن قبل متعلق بكفرت أى كفرت من قبل حين أبيت السجود لآدم بالذى أشركتمونيه وهو الله عز وجل ، ذكر هذين القولين أبوحيان ، وقال ان القول الثانى فيه اطلاق لفظة (ما) على الله تعالى والاصح فى (ما) أنها لا تطلق على آحاد من يعلم هكذا قال وليس قوله بمسلم عند البعض ، وقيل : ان المعنى انى جحدت أن أكون شريكا لله فيما أشركتمونى فيه من عبادتكم من قبل فى الدنيا ذكر هذا ابن جرير هنا فانظره .

واختلف فى قوله : (. . . ان الظلمين لهم عذاب أليم) فقيل انه من كلام ابليس كما قدمنا حكى الله عنه ماسيقوله فى ذلك الوقت ليكون تنبيها للسامعين على النظر فى عاقبتهم ، وللاستعداد لما لابد منه وأن يتصوروا ذلك المقام الذى يقول فيه الشيطان مايقول فيخافوا ويعملوا ما يخلصهم من ذلك الموقف وينجيهم واستظهر هذا القول أبو حيان ،

وقيل هومن كلام الله تعالى ، وقيل من كلام الخزنة (١) وقد اقتصر ابن جرير على القول الاول .

---

(١) انظر البحر المحيط جـ ٥ ص ٤٢ المصدر السابق

مصير المؤمنين برسل الله

لما ذكر الله تعالى حال أهل النار الذين كذبوا رسل الله فى دار الدنيا ومصيرهم السيء ومخاصمتهم فيما بينهم وعجز الرؤساء عن منفعة المرؤسين ، وتوبيخ الشيطان لهم حيث أخبرهم أنه لم يغم لهم حجة على ما دعاهم اليه ، وانما وسوس لهم وزين لهم الهلاك فاتبعوه دون مبرر ، لما عرض القرآن علينا ذلك كله ذكر لنا مصير المؤمنين برسل الله العاملين وفق ما أمرهم الله به وأمرتهم رسله فقال :

(وأدخل الذين آمنوا وعملوا الصلحت جنت تجرى من تحتها الأنهر خلدين فيها باذن ربهم تحيتهم فيها سلم)

يخبر تعالى أنه يدخل المؤمنين الذين آمنوا بالله ورسله وعملوا الاعمال الصالحة فى دار الدنيا جنت تجرى من تحتها الانهار ، أو تدخلهم ملائكته تلك الجنات أى يدخلون فى جنات من جنان الجنة ، وهذه الجنان تجرى من تحتها الانهار ، ويدخلونها مقدرين الخلود فيها الى الابد (باذن ربهم) أى بأمره ، وقيل بمشيئته وتسيره ، وقوله : (تحيتهم فيها سلام) أى تحية الله لهم ، وقيل تحية الملائكة لهم ، وقيل تحية بعضهم لبعض سلام . (١)

وأقول أن لكل من هذه الاقوال الثلاثة دليلا من القرآن .

فدليل القول الاول قوله تعالى : (ان أصحب الجنة اليوم فى شغل فكهون ، هم وأزواجهم فى ظلل على الارائك متكئون ، لهم فيها فكهة ولهم ما يدعون ، سلم قولا من رب رحيم)

(٢) ودليل القول الثانى قوله تعالى : (... والملئكة يدخلون عليهم من كل باب ، سلم عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار) (٣)

---

١) طالع تفسير القرطبى فى تفسير سورة يونس عند قوله تعالى : وتحيتهم فيها سلم .

٢) الايات من ٥٥ - ٥٨ من سورة يس

٣) آية

ودليل القول الثالث قوله تعالى : في هذه الآية وفي سورة يونس تحيتهم فيها سلم على أحد التاويلات فيها فان كثيرا من العلماء قالوا : ان المراد به تحية بعضهم لبعض ، والتحية التكرمة بالحالة الجليلة أصلها أحياك الله حياة طيبة ، ومعنى السلام السلامة من كل مكروه فهو مشتق من السلامة ، فهؤلاء سلموا من آفات الدنيا وحسراتها ومن عذاب الآخرة وأهوالها وغومها .

قوله تعالى : (ألم تركيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين باذن ربها ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون)

لما ذكر الممثل أعمال الكفار وأنها كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف . . . ذكر مثل أعمال المؤمنين فضرب لذلك مثلا ، وفسر ذلك المثل بأنه الكلمة الطيبة ، قال ابن عباس : الكلمة الطيبة : لا اله الا الله ، والشجرة الطيبة : المؤمن ، وقال ابن جريج : الكلمة الطيبة : الايمان ، وقال مجاهد وعكرمة : الشجرة الطيبة النخلة ، وعليه فالمعنى : أصل الكلمة الطيبة في قلب المؤمن وهي كلمة التوحيد مثل النخلة ، شبه ارتفاع عمله في السماء بارتفاع فروع النخلة ، وشبه ثواب الله له بالثمر وعلى هذا المعنى يكون قوله : كلمة بدلا من قوله مثلا ، ومثلا مفعول به لضرب (١)

وعن ابن عباس أن الشجرة المذكورة هنا شجرة من شجر الجنة ، وقوله تعالى : (تؤتي أكلها كل حين باذن ربها) قيل غدوة وعشيا ، وقيل

---

١) أنظر القرطبي جـ ٥ ص ٣٥٩٠ المصدر السابق .

كل شهر ، وقيل كل شهرين ، وقيل : كل ستة أشهر ، وقيل كل سبعة أشهر ، وقيل كل سنة .

قلـــت : على القول بأن المراد بالشجرة النخلة كما فسرها بذلـــك كثير من المفسرين ونقلوه عن المتقدمين يكون أقرب الاقوال الى الصواب فى معنى اتيانها ثمرها كل حين أنه كل سنة لان ذلك شأن النخلة وليس من شأنها أن تؤتى أكلها كل غدوة وعشية ، ولا كل شهر ، ولا شهرين ... وانما يصح هذا على قول من قال انها شجرة من شجر الجنة كما روى عن ابن عباس وغيره ، وقوله : (باذن ربها) أى بارادته ومشيئته ،

وقوله : (ويضرب الله الامثال للناس لعلهم يتذكرون) يضرب الله جل وعلا الامثال للناس أى الاشباه لعلهم يعتبرون بها لان فى ضرب الامثال زيادة افهام وفيه تذكير وتصوير للمعانى ، قوله تعالى : (ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الارض مالها من قرار)

ضرب الله تعالى : المثل أيضا للكافر وعمله فأخبر أن كلمة الكفـــر مثل شجرة خبيثة ، واختلف فى هذه الشجرة الخبيثة أيضا كما اختلف فى الشجرة الطيبة ، واختلف أيضا فى الكلمة الخبيثة فقيل : ان الكلمة الخبيثة هى كلمة الكفر كما أن الكلمة الطيبة هى كلمة التوحيد ، وقيـــل هى الكافر نفسه كما قيل ان الكلمة الطيبة هى نفس المؤمن وان كنا لـــم نذكره ، وقيل : ان الشجرة الخبيثة هى شجرة الحنظل ، قال ذلك ابن عباس ومجاهد وغيرهما ، وعن ابن عباس أن الشجرة الخبيثة شجرة

---

١) طالع أبا السعود جـ ٣ ص ١٢٤ - ١٢٥ ط أولى محمد محمد عبد اللطيف المكتبة الحسينية المصرية .

لم تخلق على وجه الارض ، وقيل انها شجرة الثوم (١) وعلى كل حال ففى هاتين الآيتين الحث على العمل الصالح والترغيب فيه وتصويره فى حالة رائعة جميلة مشوقة ، كما أن فيهما التنفير من الاعمال السيئة وتصويرها فى حالة سيئة منفرة مشوهة ، وفيهما أيضا ضرب الامثال لان المعانى العقلية المحضة لا يقبلها الحس والخيال والوهم غالبا فاذا ذكر مايساويها من المحسوسات ترك الحس والخيال والوهم تلك المنازعة وانطبق المعقول على المحسوس وحصل الفهم وتوصل الى المطلوب . (٢)

وقوله تعالى : اجتثت من فوق الارض مالها من قرار) هذه صفة ثانية لهذه الشجرة الخبيثة فأخبر أنها أقتلعت من فوق الارض أى اقتلعت من أصلها يعنى أنها ليس لها أصل راسخ يشرب بعروقه من الارض ، أى ليس لها أصل فى الارض ولا ثبات ، فكذلك الكافر لا حجة له ولا ثبات ولا خير فيه ولا يصعد له عمل طيب ولا قول صالح (٣) قوله تعالى : (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحيوة الدنيا وفى الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله مايشاء)

فى هذه الآية أسلوبا من أساليب الدعوة وهما أسلوبا الترغيب والترهيب ، فاذا كان القول الحق الذى هو شهادة أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله يثبت الله صاحبه فى الدنيا عليه بحيث لا يزل ولا يتزعزع عند ورود الشبه ويثبته كذلك اذا وضع فى قبره وجاءه

---

١) أنظر القرطبى جـ ٥ ص ٣٥٩٠ - ٣٥٩١ المصدر السابق

٢) طالع تفسير الفخر الرازى جـ ١٩ ص ١٢٠ - ١٢١ المصدر السابق

٣) طالع القرطبى فى الصفحة المتقدمة

الملكان الموكلان بسوءال القبر حتى يجيبهم بما كان عليه فى دار الدنيا فان هذا من أعظم أنواع الترغيب فى الايمان ، واذا كان الله لا يوفق الكافر والمنافق لما هدى اليه المؤمن مما يكون سببا فى ثباته فى حياته وآخرته فان فى هذا أعظم تنفير عن الكفر والنفاق ، وقد اختلف فى وقت هذا التثبيت فالصحيح الذى عليه الجمهور ودلت له الاحاديث الكثيرة أن هذا التثبيت المذكور فى الدنيا بتثبيتهم على الحق بحيث لا يزيغون عنه بهداية الله وتوفيقه لهم ، وتثبيتهم فى الآخرة هو ثباتهم على ماكانوا عليه من التوحيد والايمان بالنبى صلى الله عليه وسلم عند فتنة القبر ، وقيل ان المراد بالتثبيت فى الآخرة : هو ثباتهم اذا سئلوا عنه تواقف الاشهاد عن معتقدهم ودينهم لم يتلعثموا ولم تحيرهم أهوال الساعة عما كانوا عليه من الايمان الحق ذكر هذا القول الزمخشرى ، وأقول : اذا ثبت عن الشارع ان أهل الحشر يسألون عن معتقدهم ودينهم كان لهذا القول وجه من النظر واذا لم يثبت ذلك فيتعين حمل التثبيت فى الآخرة على سوءال القبر لثبوته عن الشارع والله أعلم .

وانما أطلق على صاحب القبر أنه من أهل الآخرة لانه انقطع من احكام الدنيا بالموت ودخل فى احكام الآخرة ، ومعنى الآية أن الله تعالى يثبت الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وذلك تثبيته اياهم فى الحياة الدنيا بالايمان بالله ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم وفى الآخرة بمثل الذين ثبتهم به فى الحياة الدنيا وذلك فى قبورهم حين يسألون عن الذى هم عليه من التوحيد والايمان بمحمد صلى الله عليه وسلم

وقوله : (ويضل الله الظلمين) يعنى أن الله لا يوفق المنافق والكافر فى الحياة الدنيا وفى الآخرة عند المسألة فى القبر لما هدى له المؤمن من الايمان بالله ورسوله صلى الله عليه وسلم (١) ولست أريد أن أطيل الكلام فى شأن سوء ال القبر واثباته لأن ذلك معلوم عند الجميع ولله الحمد فليراجع فى مواضعه . قوله تعالى : (الم تر الى الذين بدلوا نعمة الله كفراوأحلواقومهم دار البوار ، جهنم يصلونها وبئس القرار)

يقول السيد قطب رحمه الله عند هذه الآية : يبدأ هذا الشوط الثانى من نهاية الشوط الاول قائما عليه متناسقا معه مستمدا منه .

لقد تضمن الشوط الأول رسالة الرسول صلى الله عليه وسلم ليخرج الناس من الظلمات الى النور باذن ربهم ورسالة موسى عليه السلام لقومه ليخرجهم من الظلمات الى النور ويذكرهم بأيام الله فبين لهم وذكرهم بنعمة الله عليهم وأعلن لهم ما تأذن الله به لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم ان عذابى لشديد ، ثم عرض عليهم قصة النبوات والمكذبين بدأها ثم توارى عن السياق وتابعت القصة أدوارها ومشهدها حتى أنتهت بالكافرين الى ذلك الموقف الذى يستمعون فيه من الشيطان عظته البليغة حيث لا تنفع العظات ، فالآن يعود السياق الى المكذبين من قوم محمد صلى الله عليه وسلم بعد ما عرض عليهم ذلك الشريط الطويل - أولئك الذين أنعم الله عليهم - فيما أنعم - بخروجهم من الظلمات الى النور فاذا هم يكفرون النعمة ويردونها ويستبدلون بها الكفر ويؤثرونه على الرسول وعلى دعوة الايمان . (٢) معنى الآية يقول تعالى :

---

١) طالع ابن جرير عند تفسير الآية فقد ذكر أحاديث كثيرة تثبت سوء ال الفير وذكر آثار كثيرة عن السلف فسروابها الآية كما ذكرنا جـ١٣ ص ١٤٢-١٤٥ المصدر السابق .

٢) طالع فى ظلال القرآن جـ ٥ ص ١٦٣ ط ٧ دار احياء التراث العربى بيروت

ألم تنظر يامحمد الى حال هؤلاء القوم الذين بدلوا نعمة الله عليهم بمبعثك فيهم ومنهم فأخرجك منهم وبعثك فيهم رسولا ورحمة لهم ونعمة عليهم فكفروا بك وكذبوك فبدلوانعمة الله عليهم بك كفرا ، وأنزلوا قومهم من مشركي قريش دار البوار ، وهي دارالهلاك يقال بارالشيء يبور بورا اذا هلك وبطل (١) ثم بين تعالى دار البوا فقال (جهنم يصلونها وبئس القرار) فقوله جهنم عطف بيان على دار البوار ، فأخبر أنهم يدخلون جهنم وبئس المستقر .

وفي هاتين الآيتين ما ينفر من استبدال نعم الله بالكفر والعصيان وفيهما التحذير لمن أنعم الله عليه بدعاة حق يدعونه الى سواء السبيل يبشون له مبادىء دينه وينصحون له ويقربونه من الله ومن الجنة ويباعدونه من النار ففيهما التحذير من الاعراض عن هؤلاء الدعاة فانهم نعمة أنعم الله بها على عباده حيث انقطعت الرسالة بعد بعثه نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم خلف بعده دعاة يدعون لكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم فمن أعرض عنهم وكفر بما دعوه اليه من الايمان الحق بالله وبرسوله محمد صلى الله عليه وسلم فقد أهل نفسه وأهله دار البوار جهنم . قوله تعالى (وجعلوا لله أندادا ليضلوا عن سبيله قل تمتعوا فان مصيركم الى النار) هذا من تمام الكلام قبله فالقران يحكي لنا أن هؤلاء الكفار استبدلوا نعمة الله التي هي بعثة محمد صلى الله عليه وسلم اليهم كفرا وأنهم جعلوا لله شركاء معه في العبادة يعبدونهم كعبادته ويدينون لسلطانهم كما يدينون

---

(١) تفسير ابن جرير جـ ١٣ ص ١٤٥ المصدر السابق .

لسلطانه ويعترفون لهم بماهو من خصائص ألوهيته جل وعلا ، وقد جعلوا هذه الأنداد ليضلوا الناس عن سبيل الله المستقيم الحق أى عن دينه ، وعلى قراءة فتح الياء من تضلوا فالمعنى أنهم جعلوا لله أندادا ليضلوا عن سبيل الله ، قال القرطبى أى عاقبتهم الى الاضلال والضلال فهذه لام العاقبة فأنظره هنا ، ثم توعدهم الله تعالى فقال لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم (قل) لهؤلاء (تمتعوا) فى حياتكم هذه (فان مصيركم الى النار) ففيه اشارة الى تقليل وتحقير ماهم فيه من ملاذ الدنيا لانه منقطع وأخبرهم أن مرجعهم ومردهم الى النار ،

قوله تعالى : (قل لعبادى الذين آمنوا يقيموا الصلوة وينفقوا مما رزقنهم سرا وعلنية من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلل)

لما أمر الله تعالى الكافرين على سبيل التهديد والوعيد بالتمتع بلذات الدنيا ، أمر المؤمنين بالمجاهدة بالنفس والمال فأمرهم بمجاهدة أنفسهم باقام الصلاة ، وأمرهم بالمجاهدة بالمال حيث أمرهم أن ينفقوا مما أعطاهم من المال من قبل أن يأتى يوم القيامة الذى لا بيع فيه ولا خلال ، أى لا فداء ولا مخالة ولا قرابة ، بل هو يوم يفر فيه من الخليل خليله ، ويود فيه المرء لو لم يولد ، يوم يفر فيه المرء من أخيه وأمه وأبيه وصحبته وبنيه لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه ، فكأن الله يقول لهم أنفقوا أموالكم فى الدنيا حتى تجدوا ثواب ذلك الانفاق فى هذا اليوم الذى لا تحصل فيه مبايعة ولا مخالة

كما قال تعالى : فى الآية الاخرى (يأيها الذين أمنوا أنفقوا مما رزقنكم من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة) (١) وقوله يقموا

---

١) جزء من آية ٢٥٤ من سورة البقرة

الصلاة مضارع مجزوم وقع جوابا لأمر محذوف هو مقول القول تقديره : قل لعبادى الذين آمنوا أقيموا الصلاة وأنفقوا : يقيموا الصلاة وينفقوا ، ويجوز أن يكون أمرا هو مقول القول حذفت منه لام الأمر والأصل : ليقيموا الصلاة وانما جاز حذف اللام لأن قوله قل عوض عنه ، وقد ذكر ابوحيان فى البحر المحيط أعاريب غير ماذكرت فليراجعه من شاء .

قوله تعالى : (الله الذى خلق السماوات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره وسخر لكم الأنهر ، وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار وآتيكم من كل ما سألتموه وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الانسان لظلوم كفار)

(الاستدلال على وجود الصانع بالصنعة هدف من أهداف الدعوة)

لما أطال الله الكلام فى وصف أحوال السعداء والأشقياء وكان حصول السعادة بمعرفة الله وصفاته ، وحصول الشقاوة بالجهل بذلك ختم الكلام على ذلك بالدلائل الدالة على وجود الصانع وكمال علمه وقدرته وارادته فذكر عشرة أنواع من الدلائل على وجوده تعالى فأخبر أنه خلق هذه السماوات التى نشاهدها مرفوعة بغير عمد ترى لا تشقق فيها ولا فطور ولا تتغير بطول الزمان ، وخلق الأرض ومافيها من الجبال والأشجار والبحار ، وأنزل المطر من السماء فأخرج به للناس أنواع الثمار وأنبت به الكلأ لمواشيهم ، وسخر الفلك أى السفن لبنى البشر تجرى فى البحر لمنافع العباد يحملون فيها تجارتهم ويتنقلون عليها كما قال تعالى : (. . . والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس (٢) ويسر تحت

---

١) انظر تفسير الفخر الرازى جـ ١٩ ص ١٢٥

٢) جزء من آية ١٦٤ من سورة البقرة

تسخير السفن تسخير البحار وتسخير الرياح ، كل هذا بأمره تعالى قال الزمخشرى بقوله ( ) وسخر الأنهار بتفجيرها للا نتفاع بها كالشرب وسقى الحرث وغير ذلك ، وسخرالشمس والقمر دائبين أى فى حال كونهما يدأبان فى سيرهما وانارتهما واصلا حهما مايصلح بهما من الأرض والنبات والابدان ،وعن ابن عباس دائبين فى طاعة الله ،وسخر الليل والنهار للعباد بأن جعلهماخلفة للمنام والمعاش ،ولما ذكر ماتقدم من النعم العظيمة أخبر تعالى أنه لم يقتصر على ذلك فقال وآتاكم من كل ما سألتموه أى أعطى العباد كل ما سألوه ، والمعنى أنه تعالى أعطى الانسان كل ما من شأنه أن يسأل وينتفع به ،وان كان هذا لا يطرد فى كل واحد واحد من آحاد الناس ولكن هذه النعم تفرقت فى البشر فمالم يعط هذا اعطيه هذا فيقال بحسب هذا الجميع أوتيتم كذا على جهة التقرير للنعمة .

(١) ثم قال : (وان تعدوا نعمة الله لاتحصوها) أخبر أن العباد اذا اراد وا أن يعدوا نعم الله على الاجمال لا يستطيعون الى ذلك سبيلا ولا يطيقونه أما عدها على التفصيل فانه لا يقدر عليه الا الله تعالى ، ثم قال تعالى : (ان الانسان لظلوم كفار) يعنى أن جنس الانسان توجد فيه هاتان الخصلتان : الظلم ، والكفر فيظلم النعمة بعدم شكرها ويكفرها بجحدها ،وقيل ظلوم فى الشدة فيشكوويجزع كفار فى النعمة يجمع ويمنع ، وقال ابن جرير : يقول : ان الانسان الذى يبدل نعمة الله كفرا لظلوم يقول : لشاكر غير من أنعم عليه فهو بذلك من فعله واضع الشكر فى غير موضعه وذلك أن الله هو الذى أنعم عليه بما أنعم واستحق عليه اخلاص

---

(١) انظر البحرالمحيط جـ ٥ ص ٤٢٧ - ٤٢٨ المصدرالسابق

العبادة له فعبد غيره وجعل له انداداً ليضل عن سبيله وذلك هو ظلمه .

وقوله : كفاراً أى جحود لنعمة الله التى أنعم بها عليه لصرفه العبادة الى غير من أنعم عليه وتركه طاعة من أنعم عليه فانظر فيه هنا اهـ

الدعوة فى الآيـــات

اشتملت هذه الآيات التى ذكرت فى هذا الباب على كثير من أهداف الدعوة الى الله تعالى وأساليبها .

١ـ الأهداف

١ـ فى الآيات الدعوة الى توحيد الله جل وعلا ، وذلك فى قوله : (أفى الله شك) يعنى أن وجود الله تعالى لا يمكن أن يشك فيه شاك ، وفيها لفت الأنظار الى الدليل على وجوده بأنه هو الذى خلق السماوات والأرض ، لأن هذه السماوات والأرضين لا يمكن وجودها دون موجد ،

٢ـ وفيها من أهداف الدعوة أيضا : الدعوة الى التوكل على الله تعالى لأن ذلك هدف سام من أهداف الدعوة ، وذلك فى قول الله حكاية عن رسله ،(... وعلى الله فليتوكل المؤمنون ، ومالنا ألا نتوكل على الله وقد هدينا سبلنا ولنصبرن على ما آذيتمونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون)

٣ـ كما أن فى الآيات أيضا هدفا ثالثا من أهداف الدعوة وهو بيان عاقبة المكذبين ومصيرهم وما أعده الله من العذاب للكفار الذين كذبوا دعاة الله من رسله فقد بينت كيفية عذابهم ، وكيفية ذهاب أعمالهم التى عملوها فى الدنيا من أنواع الخير فقد بينت أنها كرماد استدت به الريح فى يوم عاصف .

ثم بعد ذلك بينت عاقبة المؤمنين الذين صدقوا رسل الله وآمنوا بما جاء وهم به عن الله جل وعلا ، وذلك فى قوله : (واستفتحوا

وخاب كل جبار عنيد ، من ورائه جهنم ويسقى من ماء صديد ، يتجرعه ولا يكاد يسيغه ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت ومن ورائه عذاب غليظ) وفى قوله : (وأدخل الذين أمنوا وعملوا الصلحت جنت تجرى من تحتها الأنهر خلدين فيها باذن ربهم تحيتهم فيها سلم)

٤ - كما دعت الآيات الى هدف آخر سام وهو : الايمان باليوم الآخر حيث ذكرت ذلك اليوم الذى يجتمع فيه جميع الخلائق ويتخاصم الأتباع والمتبوعون فيه ويطلب الأتباع من المتبوعين النفع ولم يحصلوا على شىء وبينت خطبة الشيطان وتبرأه من أتباعه على رؤس الأشهاد وتوبيخه لهم وذلك فى قوله تعالى : (وبرزوا لله جميعا فقال الضعفؤا للذين استكبروا انا كنا لكم تبعا فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شىء ، قالوا لو هدينا الله لهديناكم سواء علينا أجزعنا أم صبرنا مالنا من محيص ، وقال الشيطن لما قضى الأمر ان الله وعدكم وعد الحق .....)

٥ - كما ذكرت الآيات سؤال القبر وبينت أن الله يثبت المؤمنين عند فتنة القبر على ماكانوا عليه من اليقين بالله جل وعلا ودين الاسلام ومحمد صلى الله عليه وسلم ، وأنه تعالى يضل الكافرين عن طريق الحق فى ذلك الوقت كما كانوا عليه من قبل فى دار الدنيا وذلك فى قوله : (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحيوة الدنيا وفى الآخرة ويضل الله الظلمين ويفعل الله ما يشاء)

٦ - دعت الآيات الى اقامة شعائر الاسلام والمحافظة عليها فقد ذكر

فيها الأمر باقام الصلاة التى هى عماد الدين والتى هى الركن الثانى من أركان الاسلام بعد شهادة أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله ، كما ذكرت قرينة الصلاة التى هى الزكاة ،بل دعت الى مكارم الاخلاق لان الانفاق يشمل الواجب والتطوع .

وذلك فى قوله : (قل لعبادى الذين آمنوا يقيموا الصلوة وينفقوا مما رزقتهم سرا وعلنية من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلل) الى غير ذلك مما تضمنته هذه الآيات الكريمة من أهداف الدعوة الى الله عز وجل .

٢ - الاساليـــــب

اشتملت آيات هذا الباب أيضا على كثير من أساليب الدعوة المتنوعة

١- أسلوب الحوار فالحوار أسلوب من أساليب الدعوة الى الله لانه أخذ ورد وتجاذب فى الكلام ومناوبات ، وأسئلة وأجوبة ، وقد استعمله كثيرمن الرسل فى دعوتهم كماتقدم عن موسى ، وكما سيأتى عن ابراهيم . وذلك فى قوله تعالى : (قالت رسلهم أفى الله شك ..)

(.. قالوا ان أنتم الا بشرمثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد أباونا فأتونا بسلطن مبين ، قالت لهم رسلهم ان نحن الا بشرمثلكم)

٢- اسلوب الترغيب وذلك فى قوله (.. يدعوكم ليغفرلكم من ذنوبكم ويؤخركم الى أجل مسمى ..)

٣- ضرب الامثال وذلك أسلوب من أساليب الدعوة يصور المعقولات فى طابع المحسوسات حتى تصير كانها محسوسة ، وذلك فى قولـــه (مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف ...) وقوله : (ألم تركيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة الى قوله مالهامن قرار)

٤- اسلوب التهديد ، وذلك فى قوله تعالى : (.. قل تمتعوافان مصيركم الى النار)

٥ - لفت الانظار الى نعم الله جل وعلا وأنه هو المنعم بها .

وذلك فى قوله تعالى : (الله الذى خلق السموات والارض وأنزل من السماء ماء فأخرج بـه من الثمرات رزقالكم وسخر لكم الفلـــك لتجرى فى البحر بأمره وسخر لكم الانهر وسخر لكم الشمس والقمـــر

دائبين وسخر لكم الليل والنهار وآتيكم من كل ما سألتموه وأن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ....)

٦- فى الآيات الكريمة أساليب الخبر وأساليب الطلب ،

ففيها أولا (أفى الله شك وذلك من أساليب الطلب لأن الاستفهام نوع من أنواع الطلب وفيها الأمر الصريح ، والخبر كقوله : (وقال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنكم من أرضنا ...) وقوله : (... فأتونا بسلطان مبين) وفيها النهى الصريح وذلك فى قوله : (... فلا تلومونى ...) الى غير ذلك من أساليب الدعوة الكثيرة التى اشتملت عليها هذه الآيات الكريمة

البَابُ الرَّابِع

((الباب الرابـــع))

(دعوة ابراهيم عليه السلام ، وفيه عدة مباحـــث)

يشتمل هذا الباب على مايلى :-

١- التعريـــف بابراهيم

٢- تفسير الآية الكريمة التى ذكر فيها ابراهيم

٣- تدرج ابراهيم عليه السلام فى دعوتـه

٤- مناظرته للنمروذ وقوتـه فى الحـاجـة

٥- ابتـلا آته عليه السلام أثناء الدعـوة

٦- هجرته عليه السلا م لنجاح دعوتـه

٧- الدعـوة فى الآيـة الكريمة

٨- ايراد بعض الشبه التى وجهت حول ابراهيم الخليل ورد ذلك ان شاء اللـه .

٩- تفسير بقيـة السورة

من هو ابراهيم ؟ هو ابراهيم بن تارخ (١) بن ناحور ، بن ساروغ بن راعو ابن فالغ ، بن عابر ابن شالح ، بن أرفخشذ ، بن سام ، بن نوح عليه السلام ، وقد تقدم نسب نـوح . (٢)

---

١) هكذا يقول أهل الكتاب وأهل التاريخ أن اسم أبى ابراهيم تارخ أو أو تارح والذى أقول : ان ابراهيم بن آزركما اخبرنا الله جل وعلا بذلك فى قوله : (واذ قال ابراهيم لابيه آزر . . .) فالله صرح بان آزر أبو ابراهيم ولا داعى للقول بغير ذلك تبعا لما عند اهل الكتاب لما ثبت لدينا من كتابنا من تحريفهم وتبد يلهم وعدم الثقة فيما عندهم لا سيما اذا خالف القرآن الكريم ، أما المؤرخون فانهم تبع لأهـــل الكتاب فى ذلك ومعلوم أن التاريخ ينقل الثابت وغير الثابت وعليه فان ابراهيم ابن آزر ،

٢) انظر البداية والنهاية لابن كثير ج(١) ص ١٣٩ المصدر السابق مع أن بعض الأسماء يخالف الأسماء الموجودة فى التوراة ولكن العدد متفق وبعض الاسماء متفق أيضا ،

قوله تعالى : (واذ قال ابراهيم رب اجعل هذا البلد آمنا واجنبني وبني أن نعبد الاصنام)

تفسير الآية

لما ذكر الله شأن الذين بدلوا نعمة الله كفرا ، وجعلوا له أندادا عبدوهم معه ، والمراد قريش كما تقدم ومن تبعهم من العرب الذين أتخذوا آلهة دون الله ، وكان من نعم الله عليهم أن أسكنهم حرمه الشريف ، أردف ذلك بذكر أصلهم ابراهيم عليه السلام لانه أبو العرب من ذرية اسماعيل ، وذكر جل وعلا تباعد نبيه ابراهيم من عبادة الاصنام وسؤاله ربه أن يجنبه وبنيه عبادتها لانها صارت سببا فى اضلال كثير من الناس . والمراد بالبلد مكة حرسها الله .

سأل ابراهيم ربه أن يجعل هذا البلد ذا آمن ، وآمنا أهله ، فدعا أولا بما يعين على طاعة الله تعالى ، وهو كون محل العبادة آمنا لا يخاف فيه عابد الله بحيث يتمكن من العبادة ، ثم دعا ثانيا بأن يبعده ربه وبعد بنيه من عبادة الاصنام .

قال العلماء والمراد ببنيه أولاده من صلبه وقد أجاب الله دعاءه فجعل الحرم آمنا يلجأ اليه الخائف ولم يعبد أحد من أبنائه لصلبه الاصنام . (١)

والمعنى ثبتنا يارب وأدمنا على اجتناب عبادتها ، وللمفسرين أقوال كثيرة فى شأن عبادة أبناء اسماعيل للاصنام ، فبعضهم يحمل

---

(١) انظر البحر المحيط لابى حيان جـ ٥ ص ٤٣٠ المصدر السابق

الصنم على انه التمثال ويقول : ان العرب انما كانوا يعبدون الحجارة ويلهجون بها كما يلهجون بالبيت فليراجع ذلك من شاء .

وقال أبو السعود : الفرق بين قوله هنا : (هذا البلد) وبين قوله في البقرة (بلدا آمنا) أن المسؤل هناك البلدية والأمن معا ، وهنا الأمن فقط حيث جعل هو المفعول الثاني للجعل وجعل البلد صفة للمفعول الأول (١)

قال القرطبي : وكان بنوه ثمانية فما عبد أحد منهم صنما فانظره .

---

١) انظر تفسير أبي السعود جـ ٣ ص ١٣٠ المصدر السابق

المبحث الأول : تدرج ابراهيم فى دعوته وتلطفه فيها

ان ابراهيم عليه وعلى رسل الله أفضل الصلاة والتسليم رسم للدعاة منهجا يسيرون عليه فى دعوتهم لانه القدوة الحسنة فى هذا الشأن كما أخبرنا الله بذلك فى كتابه بقوله : (قد كانت لكم أسوة حسنة فى ابراهيم والذين معه اذ قالوا لقومهم انا برآؤا منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنابكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده ...) (١)

تدرجه وتلطفه فى الدعوة

قال تعالى : مبينا تدرج ابراهيم فى دعوته وتلطفه بمن يدعوهم واستمالته لهم (واذكر فى الكتب ابراهيم انه كان صديقا نبيا ، اذ قال لابيه يأبت لم تعبد مالا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئا ، يأبت إنى قد جاءنى من العلم مالم يأتك فاتبعنى أهدك صراطا سويا يأبت لا تعبد الشيطن ان الشيطن كان للرحمن عصيا ، يأبت أنى أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطن وليا) (٢)

بينت لنا هذه الآيات الكريمة منهج ابراهيم وأسلوبه فى دعوته . وذلك أنه لما بدأ يدعو الى توحيد الله وعبادته وحده كما هو منهج من سبقه ومن تأخر عنه من اخوانه من الرسل كما تقدم ذلك بما يغنى عن اعادته

---

١) جزء من آية ٤ من سورة الممتحنة

٢) الآيات من ٤١ - ٤٥ من سورة مريم

لما بدأ ذلك بدأ يتدرج فى دعوته فدعا أباه لأنه أقرب الناس اليه ، ثم بعد ذلك شرع يدعو قومه كما سيأتى ذلك ان شاء الله ، فقد سلك عليه السلام أحسن منهج وأقوم سبيل فى دعوته لأبيه اذ دعاه بأدب وحسن خلق لئلا يكابر ويعاند ، ولكنه سبق فى علم الله أنه من المخذولين فابراهيم عليه السلام سأل أباه بأسلوب الاستفهام . لم تعبد هذا المعبود الذى لا يسمع دعاءك وثناءك عليه ولا يبصر خشوعك بين يديه ولا يدفع عنك ضرا لحقك ، لأن العاقل ينتبه من خلال هذا الكلام ويعلم أن الانسان الذى يفهم ويعقل ويبصر ويعلم من أين أتاه النفع والضر ، ومن يدفع عنه الضر ومن يكشف عنه النفع أفضل من الجماد الذى لا يعلم شيئا من ذلك ، والمفروض أن المفضول لا يعبده الفاضل ، كما بين له برفق ولين دون أن يصفه بالجهل وان كان جاهلا ، ودون أن يصف نفسه/ بكمال العلم وان كان فى الدرجة العليا منه وذلك فى قوله تعالى : (يأبت انى قد جاءنى من العلم مالم يأتك فاتبعنى أهدك صراطا سويا) فأخبره/ ان الله أعطاه من العلم مالم يعطه دون أن يعرفه حقيقة ماهو عليه من الجهل وماعليه ابراهيم من العلم ، كما أخبره أنه ان اطاعه اهتدى الى طريق مستقيم موصل للنجاة ، ثم نهاه عن طاعة الشيطان لأنه هو الذى زين له عبادة الأصنام ، واتباعه له بمنزلة عبادته والا فان أبا ابراهيم لم يعبد الشيطان مباشرة ، ثم علل نهيه له عن عبادة الشيطان بأن الشيطان عاص لله جل وعلا ، والمطيع للعاصى عاص ثم حذره سوء عاقبة عبادة الشيطان وأنها وخيمة لأنها تؤول الى موالاة الشيطان أى المقارنة معه فى اللعن والخلد فى النار ، وقد طلب ابراهيم عليه السلام من أبيه أن يبين له العلة الباعثة له على عبادة هؤلاء

المعبودين مع أنهم لا نفع فيهم ولا يستطيعون أن يدفعوا ضراعن أنفسهم ولاعن من عبدهم ، ثم بعد ذلك حذره عاقبة ذلك الفعل القبيح ، كل هذا بأسلوب حسن لين يميل مستعطف داع الى قبول الدعوة واتبـــاع الحق (١)

وقد رسم ابراهيم الطريق السوى للدعاة وعلمهم كيف يدعون وبين لهم منهج الدعوة الصحيح وأنه لابد أن يكون بحكمة وموعظة حسنة ومجادلة بالتى هى أحسن ، فالواجب على الدعاة أن يتأسوا به فى دعوتهم قال تعالى : (ومن يرغب عن ملة ابراهيم الا من سفه نفسه) (٢) أى لا يرغب عن ملة ابراهيم الا من يزهد فيها وينأى بنفسه عنها ، وقال بعضهم لا يرغب عن ملته من جهل أمر نفسه فلم يفكر فيها ، وقال بعضهم ، فعل بها من السفه ماصاربه سفيها ،

نوع آخر من التدرج

ان ابراهيم عليه السلام كما دعا أباه أولا الى الايمان بالله واتبـــاع ابراهيم ولم يؤثر ذلك فى أبيه بدأ يدعو قومه الى الايمان فأمرهـــم بعبادة الله وحده ، وبتقوى الله وحذرهم معصيته وأخبرهم أن ذلك خير لهم من عبادتهم الأصنام ، وماهم عليه من الكفر بالله ورسوله ، والاتيان بصيغة التفضيل مع أن ماهم عليه من الكفر لا خيرفيه ألبتة : باعتبار زعمهم الباطل أنه فيه الخير فأخبرهم إنهم أن كانوا يميزون بين الخير والشر ،

---

١) انظر تفسير أبى السعود ملخصا منه جـ ٣ ص ٢٨٣ المصدر السابق
٢) جزء من آية ١٣٠ من سورة البقرة .

أو يعلمون شيئا من الاشياء بوجه من الوجوه فليعلموا أن عبادة الله وتقواه خير مما هم عليه ، ثم أخبرهم انما يعبدونه من دون الله أوثانا صنعوها بأيديهم وعبدوها وهى كذب لا أصل لعبادتها لانها لا تنفع ولا تضر ولا تملك رزقا لعابديها وأمرهم أن يطلبوا الرزق من الله عز وجل وأن يشكروا له نعمه وأخبرهم أنهم راجعون اليه بعد الموت ومجازيهم على أعمالهم وعلى رأسها اشراكهم معه غيره فى العبادة من لا يستحق أن يعبد فان المستحق للعبادة هو الذى يحى ويميت ويرزق وترجع اليه الخلائق يوم الحشر وبعد هذا كله أخبرهم أنهم إن كذبوه فليس ذلك ببدع فقد كذبت الامم من قبلهم رسلهم وليس ذلك بضائر له ولا لرسل الله من قبله فانهم جميعا أدوا ماعليهم اذ ليس عليهم الا التبليغ البين أى الواضح وليست الهداية بأيديهم ، وقد عرض القرآن الكريم لنا هذا المنهج فى سورة العنكبوت حيث يقول : (وابراهيم اذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون ، انما تعبدون من دون الله أوثانا وتخلقون إفكا إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقا فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له اليه ترجعون وان تكذبوا فقد كذب أمم من قبلكم وما على الرسول الا البلاغ المبين) (١) ومعنى وتخلقون افكا أى تخلقون هذه الاصنام لانها من صنع أيديكم ، وقيل معناه تكذبون كذبا حيث تسمون هذه الاصنام آلهة وأنها شفعاء عند الله لكم (٢) وقال بعض العلماء ان المراد بقوله (وان تكذبوا فقد كذب أمم من قبلكم وما على الرسول الا البلاغ المبين) قال : ان الخطاب

---

١) من آية ١٦ - ١٨ من سورة العنكبوت

٢) انظر تفسير الطبرى جـ ٢٠ ص ١٣٧ المصدر السابق

فيها لهذه الامة وأنهم اذا كذبوا محمدا صلى الله عليه وسلم فإن أمم الرسل من قبلهم كذبت رسلها وما ضر ذلك الرسل فقد أدوا مهمتهم وبلغوا رسالة ربهم . ولم يذكر ابن جرير غير هذا القول والعلم عند الله تعالى .

ثم ذكر القرآن لنا نوعا آخر من منهج ابراهيم عليه السلام فى دعوته وهو أنه لما دعا أباه أولا وثنى بدعوة قومه قرن بين دعوة أبيه وقومه .

فقد بين لنا القرآن الكريم أنه سأل أباه وقومه معا ماذا يعبدون ؟ ولما أخبروه أنهم يعبدون الأصنام وأنهم يظلون عاكفين لها سألهم أيضا هل هى تسمعهم حين يدعونها ؟ وهل هى تنفعهم أو تضرهم أو يعبدونها عبادة عمياء دون تفكير فى حالها ؟ وانما قصد بهذا كله تنبيههم ولفت أنظارهم الى أن ما يعبدونه لا يستحق نوعا من العبادة ولكنه صاغ لهم ذلك فى أسلوب بديع خال من القساوة والتنفير موجب للاصغاء والتفكير ، فقد سألهم عن هذه الأصنام هل تسمع الدعاء ، أى هل يسمعون دعاءكم ، أو ينفعونكم بسبب عبادتكم ، أو يضرونكم اذا تركتم عبادتهم ، فلم يترك لهم طريقا الا أتاهم منها ليبين لهم بطلان ماهم عليه دون أن يجرح من شعورهم وقد أقام عليهم الحجة من حيث لا يشعرون .

يقول تعالى آمرا نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم أن يتلو قصة ابراهيم فى دعوته لأبيه وقومه وبيانه لهم فيها أن الاصنام لا تنفع عابدها ، ولا تضر من ترك عبادتها (واتل عليهم نبأ ابراهيم ، اذ قال لأبيه وقومه ماتعبدون ، قالوا نعبد أصناما فنظل لها عاكفين ، قال هل يسمعونكم اذ تدعون ، أو ينفعونكم أويضرون ، قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون) (١)

---

(١) الآيات من ٦٩- ٧٤ من سورة الشعراء

وهذا الكلام هو الذى تقدم أنه قاله لأبيه وحده لما دعاه حيث قال له : (يا أبت لم تعبد مالا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئا) الا أنه ظاهر بين الخطابين والمعنى واحد ،

ماذا كان الجواب من أبى ابراهيم وقومه ؟

كان الجواب من هؤلاء عبدة الأصنام ان اعترفوا بأنها لا تنفعهم ان عبدوها ولا تضرهم ان تركوا عبادتها فقد قالوا ضمنا (لا) مايسمعوننا اذا دعوناهم ولا ينفعوننا ولا يضرونا ، دل على هذا الجواب قولهم : (... بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون) فاعترفوا بأنهم انما يفعلون فعل آبائهم الاقدمين فقط دون أن يفكروا فى عاقبة ذلك الفعـــل ونتيجته الحاضرة .

وقد بين لنا القرآن الكريم أيضا دعوته لأبيه وقومه بأسلوب لطيـف لين جذاب مميل وذلك فى قوله تعالى : (وان من شيعته لابراهيم اذ جاء ربه بقلب سليم ، اذ قال لأبيه وقومه ماذا تعبدون ، أئفكا آلهة دون الله تريدون ، فما ظنكم برب العلمين) (١)

فابراهيم عليه السلام قال لأبيه وقومه مما ماذا تعبدون ؟ أى أى شىء تعبدونه ؟ أئفـــكا آلهة دون الله تريدون) أى أتريدون آلهة دون الله من أجل افككم ، ويجوز أن يكون قوله : (افكا) مفعولا به لتريدون ، ثم فسر بقوله : آلهة ، ويصح أن يكون (افكا) حالا أى أتريدون آلهة دون الله فى حال كونكم أفكين أى مفتريـــن على الله فى ذلك (٢) ثم قال لهم عليه السلام : فما ظنكم برب العلمين)

---

١) الآيات من ٨٣ - ٨٧

٢) انظر تفسير أبى السعود جـ ٤ ص ٢٧٣ المصدر السابق

ماذا يفعل بكم وكيف يعاقبكم على مافعلتم من اشراك غيره معه فى العبادة التى لا يستحقها الا هو وحده . وقيل المعنى : فما ظنكم بمن هو حقيق بالعبادة لكونه ربا للعالمين حتى تركتم عبادته خاصة وأشركتم معه أخس مخلوقاته التى خلقها .

ومن تدرجه فى دعوته : ماقصة القرآن الكريم فى سورة الأنعام من اظهاره لقومه ربوبية الكواكب كى يتمكن من ابطالها ويقنع قومه عن طريق التدرج قال تعالى :

(وكذلك نرى ابراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين ، فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربى فلما أفل قال لا أحب الافلين ، فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربى فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين ، فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر فلما أفلت قال يقوم إنى برىء مما تشركون ، انى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين) (١)

اختلف المفسرون فى هذا المقام فبعضهم قال : انه مقام نظر ، وبعضهم قال : مقام مناظرة ، وبعضهم قال : ان هذا صدر من ابراهيم قبل البلوغ ، وقال بعضهم : انه قال ذلك حين خرج من السرب الذى وضعته فيه أمه عندما ولدته خوفا عليه من النمرود ، وقال بعضهم انه قال هذا الكلام بعد البلوغ وأنه لما تبين له عدم صلاحية الكواكب للربوبية تبرأ منها ،

ومال الى هذا القول ابن جرير الطبرى واستدل له بقوله تعالى . .

---

١) الآيات من ٧٥ - ٧٩ من سورة الأنعام

(... لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين) ،

وقد أصاب ابن كثير وأجاد وأفاد حيث جزم بأن هذا مقام مناظرة لا مقام نظر وأن قصد ابراهيم أن يبين خطأ هؤلاء فى عبادتهم الهياكل التى هى الكواكب السيارة على سبيل التدرج حيث يثبت لهم أن هذا لا يصلح للالوهية لأفوله أى ذهابه ، وأن هذا المعبود الآخر كذلك لا يصلح لأفوله أيضا وأن الشمس كذلك وان كانت أكبر من النجم ومن القمر ، كما بين خطأ أبيه وقومه فى عبادتهم الأصنام بقوله : (أتتخذ أصناما آلهة انى أريك وقومك فى ضلل مبين)

قال رحمه الله بعد أن ذكر كثيرا من كلام المفسرين رادا عليهم ماقالوا :

والحق أن ابراهيم عليه الصلاة والسلام كان فى هذا المقام مناظرا لقومه مبينا لهم بطلان ماكانوا عليه من عبادة الهياكل والأصنام فبين لهم فى المقام الأول مع أبيه خطأهم فى عبادة الأصنام الأرضية التى هى على صورة الملائكة السماوية ليشفعوا لهم الى الخالق المعظم ، الذى هم عند أنفسهم أصغر من أن يعبدوه ، وانما يتوسلون اليه بعبادة ملائكته ليشفعوا لهم عنده فى الرزق والنصر وغير ذلك مما يحتاجون اليه .

وبين فى هذا المقام خطأهم وضلالهم فى عبادة الهياكل وهى الكواكب السيارة السبعة وهى : القمر ، وعطارد ، والزهرة ، والشمس ، والمريخ ، والمشترى ، وزحل ،

وأشدهن اضاءة وأشرقهن عندهم : الشمس ، ثم القمر ، ثم الزهرة فبين أولا أن هذه الزهرة لا تصلح للالهية لأنها مسخرة مقدرة بسير معين

لا تزيغ عنه يمينا ولا شمالا . . . ومثل هذه لا تصلح للالهية ، ثم انتقل الى القمر فبين فيه مثل ما تقدم فى النجم ، ثم انتقل الى الشمس كذلك ، فلما انتفت الالهية عن هذه الأجرام الثلاثة التى هى أشد ما تقع عليه الأبصار نورا وتحقق ذلك بالدليل القاطع قال :

(. . . يقوم انى برىء مما تشركون) أى برىء من عبادتها وموالاتها فان كانت آلهة فكيدونى بها جميعا ثم لا تنظرون (انى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين) . . . الى أن قال : وكيف يجوز أن يكون ابراهيم ناظرا فى هذا المقام وهو الذى قال الله فى حقه : (ولقد آتينا ابراهيم رشده من قبل وكنا به علمين) (١) وقال فى حقه : (ان ابراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين ، شاكرا لأنعمه اجتبيه وهديه الى صراط مستقيم ، وآتيناه فى الدنيا حسنة وانه فى الآخرة لمن الصلحين ، ثم أوحينا اليك أن اتبع ملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين) (٢)

وقال فى حقه : (قل اننى هدينى ربى الى صراط مستقيم دينا قيما ملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين) (٣) ثم ذكر حديث الصحيحين : (كل مولود يولد على الفطرة . . . الحديث) (٤) وحديث مسلم . . . . .

---

١) آية ٥١ من سورة الأنبياء

٢) الآيات من ١٢٠ - ١٢٣ من سورة النحل

٣) آية ١٦١ من سورة الأنعام

٤) ونصه (ما من مولود الا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه ، أو ينصرانه أو يمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء) هذا أحد ألفاظ البخارى أخرجه فى كتاب الجنائز فى باب اذا أسلم الصبى وفى التفسير فى سورة الروم ، ومسلم فى كتاب القدر فى باب معنى كل مولود يولد على الفطرة الخ جـ ٤ ص ٢٠٤٧ المصدر السابق .

(وانى خلقت عبادى (١) حنفاء ... الحديث . وذكر قول الله تعالى (.. فطرت الله التى فطر الناس عليها ...) (٢)

وقال فاذا كان هذا فى حق سائر الخليفة فكيف يكون ابراهيم الخليل الذى جعله الله أمة قانتا حنيفا ولم يك من المشركين ناظرا فى هذا المقام بل هو أولى الناس بالفطرة السليمة والسجية المستقيمة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم بلا شك ولا ريب ، ومما يؤيد أنه كان فى هذا المقام مناظرا لقومه فيما كانوا فيه من الشرك لا ناظرا قوله تعالى : وحاجة قومه (٣) الآيات (٤)

ومما يؤيد كون ابراهيم عليه السلام أراد بهذا المقام التدرج مع قومه ليلقمهم حجرا ويثبت لهم بطلان ماهم عليه من عبادة الشمس والقمر والنجوم ماذكره الفخر الرازى فى تفسيره من جملة أجوبة ذكرها عن قول ابراهيم فى هذا المقام قال :

الوجه السادس أنه صلى الله عليه وسلم أراد أن يبطل قولهم بربوبية الكواكب الا أنه عليه السلام كان قد عرف من تقليدهم لاسلافهم وحبهم طباعهم عن قبول الدلائل أنه لو صرح بالدعوة الى الله تعالى لم يقبلوا ولم يلتفتوا اليه فمال الى طريق به يستدرجهم الى استماع الحجة وذلك بأن ذكر كلاما يوهم كونه مساعدا لهم على مذهبهم بربوبية الكواكب مع أن قلبه صلوات الله وسلامه عليه كان مطمئنا بالايمان ومقصوده من ذلك أن يتمكن من ذكر الدليل على ابطاله وافساده وان يقبلوا قوله (٥) وقد

أنتهم

١) (وانى خلقت عبادى حنفاء كلهم وإنهم/ الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم) أخرجه مسلم فى كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها فى باب الصفات التى يعرف بها فى الدنيا أهل الجنة وأهل النار جـ ٤ ص ٢١٩٧ المصدر السابق .

٢) جزء من آية ٣٠ من سورة الروم

٣) الآيات ٨٠ - ٨٣ من سورة الأنعام

٤) طالع تفسير ابن كثير كتاب الشعب جـ ٣ ص ٢٨٥ - ٢٨٦

٥) انظر التفسير الكبير للفخر الرازى جـ ٤ ص ١١٢

نصر أبو السعود هذا القول الذى ذكره الرازى وابن كثير ،
وقال الزمخشرى : (هذا ربى) قول من ينصف خصمه مع علمه بأنه مبطل فيحكى قوله كما هو غير متعصب لمذهبه لأن ذلك أدعى الى الحق وانجى من الشغب ،ثم يكر عليه بعد حكايته فيبطله بالحجة (١) وقد رد قول ابن جرير الماضى ونصر قول ابن كثير الشيخ محمد الأمين الشنقيطى حيث قال ... لأن الله نفى كون الشرك الماضى عن ابراهيم فى قوله (... وماكان من المشركين) فى عدة آيات ، ونفى الكون الماضى يستغرق جميع الزمن الماضى فثبت أنه لم يتقدم عليه شرك يوما ما .. الى أن قال فدل على أنه قال ذلك موقنا مناظرا ومحاجالهم كما دل عليه قوله : (وحاجه قومه) وقوله : (وتلك حجتنا أتيناها ابراهيم على قومه (٢)

---

١) الكشاف جـ ٢ ص ٣١ المصدر السابق
٢) أنظر أضواء البيان جـ ٢ ص ١٨٠ المصدر السابق

((المبحث الثانى))

(مناظرته للنمرود وقوته فى المحاجة)

ان ابراهيم عليه السلام أعطاه الله القوة فى المحاجة والمناظرة كما نوه القرآن الكريم بذلك حيث يقول فى شأن محاجته مع النمرود (ألم ترالى الذى حاج ابراهيم فى ربه أن آتيه الله الملك اذ قال ابراهيم ربى الذى يحيى ويميت قال أنا أحي وأميت قال ابراهيم فان الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذى كفروالله لا يهدى القوم الظلمين) (١)

نوه الله جل وعلا بهذه المحاجة فقد ذكرت فى آية البقرة هذه ، كما ذكرت فى سورة الانعام فى قوله تعالى : (وحاجه قومه قال أتحجونى فى الله وقد هدين ولا أخاف ماتشركون به الا أن يشاء ربى شيئا وسع ربى كل شىء ، علما أفلا تتذكرون ، وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله مالم ينزل به عليكم سلطنا فأى الفريقين أحق بالامن ان كنتم تعلمون) ... (وتلك حجتنا أتيها ابراهيم على قومه .) (٢)

وقد أخبر جل وعلا أن ما أورده ابراهيم على خصومه من الادلة والبراهين على وحدانية الله تعالى واستحقاقة العبادة وحده أخبرأن ذلك كله حجة آتاه اياها وأرشده اليها وذلك فى قوله : (وتلك حجتنا آتينها ابراهيم على قومه نرفع درجت من نشاء ان ربك حكيم عليم) أى نرفع

---

١) آية ٢٥٨ من سورة البقرة

٢) آيتى ٨٠ - ٨١ من آية ٨٣ من سورة الانعام

درجت من نشاء بالهداية والارشاد الى الحق وتلقين الحجة ، أو بما هو أعم من ذلك (ان ربك حكيم) فى كل مايصدر عنه (عليم) بحال عباده يعلم من يستحق الرفع منهم ومن لا يستحق (١)

وقد رسمت لنا هذه المحاجة طريقا نسير عليه فى دعوتنا وكيف نلقم خصومنا الحجر ذلك لأن ابراهيم عليه السلام لما سأله النمرود عن ربه غرورا منه بما أعطاه الله من الملك وطول العمر حتى ادعى الربوبية أجابه ابراهيم بأن ربه هو الذى يحيى ويميت أى ان ربى هو الذى يحدث هذه الأشياء بعد ماكانت معدومة ويعدمها بعد أن كانت موجـــودة وهذا دليل على وجود الفاعل المختار لأنها لم تحدث بنفسها فلا بد لها من محدث وهو الرب سبحانه ، فأجاب النمرود ملبسا على قومه ومدعيا لنفسه هذا المقام عنادا ومكابرة (. . . أنا أحى وأميت . . . .) قال غير واحد : انه أحضر رجلين كانا فى السجن استحقا القتل فقتـل أحدهما وعفا عن الآخر ، (. . . قال ابراهيم . . .) لما ادعى النمرود هذا (. . . فان الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب . .) أى اذا كنت تدعى أنك تحيى وتميت فالذى يحيى ويميت هو الذى يتصرف فى الكون ، وهذه الشمس تبدو لناكل يوم من المشرق فجولهـا أنت وأتنا بها من جهة المغرب ، وعند ذلك بهت النمرود وقامت عليه الحجة ، وبهذا صار المقام الأول بمنزلة المقدمة للمقام الثانى ، وظهـر بطلان ما ادعاه نمرود فى الاول والثانى (٢)

وقد أعرضنا عن كثير من كلام المفسرين حول هذه الآيات واختلافهم فى وقت المناظرة وسببها كما أعرضنا عن كلام المنطقيين هنا لأن الذى يهمنا هو اثبات هذه المناظرة / والتأسى بالداعية العظيم ابراهيم خليل الرحمن أبى الأنبياء هـ

---

١) انظر فتح القدير للشوكانى جـ ٢ ص ١٣٥ المصدر السابق

((المبحث الثالث))

(ابتلا آته عليه السلام)

ان ابراهيم عليه السلام ابتلاه الله أثناء دعوته بأمور كثيرة اختباراله وامتحانا ولكن ابراهيم عليه السلام وفى ذلك كله كما أمر .

وقد ذكر الله جل وعلا فى القرآن أنه ابتلى نبيه وخليله ابراهيم عليه السلام بكلمات وأخبر أنه أتم هذه الكلمات أى وفاهن بأن أكملهن بالقيام بما أوجب عليه فيهن كما صرح بذلك فى سورة النجم بقوله :

(وابراهيم الذى وفى) (١)

يعنى أنه وفى بما عهد اليه بالكلمات : بما أمره فيهامن الاوامر فأدى جميع ذلك حسبما أمره الله ، قال تعالى : (واذ ابتلى ابراهيم ربه بكلمت فأتمهن قال انى جاعلك للناس اماما قال ومن ذريتى قال لا ينال عهدى الظلمين) (٢)

واختلف المفسرون اختلافا كثيرا فى هذه الكلمات التى ابتلى بها ابراهيم وأتمها مع اتفاقهم على أن الابتلاء هو الاختبار ، وكان هذا الابتلاء بفرائض فرضها عليه وأوامر أمره بها أوحى اليه بذلك وكلفه العمل به اختباراله ،

وقد روى عن ابن عباس أنها شرائع الاسلام وهى ثلاثون سهما ، وقد روى ابن جرير عنه أثرا فى ذلك صححه أحمد محمد شاكر قال : حدثنا

---

١) آية ٣٧ من سورة النجم

٢) آية ١٢٤ من سورة البقرة

عبد الله بن أحمد بن شبوبه قال : حدثنا على بن الحسن قال : حدثنا خارجة بن مصعب عن داود بن ابى هند عن عكرمة عن ابن عباس قال : الاسلام ثلاثون سهما وما ابتلى بهذا الدين أحد فأقامه الا ابراهيم قال الله (وابراهيم الذى وفى) فكتب الله له براءة من النار .

(١) وقد ذكر آثارا اخر بينت أسهم الاسلام الثلاثين المذكورة فقال : ان عشرة منها فى سورة التوبة من قوله تعالى : (التائبون العبدون الى قوله وبشر المؤمنين) (٢) وعشرة فى سورة الأحزاب من قوله (ان المسلمين والمسلمات . . . الى قوله والذكرين الله كثيرا والذكرات أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما (٣) وعشرة فى سورة سأل سائل (٤) فانظره ، وقال بعضهم وهو مروى عن ابن عباس أيضا انها خصال عشر من سنن الاسلام : خمس منها فى الرأس ، وخمس فى باقى الجسد ففى الرأس قص الشارب ، والمضمضة ، والاستنشاق ، والسواك ، وفرق الرأس ، وفى الجسد خمس وهى : تقليم الأظفار ، وحلق العانة ، والختان ، ونتف الابط وغسل الغائط والبول بالماء ، وروى ابن جرير هذا بسنده صححه أحمد محمد شاكر عن ابن عباس أيضا فانظره .

---

١) أنظر تفسير الطبرى جـ ٣ ص ١٢٤ ط دار المعارف بمصر تحقيق محمود محمد شاكر تخريج أحمد محمد شاكر .

٢) آية ١١٢ من سورة التوبة

٣) آية ٣٥ من سورة الأحزاب

٤) ٢٢ - ٣٤

وقال بعضهم إنها مناسك الحج ، وقال البعض ان بعضا منها فى المناسك وهو أربعة وهى : الطواف ، والسعى بين الصفا والمروة ورمى الجمار ، والافاضة ، وستة فى الجسد وهى : حلق العانة والختان ، ونتف الابط ، وتقليم الاظفار ، وقص الشارب ، وغسل يوم الجمعة الى غير ذلك مما ذكروا من الاقوال .

والواجب علينا أن نعتقد أن الله تعالى ابتلى نبيه وخليله ابراهيم بكلمات أوحاهن اليه وأمره بامتثال مافيها والعمل به ، وان ابراهيم عليه السلام امتثل ذلك الامر ووفى بما أمر به سواء كانت الكلمات جميع ماذكر العلماء أوبعضه ونقطع بأنه أتم تلك الكلمات ووفاهن كما قال الله عنه (فأتمهن) وقال : (وابراهيم الذى وفى هـ

ابتلاؤه عليه السلام بالأمر بذبح ولده :

ان من جملة الابتلآت التى ابتلى الله بها نبيه ابراهيم عليه السلام أن أمره بذبح ولده فلذة كبده ، وقد نص القرآن الكريم على أن هذا الأمر بالذبح بلاء من الله تعالى له كما سيأتى فى الايات التالية

وقد ذكر الله جل وعلا هذا الابتلاء العظيم فى سورة الصافات فى الكلام على قصة ابراهيم وتفنيده لعبادة الأصنام واخباره لقومه بأنها كذب على الله واختلاق وأنها لا تضر ولا تنفع كما قدمنا ، وتكسيره لها واقامة الحجة عليهم بأنهم يعبدون ما ينحتونه بأيديهم ، وأن الله خلقهم وخلق ما يعملون ، وقد ألقوه فى النار ونجاه الله منها كما يأتى ،

وبعد أن هاجر من أرضهم وسكن الشام وجال الى مصر ، رزقه الله الأولاد كما قال الله عنه (وقال انى ذاهب الى ربى سيهدين رب هب لى من الصلحين ، فبشرناه بغلم حليم (١) وقال تعالى : (فلما أعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له اسحق ويعقوب ..) (٢)

قال تعالى : (وان من شيعته لابراهيم ، اذ جاء ربه بقلب سليم ، اذ قال لأبيه وقومه ماذا تعبدون ، أئفكا آلهة دون الله تريدون ، فما ظنكم برب العلمين) الى أن قال (فبشرناه بغلم حليم ، فلما بلغ معه السعى قال يبنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى قال يأبت افعل ما تؤمر ستجدنى ان شاء الله من الصبرين ، فلما أسلما وتله للجبين ، ونديناه أن يابراهيم قد صدقت الرؤيا انا كذلك نجزى المحسنين ، ان هذا لهو البلؤا المبين ، وفديناه بذبح عظيم ، وتركنا عليه فى الاخرين (٣)

---

١ - الايات من ٩٩ = ١١٠ من سورة الصافات
٢ - جزء من آية ٤٩ من سورة مريم
٣ - الايات من ٨٣ - ٨٧ ومن آية ١٠١ - ١٠٨ من سورة الصافات

ان ابتلاء الله نبيه ابراهيم عليه وعلى نبينا محمد أفضل الصلاة والتسليم بذبح ولده فلذة كبده لمن أعظم الابتلاآت ويكفينا أن الله تعالى صرح بأنه ابتلاء وذلك فى قوله (ان هذا لهو البلوء المبين) أى الاختبار البين الذى يتميز فيه المخلصون عن غيرهم ـ والمحنه البينة التى لا محنة أصعب منها ، وانما شاور ابراهيم ابنه وعرض عليه الامر حيث قال له : (انى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى) مع العلم أن هذا الامر محتوم لانّ رؤيا الانبياء حق وابراهيم ممتثله لا محالة أمر ربه ، فعل ذلك ليعلم ما عند الابن من التسليم فيما نزل من بلاء الله فيثبت قدمه اذا جزع ويأمن عليه إن سلم لهيوطن نفسه عليه فيهون ويكتسب المثوبة عليه بالانقياد له قبل نزوله (١) وقد جد ابراهيم عليه السلام فى تنفيذ هذه المهمة ممتثلا أمر ربه تعالى وقد انقاد هو وابنه لامر الله وخرج معه الابن طيبة نفسه بأمر الله لابيه قائلا له (يأبت افعل ماتؤمر ستجدنى ان شاء الله من الصابرين) فأخذه وصرعه على وجهه عازما على ذبحه غير متردد فى ذلك فمن حرصه على امتثال أمر ربه لم تأخذه الشفقة على الولد ولا العاطفة فأمر السكين بقوة مرارا فلم تقطع فعند ذلك ناداه الله يابراهيم قد صدقت الرؤيا بعزمك على الاتيان بما أمرت به وترتيب مقدماته ، (انا كذلك نجزى المحسنين) تعليل لتفريج تلك الكربة عنهما باحسانهما وامتثالهما أمر ربهما ، ثم أخبر الله أنه فدى هذا الغلام بذبح عظيم ، عظيم القدر وعظيم الجثة لانه فداء

---

(١) انظر تفسير أبى السعود جـ ٤ ص ٢٧٤ المصدر السابق

نبى ابن نبى ، قيل ان هذا الفداء كبش من الجنة ، وعن ابن عباس أنه الكبش الذى قربه هابيل فتقبل منه وكان يرعى فى الجنة الى ذلك الوقت وقيل غير ذلك والله تعالى أعلم ،

قلت من تأمل السياق فى هذه السورة يتبين له أن الذبيح اسماعيل لأن الله قال هنا (فبشرنه بغلم حليم ، فلما بلغ معه السعى قال يبنى إنى ارى فى المنام أنى أذبحك ...) فلما انتهت القصة بكاملها وفدى الله الذبيح قال تعالى : (وبشرنه باسحق نبيا من الصلحين) (١) فكيف يكون هو الذبيح وهو بشر به أبوه بعد ما انتهى من مهمة الذبح بكاملها وفدى الله ابنه ، وليس هذا موضع بحث الذبيحين ،

---

١) آية ١١٢ من سورة الصافات .

ابتلاؤه عليه السلام بالقائه فى النار

ذكرنا لنا القرآن الكريم فى آيات متعددة أن ابراهيم عليه السلام ألقاه قومه الذين كان يدعوهم الى توحيد الله فى النار يريدون بذلك أن يستريحوا منه ، وقد صاروا الاسفلين الاخسرين ، وذكرلنا القرآن الكريم أن الله جعل تلك النار بردا وسلاما فلم تصر عليه برد افقط لئلا يضره بردها بل صارت عليه بردا وصاحبته السلامة من جميع أذيتها .

قال تعالى بعد أن ذكر قصة ابراهيم مع الاصنام وتكسيره لها ورجوع عبدتها الى أنفسهم واعترافهم بظلمهم ، بعد هذا كله قال لهم ابراهيم (. . . أفتعبدون من دون الله مالا ينفعكم شيئا ولا يضركم ، اف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون) (١)

فعندما جابههم بهذا الكلام ، ارادوا به كيدا فجعلهم الله الاخسرين (قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم ان كنتم فعلين)(٢)

وقد ألقوه فى النار ظنا منهم أنها تحرقه وأن ذلك يكون نصرا لالهتهم وقد ذكر المفسرون حكايات كثيرة فى ذلك فقد نقل عن ابن اسحاق أنهم جمعوا الحطب شهرا وأوقدوا فيه نارا عظيمة حتى ان الطائر ليمر فى الجو من فوقها فيحترق ، ثم قيدوا ابراهيم ووضعوه فيها ، ويقال : ان ابليس صنع لهم المنجنيق ليلقوه به فيها لانها لا يكاد أحد يقربها ، وضجت السماوات والارض ومن فيهن الا الثقلين ، وعندما أرادوا القاءه فى النار

---

١) آية ٦٧ وجزء من آية ٦٦ من سورة الانبياء

٢) آية ٦٨ من سورة الانبياء

أتاه خزان الماء فقالوا يا ابراهيم ان أردت أخمدنا النار بالماء فقال : لا حاجة لى اليكم ، وأتاره ملك الريح فقال له لو شئت طيرت النار فقال لا ثم رفع رأسه الى السماء فقال : اللهم أنت الواحد فى السماء وأنا الواحد فى الأرض ليس أحد يعبدك غيرى (١) حسبى الله ونعم الوكيل ، وحكى أن جبريل عرض له عند القائه فى النار فقال له يا ابراهيم ألك حاجة ؟ قال أما اليك فلا فقال جبريل فسأل ربك فقال حسبى من سؤالى علمه بحالى فعند ذلك قال الله تعالى (يانارکونى بردا وسلاما على ابراهيم) ولو لم يقل بردا وسلاما لكان بردها أشد عليه من حرها ، ولو لم يقل على ابراهيم لكان بردها باقيا الى الابد (٢) وقد نجاه الله وأمر بالذهاب الى الأرض المباركة أرض الشام ووهب له أولادا وجعلهم أئمة يقتدى بهم فى الخير وأوحى اليهم بفعل العبادات وأخبر أنهم مطيعون له . وثبت فى صحيح البخارى عن ابن عباس : حسبنا الله ونعم الوكيل قالها ابراهيم عليه السلام حين القى فى النار ، وقالها محمد صلى الله عليه وسلم حين قالوا : ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم ايمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل ، وفيه عن ابن عباس أيضا قال : كان قول ابراهيم عليه السلام حين ألقى فى النار (حسبنا الله ونعم الوكيل) (٣) . وقد ذكر الله هذا الابتلاء فى سورة العنكبوت أيضا فقال بعد أن ذكر أن ابراهيم أمر قومه بعبادة الله وحده ، وأن ذلك خير لهم وذلك فى قوله

/ قبل

١) ان صح هذا الاثر فهو اسلام زوجه سارة ووجود ابن أخيه لوط لأن الأنبياء قدمنا أنهم معصومون من الكفر قبل النبوة وبعدها ، وعليه ففى الأثر دلالة على عدم الصحة والله أعلم .

٢) انظر القرطبى جـ ١١ ص ٣٠٣ - ٣٠٤ ط دار الكتب

٣) صحيح البخارى جـ ٦ ص ٤٨ - ٤٩ ط دار احياء التراث العربى

(وابراهيم اذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون ، انما تعبدون من دون الله أوثانا وتخلقون افكا ان الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقا فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له اليه ترجعون) (١)

ولما قال لهم ماقال كان الرد منهم هو ماقصة الله علينا فى قوله : (فماكان جواب قومه الا أن قالوا أقتلوه أو حرقوه فأنجيه الله من النار ان فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون) (٢) ثم اتفقوا على تحريقه فأنجاه الله من أذية النار ، وفى ذلك الانجاء حيث لم تحرقه آيات عظيمة للمؤمنين ، وكذلك ذكر القرآن قصة القاء ابراهيم فى النار فى سورة الصفات بعد أن ذكر قصته مع الأصنام .. حيث كسرها الا كبيرها وذلك فى قوله تعالى : (قالوا ابنوا له بنيانا فألقوه فى الجحيم فأرادوا به كيدا فجعلناهم الأسفلين) (٣) فقد دلت هذه الآيات على أن الله نصر نبيه ابراهيم على أعدائه وأذلهم حين بغيه فأرادوا أن يغلبوه بالحجة فلعنه الله الحجة التى ألقمتهم حجرا كما قال ..

(وتلك حجتنا آتيناها ابراهيم على قومه) ولما مالوا الى المكر والبطش أذلهم الله وجعلهم الأسفلين الأخسرين الأذلين ..

---

١) آيتى ١٦ - ١٧ من سورة العنكبوت

٢) آية ٢٤ من سورة العنكبوت

٣) آيتى ٩٧ - ٩٨ من سورة الصافات .

ابتلاؤه عليه السلام ببناء البيت الحرام

ان أمرالله لنبيه ابراهيم عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والتسليم ببناء بيت عظيم ماكان يدرى المحل الذى سيبنيه فيه ولا معين له على ذلك البناء بعد ربه الا ذلك الابن الصغير لمن أعظم الابتالات وكان بناؤه له بناء شاقا حيث بناه من الحجارة فقد حكى بعضهم أنه بناه من حجارة خمسة جبال : منها جبل طوروسينا والجودى ، وحراء ذكر ذلك أبوالسعود فى تفسيره والله تعالى أعلم . وقد ذكر الله جل وعلا أمره لنبيه ابراهيم ببناء هذا البيت وذكر مساعدة ابنه له فى ذلك فى سورة البقرة فى قوله تعالى : (واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل ربنا تقبل منا انك أنت السميع العليم) (١) قال بعض العلماء ان ابراهيم هو الذى تولى البناء وكان اسماعيل يناوله الحجارة وقال بعضهم انهما كانا يبنيانه من طرفين ، وقال بعضهم لعل تأخيرواسماعيل المعطوف على ابراهيم وتقديم المفعول به الذى هو القواعد للايذان بأن الاصل فى الرفع هو ابراهيم واسماعيل تبع له .

وعلى كل حال سواء كان اسماعيل بناء معه أومساعده بمناولة الحجارة فان بناء هذا البيت فى ذلك المكان الذى لا يوجد فيه من المسلمين غير ابراهيم وابنه اسماعيل وأمه ان كانت حية وامتثال ابراهيم أمر ربه وتنفيذه ما أمره به مع قلة عدده وعدته ، ان هذا ابتلاء من الله عظيم من جملة ما ابتلى به ابراهيم ووفى به كما شهد له الله بذلك فى قوله :

(وابراهيم الذى وفى) وقد ذكر الله جل وعلا أنه بين لابراهيم مكان البيت الذى يبنيه فيه ذلك لأن هذا البيت العظيم انما رسم محله من زمن

---

١) آية ١٢٧ من سورة البقرة

طوفان نوح عليه السلام ، فهدى الله ابراهيم خليل الرحمن الى مكانه وبناه على الاسس التى كان عليها وذلك فى قوله تعالى فى سورة الحج (واذ بوأنا لابراهيم مكان البيت أن لا تشرك بى شيئا وطهر بيتى للطائفين والقائمين والركع السجود وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر) (١) فأعلم الله ابراهيم مكان البيت بريح أرسلها يقال لهـــا الخجوج ماحوله فبناه على أسسه القديمه (٢)

---

١) آية ٢٦ وجزء من آية ٢٧ من سورة الحج

٢) انظر الكشاف جـ ٣ ص ١٠ المصدر السابق .

المبحث الرابع : فى هجرته عليه السلام

ان هجرة الداعية الى الله تعالى من بلد لا يتمكن فيه من عبادة الله عزوجل الى بلد يتمكن فيه من ذلك من أعظم أسباب نجاح دعوته . ولذلك فان ابراهيم عليه السلام أبا الانبياء وأعظم الدعاة بعد نبينا محمد صلى الله عليه وسلم هو أول من اتخذ هذه الوسيلة لنجاح دعوته فقد هاجر من بلاده وترك أوطانه وتغرب عنها ، كل ذلك فى سبيل الدعوة الى الله تعالى فقد خرج من أرض بابل مهاجرا الى بلاد الشام المباركة هو وابن أخيه لوط وأمرأته سارة ، ولما هاجر هذه الهجرة رزقه الله أولادا صالحين وجعل فى ذريته النبوة والكتاب فكل نبى بعث بعده فهو من ذريته ، وكل كتاب نزل من السماء على نبى من الانبياء فهو على أحد نسله وعقبه مثوبة من الله له على تركه بلاده وأهله وأقربائه وهجرته الى بلد يتمكن فيه من عبادة ربه ودعوة الخلق اليه ، وقد خرج من الشام الى أرض مصر ثم رجع الى الشام ، ثم خرج الى مكة المكرمة حيث ترك فيها ابنه اسماعيل وأمه هاجر كما هو مشهور معلوم ،

وقد ذكر الله هجرته الى الشام فى كتابه العزيز فى مواضع متعددة فقال تعالى فى سورة العنكبوت (فآمن له لوط وقال انى مهاجر الى ربى انه هو العزيز الحكيم ووهبنا له اسحاق ويعقوب وجعلنا فى ذريته النبوة والكتب وآتيناه أجره فى الدنيا وانه فى الآخرة لمن الصالحين) (١) وقال تعالى فى سورة الانبياء (ونجيناه ولوطا الى الأرض التى باركنا فيها للعالمين ووهبنا له اسحق ويعقوب نافلة وكلا جعلنا صالحين وجعلناهم

---

(١) آية ٢٦- ٢٧ من سورة العنكبوت

آيمة يهدون بأمرنا وأوحينا اليهم فعل الخيرات واقام الصلوة وايتاء الزكوة وكانوا لنا عبدين) (١) وقال تعالى : فى سورة الصافات : (وقال انى ذاهب الى ربى سيهدين رب هب لى من الصالحين فبشرته بغلام حليم) والأرض التى قصدها ابراهيم هى أرض الشام كما قدمنا وهو قول أبى بن كعب وأبى العالية وقتادة وغيرهم ، وروى العوفى عن ابن عباس أنها أرض مكة مستدلا بقوله تعالى : (ان أول بيت وضع للناس للذى ببكه مباركا وهدى للعالمين) (٢)

وفى الصحيح أن ابراهيم عليه السلام أتى ذات يوم على جبار ومعه زوجه سارة وكانت من أجمل النساء فأرسل اليها الجبار وعصمها الله منه فكان كلما مد يده لها أخذ دونها فعل ذلك عدة مرات ويقول لها ادعى الله لى ولا أمسك فتركها وأخدمها هاجر أم اسماعيل اذ وهبتها سارة له (٣) ويذكر أهل التاريخ وأهل الكتاب أن هذا الجبار ملك مصر فى ذلك الزمان ، وأهل الكتاب يقولون انه ذهب الى مصر بسبب قحط أصاب بلاد الشام وذكروا قصة سارة والجبار وقالوا انه رجع الى بلاد الشام ومعه دواب وأموال وعبيد (٤) اهـ

قوله تعالى : (رب إنهن أضللن كثيرا من الناس فمن تبعنى فانه منى ومن عصانى فانك غفور رحيم) هذا من تمام كلام ابراهيم عليه الصلاة والتسليم كما سأل الله ان يجنبه وبنيه عبادة الأصنام أتبع ذلك بذكر السبب الحامل له على ذلك فقال : (رب انهن) أى الأصنام (أضللن كثيرا من الناس) أى صرن سببا فى اضلاله بسبب عبادته لها ، والمعنى

١ـ تقدم
٢ـ أنظر البداية والنهاية لابن كثير جـ ١ ص ١٤٩ـ ١٥٠ المصدر السابق
٣ـ البخارى فى أحاديث الأنبياء واتخذ الله ابراهيم خليلا ، ومسلم فى كتاب الفضائل
٤ـ انظر البداية والنهاية لابن كثير جـ ١ ص ١٥٠ المصدر السابق

أن الناس ضلوا بعبادتها كما يقال فتنتهم الدنيا أى افتتنوا بهـا واغتروا بسببها ، وقوله (فمن تبعنى فانه منى ومن عصانى فانك غفور رحيم) يعنى أن من تبعه على الايمان وماهو عليه من الهدى واخلاص العبادة لله وحده وطرح عبادة الاوثان فانه منه أى مستن بسنته وعامل بمثل عمله ، يقول (ومن عصانى) أى ومن خالف أمرى فلم يقبل دعوتى وأشرك بك فانك غفور لذنوب المذنبين رحيم بهم تعفو عمن تشاء منهم بفضلك وتجازى من تشاء بعدلك (١) قوله تعالى :

(ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ربنـا ليقيموا الصلوة فاجعل أفئدة من الناس تهوى اليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون) هذا دعاء من ابراهيم خليل الرحمن لربه عند ما أسكن ولده اسماعيل وأمه هاجر فى مكة المكرمة وكانت مكة بلدا لا يثمر ولا يزرع فدعـا الله تعالى أن يرزق أهله من ثمرات البلاد الاخرى واختلف فى وقت هذا الدعاء فذكر بعض المفسرين أنه دعا بهذا الدعاء عند ما وضع ولده اسماعيل وأمه عند مكان زمزم ورجع ولما رجع تبعته هاجر فقالت الى أى شىء تكلنا ؟ الى طعام تكلنا الى شراب تكلنا فجعل لا يرد عليها شيئا فقالت آلله أمرك بهذا ؟ قال نعم قالت اذا لا يضيعنا فرجعت ومضى حتى اذا استوى على ثنية كداء أقبل على الوادى فقال : (ربنا انى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلوة فاجعل أفئدة من الناس تهوى اليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون) (٢) وهذا قول ابن جرير ومن وافقه ، وقال ابن كثير ان هذا الدعاء وقع بعـد مابنى ابراهيم البيت واستدل لذلك بقوله : عند بيتك المحرم والبيت أوان

---

١) طالع ابن جرير عند تفسير الاية جـ ١٣ ص ١٥١ المصدر السابق

٢) صحيح البخارى كتاب الانبياء

مجيء هاجر وابنها غير موجود ومال الى هذا القول أبوحيان أيضا ، وأجاب الزمخشري عن ذلك بأجوبة فليراجعها من شاء ، وعلى كل حال فابراهيم دعا بهذا الدعاء لذريته لما علم أن هذا الوادي واد غير ذي زرع ، وكونه غير ذي زرع يستلزم أنه غير ذي ماء اذ لا يمكن أن يوجد زرع الا حيث يوجد ماء فنفى ما يتسبب عن الماء وهو الزرع لانتفاء سببه وهو الماء ذكر ذلك ابن عطية (١) وقوله ليقيموا الصلاة دعاء منه لذريته بأن يقيموا الصلاة ، وخص الصلاة دون سائر العبادات لانها أفضلها أولانها سبب لكل خير ، وقيل ان اللام في قوله ليقيموا الصلوة متعلق بقوله أسكنت ، والنداء معترض بينهما فيكون المعنى أنه لا يخلو هذا البيت المعظم من العبادة (٢) وقال مجاهد لوقال أفئدة الناس تهوى اليهم لازدحمت عليه فارس والروم ، قوله تعالى : (ربنا انك تعلم ما نخفي وما نعلن وما يخفى على الله من شيء في الأرض ولا في السماء) لما ترك ابراهيم اسماعيل وأمه هاجر وولى عنهما قال : ربنا انك تعلم ما نخفي وما نعلن : يعني أن الله يعلم ما يخفيه من الوجد باسماعيل وأمه وما يعلنه من ذلك ، وقيل ان المعنى : ليس يخفى عليك شيء من أحوالنا بما في ذلك وجدنا باسماعيل وأمه ، وقوله : (وما يخفى على الله من شيء في الارض ولا في السماء) قيل من قول ابراهيم ، وقيل من قول الله لما قال ابراهيم (ربنا انك تعلم ما نخفي وما نعلن) قوله تعالى (الحمد لله الذي وهب لي على الكبر اسماعيل واسحاق ان ربي لسميع الدعاء)

---

١) انظر البحر المحيط جـ ٥ ص ٤٣١ المصدر السابق

٢) البحر المحيط جـ ٥ ص ٤٥٣ المصدر السابق

ان ابراهيم عليه السلام سأل ربه أن يهب له أولادا صالحين وذلك في قوله (رب هب لي من الصالحين) عندما كبر سنه وكبر سن زوجه سارة وذلك أنه روى عن ابن عباس أنه ولد اسماعيل وعمره تسع وتسعون سنة وولد اسحاق وعمره مائة واثنتا عشرة سنه ، وعن سعيد بن جبير أنه بشر باسحاق وعمره مائة وعشر سنوات أو سبع عشرة سنه واستجاب الله دعاءه فحمده على ذلك فقال الحمد لله الذي وهب لي على الكبر أي مع الكبر فعلى هنا بمعنى مع وانما ذكر حال الكبر لأن المنة بهبة الولد في ذلك الوقت أعظم لأنه وقت يأس من الولادة ، والظفر بالحاجة بعد اليأس من أجل النعم وأحلاها في نفس الظافر ولأن الولادة في تلك اليأس العالية كانت آية لابراهيم (١) قوله تعالى (رب اجعلني مقيم الصلوة ومن ذريتي ربنا وتقبل دعاء) بعد ما حمد الله ابراهيم على ماوهبه من نعمة الولد بعد اليأس منه دعا الله أن يجعله سوّد بما الزمه من فريضة الصلاة التي أفترضها عليه ، وسأله أيضا أن يجعل من ذريته من يقيموا الصلاة محافظا عليها مقيما لحدودها ، كما سأله أيضا أن يتقبل دعاءه أي عبادته ، قوله تعالى (ربنا اغفرلي ولوالدي وللمؤمنين يوم يقوم الحساب) وهذا دعاء من ابراهيم أيضا خاص وعام فقد سأل الله غفران الذنوب له ولوالديه وهذا قبل أن يتبرأ من أبيه بعد ما علم أنه عدو لله كما قال تعالى ؟ (وماكان استغفار ابراهيم الا عن موعدة وعدها اياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه ان ابراهيم لأوّاه حليم) (٢) ثم دعا لعامة المؤمنين بالله المصدقين بمن تبعني على الدين

---

١) انظر الكشاف جـ ٢ ص ٣٨١ المصدر السابق

٢) آية ١١٤ من سورة التوبة

الذى أنا عليه فاطاعك فى أمرك ونهيل ، يوم يقوم الحساب ، يعنى يوم يقوم الناس للحساب فاكتفى بذكر الحساب عن ذكر الناس لانه مفهوم منه (١)

بعض الشبه التى أوردت حول ابراهيم وردها

إن ابراهيم نبى الله وخليله عليه الصلاة والسلام أثيرت حوله شبه من أعداء الدين الاسلامى ، بل أثيرت حوله من بعض علماء المسلمين ، وسأنقل لك بعضا من ذلك وأرده ان شاء الله تعالى .

الشبهة الأولى :

ورد فى دائرة المعارف التى أصدرها بالانجليزية والفرنسية والالمانية المستشرق (فنسنك) وجماعة من الاوروبين مانصه :

كان شيرنجر جـ ٢ ص ٢٧٦ ومابعدها أول من لاحظ أن شخصية ابراهيم كما فى القرآن مرت بأطوار قبل أن تصبح فى نهاية الامر مؤسسة للكعبة وجاء (سنوك هرجرونييه) ص ٢٠ ومابعدها بعد ذلك بزمن فتوسع فى بسط هذه الدعوى فقال : ان ابراهيم فى أقدم مانزل من الوحى : الذاريات آية ٢٤ ومابعدها (٢) والحجر آية ٥١ ومابعدها (٣)

والصافات آية ٨١ ومابعدها (٤) الانعام آية ٧٤ ومابعدها (٥)

---

١) طالع تفسير ابن جرير جـ ١٣ ص ١٥٦ المصدر السابق

٢) يعنى قوله تعالى : (هل أتيك حديث ضيف ابراهيم المكرمين

٣) يعنى قوله تعالى (ونبئهم عن ضيف ابراهيم

٤) يريد قوله : (وان من شيعته لابراهيم) ..

٥) يعنى قوله تعالى : (واذ قال ابراهيم لابيه آزر أتتخذ أصناما الهة انى أريك وقومك فى ضلل مبين) ...

هود آية ٧٢ ومابعدها (١) مريم آية ٤٢ ومابعدها (٢) الانبياء آية ٥٢ ومابعدها (٣) الانبياء آية ٥٢ ومابعدها (٤) العنكبوت آية ١٥ ومابعدها (٥) هورسول من الله أنذر قومه كما تنذر الرسل ولم تذكر لاسماعيل صلة به ،والى جانب هذا يشار الى أن الله لم يرسل من قبل الى العرب نذيرا : السجدة آية ٢ (٦) سبأ آية ٤٣ (٧)

---

١) يشير الى قوله تعالى : (ولقد جاءت رسلنا ابراهيم بالبشرى قالوا سلما قال سلم فما لبث أن جاء بعجل حنيذ) .... وقد غلط في الرقم فالآية رقم ٦٩ لا رقم ٧٢ كما قال .

٢) يعني قوله تعالى :

(واذكر في الكتب ابراهيم انه كان صديقا نبيا) .. وقد غلط أيضا فالآية رقم ٤١ لا كما قال

٣) يريد قوله تعالى : (ولقد آتينا ابراهيم رشده من قبل وكنا به علمين) ...

٤) يريد قوله

(وابراهيم اذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه ذلكم خيرلكم ان كنتم تعلمون) ...

٥) يريد قوله :

أم يقولون افتريه بل هو الحق من ربك لتنذر قوما ماأتيهم من نذير من قبلك لعلهم يهتدون) والآية رقم ٣ لا رقم ٢ كما قال

٦) يريد قوله :

(وما آتيناهم من كتب يدرسونها وما أرسلنا اليهم قبلك من نذير) رقم ٤٤

يحص آية ٥ (١) ولم يذكر قط أن ابراهيم هو واضع البيت ولا أنه أول المسلمين . أما السور المدنية فالأمر فيها على غير ذلك فابراهيم يدعى حنيفا مسلما وهو واضع ملة ابراهيم رفع مع اسماعيل قواعد بيتها المحرم ـ الكعبة ـ البقرة ١١٨ ومابعدها (٢) آل عمران آية ٦٠ ، وآية ٨٤ الى آخر كلامه (٣)

وسر هذا الاختلاف أن محمدا كان قد اعتمد على اليهودية في مكة فما لبثوا أن اتخذوا حياله خطة عداء فلم يكن له بد من أن يلتمس غيرهم ناصرا ، هناك هداه ذكاؤه مسددا الى شأن جديد لأبي العرب ابراهيم ، وبذلك استطاع أن يخلص من يهودية عصره ليصل حبله بيهودية ابراهيم ، تلك اليهودية التي كانت ممهدة للاسلام ،

ولما أخذت مكة تشغل جل تفكير الرسول أصبح ابراهيم أيضا المشيد لبيت هذه المدينة المقدس (٤)

---

١) يريد قوله تعالى : (لتنذر قوما ما أنذر آباؤهم فهم غافلون)

٢) يريد قوله تعالى (واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل ربنا تقبل منا انك أنت السميع العليم) .. آية ١٢٧ لاكمال قال

٣) يريد قوله تعالى : (يأهل الكتاب لم تحجون في ابراهيم وما أنزلت التورية والانجيل الا من بعده أفلا تعقلون) رقم ٦٥ لاكمال قال . وقوله : (قل آمنا بالله وما أنزل علينا أنزل على ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والأسباط ...)

٤) دائرة المعارف الاسلامية : القرن العشرين جـ ١ ص ٢٧-٢٨

قلت : أورد هذه القصة بعض المعاصرين مثل عبد الله بن على محمد أبو سيف فى رسالته التى أخذ بها الماجستير فى شأن ابراهيم عليه السلام الموجودة بمكتبة الدراسات العليا بالجامعة الاسلامية ، أوردها على أنها طعن فى ابراهيم وشبهة حوله .

وفى رأى أن الهدف الرئيسى منها هو الطعن فى رسالة محمد صلى الله عليه وسلم كما أنها تفيد الطعن فى رسالة اسماعيل عليه السلام الى العرب ،

وان كان فيها نوع من الطعن فى ابراهيم الخليل فانه اضافى بالنسبة الى مافيها من الطعن فى القرآن ورسالة نبينا صلى الله عليه وسلم ومن خلال الرد عليها يتبين ذلك للناظر المتأمل .

الرد على الشبهة المذكورة

ان قول (سنوك هرجرونييه) ان ابراهيم فى أقدم مانزل من الوحى : الذاريات آية كذا الخ كلامه يريد بهذا الكلام التعريض برسالة محمد صلى الله عليه وسلم وأن القرآن لم يكن من عند الله بل من اختراع الرسول صلى الله عليه وسلم يأتى منه فى مكة بما تدعو اليه السياسة ، ويأتى منه بالمدينة بما تحتاج اليه سياسته فى تلك المرحلة أيضا ،

وقوله : ولم تذكر لاسماعيل صلة به أى بابراهيم فان هذا كذب وافتراء فان سورة ابراهيم مكية بلاخلاف ، وفيها التصريح برابطة اسماعيل بأبيه ابراهيم عليهما السلام حيث جاء فيها قوله تعالى :

(الحمد لله الذى وهب لى على الكبر اسمعيل واسحق ان ربى لسميع الدعاء) فكيف يقول قائل بعد هذا : ان القرآن المكى لم تذكر فيه

صلة لاسماعيل بابراهيم عليه السلام ،

وقوله : والى جانب هذا يشار الى أن الله لم يرسل من قبل الى العرب نذيرا فيه التعرض أيضا برسالة اسماعيل ، لأن اسماعيل أرسل الى العرب الذين تربى فيهم وتعرب كما هو معلوم عند كل أحد ،

أما آية السجدة وسبأ ويس فليس فيها دليل على عدم ارسال رسول للعرب ، وانما دلت الآيات على أن آباء المخاطبين الاقربين لم يرسل اليهم رسول ، ولا يمنع ذلك ارسال اسماعيل عليه السلام الى العرب في زمنه ،

وأما قوله : وأما السور المدنية فالأمر فيها على غير ذلك فابراهيم يدعى حنيفا مسلما وهو واضع ملة ابراهيم الخ كلامه مفهومه أن السور المكية لم يدع فيها ابراهيم بالحنيفية ، وذلك كذب وافتراء ، ففي سورة الأنعام وهي مكية بالاجماع .

قوله تعالى حكاية عن ابراهيم (انى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين) (١)

وفيها قوله : (قل اننى هدانى ربى الى صراط مستقيم دينا قيما ملة ابراهيم حنيفا وماكان من المشركين) (٢)

وفي سورة النحل وهي مكية أيضا : التصريح بحنيفية ابراهيم وذلك في قوله تعالى :

(ان ابراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين) (٣)

---

١) آية ٧٩ من سورة الأنعام

٢) آية ٦١ من سورة الانعام

٣) آية ١٢٠ من سورة النحل

(ثم أوحينا اليك أن أتبع ملة ابراهيم حنيفا وماكان من المشركين) (١)

وهل يسوغ العاقل أن يقول بعد هذه الآيات ان ابراهيم لم يدع فى الوحى المكى بالحنيفية ؟ لن يقول ذلك الا مكابر معاند معاد لدين الاسلام يحاول الطعن فى كتاب الله .

وأما قوله : وسر هذا الاختلاف الى آخر كلامه المفترى فان التاريخ يشهد بأن نبينا صلى الله عليه وسلم لم يعتمد يوما على اليهود ، بل ان القرآن المكى أظهر معايب اليهود وقرأ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم جهارا ولم يجعل منهم أنصارا ألبتة .

ففى سورة الانعام التصريح ببغى اليهود والاشادة بما حرم الله عليهم وذلك فى قوله تعالى :

(وعلى الذين هادوا وا حرمنا كل ذى ظفر ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما الا ماحملت ظهورهما أو الحوايا أوما اختلط بعظم ذلك جزيناهم ببغيهم وانا لصادقون) (٢)

وفى سورة النحل وهى مكية كما تقدم التصريح بظلم اليهود لأنفسهم وذلك فى قوله :

(وعلى الذين هادوا حرمنا ماقصصنا عليك من قبل وماظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) (٣)

---

١) آية ١٢٢ من سورة النحل

٢) آية ١٤٦ من سورة الانعام

٣) اية ١١٨ من سورة النحل

وأمثال هذا فى القرآن المكى كثيرة جدا .

وأما قوله بيهودية ابراهيم فان ذلك كذب وافتراء ، وليس هذا الكذب بجديد ، بل تناقله الابناء عن الآباء ، وذلك لأن الله صرح فى كتابه العزيز أن ابراهيم لم يكن يهوديا ولا نصرانيا ، وذلك فى قوله :

(ماكان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وماكان من المشركين) (١)

وقال تعالى : (ياأهل الكتاب لم تحجون فى ابراهيم وما أنزلت التورية والانجيل الا من بعده أفلا تعقلون) (٢) فاليهودية انما نشأت بعد ابراهيم بمدة طويلة .

وقوله : ولما أخذت مكة تشغل جل تفكير الرسول الخ ففيه التعريض أيضا بالقرآن وأنه من عند محمد صلى الله عليه وسلم يتكلم به حسب رغباته ، وقد قدمنا أن القرآن من عند الله وأن الرسول لا يستطيع أن يغير فيه ولا ينقص منه حرفا ولا يزيد فيه حرفا بما أغنى عن اعادة ذلك هنا .

وقد تبين من خلال الرد على هذه الشبهة أنها تتركز على الطعن فى رسالة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وفى رسالة اسماعيل الى العرب والله تعالى أعلم .

---

١) آية ٦٧ من سورة آل عمران

٢) آية ٦٥ من سورة آل عمران

الشبهة الثانية

ان ابراهيم عليه السلام أثيرت حوله شبهة أثارها بعض علماء المسلمين وغيرهم .

قالوا : ان ابراهيم عليه السلام خالطه الشك في قدرة الله تعالى على احياء الموتى آخذين ذلك من قوله تعالى : (واذ قال ابراهيم رب أرني كيف تحي الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي) (١) وممن انتصر لهذا القول من علماء المسلمين كبير المفسرين الامام أبو جعفر محمد بن جرير الطبري المتوفى ٣١٠هـ فقد ذكر أسبابا عديدة لسؤال ابراهيم ربه كيف يحيي الموتى واختار منها السبب الذي يوهم التهمة المذكورة فقال :

قيل : ان سبب ذلك أنه رأى دابة قد تقسمتها السباع والطير فسأل ربه أن يريه كيفية احيائه اياها .... ليرى ذلك عيانا فيزداد يقينا بروءيته ذلك عيانا الى علمه به خبرا فأراه الله ذلك .

وقيل : ان سبب ذلك المحاجة التي وقعت مع النمرود فسأل ابراهيم ذلك فقال الله له أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي من غير شك في الله ولا في قدرته ولكنه أحب أن يعلم ذلك وتساق اليه قلبي فقال ليطمئن قلبي .

وقيل : ان سبب السؤال أنه لما علم بأن الله اصطفاه خليلا سأل ذلك ليكون علامة له على ذلك ليطمئن قلبه ، ثم قال :

---

(١) جزء من آية ٢٦٠ من سورة البقرة

وقال آخرون قال ذلك لربه لأنه شك فى قدرة الله على احياء الموتى . ثم أيد هذا القول واستدل له . بحديث الصحيحين (نحن أحق بالشك من ابراهيم اذ قال رب أرنى كيف تحى الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبى ...) (١)

فانه قال مانصه : وأولى هذه الاقوال بتأويل الآية ماصح به الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال وهو قوله : (نحن أحق بالشك من ابراهيم ..) الحديث وأن تكون مسألته ربه ما سأله أن يريه من احياء الموتى لعارض من الشيطان عرض فى قلبه كالذى ذكرنا عن ابن زيد آنفا من أن ابراهيم لما رأى الحوت الذى بعضه فى البر وبعضه فى البحر قد تعاورته دواب البر والبحر وطير الهواء ، ألقى الشيطان فى نفسه فقال : متى يجمع الله هذا من بطون هؤلاء فسأل ابراهيم حينئذ ربه أن يريه كيف يحى الموتى ليعاين ذلك عيانا فلا يقدر بعد ذلك الشيطان أن يلقى فى قلبه مثل الذى ألقى فيه عند رؤيته ما رأى من ذلك فقال له ربه (اولم تؤمن) يقول : أولم تصدق يا ابراهيم بأنى على ذلك قادر ؟ قال بلى يارب لكن سألتك أن تريني ذلك ليطمئن قلبى فلا يقدر الشيطان أن يلقى فى قلبى مثل الذى فعل عند رؤيتى هذا الحوت ، انتهى محل الغرض من كلامه (٢)

---

١) أخرجه البخارى فى كتاب التفسير فى سورة البقرة باب واذ قال ابراهيم رب أرنى كيف تحى الموتى ، ومسلم فى كتاب الايمان فى باب زيادة طمأنينة القلب بتظاهر الادلة .

٢) انظر تفسير ابن جرير جـ ٣ ص ٤٩ - ٥٠ المصدر السابق

الرد على الشبهة

لقد رد علماء الاسلام هذه الشبهة وفندوها من أصلها ونصوا على فساد كلام ابن جرير هذا وصرحوا برده .

وقال بعضهم ان هذا القول لا يقوله الا جاهل بل لا يصدر من مسلم كما سترى ان شاء الله . ومن رد هذه الشبهة : القاضي أبومحمد عبد الحق المعروف بابن عطية فقد رد ها في تفسيره عند هذه الآية فقال : وترجم الطبرى في تفسيره فقال : وقال آخرون سأل ذلك ربه لانه شك في قدرة الله تعالى وذكر تحت الترجمة . . . وذكر حديث أبي هريرة (نحن أحق بالشك من ابراهيم) ثم رجح الطبرى هذا القول . . . الى أن قال :

وماترجم به الطبرى عند ى مردود ، وما أدخل تحت الترجمة مسؤول وأما قول عطاء دخل قلب ابراهيم بعض مايدخل قلوب الناس فمن حيث المعاينة على ماتقدم ، وأما قول النبى صلى الله عليه وسلم (نحن أحق بالشك من ابراهيم) فمعناه أنه لوكان شاكا لكنا نحن أحق به ونحن لا نشك فابراهيم عليه السلام أحرى ألا يشك ، فالحديث مبنى على نفى الشك عن ابراهيم ،

والذى فيه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال ذلك محض الايمان انماهو في الخواطر التى لا تثبت ، وأما الشك فهو توقف بين أمرين لا مزية لاحدهما على الآخر ، وذلك هو المنفى عن الخليل عليه السلام الى أن قال . . . واذا تأملت سوء اله عليه السلام وسائر الفاظ الآية لم تجد شكا ، وذلك أن الاستفهام (بكيف) انما هو سوءال عن

حالة شيء موجود متقرر الوجود عند السائل والمسؤل نحو : قولك : كيف علم زيد ؟ وكيف نسج الثوب ؟ ومتى قلت كيف ثوبك ؟ وكيف زيد ؟ فانما السؤال عن حال من أحواله . . وكيف في هذه الآية انما هي استفهام عن هيئة الاحياء ، والاحياء معلوم متقرر (١)

وقال القرطبي : ولا يجوز على الانبياء صلوات الله عليهم مثل هذا الشك فانه كفر ، والانبياء متفقون على الايمان بالبعث ، وقد أخبر تعالى أن أنبياءه وأولياءه ليس للشيطان عليهم سبيل فقال : (ان عبادي ليس لك عليهم سلطن . . .) (٢) وقال اللعين :

(الا عبادك منهم المخلصين) (٣)

واذا لم يكن له عليهم سلطان فكيف يشككهم ، وانما سأل أن يشاهد كيفية جمع أجزاء الموتى بعد تفريقها وايصال الاعصاب والجلود بعد تمزيقها فأراد أن يترقى من علم اليقين الى عين اليقين فقوله له أرني كيف طلب مشاهدة الكيفية . . . وليست الالف في قوله (أولم تؤمن) ألف أستفهام وانما هي ألف ايجاب وتقرير كما قال جرير :

(ألستم خير من ركب المطايا) الخ كلامه الطويل (٤) وقد رد الفخر الرازي في تفسيره هذه الشبهة من غير تعرض لذكر ابن جرير ، قال بعد أن ذكر أحد عشر قولا في سبب سؤال ابراهيم هذا لربه . . . الثاني عشر ماقاله قوم من الجهال وهو أن ابراهيم صلى الله عليه وسلم كان شاكا في معرفة البدء وفي معرفة المعاد اما شكه في معرفة البدء فقوله :

---

١) انظر المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز للقاضي أبي محمد عبد الحق ابن عطية ملخصا مع حذف وتصرف يسير جـ ٢ ص ٣٠١ - ٣٠٣ ط وزارة الاوقاف والشؤون الاسلامية المملكة المغربية .

٢) جزء من آية ٤٢ من سورة الحجر

٣) آية ٨٣ من سورة ص

٤) القرطبي ملخصا مع حذف بعض الكلام للاختصار جـ ٣ ص ٩٩ - ٣٠٠

هذا ربى ، وقوله : لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين ، وأما شكه فى المعاد ففى هذه الآية ، وهذا القول سخيف بل كفر ، وذلك لأن الجاهل بقدرة الله تعالى على احياء الموتى كافر فمن نسب النبى المعصوم الى ذلك فقد كفر النبى المعصوم فكان هذا بالكفر أولى ، ثم قال : ويدل على فساد ذلك وجوه : أحدهما قوله تعالى : أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبى ولو كان شاكا لم يصح ذلك ، . . . ومنها أن الشك فى قدرة الله تعالى يوجب الشك فى النبوة فكيف يعرف نبوة نفسه (١)

ونص الحديث الذى أشار له ابن عطية هكذا : (نحن أحق بالشك من ابراهيم اذ قال رب أرنى كيف تحى الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبى ويرحم الله لوطا لقد كان يأوى الى ركن شديد ، ولو لبثت فى السجن طول مالبث يوسف لأجبت الداعى (٢) وسوف نلم بمحض كلام العلماء فى شرحهم لهذا الحديث ان شاء الله ليتبين من خلال ذلك رد هذه الشبهة : قال الحافظ ابن حجر عند شرح هذا الحديث . . . ثم اختلفوا فى معنى قوله صلى الله عليه وسلم : نحن أحق بالشك من ابراهيم فقال بعضهم نحن أشد اشتياقا الى رؤية ، ذلك من ابراهيم ، وقيل معناه اذا لم نشك نحن فابراهيم أولى أن لا يشك أى لوكان الشك متطرقا الى الأنبياء لكنت أنا احق به منهم ، وقد علمتم

---

١) تفسير الفخر الرازى جـ ٢ ص ٩٢ ٤ عند تفسير آية البقرة هذه

٢) البخارى فى كتاب التفسير فى سورة البقرة فى باب واذ قال ابراهيم رب أرنى كيف تحى الموتى . ومسلم فى كتاب الايمان فى باب زيادة طمأنينة القلب بتظاهر الأدلة

انى لم أشك فاعلموا أنه لم يشك وانما قال ذلك تواضعا منه أومن قبل أن يعلمه الله بأنه أفضل من ابراهيم وهو كقوله فى حديث أنس عند مسلم : ان رجلا قال للنبى صلى الله عليه وسلم : ياخير البرية قال : ذاك ابراهيم (١) ، وقيل : ان سبب هذا الحديث أن الآية لما نزلت قال بعض الناس شك ابراهيم ولم يشك نبينا فبلغه ذلك فقال نحن أحق بالشك من ابراهيم وأراد ما جرت به العادة فى المخاطبة لمن أراد أن يدفع عن آخر شيئا قال : مهما أردت أن تقول لفلان شيئا فقله لى ومقصوده لا تقل ذلك ، وقيل : أراد بقوله أمته الذين يجوز عليهم الشك واخراجه هو منه بدلالة العصمة ، وقيل معناه : هذا الذى ترون أنه شك أنا أولى به لأنه ليس بشك انما هو طلب البيان ، وحكى بعض علماء العربية ان أفضل ربما جاءت لنفى المعنى عن الشيئين نحو قوله تعالى : أهم خير أم قوم تبع أى لا خير فى الفريقين ونحو قال القائل : الشيطان خير من فلان أى لا خير فيهما ، وعلى هذا فمعنى قوله صلى الله عليه وسلم نحن أحق بالشك من ابراهيم لا شك عندنا جميعا اهـ

(٢) وقال الالوسى فى روح المعانى : عند هذه الآية : ويعجبنى ماحرره بعض المحققين فى هذا المقام وبسطه فى الذب عن الخليل عليه السلام من الكلام وهو أن السوءال لم يكن عن شك فى أمر دينى والعياذ بالله ولكنه سوءال عن كيفية الاحياء ليحيط علما بها ، وكيفية الاحياء لا يشترط فى الايمان الاحاطة بصورتها ، فالخليل عليه السلام طلب علم ما لا يتوقف الايمان على علمه ويدل على ذلك ورود السوءال بصيغة

---

١) مسلم فى كتاب الفضائل

٢) فتح البارى جـ ٦ ص ٤١٢ ط السلفية

كيف وموضوعا السوء ال عن الحال ، ونظير هذا أن يقول القائل كيف يحكم زيد فى الناس فهو لا يشك أنه يحكم فيهم ولكنه سأل عن كيفية حكمه المعلوم ثبوته ولوكان سائلا عن ثبوت ذلك لقال أيحكم زيد فى الناس؟ ولما كان الوهم قد يتلاعب ببعض الخواطر فتنسب الى ابراهيم وحاشاه شكا من هذه الآية قطع النبى صلى الله عليه وسلم دابر هذا الوهم بقوله : على سبيل التواضع : نحن أحق بالشك من ابراهيم أى ونحن لم نشك فلاً لا يشك ابراهيم أحرى (١) هذا وقد قدمنا فى تدرج ابراهيم عليه السلام فى دعوته أن قوله : هذا ربى فى المواضع الثلاثة المذكورة فى سورة الانعام قدمنا أن ذلك نوع من التدرج فى الدعوة ليتمكن من القام خصومه الحجر وبهذا ينتفى عن ابراهيم خليل الرحمن أبى الانبياء صلوات الله وسلامه عليهم كل ما أثير حوله من الشبهات وماقيل عنه ويبقى ابراهيم نبى الله وخليله أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين آتاه الله رشده وحجته على خصومه وجعل الانبياء من بعده من ذريته وجعل الكتب السماوية من بعده لا تنزل الاعلى نسله وابتلاه ربه فوفى جميع ما أمره به كما شهد له بذلك فى قوله : وابراهيم الذى وفى وفى قوله : واذا ابتلى ابراهيم ربه بكلمات فأتمهن الى غير ذلك من خصال ابراهيم التى لا تنحصر ويكفى أن الله جعله من أولى العزم من الرسل صلوات الله وسلامه عليه وعلى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وعلى جميع الانبياء والمرسلين هـ

---

١) روح المعانى جـ ٣ ص ٢٣ ط ادارة الطباعة المنيرية بمصر

أما ما أورده طه حسين فى كتابه (فى الشعرالجاهلى) وظنه بعض الناس طعنا فى ابراهيم واسماعيل فان ذلك فى رأى أيضا ليس بطعن فى ابراهيم ولا اسماعيل وانما هو طعن فى القرآن والتوراة ، ويتبين ذلك من خلال نقل كلامه ، قال فى كتابه المذكور ص ٢٦

. . . والامر لا يقف عند هذا الحد فواضح جدا لكل من له الم بالبحث التاريخى ويدرس الاساطير والاقاصيص خاصة أن هذه النظرية متكلفة مصطنعة فى عصور متأخرة دعت اليها حاجة دينية أو اقتصادية أوسياسية للتوراة أن تحدثنا عن ابراهيم واسماعيل ، وللقرآن أن يحدثنا عنهما أيضا ، ولكن ورود هذين الاسمين فى التوراة والقرآن لا يكفى لاثبات وجودهما التاريخى فضلا عن اثبات هذه القصة التى تحدثنا بهجرة اسماعيل بن ابراهيم الى مكة ونشأة العرب المستعربة ، ونحن مضطرون الى أن نرى فى هذه القصة نوعا من الحيلة فى اثبات الصلة بين اليهود والعرب من جهة وبين الاسلام واليهودية والقرآن والتوراة من جهة أخرى ، وأقدم عصر يمكن أن تكون قد نشأت فيه هذه الفكرة انما هو هذا العصر الذى أخذ اليهود يستوطنون شمال البلاد العربية ويبنون فيه المستعمرات ، فنحن نعلم أن حروبا عنيفة شبت بين هؤلاء اليهود المستعمرين وبين العرب الذين كانوا يقيمون فى هذه البلاد وانتهت الى شىء من الملاينة والمسالمة ونوع من المخالفة والمهادنة فليس ببعيد أن يكون هذا الصلح الذى استقر بين المغيرين وأصحاب البلاد منشأ هذه القصة التى تجعل العرب واليهود أبناء أعمام .

ويقول فى ص ٢٧ . . . ولكن الشىء الذى لا شك فيه هو أن ظهور الاسلام وما كان من الخصومة العنيفة بينه وبين وثنية العرب من غير أهل الكتاب قد أقتضى أن تثبت الصلة الوثيقة المتينة بين الدين الجديد وبين الديانتين

القد يمتين د يانة النصارى ود يانة اليهود . فما الذ ى يمنع أن تستغل هذ ه القصة قصة القرابة الماد ية بين العرب العد نانية واليهود ، وقد كانت قريش مستعد ة كل الاستعد اد لقبول مثل هذ ه الاسطورة فى القرن السابع للمسيح فمن المعقول جد ا أن تبحث هذ ه المد نية الجد يد ة لنفسها عن أصل تاريخى قد يم يتصل بالاصول التاريخية الماجد ة التى تتحد ث عنها الاساطير .

ثم قال فى ص ٢٩ أمر هذ ه القصة اذ ا واضح فهى حد يثة العهد ظهرت قبيل الاسلام واستغلها الاسلام لسبب د ينى ، وقبلتها مكة لسبب د ينى وسياسى أيضا واذ ا فيستطيع التاريخ الادبى واللغوى ألا يحفل بهـا عند ما يريد أن يتعرف أصل اللغة العربية الفصحى اهـ (١)

هذ ا وقد ذ كر محمد أحمد عرفه أن هذ ا الكلام سرقه طه حسين من كتاب (ذ يل مقالة فى الاسلام) وهو كتاب لاحد المبشرين الطاعنين فى الاسلام (٢)

فطه حسين فى كلامه هذ ا أنكر وجود ابراهيم واسماعيل عليهما السلام وكذ ب القرآن والتوراة وقال ان ماورد فيهما لا يكفى فى ثبوت القضايـا التاريخيه كما أنكر وجود اسماعيل بمكة .

كل هذ ا طعن فى القرآن وتكذ يب له تكذ يبا صريحا ونيل من محمد صلى الله عليه وسلم ومن د ين الاسلام وليس فيه مايمس من كرامة ابراهيم فى رأى لاحد من أنكر وجود ابراهيم واسماعيل انما كذ ب الله ورسوله محمد ا صلى الله عليه وسلم وخالف اجماع المسلمين وأهل الكتاب وعليه فلا يحتاج

---

١) فى الشعر الجاهلى بواسطة نقل كتاب نقض مطاعن فى للقرآن الكريم بقلم محمد أحمد عرفه تصحيح وتعليق السيد محمد رشيد رضا ص ١٠٤-١٠٨

٢) الكتاب نفسه ص ١٠٢

هذا الكلام عند الى دفاع عن نبى الله ابراهيم عليه السلام وانما نقلته ليتبين لمن أطلع عليه المبدأ الذى عليه طه حسين ،

وقد نقل محمد أحمد عرفه كلام صاحب الذيل الذى سرق منه طه حسين فى كتابه أى كتاب محمد أحمد عرفه من ص ١٠٢-١٠٨ خلله بكلام طه حسين وقال : ان كلام صاحب الذيل يبدأ من ص ٣٥٢ وكل هذا الكلام ذكره محمد احمد عرفه تحت عنوان (طه حسين : يسرق طعونه فى القرآن من كتب المبشرين) اهـ فليراجعه من شاء .

الدعـــوة فى الآيـــات

١ - ان هذه الآيات أشارت الى بعض دعوة ابراهيم عليه السلام فقد أبرزت لنا أن ابراهيم الخليل كان يدعوالى توحيد الله تعالى كغيره من الأنبياء ومجانبة الأصنام وذلك فى قوله تعالى (... واجنبنى وبنى أن نعبد الأصنام) فطلبه من الله أن يبعده وبنيه من عبادة الأصنام نموذج عظيم من دعوة ابراهيم لأن الهدف الرئيسى من دعوة الحق هو توحيد الله وحده أى افراده بالعبادة وترك عبادة ماسواه

٢- دعا ابراهيم فى هذه الآيات الى اقامة الصلاة لأن الصلاة هى الركن الثانى من أركان الاسلام بعد شهادة أن لا اله الا الله ، وذلك فى قوله تعالى :

(... ربنا ليقيموا الصلوة ...) على أن اللام فى ليقيموا لام الأمر كما قدمنا .

٣- فى الآيات الدعوة الى التوحيد بعد الدعوة اليه واثبات سعة علم الله تعالى بجميع مخلوقاته فى سماواته وأرضه ، وذلك فى قوله : (ربنا ... وما نخفى وما نعلن وما يخفى على الله من شىء فى الارض ولا فى السماء)

٤- في الآيات هدف سام من أهداف الدعوة دعا اليه ابراهيم وهو شكر نعم الله تعالى على مايسديه من النعم على عباده وذلك في قوله كما حكى الله عنه لما رزقه الذرية .

(الحمد لله الذى وهب لى على الكبر اسمعيل واسحق ان ربى لسميع الدعاء) .

٥- دعا ابراهيم فى هذه الآيات ربه أن يديمه على طاعة الله ومن أعظمها اقامة الصلاة وذلك فى قوله : (رب اجعلنى مقيم الصلوة ومن ذريتى ...)

٦- دعا ابراهيم ربه فى هذه الآيات دعاء خاصا له ولوالديه ثم دعا لعامة المؤمنين بغفران الذنوب يوم يقومون للحساب بين يدى الله تعالى .

والحق أن المتأمل فى سيرة ابراهيم عليه السلام يجد أنه بأعماله وأقواله وتحركاته وسكناته وفى حله وترحاله لم يكن الا دعوة الى الله تعالى فجميع حياة ابراهيم دعوة الى الله وكل حالاته تنطق بذلك ، فقد دعا عليه السلام الى توحيد الله والايمان باليوم الآخر ، كما دعا الى الاعمال الصالحة والاخلاق الفاضلة الحميدة .

وقد قام ابراهيم بهذه الدعوة سالكا شتى المسالك ومنتهى سائر المناهج كى يصل صوت الحق الى كافة الاسماع ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حى عن بينة .

وكانت دعوته صلى الله عليه وسلم تظهر فى أسلوبين رئيسيين :-

الاول : الاسلوب النظرى القائم على الاخبار بأن الله تعالى موجود ، وهو خالق هذه الكائنات كلها أرضها وسمائها وبحارها وأشجارها ..

والثانى : الاسلوب العملى التجريبى ، فلم يقتصر ابراهيم فى دعوته على الاسلوب النظرى فقط بل دعا الى الله بلسانه وبيده نه وضحى بنفسه

وولده ، ووطنه وانقاد لأمر الله وفوض الأمر له واتكل عليه عندما أرادعه وه المكر به الى غير ذلك ويظهر لنا كل ذلك فيما يلى :

١- عندما ألقى فى النار لم يجزع ولم يخف ولم ينس ربه فى ذلك الوقت الحرج بل اعتمد عليه حق الاعتماد حيث قال : (حسبنا الله ونعم الوكيل واخراجه من النار دون أن تمسه دليل قاطع على أن الله الذى يدعواليه ابراهيم موجود وقادر ومتصرف فى الخلق وحده فهذا العمل ناطق بوجود الله تعالى فلا شك أن الله سبحانه وتعالى هو الذى سوى هذه العملية لتكون دليلا قاطعا على صحة دعوة خليله ابراهيم عليه السلام

٢- واذا كانت عملية الالقاء هذه دعوة عملية الى الايمان بالله تعالى فان عملية تكسير الأصنام دعوة ذات شقين :

الأول بيان بطلان عبادة هذه الأصنام وأنها لا تنفع من عبدها ، ولا تضر من لحقها بسوء ، وأنها لا قيمة لها ألبتة .

والشق الثانى يترتب عن الأول : وهو أنه ما دامت الأصنام لا تنفع ولا تضر فالله وحده هو الذى ينفع ويضر فاذا هو الذى يستحق العبادة وحده ،

٣- ان ابراهيم دعا الى وجود الله بطريق المحاجة وهو طريق الناحتين : العملية والقولية حيث يستدل على وجود الله بأنه هو الذى يأتى بالشمس من المشرق ويفحم النمرود بعجزه عن الاتيان بها من جهة المغرب حتى بهت كما استدل على حدوث الكواكب بالأفول فبين بذلك أن الله لا يزول ولا يتغير .

٤ - دعا ابراهيم عليه السلام الى الايمان بالبعث ليشاهد كيفية احياء الموتى ليجمع بين علم اليقين وعين اليقين .

٥ - دعا الى الله عمليا بامتثاله أمر ربه بذبح ولده العزيز عليه حيث لم يولد له ولد الا بعد أن كبر ويئس من الولد فلما رزق الولد وبلغ معه السعي أمر بذبحه ابتلاء فبادر متمثلا أمر ربه سبحانه وتعالى صابرا ثابت الجأش فلاشك أن هذه العملية التي وسمها الله بأنها ابتلاء لاشك أنها عملية تطبيقية للدعوة الى الله عمليا .

٦- ان خروج ابراهيم عليه السلام من وطنه مسقط رأسه وحيد اليس معه الا زوجه وابن أخيه لوط وذهابه الى الشام وغير ذلك من البلاد فرارا بدينه من بلد لا يمكنه فيه أن يعبد ربه بل لا يأمن فيه على نفسه الموت الى بلد يتمكن فيه من عبادة ربه ، ان هذا الخروج لعمل ناطق بالاخلاص لله في الدعوة اليه .

٧- أن امتثال أمر ابراهيم لربه ببناءة البيت الحرام ذلك الرجل الوحيد الذي لا مساعد له على هذا الأمر الشاق الا ذلك الابن الصغير فقدومه على هذا الأمر وتنفيذه له عمليا لأمر عظيم دل على ان ابراهيم عليه السلام لم يترك مجالا للدعوة نظريا ولا عمليا الا قام به .

٨- ان ابراهيم عليه السلام ابتلاه الله بكلمات أوامر ونواهي على ماقدمنا فوفاهن كما أمره الله حيث شهد له بذلك في قوله : (وابراهيم الذي وفى) وقوله : (واذ ابتلى ابراهيم ربه بكلمت فأتمهن ..)

والى هنا انتهى الكلام ،

على ابراهيم ورجع السياق الى محمد صلى الله عليه وسلم وأمته فشرعت

السورة فى اسلوب من أساليب الدعوة الى الله وهو الترهيب اذ

الترهيب أسلوب عظيم من أساليب الدعوة استعمله الدعاة قديما وحديثا كما أن هذا الترهيب مشوب بنوع آخر من أساليب الدعوة وهو تسلية الداعى بمعاقبة المكذبين المعرضين عن دعوته ، قوله تعالى : (ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظلمون انما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الابصار) يقول تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم لا تظن يا محمد أن الله غافلا عن عمل هؤلاء القوم الظالمين فامهلى لهم لا يقتضى اهمالى لهم وتركى لعقوبتهم بل أنا عالم بأعمالهم ومحصيها عليهم ومجازيهم عليها وفى هذا وعيد للظالم وتسلية للمظلوم ، انما يؤخرعقابهم وانزال العذاب بهم الى يوم تشخص فيه أبصار الخلائق من شدة الهول وذلك يوم القيامة ، قوله تعالى (مهطعين مقنعى رؤسهم لا يرتد اليهم طرفهم وأفئدتهم هواء) بين تعالى حالة خروج هؤلاء الظالمين من قبورهم فأخبر تعالى أنهم يخرجون من قبورهم مهطعين أى مسرعين كما قال تعالى مهطعين الى الداع ،

وقال تعالى : يوم يخرجون من الاجداث سراعا كانهم الى نصب يوفضون خاشعة ابصارهم ، مقنعى رؤسهم أى رافعيهم لا يرتد اليهم طرفهم أى لا يرجع اليهم بل عيونهم مفتوحة ممدودة من غير تحريك للاجفان (١) وقوله : وافئدتهم هواء : الهواء الخلاء الذى لم تشغله الاجرام فيوصف به فيقال قلب فلان هواء اذا كان جبانا لا قوة فى قلبه ولا جرأة والمعنى أنهم جوف لا عقول لهم ، وقيل : ان المعنى أن افئدتهم متخرقة

---

١) انظر الكشاف جـ ٢ ص ٣٨٢ المصدر السابق

لا تعنى من الخير شيئا

(١) . قوله تعالى : (وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب فيقول الذين ظلموا ربنا أخرنا الى أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل أو لم تكونوا أقسمتم من قبل مالكم من زوال)

ان هذه السورة الكريمة من أولها حتى نهايتها لا تكاد تتجاوز منها آيتين أو ثلاثا بالا وذكر فيها أسلوب من أساليب الدعوة الى الله جل وعلا كما يقف على ذلك من تدبرها من أولها ، وهنا يكون الاسلوب فى الآيات الآتيه اسلوب انذار ، فيأمر الله نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم أن ينذر الناس الذين أرسل اليهم داعية الى الاسلام ، أى أنذرهم ماهو نازل بهم يوم يأتيهم عذاب الله يوم القيامة فيقول الذين كفروا بربهم وظلموا أنفسهم ربنا أخرنا الى أجل قريب أى اخر عنا عذابك وأمهلنا الى أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل أى نصدقهم فيما يدعوننا اليه من طاعتك واتباع أمرك ، ولكنهم يكذبون فيما يقولون لأن الله أخبر بكذبهم فيه بقوله :

(ولو ترى اذ وقفوا على النار فقالوا يليتنا نرد ولا نكذب بآيت ربنا ونكون من المؤمنين ، بل بدا لهم ماكانوا يخفون من قبل ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وانهم لكذبون) (٢)

---

١) أنظر تفسير ابن جرير جـ ١٣ ص ١٥٨

٢) آيتى ٢٧ - ٢٨ من سورة الأنعام

ثم رد الله عليهم مقالتهم هذه بقوله : (أولم تكونوا أقسمتم من قبل مالكم من زوال) أى أولم تكونوا تحلفون من قبل هذه الحالة وأنتم فى دار الدنيا أنه لا زوال لكم عما أنتم فيه ولا معاد ولا حشر ولا جزاء فذوقوا هذا بذلك (١)

قوله تعالى : (وسكنتم فى مسكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال) هذا من تمام تقريع الظالمين على ظلمهم ، بعد ما قال الله لهم : (أولم تكونوا أقسمتم من قبل مالكم من زوال) أتبع ذلك بقوله : (وسكنتم فى مسكن الذين ظلموا أنفسهم) يعنى أن هؤلاء المخاطبين سكنوا فى مساكن من كان قبلهم من الأمم الظالمة كقوم نوح وعاد وثمود وأهل مدين ، وعلموا كيفية اهلاك الله لهم بسبب ظلمهم وتكذيبهم لرسل الله وقد ضرب الله لهم الأمثال أى الأشياء (٢) وقيل المعنى : وضربنا لكم الأمثال أى صفات مافعلوا ومافعل بهم وهى فى الغرابة كالأمثال المضروبة لكل ظالم (٣) قوله تعالى :

(وقد مكروا مكرهم وعند الله مكرهم وان كان مكرهم لتزول منه الجبال)

---

١) انظر ابن كثير هنا

٢) طالع تفسير بن جرير جـ١٣ ص ٢٢٣ المصدر السابق

٣) انظر الكشاف جـ ٢ ص ٣٨٣ المصدر السابق

الضمير فى قوله : (مكروا) راجع للقوم الظالمين المخاطبين فى قوله :

(أولم تكونوا أقسمتم من قبل مالكم من زوال) ، وقيل انه عائد الى قوم الرسول ذكر ذلك أبو حيان فيكون مثل قوله : (وأنذر الناس ويوم يد ه قوله : (واذ يمكربك الذين كفروا : الآية (١) أى وقد مكر قومك يا محمد وعند الله مكرهم ، والمعنى : أنهم مكروامكرهم العظيم ،وعند الله مكرهم أى مكتوب عند ه فهو يجازيهم عليه بمكر هو أعظم منه ،أو يكون المعنى : وعند الله مكرهم الذى يمكرهم به وهو خذ ابهم الذى يستحقونه يأتيهم من حيث لا يشعرون ،

ثم قال على سبيل تحقير مكرهم (وان كان مكرهم لتزول منه الجبال) أى ماكان مكرهم لتزول منه الجبال ، والجبال مثل لآيات الله وشرائعه لانها بمنزلة الجبال الراسية ثباتا وتمكنا فلا يغيرها مكرالماكرين (٢) فعلى هذا تكون (ان) نافية بمعنى (ما) وتكون اللام لام الجحود كقوله تعالى (.. وماكان الله ليضيع ايمانكم ..) (٣)

وقد قرأ الكسائى من السبعة : (وان كان مكرهم لتزول منه الجبال) وعليه تكون (ان) هى المخففة من الثقيلة واللام هى الفارقة بين (ان) المخففة من الثقيلة وبين (ان) النافية ، وعلى هذه القراءة يكون المعنى :

---

١) جزء من آية ٣٠ من سورة الانفال
٢) طالع الكشاف جـ ٢ ص ٣٨٣
٣) جزء من آية ١٤٣ من سورة البقرة

تعظيم شأن مكرهم حتى زالت منه الجبال ، أو كادت تزول ،

ويؤيد هذا المعنى : ماروى عن عمرو على وعبد الله بن مسعود وأبى سلمة بن عبد الرحمن وأبى اسحق السبيعى وزيد ابن على أنهم قرءوا : (وان كاد مكرهم) بالدال ، والمقصود أن هؤلاء الكفرة الظالمين مكروا مكرا وأن الله سيجازيهم على مكرهم فى الآخرة ، وقد جوزوا بعض الجزاء فى الدنيا ، وقد ذكر المفسرون والنحاة كلاما كثيرا عند هذه الآية أعرضنا عنه لاخلاله بالمقصود ، قوله تعالى :

(فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله ان الله عزيز ذو انتقام)

يقول تعالى لنبيه لا تظن يامحمد أن الله يخلف الوعد الذى وعد به رسله من نصرتهم على أعدائهم وعقوبته لمن كذبهم ، وقد وعدهم بالنصر فى قوله (انا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحيوة الدنيا ويوم يقوم الاشهاد) (١) وقوله : (كتب الله لاغلبن أنا ورسلى ان الله قوى عزيز) (٢) كما وعدهم باهلاك المكذبين كما تقدم فى قوله : (فأوحى اليهم ربهم لنهلكن الظلمين ، ولنسكننكم الأرض من بعدهم . .) ثم أخبر تعالى أنه عزيز أى غالب لا يعاكر ، ذو انتقام لأوليائه من أعدائه (٣) ومن أسمائه المنتقم . (قوله تعالى : (يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات وبرزوا لله الواحد القهار)

---

١) آية ٥١ من سورة غافر

٢) آية ٢١ من سورة المجادلة

٣) انظر الكشاف جـ ٢ ص ٣٨٤ المصدر السابق

يوم تبدل الأرض يصح أن يكون منصوبا على البدلية من قوله : يوم يأتيهم العذاب ، ويصح أن يكون ظرفا للانتقام المذكور قبله ، وعلى الأخير اقتصر ابن جرير ، واختلف العلماء في هذا التبديل الذى أخبر الله به للأرض والسماء ، وذلك لأن التبديل يقع في الذوات فتقول : بدلت الدراهم دنانير ، وتقول بدلت هذا الثوب بهذا ومنه قوله تعالى : (... بدلنهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب) (١) كما يقع التبديل في الصفات فتقول : بدلت الحلقة خاتما اذا أذبتها وسويتها خاتما فنقلتها من شكل الى شكل ومنه قوله تعالى : (.. فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنت ..) (٢)

لهذا اختلف في هذا التبديل فقيل انه تبديل ذوات فتحشر الناس على أرض غير هذه الأرض التي كانوا عليها بيضاء لم يخطئ عليها أحد خطيئة ، وهذا القول مروى عن ابن مسعود ، وورد به حديث الصحيحين (يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء (٣) كقرصة النقي (٤) ليس فيها علم لأحد) (٥)

وقد أخبر صلى الله عليه وسلم أن الناس اذ ذاك على الصراط كما في صحيح مسلم عن عائشة رضى الله عنها قالت

---

١) جزء من آية ٥٦ من سورة النساء

٢) جزء من آية ٧٠ من سورة الفرقان

٣) البياض ليس بالناصع ، أو يضرب الى الحمرة قليلا

٤) بفتح النون وكسر القاف الدقيق النقي من الغش والنخالة . فتح البارى جـ ١١ ص ٣٧٥ ط السلفية

٥) أخرجه البخارى في كتاب الرقاق ، ومسلم في كتاب صفات المنافقين في باب البعث وصفة الأرض يوم القيامة .

(أنا أول الناس سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذه الآية : يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات وبرزوا لله الواحد القهار) قالت قلت : أين الناس يومئذ يارسول الله ؟ قال على الصراط (١)

وقيل : ان الأرض تبدل بأرض من فضة ، والسماوات بسماوات من ذهب ، وهذا القول مروى عن على رضى الله عنه ،

وقيل : ان التبديل فى الأوصاف فتزال عن الأرض جبالها وتسوى فلا يرى فيها عوج ولا أمت ، وهذا مروى عن ابن عباس ، وتبديل السماء يكون بانتشار كواكبها وكسوف شمسها وخسوف قمرها . (٢)

---

١) أخرجه مسلم فى كتاب صفة القيامة والجنة والنار : باب البعث والمنشور

٢) طالع الكشاف جـ ٢ ص ٣٨٤ المصدر السابق .

وقوله : وبرزوا الله الواحد القهار : أى خرج الناس من قبورهم لله الواحد القهار أى الذى قهر كل شىء وغلبه ودانت له الرقاب وخضعت له الجبابرة .

قوله تعالى (وترى المجرمين يومئذ مقرنين فى الأصفاد) هذا من أوصاف يوم القيامة أخبر الله تعالى ان المجرمين فى ذلك اليوم مقرنون فى الأصفاد أى مشدودون ، والأصفاد الاغلال والقيود ، قيل يقرن كل كافر مع شيطان فى غل كما قال تعالى : احشروا الذين ظلموا وأزواجهم يعنى قرناءهم من الشياطين ،

قوله تعالى (سرابيلهم من قطران وتغشى وجوههم النار) هذا من تمام وصف عذاب المجرمين أخبر تعالى أن سرابيلهم أى قمصهم من قطران وهو مادة مشتعلة ، وقيل : انه النحاس ، وتضرب النار وجوههم فتغشيها (١) كما قال تعالى : (يوم يسحبون فى النار على وجوههم) (٢) لأن الوجه أعز موضع فى ظاهر البدن وأشرفه كما أن القلب أعز موضع فى باطن البدن ولذلك ذكر فى موضع آخر من أنواع عذابهم أن النار تطلع على افئدتهم فقال (نار الله الموقدة التى تطلع على الافئدة) (٣) : قوله (ليجزى الله كل نفس ما كسبت ان الله سريع الحساب) يعنى أنه يفعل بالمجرمين

---

١) أنظر القرطبى : جـ ٥ ص ٣٦١ ط الشعب

٢) جزء من آية ٤٨ من سورة القمر

٣) آيتى ٦ ، ٧ من سورة الهمزة

مايفعل ليجازى كل نفس مجرمة بما كسبت من الاعمال السيئة لانه اذا عاقب المجرمين على اجرامهم علم أنه يثيب المطيعين على طاعتهم .

والاولى حمل اللفظ على عمومه لان القرآن ذكر فى مواضع كثيرة أن الله يجازى كل نفس مرهنة كانت أوكافرة بما كسبت كما قال : (كل نفس بما كسبت رهينة) (١) كل امرىء بما كسب رهين) (٢) وقال : (علمت نفس ما احضرت) (٣) (علمت نفس ماقدمت وأخرت) (٤) وقوله ان الله سريع الحساب قيل انه مثل قوله (اقترب للناس حسابهم وهو فى غفلة معرضون) (٥) ويحتمل أن المعنى آنه فى حال محاسبته لعبده سريع الانجاز للحساب لانه يعلم كل شىء ولا يخفى عليه خافية لان جميع الخلق بالنسبة الى قدرته كالواحد منهم كما قال تعالى : (ماخلقكم ولا بعثكم الا كنفس واحدة) (٦) ولا مانع من ارادة المعنيين معالان حساب الله لعبيده قريب اذ مدة الدنيا كلها قليلة كما أنه سريع الانجاز اذا أراد حساب عباده (٧)

قوله تعالى : (هذا بلغ للناس ولينذروا به وليعلموا أنما هو اله واحد وليذكر أولوا الالباب) ان هذه السورة الكريمة بدأت بما يفيد عموم رسالة

---

١) آية ٣٨ من سورة المدثر

٢) جزء من آية ٢١ من سورة الطور

٣) آية ١٤ من سورة التكوير

٤) آية ٥ من سورة الانفطار

٥) آية (١) من سورة الانبياء

٦) جزء من آية ٢٨ من سورة لقمان

٧) انظر تفسير ابن كثير عند تفسير الآية

نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وختمت بما يفيد ذلك أيضا كما أنها بدأت بهدف عظيم من أهداف الدعوة الى الله تعالى وختمت به أيضا فقد بدأت بقوله تعالى ألد كتب أنزلته اليك لتخرج الناس من الظلمات الى النور ، وهذا يفيد عموم الرسالة كما قدمنا ، واخراج الناس من ظلمات الكفر الى نور الاسلام ومن ظلمات الجهل الى نور العلم هدف عظيم من أهداف الدعوة الى الله تعالى ، وقد ختمت هذه السورة بما يفيد الأمرين معا فآخر آية منها هى قوله هذا بلغ للناس أى هذا القرآن بلاغ للناس وهذا يفيد العموم كما تقدم أيضا وفى نفس الآية ولينذروا به وهذا هو الهدف الذى بدأت به السورة هناك لأن اخراج الناس من الظلمات الى النور كائن بسبب الانذار والانذار هدف سام من أسمى أهداف الدعوة الى الله تعالى مع أنها ختمت أيضا بأعظم أهداف الدعوة الى الله وهو توحيد الله جل وعلا وذلك فى قوله وليعلموا أنما هو اله واحد وهو الذى يستحق العبادة وحده دون سواه ، وفيها هدف آخر وهو تذكير أهل العقول أى تنبيههم فانهم أهل الاعتبار والادكار دون الذين لا عقول لهم ولا أفهام فانهم كالانعام بل هم أضل سبيلا ، وتذكير أهل العقول والنهى ودعوتهم بالتى هى أحسن واستمالتهم قبل العامة هدف عظيم من أهداف الدعوة لأن أهل العقول والادكار اذا استجابوا للداعى الى الله وقبلوا دعوته هان على بقية الناس قبول الدعوة ، واذا رفض أهل العقول وأهل الحل والعقد دعوة الداعى كان ذلك سببا فى رفض العامة لها كما هو مشاهد فى دعوة الرسل صلوات الله وسلامه عليهم فكان الأشراف من قومهم يعرضون عن دعوتهم ويصدون الناس عنها كما فعل

رؤساء قريش وكما فعل الملأ من قوم نوح وعاد وشعيب كما هو معلوم من دعوة الرسل فى القرآن الكريم . واليك ماذكره كبير المفسرين ابن جرير الطبرى فى تفسير هذه الآية ليتبين لك منه ماقلنا قال عند هذه الآية مانصه : يقول تعالى ذكره هذا القرآن بلاغ للناس أبلغ الله به اليهم فى الحجة عليهم وأعذر اليهم بما أنزل فيه من مواعظه وعبره ، ولينذروا به يقول : ولينذروا عقاب الله ويحذروا به نقماته أنزله على نبيه صلى الله عليه وسلم : وليعلموا انما هو اله واحد : يقول وليعلموا أنما احتج به عليهم من الحجج فيه أنما هو اله واحد لا آلهة شتى كما يقوله المشركون بالله وأن لا اله الا هو الذى له مافى السماوات ومافى الأرض الذى سخر لهم الشمس والقمر والليل والنهار وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لهم وسخرلهم الفلك لتجرى فى البحر بأمره وسخر لهم الانهار ، وليذكر أولوا الالباب يقول وليتذكر فيتعظ بما احتج الله به عليه من حججه التى فى هذا القرآن فينزجر عن أن يجعل معه الها غيره ويشرك فى عبادته شيئا سواه أهل الحجى والعقول فانهم أهل الاعتبار والادكار دون الذين لاعقول لهم ولا أفهام فإنهم كلا نعلم بل هم أضل سبيلا (١) وذكر أبو حيان عن المبرد أن قوله (هذا بلغ للناس وليتذروا به) من باب عطف الفرد على المفرد أى : هذا بلاغ وانذار ثم قال : وهذا تفسير معنى لا تفسير اعراب ، وقال بعضهم ان الواو زائدة والمعنى هذا بلاغ للناس لينذروا به (٢) وقال الزمخشرى

---

١) تفسير ابن جرير جـ ١٣ ص ١٦٩ المصدر السابق

٢) انظر البحر المحيط جـ ٥ ص ٤٤١ المصدر السابق

ان قوله لينذروا به معطوف على محذوف أى لينصحوا ولينذروا (١) وقال الفخر الرازى فى تفسيره ثم اختلفوا فقيل ان قوله هذا اشارة الى كل القرآن وهذا هو الذى اقتصر عليه ابن جرير كما قدمنا وهو الاولى عندنا - وقيل اشارة الى كل هذه السورة ، وقيل اشارة الى المذكور من قوله ولا تحسبن الله الى قوله سريع الحساب (٢) ولنختتم تفسير الآية بما ذكره فيها ابن كثير فى تفسيره قال : يقول تعالى هذا القرآن بلاغ للناس كقوله : لانذركم به ومن بلغ أى هو بلاغ لجميع الخلق من انس وجن كما قال فى أول السورة ألر كتاب أنزلناه اليك لتخرج الناس من الظلمات الى النور (٣)

وبالله تعالى التوفيق وهو حسبنا ونعم الوكيل .

---

١) الكشاف جـ ٢ ص ٣٨٥ المصدر السابق

٢) انظر تفسير الفخر الرازى جـ ١٩ ص ١٤٩ المصدر السابق

٣) تفسير ابن كثير عند الآية

الخَاتِمَة

((الخاتمـــــــــه))

*****

وتشتمل على مايلى من نتائج البحث : -

١- لقد أبرزت الدعوة الى الله تعالى فى سورة ابراهيم مهينا مافيها من أهداف الدعوة الاسلامية ووسائلها وأساليبها ومناهجها .

فمثلا فى آية (١) وآية (١٠) وآية (١٩) وآية (٥٤) بينت فى هذه الآيات وأمثالها الهدف الأساسى للدعوة الاسلامية الذى هو توحيد الله جل وعلا .

وفى آية (١٢) بينت أن التوكل على الله هدف سام من أهداف الدعوة اليه .

وفى آية (٣١) بينت أن العمل الصالح هدف أيضا من أهداف الدعوة الى الله .

٢- وأوضحت مافيها من أساليب الترهيب كما فى الآية رقم (٢) والآية رقم (٧) والآية رقم (١٨) والآية رقم (٢٢ ، ٢٩ ، ٣٠)

٣- ومافيهامن أساليب الترغيب كما فى الآية رقم (١٠) والآية رقم (٢٣)

٤- ومافيها من أسلوب الحوار وذلك فى الآيات من ١٠ - ١٣

٥- ومافيها من أساليب الطلب والخبر

فالأول كمافى الآية رقم ٩ - ١٠ والثانى فى الآية رقم ١٣

٦- توصلت فى هذه الرسالة الى نقاط مهمة لم أر من تكلم عليها كلاما شافيا فأردت أن أبحثها حتى أصل فيها الى نتيجة .

١- منها مسألة دخول الملائكة عليهم السلام فى عموم رسالة محمد صلى الله عليه وسلم فتوصلت الى أن العمومات من القرآن والسنة النبوية التى فيها التنصيص على عموم رسالته صلى الله عليه وسلم .

تشملهم وأنهم خرجوا من ذلك العموم بمخصص من المخصصات المنفصلة ذلك المخصص هو العقل .

٢ - مسألة شمول الدعوة الاسلامية ليأجوج ومأجوج بحثتها من عدة نواح .

أولا - اثبات أنهم من ذرية آدم

ثانيا - هل بلغتهم الدعوة الاسلامية أو لا ؟

ثالثا - هل أرسلت اليهم رسل منهم أولا ؟ وذكرت ما ترجح عندى فى ذلك : وهو أنه لا مانع من ارسال رسل اليهم من جنسهم لأن النصوص تدل على ذلك ، وأن الراجح عندى أن الدعوة الاسلامية تبلغهم اذا خرجوا زمن عيسى عليه السلام حاكما بشريعة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم .

٣ - مسألة دخول الجن فى عموم رسالة محمد صلى الله عليه وسلم وأن القرآن بلغهم وأنذروا به .

كما ذكرت الجمع بين الأحاديث التى دلت على أن النبى صلى الله عليه وسلم ذهب اليهم وقرأ عليهم القرآن كما روى ذلك عن عبد الله بن مسعود وبين الاحاديث التى دلت على أنه ما رأى الجن ولا قرأ عليهم القرآن كما روى ذلك عن عبد الله بن عباس ،

وبين الأحاديث التى وردت أيضا عن عبد الله بن مسعود أنه صلى الله عليه وسلم ما صحبه أحد من أصحابه ليلة ذهب الى الجن ،

وبين الأحاديث التي دلت على أن عبد الله كان معه تلك الليلة .

كما تعرضت لمسألة وجود رسل من الجن اليهم وهل الرسل لم يكونوا الا من البشر خاصة أو من البشر ومن الجن ،

وقد ترجح عندي أنه لا مانع من وجود رسل من الجن الى جنسهم وبينت دلالة آية الأنعام على ذلك وهي قوله تعالى :

(يمعشر الجن والانس ألم ياتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا شهدنا على انفسنا وغرتهم الحيوة الدنيا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كفرين) (١)

وذكرت الخلاف في مومني الجن هل يدخلون الجنة أويجارون من العذاب فقط ، وبينت أن الصحيح دخولهم الجنة .

وقد أوضحت عموم رسالة محمد صلى الله عليه وسلم مدعما ذلك بالأدلة من الكتاب والسنة والاجماع وخصوصية رسالات من سبقه من الأنبياء .

وبينت أن رسالات السماء وحدة متكاملة يصدق اللاحق من الرسل السابق ويبشر السابق باللاحق ،

كما ألقيت نظرة على مصير الأمم المكذبة لرسل الله دعاة الحق .

وقد ذكرت نبذة من عقيدة المسلمين في الله والرسل والملائكة واليوم الآخر والقدر خيره وشره ،

ونبذة من عقيد أهل الكتابين في الاله والرسل والملائكة وبينت بطلان ذلك واستحالته في حق الله والرسل والملائكة .

---

١) آية ١٣٠ من سورة الأنعام .

كما أثبت زيف مصادر د بين أهل الكتاب وتناقضها وعدم استنادها الى سند يثبت صحتها .

كما تعرضت لرد بعض الشبهة التى أوردها أعداء الاسلام حول عموم رسالة محمد صلى الله عليه وسلم وأبطلتها .

بينت أساليب نوح وهود وصالح وابراهيم وموسى عليهم الصلاة والتسليم ومناهجهم فى دعوتهم . .

كما تعرضت للخلاف الذى ذكره المفسرون فى المراد بقوم موسى فى قوله تعالى :

(ولقد أرسلنا موسى بآياتنا أن أخرج قومك من الظلمت الى النور) هل قومه بنواسرائل أو فرعون وقومه وبينت أنه لا مانع من اطلاق قوم موسى على الجميع وذكرت لذلك ادلة من القرآن .

كما بينت دعوة ابراهيم الخليل عليه السلام فى هذه السورة الكريمة وذكرت منهجه وأسلوبه فى دعوته وابتلاآته التى ابتلاه الله بها ووفى كما أخبر بذلك الله جل وعلا فى كتابه ، وذكرت خلاف العلماء فى الكلمات التى ابتلاه الله بها .

وتعرضت لبعض الشبه التى أثيرت حول نبى الله ابراهيم وخليله وأبطلت ماحوله منها كما بينت أن بعض الشبه التى ظنها بعض المعاصرين حول ابراهيم لم تكن طعنا فيه وانما هى طعن فى رسالة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وفى القرآن الكريم .

ومن النقاط المهمة التى أبرزتها فى هذه الرسالة أننى استخلصت أساليب الدعوة ووسائلها وأهدافها ومناهجها من القرآن الكريم

ذلك لأن الدعوة الى الله فى هذا العصر الحديث ، وفى كل عصر من العصور زادها القوى وقلبها النابض انما هو القرآن الكريم والسنة النبوية فأساليبها ومناهجها فى كل عصر لا تخرج عما فى القرآن الكريم فلا يمكن فيها استخدام أساليب أخرى الا اذا كانت على ضوء القرآن الكريم ولذلك أخترت استخلاص مناهج الرسل وأساليبهم فى دعوتهم من القرآن لأن ذلك موضح فيه .

وانى أنصح للدعاة الذين يقتفون أثر شخصيته أى شخصية على أنها داعية ويحذون حذوها فى المناهج والأساليب ،

والقرآن حافل بدعوة الرسل لا تكاد تقرأ منه سورة واحدة الا وهى حافلة بدعوة أحد الرسل عليهم صلوات الله وسلامه ، وصلى الله وسلم على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

مراجع البحث

١ـ القرآن الكريم

٢ـ السنة النبوية

صحيح البخارى

٣ـ صحيح مسلم

٤ـ الجامع الصحيح — للامام الحافظ محمد بن عيسى الترمذى

٥ـ المستدرك — لابى عبد الله الحاكم النيسابورى

٦ـ المسند — للامام أبى عبد الله أحمد بن حنبل

٧ـ فتح البارى — للحافظ ابن حجر

٨ـ شرح النووى — على مسلم

٩ـ شعب الايمان — للحافظ البيهقى

١٠ـ شرح الابى — على مسلم

١١ـ الخصائص الكبرى — للسيوطى

١٢ـ التقييد والايضاح شرح مقدمة ابن الصلاح — للعراقى

١٣ـ زاد المعاد فى هدى خير العباد — لابن قيم الجوزية

١٤ـ أعلام الموقعين عن رب العالمين — لابن قيم الجوزية

١٥ـ الشفا — للقاضى عياض

١٦ـ فتح المنعم شرح زاد المسلم فيما اتفق عليه البخارى ومسلم للشيخ محمد حبيب الله ابن ما يابا الشنقيطى .

١٧- جامع البيان فى تفسير القرآن — لابى جعفر محمد بن جرير الطبرى

١٨- تفسير القرآن العظيم — لابى الفداء اسماعيل ابن كثير

١٩- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الاقاويل فى وجوه التأويل
لابى القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشرى

٢٠- تفسير القرآن — للامام النسفى

٢١- تفسير القرآن — للنيسابورى

٢٢- البحر المحيط — لمحمد بن يوسف الشهير بأبى حيان
الاندلسى الغرناطى .

٢٣- الجامع لاحكام القرآن : لابى عبد الله محمد بن احمد الانصارى القرطبى

٢٤- تفسير القرآن — للبيضاوى

٢٥- فتح القدير — لمحمد بن على بن محمد الشوكانى

٢٦- التفسير الكبير — للامام الفخر الرازى

٢٧- تفسير القرآن — لابى السعود

٢٨- تفسير المنار — للشيخ محمد رشيد رضا

٢٩- أضواء البيان فى ايضاح القرآن بالقرآن : للشيخ محمد الامين الشنقيطى

٣٠- تفسير القرآن — للخازى

٣١- روح المعانى — للالوسى

٣٢- مباحث فى علوم القرآن — للشيخ عبد الفتاح القاضى

٣٣- الاتقان فى علوم القرآن — للامام السيوطى

٣٤- اعجاز القرآن — للرافعى

٣٥- الفتوحات الالهيه — لسليمان الجمل

٣٦- المنتخب فى تفسير القرآن — اللجنة المصرية

٣٧- حاشية الشهاب — على البيضاوى

٣٨- حاشية الصاوى — على الجلالين

٣٩- فى ظلال القرآن — للسيد قطب

٤٠- المحرر الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز — للقاضى أبى محمد عبد الحق ابن عطية

٤١- الكشف عن وجوه القرآت السبع وعللها وحججها — لمكى بن أبى طالب القيسى

٤٢- البرهان فى علوم القرآن — للزركشى

٤٣- أحكام القرآن — لابى بكر بن العربى

٤٤- نقض مطاعن فى القرآن الكريم — بقلم محمد أحمد عرفه تصحيح وتعليق السيد محمد رشيد رضا .

٤٥- الدعوة الى الاسلام — المستشرق سيرتوماس

٤٦- الدعوة الى الله : خصائصها مقوماتها — د : أبو المجد السيد نوفل

٤٧- مع الله — للشيخ محمد الغزالى

٤٨- الدعوة الى الاسلام — محمد أبو زهرة

٤٩- الدعوة الى الاسلام دعوة عالمية — محمد الراوى

٥٠- المؤتمر العالمى للدعوة واعداد الدعاة — اللجنة الاولى / مبحث أبو طالب شاهين

٥١- حقائق الاسلام وأباطيل خصومه — للعقاد

٥٢- رسالة الاسلام — السيد عبد الحميد خطيب

٥٣- منهج التشريع الاسلامى وحكمته — للشيخ محمد الامين الشنقيطى

٥٤- الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح — لابن تيمية

٥٥- شرح العقيدة الطحاوية

٥٦- اظهار الحق — لرحمة الله بن خليل الرحمن الهندي

٥٧- محاضرة في الأسماء والصفات من سلسلة محاضرات الجامعة الاسلامية — للشيخ محمد الأمين الشنقيطي

٥٨- دعوة الرسل — محمد أحمد الصعدوي

٥٩- الابانه في أصول الديانه — لأبي الحسن الأشعري

٦٠- الاسلام ظهوره وانتشاره — حامد عبد القادر

٦١- نبي الاسلام — عز الدين فراج

٦٢- الدعوة الى الاسلام — د : زكري

٦٣- تاريخ الأمم والملوك — لابن جرير الطبري

٦٤- أنساب الأشراف — للبلاذري

٦٥- العهد الجديد

٦٦- العهد القديم

٦٧- قصص الأنبياء — عبد الوهاب النجار

٦٨- قصص الأنبياء — لابن كثير

٦٩- عيون الأثر — لابن سيد الناس

٧٠- السيرة النبوية — لابن هشام

٧١- اللباب في تهذيب الأنساب — لعزالدين ابن الاثير الجزري

٧٢- البداية والنهاية — لابن كثير

٧٣- دائرة المعارف الاسلامية — القرن العشرين

٧٤ ـ حاشية الجلال المحلى على جمع الجوامع

٧٥ ـ مذكرة فى أصول الفقه من مطبوعات الجامعة الاسلامية للشيخ محمد الأمين الشنقيطى

٧٦ ـ الضياء اللامع شرح جمع الجوامع لابن حلولو القيروانى

٧٧ ـ نشر البنود : شرح مراقى السعود للسيد عبد الله الشنقيطى

٧٨ ـ روضة الناظر لابن قدامه

٧٩ ـ شرح مراقى السعود فى أصول الفقه مخطوط للشيخ محمد الأمين الشنقيطى

٨٠ ـ غاية الوصول شرح لب الأصول زكريا الأنصارى

٨١ ـ شرح تنقيح الفصول على المحلى

---

٨٣ ـ تاج العروس لابن منظور

٨٤ ـ القاموس المحيط مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادى

٨٥ ـ التهذيب للأزهرى

٨٦ ـ المفردات للراغب

٨٧ ـ محيط المحيط تأليف المعلم بطرس البستانى

---

٨٨ ـ منهج السالك الى ألفية ابن مالك للاشمونى

٨٩ ـ شرح ابن عقيل — على ألفية ابن مالك

٩٠ ـ حاشية الخضري — على ابن عقيل

---

٩١ ـ الحاوى للفتاوى فى الفقه وعلوم التفسير والحديث والاصول والنحو والاعراب وسائر الفنون — لجلال الدين عبد الرحمن أبى بكر بن محمد السيوطى

٩٢ ـ مختصر خليل بن اسحاق — فى الفقه المالكى

٩٣ ـ مواهب الجليل — على شرح مختصر خليل تأليف امام المالكية فى عصره أبى عبد الله محمد بن محمد بن عبد الرحمن المغربى المعروف بالحطاب .

******

فهـــرس

محـتويات الرسالـــــة

الموضـــــــــــــــــوع	الصفحة
شـكر وتقدير	
المقدمـــــة	١
الباب الأول	١٢
تمهيـــــد	١٢
الفصل الأول	١٥
تعريف الدعوة لغة	١٦
تعريفها في الاصطلاح	١٨
التعريف المختار عندي	١٩
الأمر بالدعوة	٢٠
الأمر للنبي صلى الله عليه وسلم أمر لأمته الا اذا وجدت قرينة تدل على خصوصيته بذلك المأمور به	٠٠
الآيات التي ورد فيها الأمر بالدعوة	٢١
تفسير الآيات التي فيها الأمر بالدعوة	٢٢
الصحيح أن آية فصلت : (ومن أحسن قولا ممن دعا الى الله وعمل صلحا وقال انني من المسلمين) عامة في كل من دعا الى الله بخير سواء كان من المؤمنين أو غيرهم .	٢٣
ما يستخلص من الآيات الدالة على الأمر بالدعوة	٢٥

الموضـــــــــــــــــــــــوع	الصفحـــة
حكم الدعوة الى الله تعالى	٢٦
سبب اختلاف العلماء في الدعوة الى الله هل هي فرض عين أو فرض كفاية .	٢٧
الجمع بين القولين في ذلك	٣٢
الدعوة في حقه صلى الله عليه وسلم	٣٥
الدعوة الى الله قديمة قدم الاديان باقية الى يوم الدين	٤٠
أهمية الدعوة وشدة الحاجة اليها قديما وحديثا	٤٣
نبذة عن أحوال العالم قبل دعوة الاسلام	٤٦
دفع شبهة حول لزوم الدعوة الى الله في حاضرنا الآن	٥٤
الفرق بين دعوة الاسلام والدعوة الى الاسلام	٥٠
أهداف الدعوة الى الله	٥٧
أهداف الدعوة في سورة ابراهيم	٦١
الفصل الثاني في عموم الدعوة الاسلامية وينقسم الى قسمين	
القسم الأول من هذا الفصل في خصوص الدعوات قبل دعوة الاسلام	
والثاني في عموم دعوة الاسلام	٦٤
معنى العموم والخصوص	٦٥

الموضـــــــــــــــــوع	الصفحـة
اختلاف العلماء فى المراد بالآيات فى قوله : (ولقد أرسلنا موسى بآيتنا أن أخرج قومك ....) هل هى البراهين القطعية على صدق موسى أوهى المذكورة فى قوله : (ولقد آتينا موسى تســـع آيـت بينت ...)	٦٧
استدلال العلماء على خصوصية رسالة موسى من القرآن	٦٨
الاختلاف فى المراد بقوم موسى	٠٠
ما ظهر لنا فى ذلك	٦٩
الأدلة من السنة على خصوص الدعوات قبل دعوة الاسلام	٧٢
نصوص القرآن تدل على خصوصية الرسالات قبل رسالة الاسلام	٧٣
بيان أن الرسل المذكورين فى سورة يس من قبل الله لا من قبل عيسى عليه السلام	٧٦
فان قيل قد قررتم أن دعوة الأنبياء غير محمد صلى الله عليه وسلم خاصة : ونوح من جملتهم الخ والجواب عن ذلك الاشكال	٧٧
الأدلة على خصوصية رسالة موسى وعيسى من المعجزين	٨١
اختلاف العلماء فى المراد بأيام الله فى قوله تعالى : (وذكرهم بأيـم اللـه ....)	٨٣

الموضـــــــــــــــــوع	الصفحة
الدعوة فى الآيات من ٥ - ٨ من سورة ابراهيم	٩١
القسم الثانى من الفصل الثانى : عموم دعوة الاسلام	٩٣
المعنى الاجمالى للآيات الثلاث الأول من سورة ابراهيم	٩٠
مايستخلص من معنى الآيات الثلاث	٩٤
معنى الآيات بالتفصيل	٩٥
المبحث الأول من هذا القسم فى تعريف القرآن لغة واصطلاحا	١٠٠
محترزات التعريف الاصطلاحى	١٠٢
المبحث الثانى : القرآن هو المعجزة العظمى لرسول الله صلى الله عليه وسلم	١٠٤
المبحث الثالث فى الأدلة على اعجاز القرآن	١٠٥
المبحث الرابع فى اثبات نص القرآن وحفظه من التغيير والتبديل	١٠٩
المبحث الخامس : فى الكلام على أن القرآن كلام الله	١١٢
المبحث السادس فى وجه الاعجاز فى القرآن الكريم	١١٣
الوجه المختار عندى من ذلك هو ماذكره الزركشى فى البرهان	١١٧
المبحث السابع : فى القدر المعجز من القرآن	١١٩

الموضـــــــــــــــــــــوع	الصفحـة
المبحث الثامن : من تحريف المعهدين وتبديلهما وتناقضهما	١٢١
القرآن يثبت تحريف مصادر أهل الكتاب	٠ ٠
التناقضات في المعهدين	١٢٥
المبحث التاسع : في دلالة القرآن والسنة والاجماع على ثبوت رسالة محمد صلى الله عليه وسلم	١٣١
ثبوتها بالسنة المطهرة	١٣٢
المبحث العاشر في الكلام على عمومها بعد ثبوتها	١٣٤
الآيات الدالة على عموم دعوة الاسلام	٠ ٠
بحث لغوي في اعراب (كافة وفيه الرد على الزمخشري وجمهور النحاة لكثره السماع خلاف ماقرروا	١٤٠
السنة تثبت عموم رسالة محمد صلى الله عليه وسلم	١٤٨
الاجماع على عموم رسالته صلى الله عليه وسلم ومعنى الاجماع لغة واصطلاحا	١٥٠
المبحث الحادي عشر في شمول رسالته صلى الله عليه وسلم للجن	١٥٢
القرآن يثبت شمول دعوة الاسلام للجن	١٥٣
السنة تدل على ارساله صلى الله عليه وسلم للجن	١٥٥

الموضـــــــــــــــــــوع	الصفحة
الجمع بين أحاديث ابن عباس التى تثبت فيها أنه صلى الله عليه وسلم ما رأى الجن ولا قرأ عليهم القرآن ، وبين أحاديث عبد الله ابن مسعود التى ثبت فيها أنه أتاه داعى الجن وذهب معه وقرأ عليهم القرآن .	١٥٧
الجمع بين أحاديث عبد الله بن مسعود حيث ثبت فى الصحيح عنه أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يصحبه منهم أحد ليلة الجن ، ووردت أحاديث أخرى فى غير الصحيح تدل على أن ابن مسعود كان معه صلى الله عليه وسلم تلك الليلة	١٥٨
هل أرسل الله من الجن رسلا ؟	١٦٠
ظواهر القرآن تدل على أن الله أرسل من الجن رسلا	١٦١
مايؤيد ذلك من كلام ابن جرير الطبرى	١٦٦
هل مؤمنوا الجن يدخلون الجنة أولا ؟	١٦٧
حجة من قال بأنهم لا يدخلون الجنة	. .
حجة من قال انهم يدخلون الجنة	١٦٨
انكار الفلاسفة وجود الجن والملائكة	١٧٠
كلام الأستاذ محمد عبده فى قضية الملائكة والشياطين	١٧١

الموضـــــــــــــــــــوع	الصفحـة
المبحث الثانى عشر : هل رسالته صلى الله عليه وسلم تشمل الملائكة أولا ؟	١٧٥
حجة من قال بدخولهم	٠٠
أدلة المانعين لدخول الملائكة فى عموم رسالة محمد صلى الله عليه وسلم	١٧٩
ماترجح عندى فى شأن شمول رسالته صلى الله عليه وسلم للملائكة	١٨٢
المبحث الثالث عشر فى شمول دعوة الاسلام يأجوج وماجوج	١٨٥
الادلة على أنهم من ذرية آدم	٠٠
الادلة على وجودهم الآن	١٨٦
الدليل على وجودهم زمنه صلى الله عليه وسلم	١٨٧
هل الدعوة الاسلامية بلغت يأجوج وماجوم أولا ؟	١٩٠
ماظهر لى فى بلوغ دعوة الاسلام يأجوج ومأجوج	١٩٥
المبحث الرابع عشر فى شهادة غير المسلمين بعموم دعوة الاسلام	١٩٧
تطبيقه صلى الله عليه وسلم لعالمية رسالته بالغزو بعد ارساله الكتب خارج الجزيرة	٢٠١
نبذة عن غزوة موتة	٢٠٢
نبذة عن غزوة تبوك	٢٠٣

الموضـــــــــــــــــــــوع	الصفحة
سبب هاتين الغزوتين	٢٠٥
المبحث الخامس عشر فى تطبيق المسلمين لعالمية دعوة الاسلام	٢٠٧
الواقع يشهد بعموم رسالته صلى الله عليه وسلم	٢١٨
مرونة الشريعة الاسلامية دليل على عموم دعوة الاسلام	٢٢٢
المبحث السادس عشر فى أمثلة حيوية من التشريع الاسلامى	٢٢٥
المبحث السابع عشر فى حكم من لم تبلغه دعوة الاسلام من هذه الأمة	٢٢٩
كلام للشيخ محمد الغزالى حول من لم تبلغهم الدعوة واختلاف وجهة نظرى معه فى تحديد من لم تبلغهم الدعوة	٢٣٠
الفصل الثالث : فى رد بعض الشبه الواردة حول عموم دعوة الاسلام	٢٤١
الشبهة الأولى	٠ ٠
الرد على الشبهة الأولى	٢٤٢
الشبهة الثانية	٢٥٢
الرد على الشبهة الثانية	٢٥٤
الرد على مافى الكشاف من أن الفترة بين عيسى ومحمد صلى الله عليه وسلم خمسمائة وخمسون سنة بمافى صحيح البخارى عن سلمان موقوفا أنها ست مائة سنة	٢٦٢

الموضـــــــــــــــــــــــوع	الصفحة
الباب الثانى : دعوة نوح ، وهـود ، وصالح ، وموسى عليهم الصلاة والتسليم	٢٧٣
من المخاطب ، ومن المخاطب بقوله تعالى : (ألم يأتكم نبؤا الذين من قبلكم قوم نـوح وعـاد وثمـود ....)	٢٧٤
موقف الكفار من سماع دعوة الرسل	٢٧٧
الفصل الأول	٢٧٩
التعريف بنوح عليه السلام	٠ ٠
منهج نوح فى دعوته	٢٨٠
السبب فى كون نوح أول رسول الى أهل الأرض	٢٨٢
التنبيه على غلط الحافظ ابن كثير فى عزوه حديث (كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الاسلام) للبخارى فى صحيحه فقد عزاه له فى كتابه قصص الانبياء جـ ١ ص ٧٤ وعزاه له فى كتابه البداية والنهاية جـ ١ ص ١٠١ مع أن الحديث رواه الحاكم فى مستدركه وقال انه على شرط البخارى ولم يخرجاه وقد عزاه له ابن كثير نفسه عند تفسير آية (كان الناس امة واحدة ...) ولم يعزه للبخارى وقد بحثت عنه فى البخارى ولم أجده وذكره السيوطى فى الاتقان وعزاه للحاكم	٢٨٣

الموضـــــــــــــــــــــوع	الصفحة
منهج نوح فى الصبر على الدعوة	٢٨٥
منهجه فى التوكل على ربه	٢٨٨
منهجه فى أدبه مع قومه وتلطفه فى دعوته	٢٨٩
أسلوب نوح عليه السلام فى دعوته	٢٩٣
أسلوب الترغيب	٢٩٤
أسلوب الترهيب	٢٩٦
لفته أنظار قومه الى عجائب صنع الله	٢٩٧
أسلوب القسوة	٢٩٨
معجزة نوح عليه السلام	٢٩٩
بحث لغوى فى اعراب (فأجمعوا أمركم وشركاءكم)	٣٠٢
الفصل الثانى من الباب الثانى هود عليه السلام	٣٠٤
التعريف بهود عليه السلام	. .
منهجه فى دعوته	. .
أسلوبه فى دعوته	٣١٠
معجزة هود عليه السلام	٣١٦
الفصل الثالث : صالح عليه السلام	٣١٩
التعريف بصالح	. .
منهجه فى دعوته	٣٢٠
أسلوب صالح عليه السلام فى دعوته	٣٢٣
الفصل الرابع : موسى عليه السلام	٣٢٦
التعريف بموسى	. .

الموضـــــــــــــــوع	الصفحة
منهجه فى دعوته	. .
منهجه فى الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة	٣٣٣
صبره وتوكله على ربه	٣٣٤
أسلوبه فى دعوتـــه	٣٣٦
أسلوب الحوار	. .
أسلوب الانكـــار	٣٤٠
معجزات موسى عليه السلام	٣٤٤
اختلاف العلماء فى تعيين الآيات التى أوتيها موسى	. .
الفرق بين الآيات التسع وكلمات موسى العشر	٣٤٨
الدعوة فى الآيـــة	٣٥٠
الباب الثالث : حوار الرسل وأممهم	٣٥١
الفصل الأول فى اثبات وجود الله تعالى أخذا من قوله (قالت رسلهم أفى الله شك)	٣٥٢
دلالة الآية على توحيد الألوهية والربوبية	٣٥٦
توضيح توحيد الالوهية والربوبية	٣٥٧
الكلام على توحيد الأسماء والصفات	. .
كلام أبى الحسن الأشعرى حول توحيد الأسماء والصفات	٣٦٠

الموضـــــــــــــــــوع	الصفحة
عقيدة المسلمين اجمالا	٣٦٢
معنى العصمة	٣٦٤
تعريف الملائكة لغة	٣٦٥
عقيدة اهل الكتاب	٣٧٠
الاله عند اليهود يلد ويندم	٠ ٠
من معتقداتهم فى الرسل	٣٧١
الانبياء فى العهد القديم يشربون الخمر ويسكرون	٠ ٠
الانبياء عند اليهود يسكرون ويزنون ببناتهم	٣٧٢
الانبياء عند اليهود يعبدون الاصنام تبعا لرغبة نسائهم	٣٧٤
الانبياء عند اليهود يتزوجون أخواتهم من النسب الجواب عما كان يفعله أبناء آدم من تزوج الاخ بأخته غير شقيقته	٣٧٥
الانبياء عند اليهود يسجدون للمخلوق	٣٧٦
من معتقدات اليهود فى الملائكة	٠ ٠
الملائكة عند اليهود يأكلون كالبشر	٠ ٠
من معتقدات النصارى فى الاله	٣٧٧
العهد الجديد يثبت أن عيسى يقول ان النصارى أبناء الله	٠ ٠
العهد الجديد يقرر أن سليمان عليه السلام ومن بعده من ذريته بما فى ذلك عيسى عليه السلام أولاد زنا	٣٧٨

الموضـــــــــــــــــــــوع	الصفحة
الفصل الثانى : من الباب الثالث	٣٧٩
فى اثبات بشرية الرسل	
لماذا كان الرسل من جنس المرسل اليهم ؟	٠ ٠
الآيات التى استنكرت فيها الامم كـــون الرسل من البشر	٣٨٠
دور الكفار من الحوار	٣٨٢
جواب الرسل للمكذبين	٣٨٣
دور الكفار من الحوار أيضا	٣٨٥
الجواب عن الاشكال الذى أورده المفسرون حول قوله تعالى : (وقال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن فى ملتنا ٠٠٠) والراجح عندى من ذلك	
وذكر الألفاظ التى تستعمل بمعنى صار	٣٨٦
الفصل الثالث من الباب الثالث : الربط بين رسالات السماء ومصير المكذبين	٣٩٠
رسالات السماء	٣٩١
الربط بين مصير الامم	٣٩٢

الموضـــــــــــــــــوع	الصفحة
اختلاف العلماء فى مرجع الضمير فى قوله تعالى : واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد هل هو راجع الى الرسل أو الى الأمم	٣٩٦
مصير المؤمنين المصدقين لدعاة الحق	٤٠٦
الكلام على سوء ال القبر	٤١٠
الاستدلا ل على وجود الصانع بالصنعة هدف من أهداف الدعوة	٤١٤
الدعوة فى الآيات من ١٠ - ٣٤	٤١٧
الباب الرابع : دعوة ابراهيم وفيه مباحث	٤٢٢
التعريف بابراهيم	٠ ٠
تفسير الآية التى ذكر فيها ابراهيم (واذ قال ابراهيم رب اجعل هذا البلد آمنا ....)	
المبحث الأول فى تدرج ابراهيم فى الدعوة والتلطف فيها	٤٢٥
اختلاف المفسرين حول آيات الانعام فى شأن ابراهيم (وكذلك نرى ابراهيم ملكوت السموات والارض وليكون من الموقنين ، فلما جن عليه الليل رأى كوكبا . . الآيات	
هل هذا مقام نظر أو مقام مناظرة وبيان كونه مقام مناظرة	٤٣١
المبحث الثانى فى مناظرته للنمرود وقوته فى المحاجة	٤٣٦
المبحث الثالث فى ابتلاآته عليه السلام	٤٣٨

الموضـــــــــــــــــوع	الصفحة
ابتلاوه بالامر بذبح ولده	٤٤١
ابتلاوه بالالقاء فى النار	٤٤٤
ابتلاوه ببناء البيت الحرام	٤٤٧
المبحث الرابع فى هجرته عليه السلام	٤٤٩
بعض الشبه التى أوردت حول نبى الله ابراهيم	٤٥٤
الشبهة الاولى وبيان أنها لم تكن حول ابراهيم وانما هى طعن فى رسالة محمد صلى الله عليه وسلم وفى القرآن وفى رسالة اسماعيل عليه السلام الى العرب	
الرد على الشبهة المذكورة	٤٥٧
الشبهة الثانية	٤٦١
الرد على الشبهة الثانية	٤٦٣
ظن بعض الناس أن انكار طه حسين لوجود ابراهيم واسماعيل طعن فى ابراهيم فأورده شبهة حول ابراهيم وانما ذلك طعن فى القرآن وتكذيب له	٤٦٨

الموضـــــــــــــوع	الصفحة
كلام طه حسين المذكور : من كتابه (فى الشعر الجاهلى)	٠ ٠
الدعوة فى الآيات من ٣٥ - ٤١ من سورة ابراهيم	٤٧٠
تفسير بقية السورة	٤٧٤
اختلاف العلماء فى تبديل الأرض والسماوات يوم القيامة هل هو تبديل صفات أو تبديل ذوات ؟	٤٧٩
الخاتمـــــة	٤٨٦
المراجـــــع	٤٩١
الفهـــــرس	٤٩٧